# فى العقيدة الإسلامية
# النبوات والسمعيات

تأليف

د. شوقى إبراهيم على عبد الله
الأستاذ المساعد بجامعتى الأزهر الشريف والكويت



الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م


دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

إن الحمد لله عز وجل نستغفره ونتوب إليه من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم فاللهم علمنا ماينفعنا وبرفعنا وأنفعنا بما علمتنا إنك على ماتشاء قدير ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين داعياً إلى ربه على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سلك منهجهم إلى يوم الدين .

وبعـــد :

فهذه دراسة هادئة فى العقيدة الإسلامية تميط اللثام عن مسائل فى علم العقيدة وتجلو من فصوله ماعنى بالخوض فيه العلماء وقد سلكت فى عرض موضوعات هذا الكتاب الأسلوب السهل الميسر وحاولت جهدى أن تكون أدلته من الكتاب والسنة أولا : مؤيدة براهينه بالقياس العقلى ثانيا : فى أســلوب واضح يسهل تناوله فى يسر ورفق وهى تلقى الضوء على الوحى وإمكانه مع توضيح الحاجة الداعية إلى إرسال الرسل المؤيدين بالمعجزات وإبراز الفرق بين تلك المعجزات وبين مايكشفه العلم على أيدى الباحثين من علمائه من أسرار الكون وخفاياه وعدم غض النظر عن السمعيات التى تحدثت عنها الكتب السماوية كحياة البرزخ والبعث والحشر وما بعده وعنى بها القرآن عناية تامة ولما كان من العقائد التى يجب بها الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب

ولما كان نظر الإنسان قد لايعدو هذه الحياة وما فيها من متاع فينسى اليوم الآخر ولايعمل له جعل الله بين يدى الساعة أمارات تدل على تحققها وأنها ستقع حتما حتى لا يخامر الناس أدنى شك فيها ولايفتنهم شيء عنها .

فمن المعلوم أن الصادق المصدوق ﷺ إذا ذكر من أشراطها شيئا ورأى الناس وقوع ذلك الشيء علموا يقينيا أن الساعة آتية لا ريب فيها فيعملوا لها ويستعدوا لذلك اليوم ويتزودوا بالصالحات قبل فوات الأوان وانقضاء الأجل المحدود (أن تقول نفس ياحسرتى على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين[1]

وقد ظهر كثير من أشراط الساعة وتحقق ما أخبر المصطفى ﷺ فكل يوم يزداد فيه المؤمنين إيمانا به إذ يظهر من دلائل نبوته مايوجب على المسلمين التمسك بهذا الدين .

وكيف لايزدادون إيمانا وهم يرون هذه المغيبات التى أخبر بها رسول الله ﷺ تقع كما أخبر .

فإن كل واحدة من هذه الأشراط التى تحدث لمعجزة بينة لنبى هذه الأمة ﷺ .

وتأتى أهمية هذا البحث فى هذا الوقت الذى أخذ فيه بعض الكتاب المعاصرين يشكك فى ظهور ما أخبر به ﷺ من المغيبات التى يجب الإيمان بها فمنهم من أنكر بعضها ومنهم من أولها بتأويلات باطلة لهذا وذلك اشتمل البحث على أشراط الساعة الصغرى والكبرى بأدلتها الثابتة من القرآن والسنة المطهرة .

---

(١) سورة الزمر ٥٦ — ٥٨

وكذلك فان هذا البحث دعوة للإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر وتصديق لما أخبر به الصادق المصدوق الذى لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

ودعوة للتأهب لما بعد الموت فإن الساعة قد قربت وظهر كثير من أشراطها وإذا ظهرت الأشراط الكبرى تتابعت كتتابع الخرز فى النظام إذا انفرط عقده .

وإذا طلعت الشمس عن مغربها قفل باب التوبة وختم الأعمال فلا ينفع بعد ذلك إيمان ولا توبة إلا من كان قبل ذلك مؤمنا أو تائباً ( يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا)(١) .

نسأل الله أن يجعلنا من الآمنين يوم الفزع الأكبر وممن يظلهم فى ظله يوم لاظل إلا ظله .

ولا أبرىء نفسى من الزلل ورجائى ممن يجد فيه خطأ أن ينبهنى عليه مشكوراً والله أسأل أن يوفقنا أن نضع مرضاتة وعظيم ثوابه نصب أعيننا دائماً وأبداً فى كل مانفعله ونقوله وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وهو مولانا فنعم النصير .

الكويت — الأحد فى يوم عرفة سنة ١٤١٠هـ الموافق ٢ يوليو ١٩٩٠

دكتور
شوقى إبراهيم على عبد الله
الأستاذ المساعد بجامعتى الأزهر والكويت

---

(١) الأنعام ١٥٨

# الباب الأول

## الفصل الأول

### الوحي

الوحي هو الركن الأساسي في النبوات [1] ـ وهو الصلة التي تربط الأرض بالسماء وعن طريقه يعرف النبي أنه نبي .

والوحي لغة : الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك ؛ يقال وحى إليه الكلام يحيه وحياً ـ وأوحى وهو يكلمه بكلام يخفيه و (وحى) و(أوحى) أي كتب وأوحى أشار [2] ومنه قول الله تعالى « فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » [3] .

والوحي يأتي بمعنى أعم من الذي يختص به الأنبياء فقد يأتي الوحي ويكون بمعنى الأمر . كما في قوله تعالى « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي » [4] . وقد يأتي ويكون معناه الإلهام والتسخير كما في قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون » [5] .

وقد يطلق الوحي ويراد به الموحى به فيكون معناه كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه قال تعالى : « إن هو إلا وحي يوحى » [6] .

---

(١) أبو الغيط الفرت العقيدة الإسلامية .

(٢) مختار الصحاح الواو مع الحاء .

(٣) سورة مريم آية ١١ . (٤) سورة المائدة آية ١١١ .

(٥) سورة النحل ٦٨ . (٦) سورة النجم آية ٤ .

الفرق بين الوحى والإلهام الذى هو لغير الأنبياء أن الوحى مصحوب باليقين لأن مصدره هو الله تعالى أما الإلهام فهو حالة وجدانية تحدث فى النفس من غير شعور بمصدره كالهم والحزن والسرور والجوع والعطش. فمصدره غير معروف .

أما الوحى بمعناه الشرعى فله اعتبارات ثلاثة :

١ — باعتبار معناه المصدرى فيكون الوحى هو التعليم السرى الصادر من الله تعالى إلى أنبيائه .

٢ — وباعتبار الحاصل فهو عرفان يجده الشخص من نفسه مع التأكد بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة .

٣ — وباعتبار الموحى به فيكون هو كلام الله المنزل .

وبناء على ما سبق يكون الوحى إعلام فى إخفاء يطلق ويراد به الموحى . وقد عرفوه شرعا أنه إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه .

وقد عرفه الإمام محمد عبده بأنه : « عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة والأول بصوت يتمثل لسمعه [1] .

وهذا التعريف للوحى من الإمام محمد عبده يتمثل فيه كل طرق الوحى .

## أنواع الوحى :

الوحى الذى تشرق به المعرفة على قلوب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنواع ومراتب :

---

(١) الإمام محمد عبده رسالة التوحيد ص ١١٩ ط دار المعارف بمصر

أولا : الرؤيا المنامية — يبدأ الوحى بالرؤيا الصادقة — فإن رؤيا الأنبياء حق وصدق وليست من قبيل ما يحدث لسائر البشر من أضغاث الأحلام نتيجة لرغبات مكبوتة — إذ الأنبياء بما وصلوا إليه من الكمال البشرى تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم .

وقد حدث لنبينا عليه الصلاة والسلام فى بداية الوحى الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح »[1] .

ومنه رؤيا رسول الله ﷺ وأصحابه داخلون المسجد الحرام وسجل القرآن الكريم هذه الحقيقة فقال تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون »[2] .

ومنه أيضاً رؤيا سيدنا إبراهيم فى المنام أن يذبح ابنه إسماعيل واعتبار سيدنا إسماعيل أن رؤيا أباه حق بمثابة الأمر الإلهى واجب تنفيذه . ولما شرع فى التنفيذ أكرمه الله تعالى ففداه بذبح عظيم . قال تعالى : «فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ما ذا ترى . قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت

---

(١) رواه البخارى فى باب كيف بدأ الوحى .
(٢) سورة الفتح آية ١٧ .

الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم » (١) .

ثانياً : أن الوحى قد يكون عن طريق الإلهام وهو أن يلقى فى روع النبى وقلبه ما أراده الله من المعارف مع اعتقاد النبى بأن هذا من قبل الله تعالى وفى السنة النبوية أمثلة كثيرة لهذا الضرب من الإلهام . سواء صرح فيه بخبر هذه الوساطة كما قال عليه الصلاة والسلام « إن روح القدس نفث فى روعى . أحبب من أحببت فإنك مفارق وعش ماشئت فإنك ميت واعمل ماشئت فإنك مجزى به » (٢) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « هذا رسول رب العالمين جبريل نفث فى روعى أنه لاتموت نفس حتى تستكمل رزقها وإن أبطأ عنها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » (٣) .

أو طوى ذكر الملك وأرسل الحديث إرسالا كما فى سنن أخرى .

ثالثاً : كلام الله تعالى لنبى من أنبيائه .

وهذا النوع من الوحى إما أن يكون بواسطة أو بغير واسطة فإن كان بغير واسطة . بأن يكون كلام الله لنبيه مباشرة كما حدث مع سيدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج . وكما تم لموسى عليه السلام فوق طور سيناء قال تعالى : « إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى » (٤) .

---

(١) الآيات من ١٠١ إلى ١٠٧ من سورة الصافات
(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط والأصغر
(٣) رواه البخارى فى صحيحه
(٤) سورة طه آية ١٢

بيد أنا نقول إن كلام الله بغير صوت ولاحرف على النحو الذى نألفه بين المتخاطبين من تكاشف ومشافهة فإننــا لا نستطيع أن ندرك كنهه ولا الوقوف على مداه لأننا هنا أمام متعلقات القدرة الإلهية التى لاتحدها حدود فالذى أصعد محمداً عليه الصلاة والسلام من الأرض إلى السماء بما يعجز العقل عن إدراكه قادر على أن يسمعه سماعاً خاصاً لأن قدرة الله لا متناهية .

الثانى : وهو أن يكلم الله النبى بواسطة الملك وذلك له أحوال فتارة يرى النبى الملك على صورته الأصلية وحقيقته التى خلقه الله عليها ويتعلم منه مباشرة ما جاء عن الله تعالى وذلك كما حدث للنبى ﷺ وهو فى غار حراء فى أول لقاء جبريل به عندما أخبره بأنه نبى ، وقال له : اقرأ باسم ربك الذى خلق[١].

وتارة يراه متمثلا بصورة رجـــل كما كان جبريل يأتى النبى ﷺ فى صورة دحيه الكلبى أو فى صورة رجل أعرابى كما فى حديث الإيمـان والإسلام .

وتارة لا يرى الملك لا فى صورته الأصلية ولا فى صورة رجل آخر وإنما يسمعه منه ويعيه قلبه كما يسمع وقع أقـــدام أو دوياً عند وجهه كدوى النحل وقد كان الصحابة الذين حول الرسول يدركون الرسول فى هذه الحالة فيعلمون أنه يوحى إليه وبهذا النوع كان ينزل القرآن على النبى ﷺ .

قال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين »[٢] .

---

(١) سورة العلق آية ١
(٢) سورة الشعراء آية ١٩٣ — ١٩٥

## إمكان الوحى :

إن التصديق بمبدأ الوحى ليس مما يتعاظم على العقول إدراكه فادمنا قد اعترفنا بأن الله موجود وأن وجوده حق لا ريب فيه وأنه جل شأنه يصطفى من عباده من يبلغ مراده ومن يتعهد الأمم الضالة ويخرجها من الظلمات إلى النور .

ولذا فإن العقلاء يجمعون على إمـــكان الوحى — وأنه قد حدث فعلا .

أما عن إمكانه : فإن البديهية تشهد بأن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها فوق بعض فما يدركه الأعلى يقصر عنه الأدنى والنفوس ليست على درجة واحدة من الصفاء والنقاء بل بعضها أنقى من بعض وليس ذلك التفاوت العقول فى أصل التعليم والتهذيب فحسب بل فى أصل الفطرة التى جبل عليها الإنسان ، فإن من النظريات ما يكون عند بعض الناس غامضة فى حين أنها بديهية عند غيرهم .

فإذا كان هذا الصنف من الناس موجودون فى كل عصر وأن العقول هبة من الله تعالى تتفاوت فى الإدراك ولا مدخل للإنسان فيه بكسبه واختياره إلا بما يكتسبه من معارف بقدر قوته العقلية فلا مانع عقلا ، بل أنه من الممكن عقلا أن تكون هناك نفوس بشرية خصها الله بكمالات تهيؤها لعلم حقائق الأشياء وإدراكها ويكون لهـــا من الصفاء والنقاء ما يمكنها من الاتصال بالملأ الأعلى وتكون لديها من القوة ما تستطيع أن ترى الملك فى صورته الحقيقية أو تسمع صوته وتفهم ما يوحى به وتشهد من أمر الله ما تعجز عنها من هو دونهـــا فى القوة والتعقل والبرهان ثم تبلغ ما تلقته إلى الناس وهذا هو الركن الأول فى إمكان الوحى .

أما الركن الثانى : وهو وجود الملك الذى يقوم بتبليغ من صفت نفسه واصطفاه الله للقيام بأعباء النبوة .

ووجود الملك ليس أمراً مستحيلا بل هو ممكن عقلا فقد عرفنا من أنفسنا وأرشدنا إليه العلم قديماً وحديثاً بأن من المواد ما بعضها ألطف من بعض ، فبعض المواد ندرك آثارها ولا ندرك حقيقتها كالكهرباء مثلا والجاذبية — فهذه لا تدرك بالحس وقد أثبت العلم بأن ما يدرك بالحس لا يجاوز عشر ما ليس بمحسوس فإذا كان هذا فى المادة لا يمنع العقل وجود ما ليس بمحسوس وهو واقع فعلا .

فما المانع من أن تكون لدى الأنبياء قدرة على الاتصال بهذا الملك ورؤيته بحسب استعداداتهم النفسية ، لا سيما وقد أثبت القرآن الكريم وجود الملائكة التى هى أجسام روحانية . فقال تعالى : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر »[1] .

وقال تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة أنى جاعل فى الأرض خليفة »[2] .

وقد أخبر الله عن الطريقة التى ينزل بها الوحى .

فقال تعالى : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمؤمنين »[3] .

ومادام قد توافر الركنان وهما وجود النفس الطاهرة الزكية والتى بها من القوة أن ترى مالا يراه الناظرون .

---

(١) سوره القدر آية ٤ (٢) سورة البقرة آية ٣٠
(٣) سورة النحل آية ١٠٤

ووجود الملك وهو نوع من مخلوقات الله سبحانه يكون واسطة فى تبليغ وحى الله إلى أنبيائه فإمكان الوحى ليس بممتنع .

أما كون الوحى واقع فعلا .

فدليل ذلك يتحقق بأمور ثلاثة :

١ — المعجزة الخارقة التى يظهرها الله على يد مدعى النبوة وهذه المعجزة دليل لمن حضر زمن النبى وعاصره وشهد وقوع المعجزة ، وظهورها على يديه فإن ذلك يفيد اليقين وبأنه صادق فى دعواه الرسالة وأن الوحى ينزل عليه .

٢ — الخبر المتواتر بوقوع الوحى بالنسبة لمن هو غائب عن عصر النبى ؛ والمتواترات أحد أقسام الضروريات والخبر المتواتر رواية خبر عن مشهود من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب وآياته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه كالاخبار بوجود مكة وأن عاصمة الصين بكين وسبب استحالة تواطؤهم على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من عوارض تضعف الثقة به . ومرجع كل ذلك إلى العدد وبعد الراوى عن مضمون التشيع[1]

٣ — خبر المعصوم — ﷺ — بذلك الوقوع بمعنى إخباره بأمور لا يطلع عليها ولا يعرفها إلا الله وأنها جاءت إلى النبى — ﷺ — عن طريق الوحى .

فقد أخبر النبى أن الله بعث أنبياء ورسلا وأظهر على أيديهم المعجزات الخارقة فهذا يفيد اليقين بوقوع الوحى لهؤلاء الأنبياء ولأن خبر النبى يأتيه عن طريق الوحى وهو — ﷺ — « ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى » .

---

(١) رسالة التوحيد — الشيخ الإمام محمد عبده ص ١١٧

## الفصل الثاني

# النبوة والرسالة

حاجة البشرية إلى الرسالة :

يعرف الإنسان أحياناً بأنه كائن اجتماعي — فالإنسان لايعيش إلا في جماعة وقد زوده الخالق سبحانه بآلة النطق حتى يتمكن من التفاهم والتعارف على بعضهم البعض وحاجتهم إلى بعضهم لاتقف عند حد معين بل تزداد وتتكاثر كلما كثرت مطالب الإنسان وتعددت حاجياته .

والناس بما هم ناس ينزعون إلى الخير والشر ، فهم مزيج من المادة والروح ولكل مطالبه ورغباته . ولا يستطيع الإنسان أن يدرك حقوقه وواجباته في الحياة إلا بالنبي فإذا سمى بعقله انتزعته رغبات المادة فتعتريه العواطف والرغبات والنزوات فيضطرب ميزانه ، لذلك كان لابد من قانون إلهي توضع عليه أعمال الأفراد وتوزن بميزانه . ومهما ارتقى الإنسان في مضمار التفكير المنظم فإنه لايستطيع إدراك عواقب الأمور .

والقوانين الوضعية تختلف باختلاف البشر أنفسهم وباختلاف البيئات والأحوال فلذا كان لابد من وجود قوة عليا مسيطرة فوق سلطة البشر وأن تكون القوانين التي يسير عليها البشر من سلطة عليا وذلك لايتم إلا عن طريق الرسالة .

فالرسالة روح العالم ونوره وحياته . فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور . والدنيا ملعونة كلها إلا ماطلعت عليه شمس الرسالة وكذلك العبد مالم تشرق في قلبه شمس الرسالة : فهو في ظلمة الأموات .

قال تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي

به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها »[١]

فالمؤمن كان فى ظلمات الجهل فأحياه الله بالرسالة أما الكافر فهو فى ظلمة الكفر والشرك فهو ميت وإن كان يحيا حياة بهيمية «والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم »[٢] .

فالله تعالى جعل الرسل وسائط بينه وبين خلقه ليبينوا لهم ما ينفعهم ومايضرهم وما يصلحهم فى معاشهم ومعادهم فأرشدوهم إلى توحيد الله وإثبات صفاته وإثبات القدرة على خلقه وذكر أيام تعالى فى أوليائه وأعدائه وهى القصص التى قصها على العباد والأمثال التى ضربها لهم وأرشدوهم إلى العلم بتفصيل الشرائع والأمر والنهى والإباحة وبيان مايحبه الله ومايكرهه[٣].

فالحاجة إلى الرسل والأنبياء من أهم حاجات البشر . فإذا كان العقل يستطيع الوصول إلى إدراك بعض حقائق الأشياء فقد يستغنى عن الرسول بالعقل — قد يطرأ هذا على أذهان المنكرين للرسالة .

يجيب الجوينى عن ذلك فيقول :

إذا أتى الرسول بما يوافق العقل فإن بعث الرسول توكيد لما يتوصل إليه العقل وأدلة متنوعة خير من دليل واحد فضلا عن أن العقل يأتى بالكليات أما التخصيص وتعيين الجزئيات فمن الرسول كالطبيب الذى ينص على دواء معين لشفاء المريض[٤]

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٢ (٢) سورة محمد آية ١٢

(٣) السفارينى لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية ص : ٢٦٠ ج ٢ .

(٤) أحمد محمد صبحى فى علم الكلام ص ٥٨٤ ط مؤسسة الثقافة الجامعية الأسكندرية .

كما أن العقل البشرى قد يدرك بطريق الإلهام أن حياة أخرى غير هذه الحياة ليست محل تكليف ولكنها محل جزاء لا يهتدى إلى تفاصيلها مما يجب الإيمان به من الجنة والنار والثواب والعقاب فلا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق الرسل .

يقول ابن تيمية : « الرسالة ضرورية فى صلاح العبد فى معاشه ومعاده فكما أنه لا صلاح فى آخرته إلا باتباع الرسالة . فكذلك لا صلاح له فى معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة . فالإنسان مضطر إلى الشرع فإنه يبين حركة يجلب بها ما ينفعه وحركة يدفع بها ما يضره»[1] .

كما أن بعثة الرسل لتنقطع أعذار المكلفين ولتتم عليهم الحجة فإذا ما استطاعت بعض العقول أن تدرك المعرفة فقد تضل الأخرى ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

ولئلا يقولوا « ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى »[2] .

وقد ذكر العلماء وجوهاً ثلاثة لقطع الحجة على المكلفين :

الأول : أن يقول الناس إن كان الله قد خلقنا لنعبده فقد كان يجب أن يبين لنا العبادة التى يريدها منا . ما هى . وكم هى . وكيف هى . فأصل الطاعة ما حكم العقل بوجوبها ولكن كيفيتها غير معلومة .

فبعث الله الرسل لقطع الأعذار فإذا ما بينوا الشرع أزيلت الأعذار .

الثانى : أن يقول الناس يا رب إنك ركبتنا تركيب سهو وغفلة

---

(١) السفارينى لوامع الأنوار البهية ص ٢٦١

(٢) سورة طه آية ١٣٤

وسلطت علينا الأهواء والرغبات فهل أرسلت إلينا من إذا سهونا أو غفلنا ينبهنا فإذا ما تركتنا وأنفسنا كان ذلك إغراء لنا على فعل القبيح ، فكانت الرسل لقطع الأعذار .

الثالث : : أن يقول الناس يارب هب إننا بعقولنا ندرك حسن الإيمان وقبح الكفر والعصيان ولكننا لاندرك أن حسن الإيمان جزاءه الجنة وقبح الكفر عقوبته النار كما أننا لا نعلم أن من آمن وعمل صالحا استحق الثواب الخالد فى الجنة ولا سيما وأنا نعلم أنه لا منفعة لك فى شىء[1] .

أما بعد البعثة فقد انقطعت هذه الأعذار فكانت البعثة قطعاً لعذر الناس من هذه الوجوه[2] .

يقول السعد التفتازانى : « فكانت مهمة الرسل بيان العقائد الإلهية للناس وتعريفهم بربهم وإصلاح حال الجماعة الإنسانية فى المعاش والمعاد »[3] .

فالحاجة إلى الرسالة ضرورية فى الماضى بالرسل وفى الحاضر باتباع القرآن الكريم ، قال تعالى : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم ومن بلغ » .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « والله لا يسمع بى من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا أدخله الله النار » .

فبقى القرآن حجة الله على خلقه وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فالبشرية فى حاجة إلى التعاليم النبوية الفاضلة لنبذ الوثنية الحاضرة متمثلة فى ديانات انحرفت وامتزجت بالوثنية أو وثنية خالصة .

---

(١) السفارينى لوامع الأنوار البهية ص ٢٥٩ جـ ٢

(٢) الفخر الرازى محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ٢١٤

(٣) شرح المقاصد ص ١٢٣ جـ ٢

يقول الأستاذ محمد قطب : نصف سكان العالم مايزالون وثنيين يعبدون الأصنام فى الهند والصين والقبائل المتفرقة فى أنحاء الأرض . وما يقرب من نصفهم يعبدون خرافة أخرى لا تقل إنحرافا بالناس عن الحق ولا إفساداً لضمائرهم ومشاعرهم وعلاقات بعضهم ببعض بل ربما كانت أكثر إنحرافا وأشد خطراً ، تلك الخرافة هى العلم[1] .

فستظل النبوة هى الموئل والمرجع لكل إنسان وفى كل عصر ، والإنسانية فى صراع دائم بين المذاهب والجماعات والأفراد والدول وتكثر المشاكل وتتعقد .

هنا تبرز الحاجة إلى النبوة وتعاليمها لتحقيق الأمن النفسى والراحة والطمأنينة ومقاومة الشر والطغيان من أجل مرضاة الخالق سبحانه .

ولما كنا قد بينا أنه لا غنى عن الرسالات الإلهية فلم يبق إلا أن نبين من هو النبى ومن هو الرسول وما هى الشروط الواجبة فى حقهم وما هى صفاتهم وشبه المتكبرين ودحض هذه الشبه وبيان الدليل على صدق الرسول والشبه المثارة ضد الدليل فنقول وبالله التوفيق :

---

(١) محمد قطب شبهات حول الإسلام ص ٤٩

# النبوة والرسالة

تفسر النبوة بأنها إخبار الله بعض عباده بتبليغ وحيه إلى خلقه ليعملوا بما شرعه الله لهم، ويوضحوا لهم ما قصرت عقولهم عن إدراكه. وقبل أن نتكلم عن النبوة والرسالة لا بد وأن نذهب إلى قواميس اللغة لنتعرف عن مشتقاتها اللغوية حتى يتضح لنا بعد ذلك المراد بها عند علماء الكلام.

أولا : النبوة لها اشتقاقات ثلاثة :

١ — إما أن تكون مشتقة من الأنباء بمعنى الإخبار فيكون النبي أصله النبيء بالهمزة — قلبت الهمزة واواً فتصير الكلمة النبيو — قلبت الواو ياء ثم أدغمت الياء فى الياء فصارت النبى — على زنة فعيل بمعنى مفعول. لأنه منبيء عن الله أى يخبره الله تعالى بما غاب عن سواه من البشر.

أو على فعيل بمعنى فاعل لأنه يخبر غيره بما أطلعه الله، عليه هذا إذا كان لفظة النبى مشتقة من الأنباء بالهمزة ولا يستعمل الهمزة فى النبى إلا أهل مكة ولا يستخدمونها فى غيرها. يقول سيبويه : «ليس أحد من العرب إلا ويقول تنبأ مسيلمة الكذاب والعرب تترك الهمزة فى النبي واستعمالها لغة رديئة لأن القياس يمنع ذلك ألا ترى إلى قول النبي ﷺ وقد قيل له يانبيء — على لغة أهل مكة — فقال النبى ﷺ : لا تنبأ باسمى ولكنى نبى الله وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام أنكر الهمزة والأجود تركها لما ورد فى الحديث عن البراء قلت ورسولك الذى أرسلت فرد على وقال ونبيك الذى أرسلت[1].

---

(١) لسان العرب لابن منظور فصل النون حرف الواو

٢ — وقد يأتي النبي غير مهموز فيكون مشتقاً من النبوة والنباوه . ومعناه العلو والارتفاع والنبي ما ارتفع من الأرض ومنه الحديث لا تصلوا على النبي أي على الأرض المرتفعة المحدودب ومتى أريد بهذا اللفظ علو المنزلة فلا يجوز إلا بالتشديد بلا همز وعلى هذا يحمل ما روى عن النبي ﷺ : « لا تنبزوا بأسمي » أي لا تهمزوه لأنه أراد علو المنزلة .

ولا يلزم أن يكون كل عالي المنزلة نبياً إلا أنه بالعرف صارت هذه اللفظة مختصة بمن علت منزلته لتحمل أعباء الرسالة والقيام بأدائها وذلك إذا كان من البشر ولذلك لا توصف الملائكة بأنهم أنبياء وإن كان فيهم رسل من قبل الله تعالى[1] .

٣ — قيل أنه مأخوذ من النبي الذي هو الطريق لأنهم الطرق الموصلة إلى الله تعالى[2] .

وعلى كل أياً كان اللفظ الذي اشتق منه لفظ النبي فان التعريف اللغوى شامل للنبي الرسول والنبي الذي ليس برسول — على رأي من يرى الفرق بينهما — لأن كليهما ينبيء عن الله تعالى وكليهما رفيع المنزلة والقدر وواسطة بين الله والناس .

يقول ابن الأثير إنما ورد ليختلف اللفظان ويجمع له الثناء بين النبوة والرسالة ويكون تعديه للنعمة في الحالتين وتعظيما للمنه على الوجهين والرسول أخص من النبي لأن كل رسول نبي ولا عكس[3] وعلى هذا يكون النبي مرتفعاً عن البشرية باختصاصه بالوحي وخطاب الله تعالى .

---

(١) الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد محمد بن الحسن الطوسي المتوفي ٤٦٠ هـ ص ٢٤٤

(٢) لوامع الأنوار البهية للسفاريني جـ١ ص ٤٩

(٣) لسان العرب لابن منظور جـ ١ ص ١٦٣

أما فى اصطلاح المتكلمين : فقد اختلف العلماء فى بيان الفرق بين النبي والرسول .

فجمهور أهل السنة : يقولون بأن النبي أعم من الرسول ، لأنه يشترط فى الرسول أن يكون صاحب كتاب وشريعة جديدة ويؤمر بتبليغ الشريعة بخلاف النبي .

فعلى هذا يكون النبي هو من اختصه الله بالوحى سواء أمر بتبليغه أم لم يؤمر . والرسول هو من اختصه الله بالوحى وأمر بالتبليغ . فبينهما عموم وخصوص مطلق فالنبي أعم .

أما إذا قلنا فى التعريف بأن النبي بشر أمر بالتبليغ أو لم يؤمر . والرسول ملك أو بشر أمر بالتبليغ فتكون العلاقة بينهما العموم والخصوص الوجهى يجتمعان فى بشر أمر بالتبليغ وينفرد الرسول فى ملك وينفرد النبي فى بشر لم يؤمر بالتبليغ .

وإلى هذا ذهب من يرى أن النبي غير الرسول ، وقد ذكروا فروقا بين النبي والرسول وأحسنها أن من أنبأه الله بخبر السماء إن أمره الله أن يبلغ غيره فهو نبى رسول وإن لم يؤمره أن يبلغ غيره فهو نبى وليس برسول — فالرسول أخص من النبي فكل رسول نبى وليس كل نبى رسولا ، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها فالنبوة جزء من الرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل فانهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم بـل الأمر بالعكس فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها[1] .

وقيل إن العلاقة بينهما التباين وهو التغاير فالنبي غير الرسول واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى القى الشيطان فى أمنيته[2] .

---

(١) شرح الطحاوية ص٨٢ (٢) سورة الحج آية ٥٢

فعطف النبي على الرسول يدل أنه غيره لأن العطف يقتضى المغايرة فدل أنهما متغايران، ويستدلون بحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده أن أصحاب رسول الله ﷺ قد سألوه عن عدد الأنبياء فقال ﷺ مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ثم سألوه عن عدد الرسل فقال ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً ثم سألوه عن الكتب فقال مائة وأربعة كتب[1] فهذا يدل على أن النبي غير الرسول .

وقد خالف فى هذا الرأى ابن تيمية فى كتابه النبوات فيقول : «إن النبي ﷺ هو الذى ينبئه الله وهو ينبيء بما أنبأ الله به ، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول ، وأما إذا كان يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبى وليس برسول ، قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) سورة الحج آية ٥٢ — فقوله (من رسول ولا نبى ) فذكر إرسالا يعم النوعين وقد خص أحدهما بأنه رسول ، فإن هذا الرسول المطلق الذى أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح وقد ثبت فى الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض وقد كان قبله أنبياء كشيت وإدريس عليهما السلام وقبلهما آدم كان نبياً مكلما[2] .

معنى هذا أن ابن تيمية يرى أن النبي والرسول متساويان فكل منهما إنسان ذكر حر بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام إليهم .

غاية ما فى الأمر أن النبي مرسل ولكنه لا يسمى رسولا على وجه

---

(١) مسند الإمام أحمد ج١ ص٣٤ .

(٢) ابن تيمية النبوات ص ٢٥٥ ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

الإطلاق لأنه لم يرسل إلى قوم لا يعرفونه بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنه حق وذلك مثل أهـــل الشريعة الواحدة الذين يأخذون عن العلماء ما يبلغونهم عن الرسول وذلك مثل أنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا يأمرون بشريعة التوراة، وقد يوحى إلى أحدهم وحياً خاصاً كما فى قصة سليمان وداود [1] وقد كانا على شريعة التوراة .

فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره، ونهيه، وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهى فإن أرسلوا إلى الكفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له كانوا رسلا .

وقد جرت العادة فى الرسول أن يكذبه قومه. قال تعالى : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحراً أو مجنون » [2] .

وقوله تعالى : « ما يقال لك إلا ما قيل للرسل من قبلك » [3] .

وهذا دليل على أن النبى مرسل ولا يسمى رسولا على الإطلاق .

كما أنه ليس من شرط الرسول أن يأتى بكتاب وبشريعة جديدة فإن يوسف عليه السلام كان رسولا وعلى ملة إبراهيم عليه السلام .

قال تعالى عن مؤمن آل فرعون : « ولقـــد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا» [4] .

---

(١) الآية : « وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا بحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما» فى سورة الأنبياء .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٢ . (٣) سورة فصلت آية ٤٣ .

(٤) سورة غافر آية ٣٤ .

وكما كان داود وسليمان على شريعة التوراة وأنهما من الرسل وأعطى داود كتابا وهو الزبور — فقال تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعــده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبلك ، ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما »(١) .

هذا وما ذهب إليه ابن تيمية هو الرأى المختار فى أن النبى مرسل من قبل الله تعالى ومثله الرسول إلا أن الرسول مكلف بالإرسال على وجه الإطلاق ورسالته شاملة للمخالفين فى العقيدة والمشركين فى التوحيد كما تشمل المؤمنين والموحدين ممن أرسل إليهم . أما النبى فرسالته ليست على الإطلاق بل إنها تشمل المؤمنين والموحدين غير المكذبين له فهم على التوحيد والنبى يذكرهم ويصلح اعوجاج أنفسهم التى قد تكون أصابها الوهن وفترت همتهم وقلت عزيمتهم وبهذا نطق صريح القرآن الكريم فى وصف أنبياء بنى إسرائيل مع أنهم كانوا على شريعة موسى عليه السلام

وخلاصة ما ذكر أن الرسول والنبى بمعنى واحد وكل منهما يأتى مضافا إلى الله فكما يقال يارسول الله يقال يانبى الله .

قال تعالى : « فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين »(٢) .

وقال تعالى : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم »(٣) .

فعرف باللام فكانت اللام تعاقب الإضافة .

---

(١) سورة النساء ١٦٣ .  (٢) سورة البقرة آية ٩١ .
(٣) سورة النور آية ٦٣ .

الفوائد المترتبة على إرسال الرسل :

١ ــ أن بعثة الرسول لطف ورحمة من الله لعباده وقد اقتضت حكمة الله أن يبعثهم لبيان الأحكام التى لا تستقل العقول بمعرفتها أو تأكيد ما وصل إليه العقل وبيان الطريق الصحيح فى الوصول إلى المعرفة وبذلك تتخلص النفوس البشرية مما يؤرقها ويتوفر للعقل ما يريد الوقوف فى البحث عن أسراره من المسائل التى احتدم حولها الجدل فى حقبات الزمن المختلفة .

٢ ــ أن هناك من الأفعال ما يدرك العقل حسنها ولكنه ينتابه الخوف من فعلها فلو لم يعلم العبد أن الله راض عن تصرفه فلم يأمن أن يكون آتياً عن طريق رضا الله ــ فإذا ما جاء الرسول وأمر بها اطمأنت بها نفسه وقرت عينه وزال خوفه .

٣ ــ بعض الأفعال قد يحسن فى العقل فعلها ولكنه لا يدرك ثوابها كما قد يقبح فى العقل بعض الأفعال ولكنه لا يدرك عقوبتها فيكون الرسول مبيناً للثواب المترتب على الطاعة والعقاب المترتب على المعصية .

٤ ــ أن بعض الأفعال قد يحسن فعلها فى وقت ويقبح فى وقت آخر ، ويبين ذلك الرسول كالصيام مثلا فإنه يحرم فى أيام العيدين وبيان ما يحل وما يحرم على الإنسان والتى قد يغفل العقل عن إدراك الحكمة فى ذلك .

٥ ــ تعليم الأخلاق الفاضلة ورسم السياسات الكاملة ووضع القوانين التى تقود البشرية إلى ما يحقق سعادتها فى الدنيا والفوز برضا الله فى الآخرة .

٦ ــ الإجابة عما تحتار فى شأنه العقول الإنسانية من الأسئلة التى تلح

على العقل ولا يجد لها جواباً والتى أفنى الفلاسفة أعمارهم فلم يقفوا عليها مثل عجز العقل من أين أتى الإنسان وإلى أين سينتهى ، وما مصيره بعد الموت .

فكانت بعثة الأنبياء ليبينوا للناس ما حارت فيه العقول وعجزت عن إدراك كنهه لأن أطوارها لا تتعدى إلى ما وراء الطبيعة من الغيبيات فكانت الحاجة داعية إلى بعثة الرسل ليبينوا ماذا يحدث لهم بعد الموت فيفصلون ما أعد الله فى الدار الآخرة من ثواب للطائعين وعقاب للعاصين[1] .

(١) السنوسية الكبرى ص ٢٣٥

## حكم إرسال الرسل

اختلفت الآراء حول حكم إرسال الله للرسل .

أولا : مذهب أهل السنة :

يرى أهل السنة أن إرسال الرسل جائز عقلا وواقع فعلا .

أما أنه جائز عقلا لأنه من الأفعال الممكنة والله سبحانه يجوز فى حقه فعل كل ممكن وتركه لما ثبت أنه فاعل مختار فلا يجب ولا يستحيل شىء فى حقه تعالى الله .

إذ أنه لو كان واجباً فى حقه تعالى لما كان له الحرية والاختيار بل كان كل ما يصدر عنه بالضرورة والقهر والمقهور عاجز فلا يكون إلهاً. وذلك محال على الله تعالى .

ولو كان مستحيلا فى حقه لما كان قادراً مختاراً وقد ثبت له القدرة وهى لا تتعلق إلا بالممكن الذى يقبل الوجود تارة والعدم تارة أخرى فانتفى وجوب ممكن أو استحالته عليه تعالى وثبت له جواز الفعل ، قال تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار » فإرسال الرسل جائز عقلا .

أما أنه واقع فعلا ، فلأنه ثبت بطريق التواتر المفيد لليقين ثبوت رسالة سيدنا محمد ﷺ .

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بأن الله قد أرسل رسلا كثيرين .

« وما من أمة إلا خلا فيها نذير » لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

ثانياً : مذهب المعتزلة :

ذهب المعتزلة إلى وجوب بعثة الرسل . فإرسال الله الرسل واجب عليه من صلاح للعباد ولطف بهم . والله يجب عليه أن يفعل ما فيه صلاح للعباد . لما فيه من الرحمة واللطف إذ يقربهم من الطاعة ويبعدهم عن المعصية وذلك كله واجب على الله تعالى .

يصور مذهب المعتزلة فى وجوب فعل الصلاح على الله تعالى القاضى عبد الجبار فيقول: « قد تقرر فى عقل كل عاقل وجوب رفع الضرر عن النفس وثبت أن مايدعوا إلى الواجب ، ويصرف عن القبيح فهو واجب لامحالة . ومايصرف عن الواجب ويدعوا إلى القبيح فهو قبيح لا محالة ، إذ صح هذا وكنا نجوز أن يكون فى الأفعال ما إذا فعلناه كنا عند ذلك أقرب إلى أداء الواجبات واجتناب المقبحات ، وفيها ما إذا فعلناه كنا بالعكس من ذلك. ولم يكن فى قوة العقل ما يعرف به ذلك ويفصل بين ما هو مصلحة ولطف وبين مالا يكون كذلك فلا بد أن يعرفنا الله تعالى حال هذه الأفعال حتى لا يكون عائداً بالنقض على غرضه بالتكليف . وإذا كنا لايمكن تعريفنا ذلك إلا بأن يبعث إلينا رسولا مؤيداً بعلم معجز دل على صدقه فلا بد من أن يفعل ذلك ولا يجوز له الإخلال به ولهذه الجملة قال مشايخنـــا أن البعثة متى حسنت وجبت على معنى أنها ما لم تجب قبحت لامحالة[1] .

ومن هنا يتبين لنا أن المعتزلة قد أوجبوا على الله بعثه الرسل بناء على ماذهبوا اليه من القول بالحسن والقبح. وأن كل ماحسنه العقل فهو واجب وما قبحه العقل يكون ممتنعاً — والنبوة من حيث هى حسنة فقد وجبت على الله تعالى .

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٤

وقد ذكر التفتازانى فى كتابه المقاصد آراء لعلماء ماوراء النهر وفيه يذهبون إلى القول بوجوب البعثة مثل المعتزلة تماماً قائلين إن الحكمة تقتضى إرسال الرسل وذلك لما يأتى :

١ — خلق الله الأغذية والأدوية ولا يستطيع الإنسان إن يصل إلى تمييز هذه السموم المهلكة إلا بتجارب قد تستنفد عمر الدنيا — فلو لم يرسل الله رسولا يبين ذلك لكان سفها .

٢ — خلق الله الإنسان الذى لا يستطيع العيش إلا فى جماعة فمن الحكمة إرسال الرسل الذين يرسمون للجماعة ما فيه صلاحها .

٣ — خلق الله العقل الإنسانى يميل إلى الخير وينفر من الشر وكمال العقل هو فى الوصول إلى الحقائق والعقل لا يدرك الحقائق تفصيلا من غير نبى فلو لم يرسل الله رسولا يبين ذلك لكان خلقه للعقل سفها .

٤ — أن بعض الأفعال تحمد عاقبتها فيجب فعلها فلو لم يبين الرسول ذلك لكان تركها مباحاً وليس ذلك من الحكمة .

## موقف أهل السنة مما ذهب إليه القائلون بوجوب إرسال الرسل :

رد أهل السنة على من قالوا بوجوب إرسال الرسل وقولهم هذا يلزم عليه مفاسد كثيرة منها :

١ — أن القربات من النوافل صلاح — فلو كان الصلاح واجباً وجبت بوجوب الفرائض .

٢ — أن خلود أهل النار يجب أن يكون صلاحا لهم دون أن يردوا فيعتبوا على ربهم ويتوبوا إليه .

٣ — أن عدم خلق إبليس وجنوده أصلح للخلق وأنفع وقد خلقه البارى جل شأنه وأيضا أنظاره وتمكينه وتمكين جنوده وجريانه من الآدمى مجرى الدم .

وهذا بناء ماعليه القائلون بوجوب الصلاح فضلا عن أن الحسن والقبيح أمران عرضيان وليس ذاتيان فى الأشياء بل أنهما يختلفان باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمنة والأمكنة .

فقد يكون فعلا يوافق شخص ويراه حسنا يستهجنه الآخر ويراه قبيحا فن لا ديانة له يستحسن حسن الفعل وكل بحسب غرضه . وقد يقتل ملك من الملوك فيستحسن فعل القاتل أعداءه ويستقبحه أنصاره فبهذا يتبين على القطع أن الحسن والقبح عبارتان عن طريق أمرين إضافيين يختلفان بالاضافات لا عن صفات الذوات التى لاتختلف بالاضافة — فلا جرم جاز أن يكون الشىء حسنا فى حق زيد قبيحا فى حق عمرو ولا يجوز أن يكون الشىء أسود فى حق زيد أبيض فى حق عمـــرو ولما لم تكن الألوان من الأوصاف الاضافية[1] .

وبهذا يكون قد انتفى كون الحسن والقبح ذاتيان وثبت أنهما عرضان .

قد ألزم أبو الحسن الأشعرى الجبائى المعتزلى وقد سأله عن ثلاثة أخوة أمات الله أحدهم صغيرا — وأحيا الأخرين فاختار أحدهما الإيمان والآخر الكفر فرفع الله درجة المؤمن البالغ على أخيه الصغير فى الجنة بعمله . فقال أخوه الصغير يارب لم لا بلغتنى منزلة أخى ؟ فقال أنه عاش وعمل عملا استحق به هذه المنزلة فقال يارب فهلا أحييتنى حتى أعمل مثل عمله فأبلغ منزلته ؟.

فقال كان الأصلح لك أن توفيتك صغيراً لأنى علمت أنك إن بلغت اخترت الكفر فكان الأصلح فى حقك أن أمتك صغيرا .

---

(١) أبو حامد الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٨٥ ، ٨٦

قال الأشعرى فان قال الثانى يارب لم تمتنى صغيراً لئلا أعصى فلا أدخل النار ماذا يقول الرب فبهت الجبائى[١].

يقول الغزالى ومعلوم أن هذه الأقسام الثلاثة موجودة وبه يظهر على القطع أن الأصلح للعباد كلهم ليس بواجب ولا هو موجود[٢].

وبهذا يكون قد بطل القول فى وجوب الصلاح والأصلح ويبطل كذلك القول به فى وجوب إرسال الرسل على الله تعالى وثبت أن إرسالهم جائز على الله تعالى ولكن يبقى إتماماً للبحث أن نعرض لرأى الفلاسفة فى حكم إرسال الرسل.

## مذهب الفلاسفة :

الفلاسفة يقولون إن إرسال الرسل واجب على الله تعالى وأمر ضرورى لا مندوحة عنه لأن النظام الأكمل الذى تقتضيه العناية الإلهية لا يتم إلا بوجود نبى ، وهــذا راجع إلى أفضلية الإنسان على سائر المخلوقات وسبب الأفضلية أن النوع الإنسانى ذو نفس ناطقة وبين هذه النفس الناطقة والجواهر الكروبية[٣] والجواهر الروحانية قرب نسبى -

---

(١) السفارينى : الأنوار البهية جـ ١ ص ٣٣١

(٢) الغزالى الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٩٥

(٣) يقصد بالجواهر الكروبية الملائكة الكروبيون كما جاء فى البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ٤٩ . ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيأهم الله له أقسام فمنهم حملة العرش ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش وهم الملائكة المقربون كما فى قوله تعالى لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون .

وهذا القرب النسبى استلزم لزوماً وجوبياً حول لطف المبدأ الأول وهو الله الذى أفاض جوده على النوع الإنسانى كى تحصل له السعادة فى الدنيا والآخرة .

وبناء على ما يقولون به من نظرية الفيض فالكائنات ابتدأت من الأشرف فالأشرف حتى ترقت بالصعود إلى العقل الأول ونزلت فى الانحطاط إلى المادة وكذلك النفوس ابتدأت من الأخس حتى بلغت النفس الناطقة وترقت إلى درجة النبوة .

والسعادة الإنسانية لا تتم إلا بوجود تعاون وتشارك بين بنى الإنسان . ولابد فى المعاملة من سنة وعدل يسير الناس على هديها فيلزم وجود من يسن لهم ويعدل بينهم ، ولابد من أن يكون إنسانا بحيث يخاطب الناس ويلزمهم السنة . ولا يجوز أن يترك الناس وآراءهم فى ذلك فيختلفون ويرى كل واحد منهم ما له عدلا وما عليه ظلماً .

فلابد من وجود مشرع يعرف الناس بما لهم وما عليهم وفاء بموجب عناية المبدأ الأول .

وهذا ما قصده ابن سينا بقوله : « لما لم يكن الإنسان بحيث يستقل وحده بأمر نفسه إلا بمشاركة آخر من بنى جنسه وبمعاوضة ومعارضة[1] تجريان بينهما يفرح كل واحد منهما لصاحبه عن فهم . لو تولاه بنفسه لازدحم على الواحد الكثير وكان مما يتعسر إن أمكن وجب أن يكون بين

---

(١) المعاوضة أن يعطي كل واحد صاحبه من عمله بإزاء ما يأخذه منه من عمله .

المعارضة أن يعمل كل واحد مثل ما يعمله الآخر — شرح الطوسى على الإشارات والتنبيهات .

الناس معامله وعدل يحفظه شرع . يفرضه شارع متميز باستحقاق الطاعـــة لاختصاصه بآيات تدل على أنها من ربه ووجب أن يكون للمحسن والمسيء جزاء من عند ربه القدير الخبير فوجب معرفة المجازى والشارع[١] .

وهذا جار على اعتقاد الفلاسفة فى إنكارهم علم الله للجزئيات إذ الله يعلم الأمور الكلية عندهم ، يقول نصير الدين الطوسى شارحا قول ابن سينا : « المعاملة والعدل لا يتناولان الجزئيات غير المحصورة إلا إذا كانت قوانين كلية وهى الشرع فإذن لابد من الشرعية والشرع لابد له من واضع يقنن تلك القوانين ويقررها على الوجـــه الذى ينبغى وهو الشارع . ويجب أن يمتاز الشارع منهم باستحقاق الطاعة ، واستحقاق الطاعة إنما يتقرر بآيات تدل على كون الشريعة من عند ربه وتلك الآيات هى معجزاته إذن لابد من شارع هو نبى ذو معجزة[٢] .

فالنبوة عند الفلاسفة واجبة عقلا على معنى أنه لم يكن فى العقل بد من حصول لطف المبدأ الأول وإفاضة الجود منه[٣] .

والناظر فى كلام الفلاسفة يجد أنهم يقولون كالمعتزلة بوجوب إرسال الرسل غير أن هناك فرقا فى تفسير معنى الوجوب فالمعتزلة يرون الوجوب بأنه ما يستحق تاركه الذم .

أما الفلاسفة فيفسرون الوجوب بمعنى الصدور والفيض وعدم

---

(١) ابن سينا الإشارات والتنبيهات ص ٨٠٣ تحقيق د . سليمان دنيا ط دار المعارف .

(٢) المصدر السابق ص ٨٠٢ هامش .

(٣) الآمدى غاية المرام فى علم الكلام ص ٣١٩ تحقيق د . حسن الشافعى .

التخلف فهو بمعنى الإيجاب . فالنبوة يلزم صدورها عن الله تعالى دون تخلف والفلاسفة يرون أن النبوة جود من المبدأ الأول وأن الجود من أخص صفات ذاته تعالى وما بالذات لا يتخلف فالنبوة لازمة عن ذاته لا تتخلف بأى حال من الأحوال .

كما أن المبدأ الأول علة تامة والعلة لا يتخلف عنها دائما وأبداً معلولها فيلزم صدور العالم المعلول عن العلة وهو الله تعالى ويلزم عن صدور العالم صدور مايحفظ النظام الأمثل والأكمل وذلك لا يتم إلا عن طريق وجود نبى .

هذا جملة ما يراه الفلاسفة من وجوب إرسال الرسل على الله تعالى .

نقول : إن القول بالإيجاب الذى تقول به الفلاسفة يلزم عليه سلب الحرية والاختيار عن الله تعالى بل كل مايصدر عنه بطريق اللزوم وما يكون هذا شأنه لا يكون فاعلا مختاراً بل إنه مجبر مقهور على إيجاد الفعل فيكون عاجزاً والعجز نقص والإله الكامل يجب أن يكون متصفاً بكل كمال ومنزه عن كل نقص .

كما أخبر الله سبحانه عن ذاته فقال وربك يخلق مايشاء ويختار[1] ، وقال تعالى « فعال لما يريد »[1] فلا يجرى فى ملكوت الله قليل أو كثير صغير أو كبير خيراً أو شراً ، إيمان أو كفر إلا بقضائه وقدره وحكمة مشيئته فليس شيئاً يجب على ذاته بل هو الفعال لما يريد .

وإذا كان القول بالوجوب باطل فإن القول بالإيجاب أشد بطلاناً — وأن القول بحرية الاختيار والفعل بالنسبة لذات الله تعالى لا يتحقق إلا إذا اعتقدنا بجواز إرسال الرسل وهو مذهب أهل السنة وهو القول الذى

(١) سورة البروج آية ١٦

يلزم عليه اتصاف الخالق بكل كمال وتنزيهه عن النقص فصدور الأفعال عنه بالإيجاب وهو تجريد لله عن الإرادة والاختيار .

مذهب السمنية[١] يقول ابن القيم : « وأحالت السمنية إرسال الرسل لتوقفه على علم المرسل بمن أرسله ولا طريق إليه إلا الخبر وأعلى أنواعه المتواتر وهو لا يفيد علماً فلعل القائل له أرسلناك إلى قوم كذا شيطان مثلا[٢]

مذهب البراهمة : — أما البراهمة[٣] فهم يقولون بأن إرسال الرسل عبث لا يليق بالحكيم لإغناء العقل عن الرسل ، لأن ماجاء به الرسل إن كان موافقاً للعقل حسناً عنده فهو يفعله وإن لم يأت به وإن كان مخالفاً له قبيحاً فإن احتاج إليه فعله وإلا تركه .

والجواب على هؤلاء بأن الشرع يأتي بما يوافق العقـــل على الجملة لا على التفصيل أما التفصيل فيوضحه الشرع .

---

(١) السمنية بضم السين وفتح الميم المنسوبة إلى سومنات وهم قوم من عبدة الأوثان قائلون بالتناسخ وأنه لاطريق للعلم سوى الحس ، كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى م ١ ط كلكتة ١٨٦٢ م

(٢) السفاريني لوامع الأنوار البهية ص ٢٥٦ ج ٢

(٣) البراهمة هم قوم من الهند يقولون أنهم من ولد برهمى ملك من ملوكهم قديم — ولهم عـــلامة ينفردون بها وهى خيوط ملونة بحمرة وصفرة يتقلدونها تقلد السيوف ، وهم يقولون بالتوحيد على نحو قولنا إلا أنهم ينكرون النبوية .

والأنبياء يؤدون إلينا ماهو مصلحة لنا فى التكليف العقلى ولا يمكننا معرفة ذلك بالعقل ولا يمتنع أن يعلم الله أن فى أفعال المكلف ما إذا فعله دعاه إلى فعل الواجب العقلى أو صرفه عن القبيح العقلى وأما إذا فعله دعاه إلى فعل القبيح أو الإخلال بالواجب . فيجب أن يعلمنا ذلك لأن الأول لطف والثانى مفسدة ولا يمكن إعلام ذلك إلا ببعثة الرسل الذين يعلمون ذلك .

## المنكرون لبعثة الأنبياء

قدمنا فيما مضى بعض الفرق التى ترى أن بعثة الرسل أمر مستحيل أو هو عبث لا يليق بالحكيم أن يفعله وقد كان لهذه الآراء تأثيرها على بعض الأشخاص الذين دخلوا فى الإسلام وهم يحملون أفكاراً من دياناتهم الموروثة والتى تذهب إلى القول بالتناسخ وينكرون النبوة ولا يرون أن هناك حاجة إلى الرسل.

وقد كان أبرز شخصيتين عرفهما التاريخ الإسلامى فى إنكار النبوات هما: ابن الراوندى[1] وأبو بكر الرازى الطبيب وغيرهما من الشخصيات الأخرى أمثال بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس الثنوين أما الأوليان فإنهما برزا فى الجحود والإنكار وأثاروا الشبهات حول النبوة والأنبياء.

يقول د. إبراهيم مدكور عن هذا الملحد ابن الراوندى: «يظهر أنه أضحى دسيسة ضد المسلمين يدير لهم المكايد ويستأجر للطعن عليهم وينشر فيهم عناصر الزيغ والإلحاد ولم يخف أمره على بعض اليهود المخلصين الذين حذروا المسلمين منه وقالوا لهم ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد

---

(١) ابن الراوندى فهو أحمد بن يحيى بن اسحاق أبو الحسن الراوندى من أصل يهودى دخل الإسلام وانضم إلى فرقة المعتزلة ثم انشق عليهم، ألف كتاباً سماه «فضائح المعتزلة ليرد به على كتاب فضائل المعتزلة» كما ألف كتباً فى الطعن على الإسلام وكتابه ورسوله، منها الفرق فى الطعن على الرسول محمد ﷺ. والزمردة فى إنكار الرسل، راجع وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٢٧

أبوه التوراة علينا[١]، وقد حاول ابن الراوندي أن ينسب هذه الآراء إلى البراهمة ولكن ذلك لا يعفيه فإننا لم نر له دفاعا عن العقيدة بالقدر الذي يجد فيه ذكر مثيري الشبهات .

يقول ابن الراوندي :

١ — إن البراهمة يقولون أنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحانه على خلقه، وأنه هو الذي يعرف به الرب ونعمه، ومن أجله صح الأمر والنهي والترغيب والترهيب، فإذا كان الرسول يأتي مؤكداً لما فيه من التحسين والتقبيح والإيجاب والحظر فسقط عنا النظر في حجته وإجابة دعوته والعقل كفانا عن الرسل .

وإن كان بخلاف ما عليه العقل من التحسين والتقبيح والحظر والإيجاب فحينئذ يسقط عنا الإقرار بنبوته .

٢ — الشبهة الثانية : قالوا إن المعجزات غير مقبولة في جملتها ولا في تفاصيلها — ومن الجائز أن يكون رواتها ثم شرذمة قليلة قد تواطئوا على الكذب فيها — فمن ذا يسلم أن الحصى يسبح وأن الذئب يتكلم — وبلاغة القرآن على تسليمها ليست بالأمر الخارق للعادة — فإنه لا يمتنع أن تكون قبيلة من العرب أفصح من القبائل كلها ويكون في هذه القبيلة أفصح من البقية ويكون في هذه الطائفة واحد أفصحها[٢] .

٣ — الشبهة الثالثة : أن الشرائع التي جاءت بها الرسل مشتملة على

---

(١) الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق د . إبراهيم مدكور ص ٨٠

(٢) د . إبراهيم مدكور الفلسفة الإسلامية ج ١ ص ٨٢/٨٣

أمور غير معقولة وأخرى شاقة مجهدة لافائدة منها ، فيصور ابن الراوندى ذلك فيقول : «أن بعض تعاليم الدين مناف لمبادىء العقل كالصلاة والغسل والطواف ورمى الحجارة والسعى بين الصفا والمروة اللذين هما حجران لاينفعان ولا يضران على أنهما لا يختلفان عن أبى قبيس وحراء فى شىء فلم امتاز عن غيرهما وزيادة على هذا ليس الطواف بالكعبة كالطواف بغيرها من البيوت[1]» .

وقد زاد على هذه الشبهات الشخصية الثانية وهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى نسب إليه ابن الحزم فى كتابه الفصل[2] أنه من القائلين بتناسخ الأرواح ، وقال عنه القاضى صاعد فى طبقات الأمم أن الرازى كان يستحسن مذهب الثنوية فى الإشراك وآراء البراهمة فى إبطال النبوات واعتقاد عوام الصابئة فى التناسخ[3].

يقول الدكتور إبراهيم مدكور أن الرازى فى كتابه نقض الأديان يصرح « بأن الأنبياء لاحق لهم فى أن يدعوا لأنفسهم ميزة خاصة عقلية كانت أو روحية لأن الناس كلهم سواسية وعدل الله وحكمته تقضى بألا يمتاز واحد على الآخر.

٢ — كما أنه بالإضافة إلا ماقاله ابن الراوندى فى إنكار المعجزات ذهب إلى القول بأنها ضرب من الأقاصيص الدينية أو اللباقة والمهارة التى يراد بها التغرير والتضليل ، والتعاليم الدينية متناقضة يهدم بعضها

---

(١) إبراهيم مدكور الفلسفة الإسلامية ص ٩٩ .
(٢) ابن حزم الأندلسى الفصل فى الملل والنحل ج ١ ص ٧٧ .
(٣) أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى — طبقات الأمم .

بعضاً ولا تتفق مع المبـــدأ؛ القائل أن هناك حقيقة ثابتة ذلك لأن كل نبي يلغي رسالة سابقة وينادي بأن ما جاء به الحق ولا حق سواه[1] .

٣ — يقول الرازي : أن النفس الشريرة تتحول إلى شيطان ثم يظهر هذا الشيطان في صورة الملائكة ويقابل هذا الملك الذي هو في الأصل شيطان بعض الناس فيوحي إليهم بادعاء النبوة والرسالة ، ويصدق البعض تمويه الشيطان عليهم فيدعون أنهم أنبياء ورسل[2] .

هذه جملة آراء لمنكري النبوة ومثيري الشبهات وهم بهذا يريدون أن يهدموا فكرة التوحيد وتنتشر الزندقة والإلحاد في ربوع العالم ، ولنا أن نجيب على هذه الشبهات حتى يتضح الحق ويظهر الصحيح من الباطل أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

الجواب عن الشبهات :

أولا : أن القول بأن العقل يكفي عن الأنبياء والرسل . فإن الواقع يكذب ذلك فالمجتمعات قديمها وحديثها لم تستطع الوصول إلى ما يحقق السعادة للبشر وإلا فلم التطاحن والتنازع بين الناس . إن العقل لو كان كاف ما وجـــد عابد لحجر ولا ساجد لوثن ولا منكر لوجود خالق . وما عبدت النصارى أقانيم ثلاثة ولا اتخذ اليهود عزيزاً ابن الله .

والله لا يكلف عباده فوق ما يطيقون بل جاءت التكاليف موافقة

---

(١) د. إبراهيم مدكور في الفلسفة الإسلامية جـ١ صـ٨٧

(٢) رسائل فلسفية . الرازي ( أبو محمد بن زكريا الرازي ) جمعها وصححها كراوس مصر ١٩٣٩ جـ١ صـ١٧٨

للعقل البشرى فما أدركه العقل أكده الرسول وما لم يدركه يوضحه الرسول ليأخذ بيده إلى طريق الصواب فضلا عن أن الأنبياء لا يبعثون إلا إلى قوم أخلوا أنفسهم عن الصواب وترديوا فى طريق الهاوية — فكما لا تذهب إلى الطبيب وأنت صحيح فكذلك النبى لا يأتى إلا لقوم مرضى ليصحح لهم أعوجاج نفوسهم .

ثانياً : أما عن القول بأن المعجزات غير مقبولة لأنه من الجائز أن يكون قد أتيها الشيطان كما قال ابن الراوندى والرازى فيما بعد .

فالجواب عن هذا : بأن المعجزات من الأمور التى تدل على صدق مدعى النبوة فى دعواه وأن الشيطان ليس له سبيل على المؤمنين فضلا عن أن يكونوا أنبياء كما قال تعالى «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان»[1] وقد جرت عادة الله أن لا يؤيد الكاذب فى دعواه كما حاول مسيلمة الكذاب فتفل عين مريضه فعميت السليمة .

أما عن إعجاز القرآن . فقد تحدى به الإنس والجن على أن يأتوا بمثله فعجزوا وما زال التحدى قائماً وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

قال تعالى : «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»[2] .

ثم إن النبى نفسه نسب القرآن إلى أنه منزل من عند الله والناس عادة ما ينسبون أفعال غيرهم إلى أنفسهم فدل ذلك على أنه بلفظه ومعناه من

---

(١) سورة الحجر آية ٤٢
(٢) سورة الإسراء آية ٨٨

عند الله تعالى: «قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون»(١).

أما قوله من الجائز أن يكون رواة المعجزة شرذمة قليلة تواطأت على الكذب، ثم يقول من يصلح تسليم الحصى وتكليم الذئب(٢).

فإن معجزة كل نبي شاهدها من عاصروه وعاينوه ثم نقلت إلينا عن طريق التواتر من جمع لا يؤمن تواطؤهم على الكذب والتواتر أحد اليقينيات وإلا فلا شيء في الكون يقيني وقد ثبت أن كل ما جاء به الأنبياء حق.

ثالثاً: أما ما أثير حول التكاليف من العبادات بأنها قد تكون غير مقبولة أو هي شاقة لا فائدة منها.

فالجواب عن هذا: لا يدرك ثمرة العبادة إلا من كان قلبه مطمئن بالإيمان أما القلب الخالي من الإيمان فإنه لا يرى فيها ثمرة مرجوة له وصدق الله العظيم «وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله»(٣).

فإن العبادات من الأمور التي كلفنا الله بها وليتعبدنا بها ولتكون اختباراً للمؤمنين الصادقين من غيرهم وليميز الله الخبيث من الطيب، فالإنسان لا يقحم عقله القاصر في إدراك ما استأثر الله به وقد قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم»(٤).

---

(١) سورة يونس آية ١٦

(٢) إبراهيم مدكور الفلسفة الإسلامية ص ٩٩

(٣) سورة البقرة آية ١٤٢

(٤) سورة المائدة آية ١٠١

وقد كان الصحابة على علم وإدراك تام بالوحى ولم يخوضوا إلا فيما تدركه عقولهم « ولو أنفق أحدنا مثل أحد ذهبـاً ما بلغ مد أحد ولا نصيفه » .

رابعاً : أن قول الرازى أن الأنبياء لا حق لهم فى ميزة عقلية أو روحية .

إن ذلك تحكم لم يقل به أحد لا من المتكلمين ولا من الفلاسفة إن البشر العاديين يميز بعضهم عن بعض بالذكاء والجسم ولولا ذلك ما كان هناك قائد وجندى وعالم وجاهل وعامل ومدير وقاض ومجرم، والله سبحانه له مطلق الحرية فى أن يصطفى من عباده من يشاء . قال تعالى : «الله يصطفى من الملائكة رسلا[1] ومن الناس » ويميز الله بعض العباد عن بعض كما قال تعالى : « إن الله اصطفى لكم طالوت قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله أصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم »[2] .

فهل ينكر الرازى الطبيب أنه يدرك فى طبه ما قصرت عنه عقول أناس آخرين . يقول الباقلانى صاحب كتاب التمهيد . يقال لهم لم قلتم أن تفضيل الله سبحانه بعض الجنس على بعض ورفع بعضهم على بعض إذا كان محاباه للمفضل وجب أن يكون ظلما وخروجا عن الحكمة ، وما أنكرتم أن يكون لله تعالى أن يخص بتفضيله وإكرامه من يشاء من غير خلقه، وله التسوية بين سائرهم وأن ذلك أجمع عدل منه وصواب من تدبيره؟

---

(١) سورة الحج آية

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٧

فإن قالوا لأن تفضيل أحد المتجانسين على الآخر فى الشاهد سفه منا فوجب القضاء بذلك على القديم .

قيل لهم ولم قلتم إن ذلك سفه منا . وما أنكرتم أنه جائز لنا صواب فى حكمتنا أن نحبو بعض عبيدنا وأصدقائنا والمتصرفين معنا كتصرف غيره بأكثر مما نحبو به غيره ونفضله بعطاء وتشريف لا يستحقه أكثر مما نحبو به غيره فلم قلتم إن ذلك سفه وقبيح من فعلنا[1] ؟

وما يقول به الرازى بأن «هذا يعد ظلما وجورا» إن هذا اعتراض على فعل الله وتدخل فى إرادته وهذا كفر صريح «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين»[2] .

وأخيراً نقول : إن من ينكر النبوات جاحد أنكر معلوما من الدين بالضرورة فان مثل منكرى النبوات فى الجحود والنكران والعناد كمثل منكرى الشمس وسط النهار فإذا كان لا يضير الشمس جحود أعمى البصيرة لها ولهم فضوء الشمس يشق ظلام الليل فيبدده ونور النبوات يشق ظلام الضلال فيبعثره وحقا «فأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور»[3] .

---

(١) الباقلانى «القاضى أبو بكر محمد بن الطيب بن الباقلانى» التمهيد ص ١٠٤

(٢) سورة آل عمران ٨٥

(٣) سورة الحج آية ٤٦

## النبوة هبة أم اكتساب

جمهور المسلمين ذهبوا إلى القول بأن النبوة تفضل وهبة من الله يؤتيها لمن يشاء من عباده فلا يبلغها أحد بعلمه ولا يكتسبها كاسب بكسبه مهما أوتى من قوة الفهم وجودة الذهن وقوة الذاكرة . ومهما تعهد نفسه بالتأملات العقلية وتخلق بالسجايا الطيبة والأخلاق الحميدة .

يقول السفاريني : « ومن اعتقد أنها مكتسبة فهو زنديق يجب قتله لأنه يقتضى اعتقاده أنها لا تنقطع وهو يخالف للنص القرآني والأحاديث المتواترة بأن نبينا محمد ﷺ خاتم النبيين[1] .

فاعتقاد جمهور المسلمين أنها فضل من الله يمن بها على من يشاء .

يصور الشهرستاني مذهب أهل السنة فيقول : « إن النبوة ليست صفة راجعة إلى النبي ولا درجة يبلغ اليها أحد بعلمه وكسبه ولا استعداد يستحق به اتصالا بالروحانيات بل رحمة يمن الله بها على من يشاء من عباده[2] .

قال الله تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير »[3] .

فدل على أنها اصطفاء واجتباء من الله سبحانه .

وقال تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ففى كل هذه منسوبة إلى الله ليس للعبد فيها أى كسب .

---

(١) السفاريني لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٢٦٨

(٢) نهاية الأقدام الشهرستاني ص ٤٦٢

(٣) سورة الحج آية ٧٥

يقول الشهرستانى فى هذا الصدد : فكما يصطفيهم من الخلق قولا بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق بكمال الفطرة ونقاء الجوهر وصفاء العنصر وطيب الأخلاق وكرم الأعراق فيرفعهم مرتبة حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة وكملت قوته النفسانية وتهيأت لقبول الأسرار الإلهية بعث إليهم ملكا وأنزل عليهم كتابا[1].

ويقول صاحب كتاب جوهرة التوحيد : « واعتقد إجماع المسلمين على أنها لم تكن مكتسبة ولو رقى فى الخير أعلى عقبه ، أى أشق الطاعات » بل ذلك فضل من الله يؤتيه لمن يشاء جل الله واهب المنن[2] .

مذهب الفلاسفة :

خالف الفلاسفة ما عليه جمهور المسلمين بأن الرسالة والنبوة لا تنال بالكسب فذهبوا إلى القول بأنها مكتسبة يصل إليها الإنسان إذا لازم الخلوة والعبادة وداوم المراقبة وتناول الحلال وأخلى نفسه من العلائق المادية وطهر باطنه وظاهره من كل دنس فإذا فعل هذا انصقلت مرآة باطنه وتفتحت بصيرته وأصبح متهيأ لتلقى الوحى ذلك لأن النبوة عندهم هى عبارة عن اجتماع ثلاث خواص إذا ما وجدت فى شخص استحق التشريف بأن يكون نبيا . وهذه الخواص هى :

أولا : الإطلاع على المغيبات لأن النبى لصفاء نفسه وقوة روحه تكون لديه القدرة على الإتصال بالعقل الفعال أو الملائكة التى هى عندهم

(١) الشهرستانى نهاية الأقدام ص ٤٦٣

(٢) شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام بن إبراهيم اللقانى المالكى — ص ١٨٥ ط السعادة بمصر

نفوس مجردة فى ذاتها متعلقة بأجرام الأفلاك وتسمى ملائكة سماوية أوعقولا مجردة ذاتاً وفعلا وتسمى بالملأ الأعلى ولا كلام لهم يسمع لأنه من خواص الأجسام إذ الحروف والصوت عندهم من الأمور العارضة للهواء المتموج ، فلا يتصور كلام حقيقى للمجردات [١] .

فالنبى بما صفا نفسه عن الشواغل المادية يستطيع الاتصال بالملأ الأعلى ويتطلع على المغيبات .

ثانياً : ظهور الخوارق على يديه بحيث تطيعه الهيولى [٢] العنصرية القابلة للصور المفارقة للبدن .

فتحدث بعد ذلك الخوارق المعجزة للعادة كتفجير الماء من الحجر وخلق الزلازل المدمرة ، وإحياء الموتى — فالنفس ليست متأثرة بالجسد حتى يشغلها عن التدبير والتأثير فى الأجسام .

ثالثاً : مشاهدة الملائكة وذلك عن طريق قوة مخيلة النبى فيتخيل الملائكة فى صورة أشخاص ويسمع منهم كلاما أى وحياً يبلغونه للناس .

هذه جملة ما يراه الفلاسفة فى الوصول إلى درجة النبى وأنت خبير بما يلزم على ذلك من مفاسد .

أولها : مخالفتها لصريح النصوص الدينية الناطقة بأن الرسالة اصطفاء من الله تعالى فقال تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » وقوله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

روى مسلم والنسائى عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن رسول الله

---

(١) عضد الدين الأيجى المواقف ص ٢٢١ .

(٢) الهيولى عند الفلاسفة هى المادة .

ﷺ قال: «إن الله تعالى اصطفى كنانه من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم» رواه الترمذى ولفظه: «أن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم».

فهذه النصوص تدل على أن النبوة اصطفاء ولا داعى للجنوح ناحية إخراج اللفظ من معناه حيث صريح اللفظ دال على الحقيقة.

يقول التفتازانى مبيناً فساد القول باكتساب النبوة أن ذلك كله مخالف لما جاء به الدين وعلم منه بالضرورة والواقع أن رأيهم هذا مبنى على القول بتجرد النفس الإنسانية وهو قول لم يستطيعوا إثباته بدليل يسلم من النقد [١].

ثانياً: أن قولهم يلزم عليه فتح باب النبوة وأنها لم تختم بسيدنا محمد ﷺ وقد جر قولهم على المسلمين بلاء عظيماً ألا ترى إلى أدعياء النبوة مثل البابية والبهائية والقاديانية وغيرها من ادعاءات تظهر بين الحين والآخر وما من واحدة إلا وتعتمد على مسلك الفلاسفة فى أن الرياضة والاجتهاد والخلوة طريق إلى اكتساب النبوة وقد دل القرآن على أن النبوة قد ختمت بسيدنا محمد ﷺ ومابعد كلام الله تعالى قول، قال تعالى «ماكان محمد أباأحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» [٢].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم عليه السلام لمنجدل فى طينته» رواه الإمام أحمد فى مسنده بحديث العرباص ابن سارية السلمى رضى الله عنه.

---

(١) سعد الدين التفتازانى جـ ٢ ص ١٣٤—١٣٥.

(٢) سورة الأحزاب آية ٤٠.

ثالثاً : أنهم يجعلون النبوة مبنية على أمور متخيلة إذ النبي عندهم أو الرسول يتخيل أشخاصا يخاطبونه ويسمي ذلك وحيا .

إذ كيف تبنى شرائع على أمور متخيلة .

كما أنه لا يكون هناك بين الرسول وبين كاتب يتخيل قصة من خياله ثمة فرق فتنهدم الشرائع وليس للوحي فائدة تذكر .

إن هذا الذي يقول به الفلاسفة عبارة عن تلفيق من خيالهم المريض مبني على فكرة العقول العشرة والنفوس الفلكية والتي لا وجود لها إلا في مخيلتهم اقتبسوها من الفكر اليوناني . من غير اعتماد على دليل أو سند يقوى ادعاءاتهم الباطلة .

رابعاً : أنهم يرون أن كلام الله يفيض على نفس النبي من غير أن يعلموا أن حصرهم كلام الله في الإفاضة على نفس النبي تحكم منهم فإن لله كلاما خارج نفس النبي — فالقرآن الكريم كلام الله تعالى . كما أنه لا فرق عندهم في الفيض بين نفس النبي وغيره من بقية النفوس إلا من جهة كونها أصفى وأكمل .

يقول ابن تيمية : وهؤلاء عندهم النبوة مكتسبة وكان جماعة من زنادقة الإسلام يطلبون أن يصيروا أنبياء[1] .

ونزيد على ما قاله ابن تيمية أنهم يجعلون الفيلسوف أفضل من النبي لأن الأول يبني فكره على التأمل العقلي أما النبي فإنه يبني قوله على الخيال

---

(١) السفاريني لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٢٦٨ .

نعوذ بالله من افتراءاتهم الكاذبة وتطاولهم على مقام النبوة وتدخلهم فى حكم الله تعالى القائل : «أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »[1] .

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٩ ، ٩٠ .

## شروط النبـــوة

اشترط العلماء فى الذى شرّفه الله بالنبوة شروطاً :

أولها : البشرية فجمهور علماء المسلمين على أنه ليس هناك نبى ولا رسول إلا من البشر وقد خالف فى هذا بعض العلماء على رأسهم الضحاك فقالوا : يجـوز أن يكون نبياً من غير البشر كأن يكون من الجن واستدلوا بقوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا »[١] .

وقد أجاب القائلون بقصرها على البشر أن المراد بهذه الآية فى قوله (منـكم) أى من جماعتكم وليس المراد من كل منكم وقد صرفوا اللفظ عن ظاهره وهو الحق .

وقد استدل الجمهور على رأيهم قصر النبوة على الإنس بقوله تعالى :

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى »[٢].

وعن الحسن البصرى قال لم يبعث الله نبياً من أهل البادية ولا من الجن ولا من النساء ذكره عنه طائفة منهم البغوى وابن الجوزى[٣] .

كما استدلوا أيضاً بقوله تعالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ممن هـدينا واجتبينا »[٤] .

---

(١) الأنعام آية ١٣٠ (٢) سورة يوسف آية ١٠٩

(٣) ابن تيمية — النبوات ص ٣٩٦ .

(٤) سورة مريم آية ٥٨ .

وقد وردت النصوص بأنهم قد أرسل إليهم الأنبياء من الإنس وأنهم تابعون لهم ومطالبون بما يناسبهم من شريعة الإنس .

وأن سيدنا محمد ﷺ قد أرسل إلى الثقلين وقد آمن به من آمن من جن نصيبين لما سمعوا القرآن وولوا إلى قومهم منذرين ثم أتوه وبايعوه على الإسلام بشعب معروف بمكة بين الأبطح وبين جبـــل حراء وسألوه الطعام ولدوابهم فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه أوفر ما يكون لحماً وكل بعرة عاف لدوابكم[1] .

وقد سجل القرآن الكريم هذه الواقعة فقال تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ● قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ● يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم »[2] .

وغيره مما ورد وقرأ عليهم فسورة الرحمن خطاب للثقلين جميعاً .

كما ورد بأن كفارهم يدخلون النار ومطيعهم يدخل الجنة فتكاليف الإنس وتشريعاتهم منسحبة عليهم .

قال تعالى : « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها »[3] .

هذا وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون المبعوثون من البشر ليحصل الاستئناس به وتكون الصلة التى تربط بين المرسل والمرسل

---

(١) ابن تيمية — النبوات ص ٣٩٦

(٢) الأحقاف الآيات من [illegible] إلى [illegible]

(٣) سورة الأعراف آية ٣٨ .

إليه ولذا فقد جاء القرآن بقوله : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون »[1] .

وقوله تعالى : « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا »[2] .

وإذن فلا مناص من أن يكون الرسول من البشر حتى يتم الإفهام والتلقى ويمكن الاقتداء والتأسى .

ثانياً : الذكورة :

أجمع جمهور المسلمين وانعقد إجماعهم على أن الذكورة شرط من شروط النبوة ، ولا تتصف بها أنثى ولا يوجد دليل على أن أنثى أتتها الرسالة أو النبوة ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم »[3] فأثبت الرسالة للرجال الموحى إليهم وأشعرت بنفى ذلك عن غيرهم فلا تكون أنثى نبية .

وذلك لأمور منها :—

١ — أن الرسل يتعرضون للشدائد والأزمات التى لا يقوى على تحملها إلا الرجال الأقوياء الأصفياء من خلقه .

٢ — كما أن المرأة لا ينقاد لزعامتها الرجال بسهولة .

٣ — الدعوة تقتضى الانتقال من مكان إلى مكان وهذا فيه صعوبة على المرأة .

٤ — أن المرأة تكون تحت رجل فيمنعها من القيام بواجب الدعوة .

وجمهور العلماء على أن النبوة كالرسالة مقصورة على الرجال دون النساء هذا وقد خالف فى اشتراط الذكورة أبو الحسن الأشعرى والقرطبى

---

(١) سورة الأنعام آية ٩ (٢) سورة الإسراء آية ٩٥

(٣) سورة الأنبياء آية ٧

وابن حزم ؛ وحكى العلامة ابن الملقن في شرحه على عمدة الأحكام خلافاً في نبوة مريم وآسية وسارة وهاجر وأم موسى[١] عليه السلام .

واستدلوا هؤلاء أن كل من جاءه الملك من الله تعالى بحكم أمر أو نهى أو بإعلامه شيئاً فهو نبي وقد ثبت وقوع ذلك بل قد ورد التصريح بالإيحاء لبعضهن فقد قال الله تعالى في حق مريم: « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً »[٢] .

وفي شأن أم موسى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه »[٣] .

وفي شأن أسية استدلوا بحديث كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران .

وقالوا إن حصر الكمال فيهما يدل على نبوتها لأن أكمل النوع الأنبياء ثم الأولياء فمن دونهم[٤] .

ويقول القرطبي الصحيح أن مريم نبية لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك أما أسية فلم يأت مايدل على ذلك .

ويوافقه على ذلك ابن حزم فيقول إن مريم نبية وآسية نبية وأم موسى نبية .

---

(١) واسمها يوخابذ بنت لاوي بن يعقوب ـ السفاريني الأنوار البهية جـ ٢ ص ٢١١

(٢) سورة مريم آية ١٧

(٣) سورة القصص آية ٧

(٤) في العقيدة الإسلامية د . علي صبح ، د . صفوت مبارك ص ١١

ويبدو أن القرطبى لم يفهم من الحديث السابق إلا نبوة مريم ولعل ماذكرته فى عدم فهم القرطبى من الحديث إلا نبوة مريم مع أن الحديث قرنهما فى الخصوصية دون التفرقة بينهما .

أما ابن حزم فانه يوسع الدائرة فتشمل آسية وأم موسى واستدل على أن النبوة قد تكون فى أنثى بقوله تعالى :

١ — « وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين »[١] .

٢ — ذكر الله اصطفاء آل عمران التى هى من ذريته مريم فى قوله : «إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين»[٢] .

٣ — كما خصها الله بسورة كما خصص لغيرها من الأنبياء فسميت باسمها وهى سورة مريم كما لإبراهيم ويوسف ويونس وهود ومحمد . فقال تعالى فى سورة مريم : « واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا . إلى قوله وكان أمراً مقضيا »[٣] .

ولم يكتف ابن حزم باستدلاله هذا بل أخذ يوجه قوله تعالى : « وأمه صديقة »[٤] إلى رأيه . فقال إن ذلك لا يمنع من نبوتها فقد وصف الله كثيرا من الأنبياء بأنهم صديقون .

---

(١) سورة آل عمران آية ٤٢
(٢) سورة آل عمران آية ٣٣
(٣) الآيات من ١٥ إلى ٢٢ من سورة مريم .
(٤) سورة المائدة آية ٥٧

أما أسية فانه يقول فى نبوتها أنها جاءت مقرونة مع مريم فى قوله تعالى : «وضرب الله مثلا للذين آمنوا إمرأة فرعون إذ قالت رب ابنى لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا فصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين»[1].

والجواب عن ذلك :

الذى نختاره هو رأى جمهور العلماء باقتصار النبوة على الرجال دون النساء بدليل قوله تعالى : «وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم»[2]،

أن الدعوة من لوازمها الاشتهار والاتصال بالناس ليلا ونهارا والنساء مأمورات بالتستر وهو ينافى الاشتهار . وقد قال الله تعالى آمراً النساء «وقرن فى بيوتكن»[3].

كما أن الأنبياء يقع عليهم الأذى والاضطهاد فى سبيل الدعوة فقد ينكشف من أجسادهم ماهو عورة فى حق المرأة وليس كذلك فى حق الرجل فتعترى الدعوة عدم المهابة .

أن المرأة طبيعتها ضعيفة لما تعانيه المرأة من أضعاف صحتها أثناء الحيض والنفاس وفترة الولادة والرضاعة وغير ذلك من وظائفها الأنوثية فلا تقوى على تحمل أعباء الرسالة والوحى فضلا عن انقطاع الوحى طوال هذه المدة.

وقد قال النبى ﷺ : «اتقوا الله فى الضعيفين المرأة واليتيم» ، وقوله عليه الصلاة والسلام لحادى الإبل «يا أنجشة رفقاً بالقوارير» . كل ذلك يدلنا على أن النبوة لاتكون إلا للرجال دون النساء .

---

(١) سورة التحريم آية ١١ ، ١٢ (٢) سورة الأنبياء آية ٧
(٣) سورة الأحزاب آية ٣٣

وأما ما جاء من آيات فى حق مريم فيحتمل أن جبريل أرسل إليها ليبين لها أن حملها إنما هو بأمر الله تعالى الذى يقول للشىء كن فيكون .

كما أن السورة متضمنة أكثر لبيان حقيقة عيسى وأنه ولد من غير أب ليكون دليلا على أن الله لا يعجزه شىء . ورداً على مزاعم اليهود المادية التى ترى استحالة وجود سبب بدون مسبب فكان عيسى بدون علة ، «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون» .

كما أن السورة تضمنت ذكر أسماء كثيرين من الأنبياء كإسماعيل وإدريس وإبراهيم وموسى وهارون .

وكذلك الحال مع أم موسى فان جبريل لم يرسل إليها عن طريق النبوة وإنما ليطمأنها على مصير إبنها .

ويحتمل أن يكون الوحى إليهما عن طريق الإلهام كما أوحى الله إلى النحل فيكون وحيه إلى أم موسى بأن قذف فى قلبها عزيمة قوية بأن تلقيه فى أليم .

وأن غاية ما انتهى إليه أمر مريم بأنها صديقة وهذه مرتبة دون النبوة . ولو كانت واحدة منهن نبية لنص الله عليها صراحة لأن هذا ليس من الأمور التى تحتمل معنى آخر مجازى لما يترتب على النبوة من عظيم الشأن . وإذا انتفت النبوة عن مريم مع تكليم الملك لها انتفت عن غيرها .

وأما الحديث المذكور «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم وآسية إمرأة فرعون» .

فيجاب عنه بأن الكمال ليس دليلا على منصب النبوة فالكمال للرجال بالنبوة وللنساء بكونهن صديقات فكل بحسبه .

وأخيراً نقول : أنه لم ينقل إلينا بطريق التواتر إن نساء نبيات ولم يذكر الرسول واحدة منهن نبية .

الشرط الثالث : الحرية : فمن شروط النبي أن يكون حراً لأن الرق وصف لا يليق بمقام النبوة والنبي يكون داعياً للناس آناء الليل وأطراف النهار والرقيق لا يتيسر له ذلك .

كما أن الرقيق خاضع في كل أموره لسيده وهذا يحول بينه وبين القيام بأعباء الرسالة — والعبد به صفة نقص ولا ولاية لعبد على نفسه فمن باب أولى ألا تكون له ولاية على غيره من الناس والناس يستنكفون من أتباع العبد والأنبياء يبعثون في أنساب أقوامهم . كما نطق هيرقل رداً على إجابة أبي سفيان عندما سأله عن نسب النبي محمد ﷺ فيهم قال أبو سفيان هو فينا ذو نسب فقال هيرقل هكذا الأنبياء تبعث في أنساب قومها[1] .

الشرط الرابع : القوة : يشترط فيمن أكرمه الله بالنبوة أن يكون قوياً قادراً على تحمل أعباء الرسالة قال تعالى على لسان بنت شعيب « يأبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين[2] » .

كما أنه يلزم في شأن الرسول أن يكون مستقيماً في الخَلق والخُلق سليماً من الأمراض المنفرة ذا عقل صحيح وفهم راجح وعلم بالأمور الدينية كما أن الأنبياء منزهون عن جميع الرذائل من البخل والجبن واللهو واللغو وسائر الأخلاق الذميمة .

---

(١) ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٨١

(٢) سورة القصص آية ٢٦

والأنبياء مبرءون من لوم النسب وشره القلب وحرص النفس على الدنيا ، كما أنهم مبرءون عن الإتباع كدناءة الآباء وعهر الأمهات .

ومن المنفرات المخلة بالمروءة كالأكل على الطريق والحرف الدنيئة كالحجامة[1] وشرط من أكرم بالنبوة حرية ذكوره قوة .

الشرط الخامس : البلوغ :

اختلف العلماء في اشتراط البلوغ في النبي .

فذهب فريق على رأسهم الفخر الرازي بجواز أن يكون النبي صبياً واستدلوا بقوله تعالى في حق يحيي عليه السلام : « يا يحيي خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا »[2] .

وبكلام عيسى في المهد قال تعالى : « قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا »[3] .

فهاتان الآيتان تدلان على أن يحيي وعيسى قد أتاهما النبوة دون البلوغ .

الفريق الثاني : فيرى أن بعثة الأنبياء لا تكون قبل البلوغ ولم تقع وإن كانت ممكنة . واستدلوا بقوله تعالى : « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين »[4] .

---

(١) سعد التفتازاني المقاصد ج ٢ ص ١٤٦

(٢) سورة مريم آية ١٢ .

(٣) سورة مريم آية ٣٠

(٤) سورة القصص آية ١٤

وقد أجابوا على استدلال الفريق الأول فى استدلالهم على الآيتين الواردتين فى حق يحيى وعيسى عليهما السلام .

فقالوا بأن الآيتين إخبار عما سيحدث فى المستقبل وقد استعمل الماضى للدلالة على المستقبل فى آيات القرآن الكريم تأكيداً على وقوع الحدث فقال تعالى فى حق أهل الجنة «فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إن كان لى قرين»[1] وفى حق أهل النار قال قرينه ربنا ما أطغيته .

وهذا إنما يكون يوم القيامة وقد عبر عنه فى الماضى .

وكما فى قوله تعالى «أتى أمر الله فلا تستعجلوه»[2] والمعنى سيأتى فاستعمل الماضى مكان المضارع .

كذلك إرسال يحيى وعيسى فإنهما يدلان على المستقبل بعد البلوغ .

وما نراه أن ما أوتيه يحيى وعيسى قبل البلوغ إنما كان إرهاصا للنبوة لأن الرسالة أمر شاق ويحتاج إلى قدرة جسمية وذهنية لا تتحقق إلا فى البالغ الرشيد[3] كما أنه لا يعقل أن يكون عيسى وهو فى المهد قد أوتى النبوة . وقد قال الله تعالى «ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما»[4] .

والنبوة بمعنى الوحى المتضمن للتعاليم الإلهى فإنه لا يكون إلا بعد البلوغ .

---

(١) سورة ق آية ٢٧ - (٢) سورة النحل آية ١

(٣) فى العقيدة الإسلامية الإلهيات والنبوات د/ شوقى إبراهيم

(٤) سورة القصص آية ١٤ .

## التفاضل بين الأنبياء

إن الإيمان برسل الله عليهم السلام ركن من أركان الإيمان بدون تفرقة بينهم فكلهم مبلغون عن الله دعوة التوحيد الخالصة المبرءة من الشرك ولاذنب لنبي فيما اقترفه قومه من التحريف والتبديل والمغالاة أو فيما ابتدعوه من الإطراء حتى ادعوا ألوهيتهم كما زعمت النصارى في عيسى عليه السلام أو ذمه وإلصاق التهم الباطلة كما تدعى اليهودية على أنبياء الله لكن الإسلام وهو دين الله الخاتم بين الحقيقة ووضع الأمور في موضعها الصحيح فلاقبح ولامغالاة ولاإطراء وأن من أنكر الأنبياء فقد كفر . قال تعالى . «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله»[1] .

ويقول تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا »[2] .

وإذا كنا نؤمن بالرسل كلهم بدون تفريق فإننا نؤمن بأن بعضاً منهم قد تحملوا المصائب والنوائب أكثر من غيرهم . ولذلك فضلوا عن غيرهم لما يتناسب من عظم مابذلوه وضحوا في سبيله ووقوفهم في وجه الطغاة والباغين وقد ذكر الله سبحانه هذه الأفضلية فقال تعالى: «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض»[3] .

وأن منهم أولوالعزم وهم أفضل من غيرهم . وجمهور العلماء على أنهم خمسة محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح عليهم السلام .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٩ (٢) سورة النساء آية ١٥١/١٥٠
(٣) سورة البقرة آية ٢٥٣

وهؤلاء هم الذين اجتهدوا فى تأسيس الشرائع وتقريرها وصبروا على تحمل المشاق ومعاداة الطاغين ولذا سموا بأولى العزم لأنهم ذوعزيمة قوية ، وقيل سموا بأولى العزم لصبرهم على البلاء من الله تعالى فنوح كان يضرب حتى يغشى عليه ، وإبراهيم صبر على النار وذبح ولده ، وبقيتهم صبروا على الاضطهاد والعذاب والعنت فما وهنوا لما أصابهم وماضعفوا وما استكانوا . وقيل إن كل الأنبياء أولو عزم وأن من فى قوله تعالى : «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل» لبيان الجنس وليست للتبعيض فان كل نبى كان ذوعزم وحزم ورأى وكمال عقل .[1]

وقيل إن كل الأنبياء ذوعزم إلا يونس فإنه قيل للنبى ﷺ ولا تكن كصاحب الحوت[2] لعجلة كانت منه .

والحق أن مايرد على يونس من شبهة توهم القدح فى عصمته فانه لاينبغى لمؤمن أياً كان كلام بعد قول الله فيه « فاجتباه ربه فجعله من الصالحين »[3]

وماحدث منه كان قبل الاجتباء وحى بعثته إلى قومه .

والحق الذى نراه أن الرسل بعضهم أفضل من بعض وأن أفضلهم جميعاً هو سيدنا محمد ﷺ وذلك لعلو منزلته التى أعطاها الله له فى الدنيا والآخرة

(١) راجع السفارينى فى لوامع الأنوار البهية جـ٢ ص ٢٩٩ .
(٢) سورة القلم آية ٤٨ .
(٣) سورة القلم آية ٥٠ .

## فضل سيدنا محمد على غيره من الأنبياء :

أن الآثار قد تواترت بفضله ﷺ على سائر الأنبياء :

ففي صحيح مسلم مارواه أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع .

وروى الترمذي من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا أتيو ، لواء الحمد بيدى ، وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر . قال ابن الأنبارى أرادلا أتبجح بهذه الأوصاف لكن أقولها شكراً ومنبها على أنعام ربى على .

وقد ذكر الحافظ ابن الجوزى فى الوفاء — مبيناً فضل النبي على سائر الأنبياء أن الله سبحانه أقسم بحياته وفى شرعه إنما تنعقد الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته وكلامه لابدون ذلك ولكن تعظيما لمقام سيدنا محمد ﷺ أقسم بحياته فقال تعالى : «لعمرك أنهم لفى سكرتهم يعمهون»[1] وإنما يقع القسم بالمعظم وبالمحبوب .

وقال ابن عقيل أن قوله لمحمد ﷺ «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله»[2] أعظم من قوله لموسى «واصطنعتك لنفسى»[3]

وذلك لأنه جعل اللام التى هى للملك أو للاختصاص واسطة بينه وبين موسى ولم يجعل بينه وبين محمد ﷺ واسطة .

---

(١) السفاريني لوامع الأنوار البهية ج ٢ ص ٢٩٨

(٢) الفتح الآية : ١٠ . (٣) طه الآية ٤١

وفى تفسير قوله تعالى: « لاأقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد »[١] .

المعنى أقسم بك لا بالبلد فإن أقسمت بالبلد فلأنك فيه .

قال ابن عقيل ياموسى اخلع نعليك ولا تجىء إلا ماشياً وقال يامحمد اركب البراق ولا تجىء إلا راكباً .

وقد أشار القاضى عياض فى كتابه الشفاء إلى أفضلية الرسول ﷺ على سائر الرسل الكرام وبيان فضله وشرفه عليهم . أن الله خاطب كل الأنبياء بأسمائهم فقال فى شأن آدم « يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة»[٢] وقال « ياإبراهيم اعرض عن هذا »[٣] وقال « ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى »[٤] « ياداود إناجعلناك خليفة »[٥] « ياعيسى بن مريم »[٦] « يازكريا إنا نبشرك »[٧] « يايحيى خذ الكتاب بقوة »[٨] .

ودعا نبينا محمد ﷺ بالتعظيم والتفخيم بوصف النبوة والرسالة إظهاراً لعظيم قدره وعلو منزلته .

فقال تعالى : « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً »[٩] وقال « يا أيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك »[١٠] .

ولما ذكر إسمه قرنه بالرسالة فقال :« ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل»[١١] .

وقال : « محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم»[١٢] .

---

(١) سورة البلد الآية ١ : ٢ (٢) سورة البقرة ٣٥
(٣) سورة هود ٧٦ (٤) سورة الأعراف ١٤٤
(٥) سورة ص ٢٦ (٦) سورة المائدة ١١٠
(٧) مريم ٧ (٨) مريم ١٢ (٩) الأحزاب ٤٥
(١٠) المائدة ٦٧ (١١) آل عمران ١٤٤ (١٢) الفتح ٢٩

وعندما ذكر الخليل إبراهيم ومعه النبي ذكر إبراهيم باسمه أما رسولنا فذكر بلقبه فقال : «إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي»[١] .

كما أن من فضائل النبي على سائر الأنبياء أن الأنبياء كانوا يجادلون أقوامهم عن أنفسهم فقال قوم نوح «إنا لنراك فى ضلالة» فقال نوح : «ليس بى ضلالة»[٢] وقال قوم هود : «إنا لنراك فى سفاهة» فقال هود: «ليس بى سفاهة»[٣] وقال فرعون : «إنى لأظنك ياموسى مسحوراً» — فقال موسى إنى لأظنك يافرعون مثبوراً[٤] — أى مصروفاً عن الحق مطبوعاً على قلبك» .

أما سيدنا محمد ﷺ فقد تولى الله المجادلة عنه فقال قومه هو شاعر فقال الله تعالى : «وما علمناه الشعر وماينبغى له»[٥] وقالوا عنه أنه كاهن فقال الله تعالى «ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون»[٦] وقالوا مجنون فقال تعالى: «ما أنت بنعمة ربك بمجنون»[٧] .

حتى قال الله تعالى : «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً»[٨] .

ولذلك فإنه من باب الأدب مع رسول الله وأتباعه لأمر الله سبحانه أن لايقال محمد أو أبو القاسم .

ذكر ابن الجوزى عن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى : «لا تجعلوا دعاء الرسول... الآية» قال كانوا يقولون يامحمد يا أبا القاسم

---

(١) آل عمران ٦٨
(٢) الأعراف ٦٠ ، ٦١
(٣) الأعراف ٦٦ ، ٦٧
(٤) الإسراء ١٠١
(٥) يس ٦٩
(٦) الحاقة ٤٢
(٧) القلم ٢
(٨) النور ٦٣

فنهاهم الله تعالى إعظاماً لنبيه فقالوا يا نبي الله يارسول الله . وحكى عن الحسن ونحوه رواه أبو نعيم . وهذا بخلاف الأمم السالفة فإنهم كانوا يخاطبون أنبياءهم بأسمائهم[1] .

هنا قد يرد سؤال سائل فيقول :

كيف تفضلون بين الأنبياء وقد قال الله تعالى فى القرآن لا نفرق بين أحد من رسله .

ويجاب عن هـــذا أن الآية ذكرت التفريق وهو غير التفضيل . إذ التفريق هو ما كان بين شيئين ، ومنه قوله تعالى : « وقرآنا فرقناه » .

أما التفضيل وهو تفضيل أحدهما على الآخر والمتفضل هو الذى يدعى الفضل على أقرانه ومنه قوله تعالى : « يريد أن يتفضل عليكم »[2] .

وعلى هذا يكون المراد بالتفريق بين الرسل كقولهم نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما تزعم اليهود حيث لايؤمنون بعيسى ولا سيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام وكذا النصارى فإنهم لايؤمنون بسيدنا محمد .

فالمنهى عنه التفريق بين الرسل أما تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض فمأمور به بدليل قوله تعالى « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » .

وقد يقال إن النبي ﷺ قال لا تفضـــلوا بين الأنبياء وقال لا تخيرونى على موسى : وقال لاينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس ابن متى » .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٧

(٢) المختار الصحاح الفاء مع الراء ، الفاء مع الضاد .

فالجواب عن هذا : إما أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلمه الله بأنه سيد الأولين والآخرين . فلما أعلمه أخبر به .

وإما أن يكون من باب التواضع والتأدب احتراماً لخله سيدنا إبراهيم عليه السلام والنهى عن تفضيل يؤدى لنقص فى المفضول أو خصومة أو فتنة .

وإما أن يكون النهى عن التفضيل فى النبوة نفسها وليس فى خصائصها وتوابعها .

يقول السفارينى والحاصل أنه ﷺ قال ذلك قبل العلم بتفضيل الله له على سائر الأنبياء والرسل مع مراعاة لعلو مراتبهم الباذخة وجلالة مناصبهم الشامخة ثم أعلمه الله تعالى بأنه سيد الأولين والآخرين وأفضل جميع الأنبياء والمرسلين وأمر بتبليغ ذلك فبلغه كما أمر لأن اعتقاد ذلك حق لازم وفرض جازم مع مجانبة التفضيل المؤدى إلى تنقيص المفضول ومراعاة تلك المراتب التى تدرك كنه حقائقها أكثر العقول[1] .

---

(١) لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٢٩٨

## عدد الأنبياء والرسل

القرآن الكريم ذكر فى آية الأنعام والبقرة ثمانية عشر رسولا ونبيا. فقال تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيي وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين [1] .

ويضاف على هذا العدد سبعة هم إدريس ، هود ، صالح ، شعيب ، صالح ذو الكفل آدم فيكون الذى ورد ذكرهم فى القرآن خمسة وعشرون نبياً ورسولا .

هذا ولا يجوز حصر الأنبياء فى عدد معين فإنه مامن أمة إلا وقد خلا فيها نذير ، لأن حصرهم يؤدى إلى أن يدخل فى عدادهم من ليس منهم أو يخرج من هو منهم فى الحقيقة .

وقد خاطب الله تعالى رسوله فقال : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » .

وقد ذكر ابن تيمية أنه يجب الإيمان بهم ويصح الإقرار بهم فى الجملة مع الكف عن عددهم .

وذكر أهل العقائد فى عقائدهم ما ذكره الإمام أحمد عن عددهم مستدلا بحديث عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أنه قال قلت يارسول الله

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٥

أى الأنبياء كان أول قال آدم قلت يارسول الله ونبى كان . قال نعم نبى مكلم قلت يارسول الله كم المرسلون قال ثلاثمائة وبضعة عشر جما غفيرا . وفى رواية أبى إمامة قال أبو ذر قلت يارسول الله كم وفاء عده الأنبياء قال مائة ألف وعشرون ألفا الرسل من ذلك ثلاثمائة وعشر جما غفيرا . رواه أحمد .

فكتب فأهل العقائد يستدلون بهذا الحديث على أن عدد الأنبياء ألف وعشرون نبيا ورسولا وأن الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر وأن الكتب المنزلة مائة وأربعة عشر كتابا .

ولكن الواجب الإيمان بهم جملة لقوله تعالى : «منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك» .

قال ابن تيمية فى كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» أن بنى إسرائيل كانوا أكثر الأمم أنبياء بعث إليهم موسى بن عمران عليه السلام بشريعة التوراة وبعث إليهم أنبياء كثيرون حتى قيل أنهم ألف نبي كلهم يأمرون بشريعة التوراة ولا يغيرون منها شيئا إلى أن جاء عيسى بشريعة أخرى غير فيها بعض شريعة التوراة بأمر الله عز وجل [1] والواجب الإيمان بهم إجمالا لقول النبى ﷺ لما سئل عن الإيمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته ورسله [2] .

---

(١) السفارينى ص ٢٦٥ لوامع الأنوار البهية جـ ٢

(٢) رواه البخارى فى باب الإيمان

## صفات الرسل

رسل الله هم أصفياء الله من خلقه ميزهم علــى سائر خلقه واجتباهم ليكونوا سفراء إلى عباده فهم هداة مرشدون إلى خير الدنيا والآخرة من اقتدى بهم فقد فلح ومن عاداهم فقد خسر.

ومن كانت تلك مهمتهم فلابد وأن يتصفوا بصفات عالية فى الخلق ومزايا فى الخلق ولذا فيجب لهم كل كمال بشرى يليق بهم فهم مبرءون من العيوب الخلقية فلا يكون فيهم ما ينفر الناس منهم كالأمراض المنفرة مثل الجذام والبرص أو العمى والشلل أو مرض عقلى كالجنون أويكون بهم بكم أو صمم إلى غير ذلك مما يراه الناس أنه نقص فى حق الأفراد العــاديين فمن باب أولى لا يتصف به من اصطفاهم الله لأعظم مهمة وأجل غاية.

كما يجب أن يتصفوا بكل كمال خلقى مثل الشجاعة والعدل والوفاء بالوعد والصبر والسخاء وكل ما يسمى فى التزين به فضيلة وفى البعد عنه رذيلة .

ولسنا نجد أجل وصف نستطيع أن نصف به هؤلاء القدوة من وصف العلى القدير فى كتابة الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فيقول الله تعالى عن سيدنا محمد ﷺ: « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »(١) وقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »(٢) ، وقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم »(٣) .

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٨
(٢) سورة الأنبياء آية ١٠٧
(٣) سورة القلم آية ٤

ولو تتبعنا تلك الأوصاف العاطرة مع بقية الرسل لوجدناه تعالى يقول فى حق إبراهيم عليه السلام: «إن إبراهيم لأواه حليم»[1].

وفى حق اسماعيل عليه السلام: «إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً»[2].

وفى حق موسى عليه السلام: «إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً»[3].

وفى حق إدريس عليه السلام: «إنه كان صديقاً نبياً»[4].

وفى حق زكريا: «وزكريا إذ نادى ربه رب لاتذرنى فرداً وأنت خير الوارثين، فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه أنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين»[5].

ويقول فى حق يحيى: «يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا»[6].

ويقول فى حق عيسى بن مريم عليه السلام: «قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركاً أين ماكنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا»[7].

---

(١) سورة هود آية ٧٥ (٢) سورة مريم آية ٥٤
(٣) سورة مريم آية ٥١ (٤) سورة مريم آية ٥٦
(٥) سورة الأنبياء آية ٨٩ ، ٩٠
(٦) سورة مريم آية ١٢ ، ١٥
(٧) سورة مريم آية ٣٠ إلى ٣٢

ولو ذهبنا وراء كل المعانى الفاضلة والأوصاف النبيلة والسجايا التى أسداها الله على رسله عليهم السلام لطال بنا المقام وحسبنا ما ذكرناه لبعضهم وهى أوصاف مشتركة القدر بينهم جميعاً فما يثبت لأحدهم يثبت لجميعهم ما لم تكن خاصية اختص بها رسول منهم دون غيره كما اختص سيدنا محمد رسول الله ﷺ بأنه الرحمة المهداة، وأنه خاتم النبيين وأنه الشافع والمشفع يوم القيامة.

وحسبنا من هذه الأوصاف العظيمة التى لو وجدت قاضياً عادلا يحكم بميزان العدل فيما يصف به القرآن أنبياء الله وما تصفه اليهودية المحرفة أو المسيحية الزائفة من أوصاف لا تليق بمن ينشد المعانى السامية فضلا عن أن تكون النبوة أو الرسالة الإلهية لا يسع من ينشد الحق إلا أن يهتف من أعماق قلبه آمنت بالله العلى القدير وآمنت بالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا خاتماً للرسالات الإلهية.

هذه وما ذكر من معـــالى أوصاف الخير والكمال وسمات العلى والسؤدد إذا وجدت فى بعض الأفراد صفة ما فإن الأنبياء تجتمع فيهم كل الصفات الحميدة.

وقد أوجب العلماء للرسل عليهم الصلاة والسلام صفات حصروها فى أربع وهى :

الصدق والأمانة، والتبليغ، والفطانة، وإنما كان الحصر فى هذه الصفات لأن جميع الأوصاف الأخرى ترجع إليها فهى أس الفضائل وملاك الأمور وإليها تعود سائر صفات الكمال وها نحن سنفصل الحديث فيما ذكر على وجه الحصر من أوصاف تجب للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الصفة الأولى : الصدق .

الصدق وهو ضد الكذب ، والضدان لا يجتمعان . والصديق بوزن السكيت هو الدائم التصديق . وهو أيضاً الذى يصدق قوله بالعمل ،ومنه قوله تعالى : « إنه كان صديقاً نبيا »[1]

ويعرف الصدق بأنه مطابقة الخبر للواقع .

ومطابقة الخبر للواقع نوعان :

أحدهما : مايكون فى الأخبار العادية التى لاتتعلق بدعوى الرسالة

فالصدق هنا معناه مطابقة الخبر للواقع بحسب الاعتقاد وذلك بأن يكون هو الغالب على الاعتقاد ولو لم يكن مطابقاً للواقع كاعتقاد النبي بأنه صلى الظهر كاملا أربع ركعات ولكنه فى الواقع قد وقع سهواً منه ولذا أجاب عن مايعتقده للسائل الذى سأله وهو ذو اليدين عندما سأله أقصرت الصلاة أم نسيت يارسول الله . فقال النبي — ﷺ — « كل ذلك لم يكن » أى لم أقصر الصلاة ولم أنس . فقال ذى اليدين .« بل بعض ذلك قد كان » ، فالنبي — ﷺ — أجاب على حسب مايعتقده وإن لم يكن مطابقاً للواقع وهو حصول السهو . وهذا لايقدح فى نبوته وإنما كان هذا لبيان حكم تشريعى وبيان كيف يعالج المسلم صلاته إذا وقع منه السهو .

(١) سورة مريم آية ٥٦

النوع الثانى : وهو مايتعلق بدعوى الرسالة وهو نوعان :

أحدهما : مايكون متعلقاً بدعوى الرسالة نفسها وهو مايجب وأن يكون مطابقاً للواقع والاعتقاد معاً لأنه يشكل القاعدة الرئيسية التى يعتمد عليها الوحى فقول النبي « إن الله أرسلنى إليكم » لابد وأن يكون صادق فى قوله واعتقاده والمعجزة شاهدة على ذلك .

وقد كانت هذه الصفة سمة من السمات التى اتصف بها نبينا - ﷺ - وآمن على أثرها المسلمون وعرف عند أعدائه أيضاً بأنه الصادق الأمين .

الثانى : مايتعلق بالأحكام التشريعية وهـــذا أيضاً يجب أن يكون مطابقاً للواقع والاعتقاد .

إذ لو حدث الكذب لضاعت الرسالة وكان كذبهم على الله والكذب محال فى حقة سبحانه وهو القائل : « وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى »[1] .

وماعدا هذين الأمرين من أمور الحياة العادية فإن الصدق فيها يكون بحسب الاعتقاد ، كما حدث فى حديث ذى اليدين — وفى حديث تأبير النخل حينما قال لو تركتموه لصلح فلم يصلح قال بعض العلماء أن هذا ومثله من قبيل الإنشاء لا الخبر[2]

---

(١) الآيات من سورة النجم رقم ٣ ، ٤ ، ٥

(٢) جوهرة التوحيد ص ١٣٩

## الدليل على وجوب اتصاف الأنبياء بالصدق :

لنا فى هذا دليلان أحدهما نقلى والآخر عقلى .

### أما الدليل النقلى :

قال تعالى : « وصدق الله ورسوله »(١) .

وقوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى »(٢) .

وقوله تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين »(٣)

### أما الدليل العقلى :

١ — أنهم لو لم يكونوا صادقين لكانوا كاذبين والكذب معصية والأنبياء معصومون من المعاصى .

٢ — أنه لو جاز عليهم الكذب لارتفعت الثقـــة فى أخبارهم ولم يصدقهم الناس فلا تتحقق الغاية من بعثتهم ويكون إرسالهم عبث والعبث محال على الله تعالى .

٣ — لو جاز عليهم الكذب الذى هو عدم مطابقة الواقع لجاز الكذب فى خبره تعالى لتصديقه إياهم بالمعجزة المنزلة منزلة قوله تعالى : «صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى» وتصديق الكاذب من العالم بكذبه محض كذب والكذب على الله تعالى محال .

أما وقد وثق الناس بأخبارهم وآمن برسالاتهم خلق كثير فدل على أنهم صادقون فيما يبلغونه .

---

(١) الأحزاب آية ٢٢ (٢) سورة النجم آية ٣، ٤
(٣) سورة الحاقة الآيات من ٤٤ إلى ٤٧

يقول ابن تيمية لا يكون الرجل مؤمناً حتى يقر بما جاء به النبي ﷺ وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فمن شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى فإن هذه حقيقة الشهادة بالرسالة إذ الكاذب ليس برسول فيما يكذبه وقد قال الله تعالى : ( ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ) : وهو عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه وبالجملة فهذا معلوم بالاضطرار[1] .

وفى قصة هيرقل مع أبى سفيان عند سؤاله عن أوصاف الرسول محمد ﷺ دليل على اتصافهم بالصدق .

يقول هيرقل : هل كنتم تتهمونه بالكذب ؟ أى على الناس .

قال أبو سفيان . لا وإن كان ليدعى الأمين — فقال هيرقل لقدعلمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله تعالى .

الصفة الثانية : الأمانة :

الأمانة وهى ضد الخيانة وقد تأتى بمعنى الفرائض المفروضة كما فى قوله : « إنما عرضنا الأمانة » . أو النية التى يعقدها فيما يظهره باللسان من الإيمان ويؤديه من جميع الفرائض المفروضة فى الظاهر لأن الله تعالى ائتمنه عليها . فمن أضمر من التوحيد مثل ما أظهر فقد أدى الأمانة .

وفى اللغة — الأمانة تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والأمان .

---

(١) السفارينى لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٣٠٧

وفى حق الأنبياء والرسل عليهم السلام : حفظ الله ظواهر الأنبياء وبواطنهم من التلبس بفعل منهى عنه أو ترك مأمور به .

يقول صاحب الجوهرة : حفظ ظواهرهم وبواطنهم ولو فى الصغر من التلبس بمنهى عنه ولو نهى كراهة أى كونهم لا يتصور أن يكونوا عند الله إلا كذلك[١] .

ومن هذا التعريف يتبين لنا أنه يتناول جانبان :

الأول : حفظ الله الأنبياء فيما أئتمنهم الناس عليه من حقوق واختصاصات .

الثانى : عصمة الأنبياء من كل ما يخل أو يخدش كرامتهم من التلبيس بمحرم أو بمكروه .

أما المعنى الأول ، فدليله : أن الرسل لو لم يكونوا أمناء على حقوق الناس وواجباتهم لانتزعت ثقة الناس فيهم ولعرضوا أنفسهم للتشنيع عليهم فلا يكونوا أمناء بحق على دين الله فتضيع الفائدة من إرسالهم وقد جاء على لسان كل نبي حرصه على إيمان قومه . قال تعالى : « إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ومالهم من ناصرين »[٢] .

وقد دلت النصوص الدينية أن الرسل كانوا حرصاء على ثقة الناس فيهم فقال تعالى على لسان نوح عليه السلام : « إنى لكم رسول أمين »[٣] .

---

(١) شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام بن إبراهيم اللقانى المالكى تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ص ١٧٩ ط السعادة بمصر

(٢) سورة النحل آية ٣٧

(٣) سورة الشعراء آية ١٠٦ ، ١٠٧

ويقول عن هود: «إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إنى لكم رسول أمين»[١].

وعن صالح: «إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين»[٢].

وعن لوط: «إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إنى لكم رسول أمين»[٣].

وعن شعيب: «إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إنى لكم رسول أمين»[٤].

وعن موسى عليه السلام: «أن أدوا إلى عباد الله إنى لكم رسول أمين»[٥].

وقد كان نبينا محمد ﷺ يلقب قبل بعثته بالأمين.

ومن هذا ندرك أن الأمانة صفة مشتركة عامة بين الأنبياء جميعهم.

فهم معصومون ظاهراً وباطناً.

أما عصمتهم ظاهراً فمن الكذب والزنا وشرب الخمر وإيذاء الناس.

وعصمتهم باطناً من الغش والخديعة والكبر والحسد والنفاق ومن كل ما يكدر باطنهم.

أما المعنى الثانى: فهو عصمتهم عن ترك مأمور به أو فعل منهى عنه وهذا الأمر يتعلق بالرسالة ذاتها.

---

(١) الشعراء آية ١٢٤، ١٢٥

(٢) سورة الشعراء آية ١٤٢، ١٤٣

(٣) الشعراء آية ١٦١، ١٦٢

(٤) سورة الشعراء آية ١٧٧، ١٧٨

(٥) سورة الدخان آية ١٨

والأمانة والعصمة بمعنى واحد ولهذا فان العصمة لغة مطلق الحفظ ، وفى الاصطلاح حفظ الله للمكلف من الذنب من استحالة وقوعه[١] .

الدليل على عصمتهم من المخالفات التى تؤدى إلى وقوع الذنب أو ترك أمر أو فعل نهى .

وللعلماء على ذلك أدلة نذكر منها :

الدليل النقلى : فهو ما تقدم ذكره من الآيات القرآنية .

أما الدليل العقلى :

١ — أنهم لو لم يكونوا معصومين لفعلوا خلاف ما يطلب منهم من ترك أمر أو فعل نهى ولكانوا حينئذ خائنين — ولو جازت عليهم الخيانة ما أمرنا الله باتباعهم لأن الله لا يأمر باتباع الخائنين . قال تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله »[٢] .

وقوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »[٣] .

وقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول »[٤] .

٢ — أنهم لو خانوا بترك ما أمروا بتبليغه أو بفعل منهى عنه لكنا مأمورين بذلك لأن الله أمرنا باتباعهم وبذلك يكون الفعل مأموراً به منهى عنه فى وقت واحد وذلك محال فى حقه تعالى فاستحال ما أدى اليه من جواز خيانتهم بفعل منهى أو ترك مأمور به .

٣ — أن الله تعالى قال « لا ينال عهدى الظالمين » فلو تركوا ما أمرهم الله به أو فعلوا ما نهاهم عنه لكانوا ظالمين والظالمون لا ينالون عهد الله فثبت لهم الأمانة واستحالت فى حقهم الخيانة .

---

(١) شرح البيجورى على الجوهرة ص ١٦٦
(٢) سورة آل عمران آية ٣١
(٣) سورة الأحزاب آية ٢١ (٤) سورة المائدة آية ٥٩

## آراء العلماء فى عصمة الأنبياء

قد اختلف العلماء فى عصمة الأنبياء .

فالذى عليه جمهور الأشاعرة والمعتزلة إلى أنه لا يمتنع عقلا صدور المعصية من الأنبياء قبل البعثة سواء كانت كبيرة أو صغيرة[1] .

وذهب القاضى عياض إلى أن تصور المعصية لا يكون إلا بعد تقرير الشرع إذ لا يعلم كون الفعل معصية إلا من الشرع وعلى هذا يمتنع صدور المعصية بعد البعثة أما قبلها فليس بممتنع حيث لا شرع يبين المعصية .

وقال آخرون : أن الأنبياء معصومون عن الذنوب الكبائر عمداً قبل البعثة وبعدها وذلك لأن الكبائر إما أن تكون شركا وهو أكبر الكبائر وإما أن تكون غيره كالقتل والزنى والسرقة وغير ذلك من الكبائر — والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين مما يدنس شرفهم قبل البعثة وبعدها أما قبلها فلأن ذلك يوجب تحقيرهم فى أعين الناس ونفرة الناس منهم . أما بعدها فانه يكون مخالفاً لما جاءوا به فتكون أفعالهم مخالفة لشريعتهم إذ الأنبياء يأتون بمحاسن الأخلاق وجميل الشيم ولذا فانه من الضرورى أن يكونوا معصومين من الذنوب الكبيرة قبل البعثة وبعدها .

وهذا هو الرأى الأسلم فى أن الأنبياء لا يجوز صدور الكبيرة منهم قبل البعثة أو بعدها وإن كان هناك من يجوز صدور الكبائر منهم قبل البعثة لا بعدها .

---

(١) شرح السنوسية الكبرى ص ٣٧٠

يقول الإمام محمد عبده : واختلفوا فى الكبائر فمن قائل أنها جائزة قبل البعثة لا بعدها ومن قائل أنها ممتنعة عليهم قبل البعثة وبعدها[١] .

هذا ويجب أن نعرف أن صدور الكبائر يمتنع فى حق الأنبياء قبل البعثة وبعدها على رأى أغلب جمهور العلماء .

وذلك لأن صدور الكبيرة منهم سواء كانت قبل البعثة أو بعدها عمداً أو سهواً يلزم عليه أمور لا تليق بهم منها :

أولا : أنه لو صدرت الكبيرة منهم قبل البعثة أو بعدها لوجب النفرة المانعة من اتباعهم فتفوت المصلحة من إرسالهم — هذا ما ذهب إليه السعد التفتازانى حيث قال والحق منع ما يوجب النفرة كعهر الأمهات والفجور والصغائر الدالة على الخسة .

وهو رأى المعتزلة أيضا ووافقهم على ذلك الشيعة حيث منعوا صدور الصغيرة والكبيرة قبل الوحى وبعده غير أنهم جوزوا إظهار الكفر تقيه[٢] .

ثانياً : لو صدرت منهم الكبيرة لكنا مأمورين باتباعهم وهذا يؤدى إلى التناقض إذ يكون الفعل الواحد مأموراً به ومنهياً عنه فى وقت واحد . والله سبحانه لا يأمر بالفحشاء .

ثالثاً : لو صدرت منهم الكبيرة لكانوا أقل من عصاة الأمة وهذا غير جائز ، لأنهم أعلم بقبح الفاحشة أكثر من غيرهم فصدور الفاحشة منهم أقبح لأن السيئة فى ذاتها سيئة وهى فى حق من اصطفاهم الله وكلفهم بتبليغ رسالته تكون أسوأ .

---

(١) الشيخ محمد عبده رسالة التوحيد ص ٤٨

(٢) لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٣٠٤

رابعاً : لو صدرت منهم الكبيرة لكان إيذاؤهم غير محرم وقد لعن الله الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات فقال تعالى : «إن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً»[1] .

خامساً : ولو صدرت منهم الكبيرة لكانوا فاسقين فتكون شهادتهم غير مقبولة فقد قال الله تعالى : «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا»[2] .

ومن هنا ندرك أن العلماء قد اتفقوا على عدم صدور الكبيرة بعد البعثة أما قبلها فرأيان أصحهما امتناعها قبل البعثة وبعدها .

أما صدور الصغائر من الأنبياء :

فإن الصغائر معصومون منها قبل البعثة وبعدها عمداً أو سهواً إذا كانت تشعر بخسة تدل على دناءة النفس وضعف فى شخصيتهم مثل سرقة لقمة أو تطفيف بحبة فى مكيال وذلك لعلو هممهم وسمو نفوسهم عن فعل الدنية .

أما إذا كانت الصغيرة لا تشعر بخسة فيمتنع عليهم فعلها عمداً أو سهواً فتجوز عليهم قبل البعثة وبعدها .

أما صدور السهو أو النسيان منهم فجائز إذا كان فى الأخبار العادية .

أما فيما يتعلق بالوحى فإنه يستحيل أن يصدر منهم سهواً أو نسياناً فيما أمروا بتبليغه . أما السهو فى الأفعال البلاغية فيجوز صدوره منهم إذا كان فى التشريعات ، كما فى حديث ذى اليدين .

أما النسيان فهو مستحيل فى حقهم سواء كان فى البلاغيات قولية

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٧ . (٢) سورة الحجرات آية ٦ .

كانت أو فعلية — وذلك لأن النسيان هو مخالفة الصواب بدون الرجوع إليه ولذا فهو ممتنع فى حقهم . أما السهو فهو مخالفة الصواب مع الرجوع إليه ولذا فهو جائز عليهم فى غير الأمور البلاغية .

## شبهات وردت فى حق الأنبياء مما يوهم عدم عصمتهم .

الأنبياء كما قدمنا معصومون من ارتكاب الذنوب فإذا ورد من النصوص مما قد يوهم عصمتهم :

فإن كانت أخبار آحاد حملت على خطأ الراوى وهو أهون من القول بمعصية الرسول وإن كانت أخباراً متواترة حمل على التأويل إن كان يقبله وإلا فإنه يقال إنه كان قبل البعثة — أو من باب ترك الأولى على سبيل أن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وها نحن سنتناول بعض النصوص التى وردت مما قد توهم عدم عصمة الأنبياء .

### أولا : ما ورد فى حق آدم عليه السلام :

ورد من النصوص الدينية على أن آدم نهاه الله عن الأكل من الشجرة فخالف النهى وأكل من الشجرة فعوقب بالطرد من الجنة والهبوط إلى الأرض واعترف بخطئه وتاب واستغفر الله عن هذا الخطأ . يصور القرآن الكريم هذا الفعل من آدم عليه السلام فيقول الله تعالى : «وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »[1] .

وقد أخذ من يقولون بعدم عصمة الأنبياء بظاهر الألفاظ .

---

(١) سورة طه آية ١٢١ .

فيقولون إن آدم قد خالف ما أمره الله به والمخالفة معصية .

٢ — أنه اعترف وزوجه بأنه كان ظلماً فقالا ربنا إننا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين [١] فقد سميا فعلهما ظلماً وطلبا التوبة منه فدل على أنه معصية .

٣ — أن الله سمى مخالفتهما ظلم قال تعالى : « ولا تقربا هـذه الشجرة فتكونا من الظالمين » [٢] .

ويجاب عن هذه الشبهة :

أولا : أن أكل آدم من الشجرة كان قبل البعثة إذ لم يكن له ولد يبعث إليه ويبلغه الرسالة وأنه أكل ناسياً والنسيان جائز قبل البعثة وهذا يؤيده قوله تعالى : « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » والاجتباء هو الاصطفاء بالنبوة .

ثانياً : أن آدم قد تاب من فعله هذا . فالكريم إذا ما نهى عبده عن فعل شيء ما ففعله العبد ناسياً فسأله العفو والصفح . فإن كرمه سيمنعه من وقوع العقاب على عبده والله أكرم من أن يأخذ بجريرة طلب منه الصفح عليها .

وفي مثل هذه الحالة يساق قول النبي ﷺ فيما يحكيه عن رب العزة أنه قال : « أذنب عبد فقال اللهم اغفر لي ذنبي فقال الله عز وجل أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب، فقال أي رب اغفر لي ذنبي فقال الله تعالى أذنب عبدى ذنباً وعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب . فقال يارب اغفر لي فقال الله تعالى أذنب عبدى فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . اعمل ما شئت فقد غفرت لك .

(١) سورة طه آية ١٢٢ . (٢) سورة البقرة آية ١٣٥ .

والمراد بهذا الحديث حفز الهمم لعمل الصالحات . والبعد عن الجريمة مهما حدث من الإنسان ، فإنه يجب أن يعلم أن له ربا يغفر الذنوب والله يطلب من عباده أن يسألوه المغفرة إذا أذنبوا ، قال تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً »(١) .

ثالثاً : أن آدم فهم أن الأكل كان من شجرة بعينها فأكل من شجرة أخرى من جنسها فكان هذا اجتهاد منه لاعن سابق تعمد وإصرار على المخالفة .

يقول القرطبي : « واختلفوا كيف أكل مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى :( فتكونا من الظالمين ) فقال قوم أكلا من غير التى أشير إليها فلم يتأولا النهى واقعاً على جميع جنسها وقيل أكل ناسياً وهو الصحيح لإخبار الله تعالى فى كتابه العزيز بذلك حتما وجزماً فقال تعالى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً »(٢) .

ولكن لما كان الأنبياء يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعلو منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكر النهى تضييعاً صار به عاصياً أى مخالفاً(٣) .

هذا وجمهور مذهب أهل السنة أن الذنوب إذا كانت غير مشعرة بخسة فإنها تجوز أن تقع من الأنبياء قبل البعثة — وهذا ما حدث بالنسبة لآدم عليه السلام .

وعلى كل فما وقع من آدم حكاية لصورة حقيقية وعما سيلاقيه النوع الإنسانى فى حياته الدنيا وهذه سنة الله فى عباده ولن نجد لسنة الله تبديلا .

---

(١) سورة الزمر آية ٥٣ (٢) سورة طه آية ١١٥
(٣) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٢٠٦

ثانياً : ورد فى حق آدم وحواء ما يوهم وقوع الشرك منهما :

قال تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به . فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن أتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين » فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون »[1] .

جمهور المفسرين إلى أن المراد بالنفس الواحدة هى آدم وجعل منها زوجها حواء ليسكن إليها ويأنس بها ويطمئن وكل هذا كان فى الجنة ثم بعد هبوطهما إلى الأرض وحدث حمل لحواء من غير عهد لها به وكان الحمل خفيفاً فى أول أمره مما لم يمنعها من مباشرة أعمالها . فلما ثقل الحمل وبرز — ينقل القرطبى عن الكلبى فى هذا مما هو بعيد عن الصواب .

أن إبليس أتاها فى صورة رجل فقال لها ما هذا الذى فى بطنك قالت ما أدرى ، قال إنى أخاف أن يكون بهيمة فقالت ذلك لآدم عليه السلام فلم يزالا فى هم من ذلك ثم عاد إليهما فقال هو من الله بمنزلة فإن دعوت الله فولدت إنساناً أفتسمينه باسمى فقالت ما اسمك فقال اسمى الحارث فلما وضعته سمته عبد الحارث[2] .

وهذا من قبيل الإسرائيليات التى لا يعبأ بها وقد أثار المشككين فى عصمة الأنبياء شبهتهم فقالوا إن آدم قد وقع منه الشرك وهو معصية ، واستدلوا على دعواهم بما يلى :

١ — قد تقدم ذكر آدم وحواء فيكون الشرك مضافاً إليهما .

---

(١) سورة الأعراف الآيات ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٤٠ — دار الكتب المصرية .

٢ — أنهما ذكر بلفظ التثنية فيكون الشرك قد وقع منهما .

٣ — أن الله سمى فعلهما شركا وهو كبيرة بلا شك .

الجواب عن هذه الشبهات بما يلي :

أولا : إن قولهم لم يتقدم ذكر أحد إلا آدم وحواء فيكون الشرك وقع منهما ، فقد تقدم ذكر من خلق منهما فى قوله تعالى : « وهو الذى خلقكم من نفس واحدة » وذلك عبارة عن ولده وقد تقدم ذكر ولد آدم بقوله تعالى : « فلما آتاهما صالحاً » فالمذكور غيرهما — فكم صار بأن يرجع إليهما قوله جعلا له شركاء دون الرجوع إلى ولدهما .

ثانياً : إن القول بأن الكلام جرى على التثنيـــة وولدهما ذكر بلفظ الجمع .

يقال إن رجوع الكلام إلى آدم وحواء ليس بأولى من رجوعه إلى ولده .

وقد دل على الأولى الرجوع إلى ولدهما قوله تعالى فى آخر الآية : « فتعالى الله عما يشركون » . بلفظ الجمع ، وإذا تقدم ذكر أمرين ودل الدليل فى أحدهما على امتناع الحكم عليه — فالواجب أن يرد ذلك الحكم إلى المذكور الآخر اضطراراً . وقد علم أن آدم وحواء لا يجوز أن يكون قد حدث منهما الشرك حقيقة فلم يبق إلا الرجوع إلى المذكور وهو الذرية .

ثالثاً : أن حصول الشرك ليس على حقيقته وإنما كان شركا فى التسمية والصفة لا فى العبودية والربوبية قال أهل المعانى أنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدهما عبد الحارث بل أنه من قبيل التسمية كما يسمى الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له لا على أنه عبد والضيف ربه والعرب تستخدم هذا التعبير .

يقول حاتم الطائى :

وإنى لعبد الضيف ما دام ثاويا     وما فى إلا تيك من شيمة العبد

وأحسن ما قيل فى تأويل الشرك الوارد فى الآية أنه يستحيل أن يكون قد وقع من آدم وحواء وذلك لأمور :

١ — أن قوله « فتعالى عما يشركون » فدل أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة .

٢ — أنه تعالى ذكر بعد ذلك الرد على عباد الأصنام فى قوله تعالى : ( أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون[1] فيكون الشرك منسوبا إلى الذرية .

٣ — ولو كان المراد به إبليس لكان الخطاب بمن وليس بما لأن العاقل يعبر عنه بصيغة من .

٤ — أن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها — وهو أشد الناس معرفة بإبليس فكيف أن آدم لم يعرف اسمه الحرث الذى سمى إبليس به نفسه حتى يستطيع خداعه والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

فهــذا الذى ذكرناه ينفى عن آدم وحواء أن يكون قد وقع منهما الشرك وأنهما سميا ابنهما باسمه . وأن المعنى أنهما طالبا أن يأتيهما الله ابناً صالحاً سليما سويا كما أراده . وهذا لا يمنع أن يكون الشرك قد وقع منه ومن ذريته بعد . أو يحتمل أن الخطاب لقريش الذين كانوا فى عهد الرسول ﷺ وهم آل قصى وهو المراد فى قوله خلقكم من نفس واحدة » وهو قصى وجعل منها زوجها عربية قريشية لا أنه خلقها منه .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٩١ .

فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركا فيما أتاهما ، أى أشركا فى تسميته فسموا أبنائهما بعبد اللات ، وعبد العزى أسماء الأصنام وعبد مناف وعبد قصى وجعل الضمير فى يشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهم فى الشرك .

ويحتمل التأويل على فرض رجوع الضمير فى جعلا له شركاء « إلى آدم وحواء ، أنهما لما آتاهما الولد الصالح عزما على أن يجعلاه وقفاً على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الإطلاق لكنهما أحياناً كانا ينتفعان به فى مصالحهما الدنيوية وتارة يأمرانه بخدمة الله وطاعته وهذا العمل وإن كان قربة وطاعة إلا أنه من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين. ودليل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام عن رب العزة : « أنا أغنى الأغنياء عن الشرك فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى تركته وشريكه » .

وأنهما سميا ابنهما عبد الحارث لأجل اعتقادهم أنه إنما سلم من الآفات والأمراض بسبب دعاء ذلك الرجل المسمى بالحرث فقد سمى المنعم عليه بعبد المنعم ـ وهذا من قبيل الاشتراك فى التسمية فقط لا غير ومن هنا نعلم أن آدم لم يرتكب كبيرة لا قبل البعثة ولا بعدها .

## ما ورد فى حق إبراهيم عليه السلام :

نسب إلى إبراهيم عليه السلام أنه وقع منه الشرك فى قوله « هذا ربى » وهذا يقتضى أنه مشرك وهذا بناءاً على ما فهم من ظواهر الآية وهذا الظاهر غير مراد فى قوله تعالى: « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى . فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما

تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين »[1] .

فظاهر الآيات تفيـــد أن إبراهيم قد وقع منه اعتقاد ألوهية الكواكب فيكون مشركا . وهذا الظاهر غير مراد وباطل من وجوه :

أولا: أن إبراهيم أراد أن يقيم الحجة على قومه فجاراهم على معتقدهم لينتزع الدليل على بطلان ألوهية الكواكب من أفواههم فيكون حجة عليهم ولم يكن إبراهيم يعتقد ألوهيتها على الحقيقة وذلك لأمور :

١ — أن إبراهيم كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة بدليل ما ذكر قبل هذه الآية بأنه كان من الموقنين بعد ما رآه الله ملكوت السموات والأرض فلا يعقل أن من كان هذا حاله يعتقد بألوهية الكواكب وأن الفاء فى قوله : فلما جن عليه الليل تفيد الترتيب وهو يفيد أن هذا وقع بعد أن كان من الموقنين .

٢ — أن إبراهيم كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة ودليل ذلك أنه قال لأبيه أتتخذ أصناما آلهة .

٣ — أنه دعاه إلى ترك عبادة الأصنام والإيمان بالتوحيد مستخدما مع أبيه وقومه الرفق فى الدعوة فقال له يا أبت لم تعبـــد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا — يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا — يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا[2] .

---

(١) الآيات من سورة الأنعام ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ .
(٢) سورة مريم آية ٤٢ إلى ٤٥ .

وفى هذا المقام انتقل إلى الخشونة والعنف — والمعروف أن أسلوب الدعوة يبدأ باللين والرفق قبل العنف فدل على أن إبراهيم قد عرف ربه قبل هذه الواقعة .

٤ — أن الله سبحانه ذكر أن إبراهيم يستحيل أن يكون قد مر على قلبه مجرد الشك فى ألوهية الله واعتقاد ألوهية الكواكب فقال فى شأنه: «إذ جاء ربه بقلب سليم»[١] وقوله تعالى : «ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين»[٢] .

ثانياً : أن ابراهيم أراد بقوله — هذا ربى — على سبيل الاستهزاء كأنه يقول هذا ربى على زعمكم واعتقادكم ذلك الجسم المحدود وهذا نظيره قوله تعالى: «وانظر إلى إلهك الذى ظللت عليه عاكفاً» وقوله تعالى: «ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون»[٢] وكما يقال للذليل الذى ساد قوماً : هذا سيدكم .

٢ — أو أنه من قبيـــل الاستفهام الإنكارى كأنه قال أهذا ربى وأسقط حرف الاستفهام لدلالة الكلام عليه .

وأحسن ماقيل فى هذا أن إبراهيم أراد أن يستدرج قومه على سبيل الحجة ومقصوده من ذلك ذكر الدليل على إبطاله وفساده وأنه لم يجد طريقاً يسلكه فى دعوتهم غير هذا الطريق .

فإبراهيم لم يرتكب كبيرة لاقبل البعثة ولا بعدها .

ثانياً : نسب إلى إبراهيم عليه السلام أنه قال «رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى»[٣] الآية تفيد بحسب

---

(١) سورة الصافات آية ٨٤ (٢) سورة الأنبياء آية ٥١

(٣) البقرة / ٢٦٠

ظاهرها أن إبراهيم شك فى قدرة الله تعالى وهـــذا يتنافى مع العصمة وذلك لأمور :

١ — أن إبراهيم كان شاكا فى قدرة الله تعالى ولذا فقد طلب أن يريه كيفية إحياء الموتى .

٢ — أن إبراهيم شك فى البعث وهو الإعادة مرة ثانية فيكون كافراً .

٣ — ورد فى الخبر ما يفيد حصول الشك من إبراهيم فى قول النبى ﷺ نحن أحق بالشك من ابراهيم ... الحديث .

وهذا يتنافى مع ماهو ثابت من عصمة للأنبياء عليهم السلام .

ويجاب عن هذا :

١ — أن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكا فى قدرة الله تعالى ولا يتصور حدوث ذلك وهو يخاطب ربه إذ كيف يخاطبه وهو شاك فيه .

وجمهور المفسرين على أن إبراهيم لم يكن شاكا فى إحياء الله للموتى وإنما طلب المعاينة وذلك أن النفوس مستشرفة إلى ما أخبرت به ولهذا قال عليه السلام « ليس الخبر كالمعاينة » رواه ابن عباس ولم يرو له راو آخر غيره — ولهذا يقول الأخفش لم يرد رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين . ليزداد يقيناً على يقين .

أما عن سؤال إبراهيم — بكيف — فإن كيف يسأل بها عن حالة شىء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول — وكيف للاستفهام والاستفهام هنا عن هيئة الأحياء الذى هـــو متقرر وموجود ، فإذا ما قلت عن أمر معلوم ، كيف يبع الدكان مثلا — فالبيع متقرر وحدث بالفعل .

والسؤال عن الهيئة أو الصفة التى يبعث بها وسؤال إبراهيم بهذه الكيفية

٢ — أن إبراهيم لم يكن شاكا فى البعث ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى — ولو كان شاكا لم يصح ذلك وأن قوله ليطمئن قلبى — إنما هو كلام عارف يطلب المزيد من المعرفة والتى توصل إلى عين اليقين — ولو كان إبراهيم شاكا لكان غير عارف بأنه نبى إذ النبوة لاتعرف إلا بعد الإيمان بوجود الله وقدرته .

٣ — أما الحديث الوارد عن النبى ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » فالمراد به نفى الشك بالكلية عن إبراهيم عليه السلام ومعناه لو كان إبراهيم شاكا لكنا أحق بالشك منه — ونحن لانشك فإبراهيم عليه السلام أحرى أن لايشك — والشك هو تردد بين أمرين لامزية لأحدهما على الآخر . وهذا هو المنفى — وإحياء الموتى — يثبت عن طريق السماع وإبراهيم أعلم الناس بذلك فالشك منفى عن من تثبت قدمه فى الإيمان فكيف بمرتبة النبوة والخلة .

وقال آخرون فى تأويل هذه الآية فقالوا :

إن إبراهيم سأل ربه عند البشارة بأنه اتخذه خليلا فسأل الله أن يريه علامة على ذلك ليطمئن قلبه على هذا الاصطفاء ويكون ذلك عنده من اليقين مؤيداً للبشارة .

وعلى هذا يكون إبراهيم كغيره من الأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر التى فيها رذيلة باتفاق جمهور المسلمين .

ثالثاً : مانسب إلى إبراهيم من أنه كذب على قومه حينما سألوه عن تكسيراً آلهتهم . فقال بل فعله كبيرهم هذا[1] مع أن إبراهيم هو الذى فعل .

---

(١) سورة الأنبياء آية ٦٣

وهذا كذب وهو عدم مطابقة الخبر للواقع ، وإبراهيم قد كذب وهو مما ينافى عصمة الأنبياء .

ويجاب عن هذا : أن إبراهيم أراد أن يبين ماعليه قومه من الضلال فى عبادتهم للأصنام فقال مستهزئاً بهم مبيناً أن من لايتكلم ولا يعلم ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه مضرة الآخرين لا يستحق أن يعبد .

والكذب لا يكون مذموماً إلا بما يترتب عليه من المساوىء أما إذا كان غرض المتكلم حسن وقامت قرينة على ذلك فإن ذلك يكون من باب المعاريض وفى المعاريض مندوحة عن الكذب أى فسألوهم إن نطقوا ، وفى كلامه اعتراف ضمنياً بأنه هو الفاعل لأنه عدده على نفسه فى أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة وقوله بل فعله كبيرهم هذا — فكأنه يقول لهم إذا كانوا لاينطقون ولا يملكون ضراً ولا نفعاً فلم تعبدوهم ، فتقوم عليهم الحجة والإلزام ، يقول القرطبى: ولهـــذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه فإنه أقرب فى الحجة وأقطع للشبهة[1] وهذا أحسن ماقيل فى نفى الكذب عن إبراهيم عليه السلام .

وعلى فرض أنه تعمد إخبارهم بغير الواقع فإن هذا ليس كبيرة يترتب عليه مضرة فإنه لا مصلحة لإبراهيم إلا هدايتهم وصرفهم عن عبادة الأوثان والتى لو تحققت لفازوا فى دنياهم وأخراهم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٩٥ — دار الكتاب العربى — القاهرة .

ماورد فى حق موسى عليه السلام :

نسب إلى موسى أنه قتل القبطى وذلك جرياً على ظاهر الآية فى قوله تعالى : « ودخل المدينــة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان . هذا من شيعته وهذا من عدوه . فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه . فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين »[1].

وقد احتج الطاعنون فى عصمة الأنبياء عليهم السلام عامة وبما يقدح فى عصمة موسى عليه السلام بهذه الآية قائلين إن القتل وقع من موسى وهو كبيرة من الكبائر واستدلوا على ذلك بأن القبطى إما أن يكون مستحقاً للقتل أو لا فإن كان غير مستحق للقتل فيكون قتل ظلماً وإن كان مستحقاً للقتل .

١ ــ فلم قال موسى أنه من عمل الشيطان .

٢ ــ أن مافعله موسى كان ظلماً طلب المغفرة منه .

٣ ــ اعترف موسى بأن مافعله كان ضلالا فقال فعلتها إذاً وأنا من الضالين .

ويجاب عن هذا :

بأن الذى فعله موسى أنه وكز القبطى والوكز غير القتل إذ الوكز هو الدفع بأطراف الأصابع ، وهذا لا يعقل أن يؤدى للقتل وقد قرأ ابن مسعود فلكزه موسى واللكز يكون فى الظهر وعلى كل فإن موسى

---

(١) سورة القصص آيات : ١٥ ، ١٦ ، ١٧

لم يرد قتله متعمداً ، وعلى القراءة الأولى يكون المعنى وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه — وهى لا تقتل فى الغالب .

واستدل بحديث رواه مسلم عن سالم بن عبدالله أنه قال يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة سمعت أبى عبدالله بن عمر يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الفتنة تجىء من هاهنا وأومأ بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان ، وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل : ( وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ) ويحتمل أن يكون هذا قبل البعثة .

١ — أما أنه قال هذا من عمل الشيطان ، فيحتمل أن الله أباح قتال الكفار ولكن يؤخره إلى زمن آخر فلما فعل موسى ما ترتب عليه القتل فيكون قد ترك المندوب وخلاف الأولى . فيكون المعنى أن إقدامه على ترك المندوب من عمل الشيطان أو يحتمل أن عمل المقتول نفسه من عمل الشيطان بكونه مخالفاً لله تعالى فيكون مستحقاً للقتل . والإشارة إليه يدل على أن المقتول من حزب الشيطان وجنده .

٢ — أما قولهم إن موسى قال « رب إنى ظلمت نفسى » فيكون معترفاً بالذنب وهو معصية — فيجاب عنه أنه لم يكن هنـــاك ذنب وإنما تقصير من موسى بأن حرم نفسه ثواب المندوب ولهذا قال فاغفر لى ترك هذا المندوب . أو أنه طلب من الله أن يستره عليه حتى لا يعلم فرعون فيقتله به .

٣ — أما أنه قال إنى كنت ضالا حتى فعلتها فإن معناه أنه كان متحيراً لايدرى ماذا يفعل .

وعلى كل فإن موسى لم يحدث منه القتل عمداً أو خطأ بل أنه ترك

الأولى فلعله كان يستطيع أن يخلص الإسرائيلي من يد القبطي بدون الوكز ولكنه ترك الأولى فلجأ إلى الاستغفار .

وأن إعانة موسى للاسرائيلي على القبطي كانت طاعة لامعصية إذ لو كانت معصية لما قال رب بما أنعمت على فان أكون ظهيراً للمجرمين ) .

فلو كانت معصية لقيل بما أنعمت على ولن أكون مواظباً على تلك المعصية . ويحتمل أن يكون طلب الدعاء من الله أن يعينه على أن لا يكون ظهير للظلمة والفسقة .

وأن ماذكر في قوله من عمل الشيطان وأنه فعله وهو من الضالين فإن ذلك ناشيء من شدة تأثر نفسه الكريمة وحساسيتها وأنه يلوم نفسه على العمل الصغير الذى وقع منه .

أولا : ما ورد في حق سيدنا محمد ﷺ :

أما ماورد من نسبة الذنب إلى سيدنا محمد ﷺ سيد الأولين والآخرين في قوله تعالى : ( إنا فتحنا لك فتحاً مبينا — ليغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما أخر »[1] .

قيل في تفسير ماتقدم من ذنبك وما تأخر بعدها .

ولذا فقد ذهب الطاعنون في عصمة الأنبياء إلى القول أن الذنب المتقدم هو يوم بدر حيث دعا النبي ﷺ ربه قائلا : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد في الأرض أبدا فأوحى الله إليه من أين تعلم أنى لو أهلكت هذه العصابة لا أعبد .

وأما الذنب المتأخر فيوم حنين حيث قال النبي لعمه العباس ولابن عمه أبي سفيان ناولاني كفاً من حصباء الوادى فناولاه فأخذه بيده ورمى به في وجوه المشركين وقال شاهت الوجوه حم لاينصرون فانهزم القوم

(١) سورة الفتح آية ١ ، ٢

عن آخرهم فلم أجد إلا امتلأت عيناه حصبا ثم قال النبي لو لم أرمهم لم ينهزموا فأنزل الله عز وجل: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى».

فهذا هو الذنب المتأخر (١).

ويجاب عن هذا :

أن ما تسوقه الآيات هي تعدد نعم الله سبحانه على نبيه ﷺ وإعلاء نشأته في الدنيا والآخرة وهو فتح مكة ونصره على أعدائه وتمكينه في الأرض وليس للنبي ﷺ ذنب يغفر وأنه كان أكثر الناس عبادة لله وأشدهم خشية روى البخاري أن النبي كان يقوم ويجهد نفسه وكان ينهى أصحابه عن تقليده فقالوا له كيف ونحن أحوج إلى العبادة منك فقد أخبره الله بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال عليه الصلاة والسلام إنى أقربكم من الله وأكثركم تقديراً لعظمته وجلاله فما أفعله من العبادة لا يشق علي كما يشق عليكم.

أما قول الطاعنين بأن الذنب المتقدم كان يوم بدر والمتأخر يوم حنين فان ذلك لا دليل عليه ولو كان قد حدث عتاب من الله لنبيه على هذا القول لوضحه الرسول وحكى به مثل غيره كما حصل في أسرى بدر وعلى فرض أنه قد حدث ذنب فليس من النبي وإنما المراد به ذنوب المؤمنين. أو يكون المراد به ترك الأفضل، أو أنها من الصغائر التي تجوز على الأنبياء كالسهو مثلا.

فليس هناك ذنب بل يمكن القول إنه من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ثانياً : ما نسب إلى النبي ﷺ في قوله تعالى : «ووجدك ضالا فهدى» (٢) فليس معناه الظاهر الضلال وهو الإنصراف عن الحق فيكون النبي كان منصرفا على الحق فهداه الله.

---

(١) تفسير القرطبي (٢) سورة الضحى آية ٧

ولكن يحتمل أنه وجدك ضالا عن النبوة فهداك إليها ويؤيد ذلك قوله تعالى : « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان »[١] .

أو يحتمل أنه وجدك ضالا فهداك إلى طريق الصواب والبعد عما كان عليه قومك وأبعدك عن كل مايشينك فقد ألقى الله عليه النوم حتى لايرى ماعليه قومه من اللهو والتفاخر فلم يدر ماوقع فيها .

فليس هناك ضلال .

ثالثاً : ورد ما ينسب الذنب إلى النبي ﷺ .

قوله تعالى : « ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك »[٢] .

ظاهر الآيات بأن النبي ﷺ قد ارتكب الذنب وأن الله قد غفر له الذنب . وهذا يتنافى مع وجوب العصمة .

ويجاب عن هذا :

بأن المراد بالوزر ليس محدد الوقت أو الذات فيحتمل أن يكون وزر أمته أو أنه الحمل الثقيل فى قيامه بأعباء الرسالة فمما لاشك فيه أنه كان ينوء بحملها ويعتريه الألم لعدم إيمان قومه وحرصه عليهم يؤيد ذلك قوله تعالى : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم أن يؤمنوا بهذا الحديث أسفا »[٣] فأخبره الله بأنه رفع ذكره بين الأنام ووسع صدره ، فليس هناك ذنب حتى يتنافى العصمة .

رابعاً : ورد ماينسب الذنب إلى سيدنا محمد ﷺ مايفيد بظاهره أنه

(١) سورة الشورى آية ٥٢ (٢) سورة الإنشراح ٢ ، ٣
(٣) سورة الكهف آية ٦

قد أتى بمعصية يستحق فاعلها العذاب وذلك فى حديث القرآن الكريم عن أسرى بدر : فقال الله تعالى : « ما كان للنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم»[١] .

هذه الآيات نزلت فى شأن أسرى بدر وكان عددهم سبعين رجلا وفيهم العباس عم النبى وابن عمه عقيل بن أبى طالب ، فاستشار فيهم أصحابه فأشار أبو بكر بأخذ الفدية منهم لعل الله يتوب عليهم ويدخلون فى الإسلام وأشار عمر بضرب أعناقهم وأخذ الرسول برأى أبى بكر ولكن القرآن نزل معاتباً للنبى ﷺ بهذه الآيات على أخذه الفداء ولم يضرب أعناقهم وروى أنهم لما أخذوا الفداء نزلت هذه الآية فدخل عمر على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال يارسول الله أخبرنى فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت فقال أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء ولو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ — ذكره الفخر الرازى فى سبب النزول[٢] .

وقد تمسك الطاعنون فى عصمة الأنبياء بهذه الآية من وجوه :

١ — أن أخذ الفدية فى الآية منهى عنه وممنوع فكان ذنباً .

٢ — أن الله أمر بقتل الكفار يوم بدر والأمر للوجوب فقال تعالى: «فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان»[٣] فلما لم يحدث القتل كانت المخالفة وهى معصية .

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٧ ، ٦٨

(٢) تفسير الفخر جزء ١٥ ص ٢٠٤

(٣) سورة الأنفال آية ١٣

٣ — أن النبي حكم بأخذ الفداء وكان ذلك معصية يدل عليه قوله تعالى: « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ».

وقوله : « ولولا كتاب سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » .

٤ — أن النبي ﷺ وأبا بكر بكيا لأجل أخذ الفداء وذلك يدل على أن النبي مذنب .

٥ — أن النبي قد صرح بقرب نزول العذاب بسبب أخذ الفداء فدل ذلك على أنه ذنب .

ويجاب عن هذه الوجوه بما يلي :

١ — أن الأسر كان مشروعا ولكن بشرط أن يسبقه الأثخان في الأرض بالقتل والتخويف الشديد وقد قتل الصحابة عدد كبير من المشركين يوم بدر قبل الأسر — والأسر ليس ذنباً ولا معصية يؤيده قوله تعالى : «حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء »[1] .

أما كون العقاب ترتب عليه لعله غلب على ظن الرسول أن ذلك القدر من القتل كاف في حصول المقصود مع أنه كان بخلاف ذلك فهو اجتهاد منه ﷺ وليس ذنباً ولكنه من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين .

٢ — أن ظاهر قوله «فاضربوا فوق الأعناق» خطاب للصحابة ولم يكن الرسول مأمور بمباشرة القتل بنفسه — فلما تركوا القتل وأقدموا على الأسر كان الذنب صادراً من الصحابة وليس من الرسول ولا يقال أنه قد جيء بالأسرى إلى حضرته ﷺ فإن ذلك كان بعد انتهاء القتال .

فالتكليف بالقتل أثناء المعركة أما بعدها فلا تكليف بالقتل .

---

(١) سورة محمد آية ٤

٣ـ أما قولهم : إن النبى حكم بأخذ الفداء وهو محرم بدليل قوله تعالى تريدون عرض الدنيا فإن المراد به أن أخذ الفداء للتقوية على الأعداء وإن يصرف فى مهام الجيش فليس بحرام كما هو رأى أبو بكر ولكن المحرم هو ما يطلب لعرض الدنيا ولم يكن أبداً مقصود النبى ولا الصحابة عرض الدنيا قط .

٤ ـ أما عن طلب النبى يحتمل لأجل خوف النبى على أصحابه وشفقته عليهم من نزول العذاب بهم لاشتغالهم بالأسر أو عن اجتهاده فى القتل الذى حصل به حد الإثخان .

٥ ـ أما عما ذكر عن قرب نزول العذاب ـ إنما بسبب أولئك الذين خالفوا أمر الله بالقتل واشتغالهم بالأسر .

وهذه أوجه الردود على الطاعنين فى عصمة الأنبياء .

أو يقال على فرض أن المسألة قتل الأسرى من المشركين ولكنه لم يفعله فيكون فعل خلاف الأولى وهو ليس ذنباً بل هو اجتهاد منه وعوتب على ذلك لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

خامساً : رد ما نسب إلى سيدنا محمد ـ ﷺ ـ :

فيما لو أخذ على ظاهره وهو غير مراد لفهم منه أن النبى ـ ﷺ ـ كتم أمراً أعلمه الله به وهذا يتنافى مع عصمة الأنبياء عليهم السلام .

واستدلوا بقوله تعالى : « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى

لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا »[١]

فنهم الطاعنين عدم عصمة الأنبياء بما ذكر فى الآية من قوله تعالى: « أمسك عليك زوجك » — فقالوا إن النبى — ﷺ — أمر زيداً أن يمسك زوجه وهو يعلم أنه مفارقها — فيكون أظهر خلاف مايضمر .

٢ — أن قوله تعالى : « وتخشى النــــاس والله أحق أن تخشاه » ، إشارة إلى أن النبى خشى الناس . والأنبياء مأمورون أن لا يخشون أحداً إلا الله .

وبجاب عن هذا :

أولا : أن الآيات تشتمل على تشريعين عظيمين مما اشتملت عليه الشريعة الإسلامية الغراء :

أحدهما يختص بإبطال نظام التبنى الذى صدرت به سورة الأحزاب وقد أراد الله أن يبطل ماعليه العرب من نظام التبنى وبيان أنه ليس كالنسب من حرمة النكاح واعطائه حق التوارث فانتدب الله رسوله — ﷺ — للقيام بأعباء هذه المهمة وليكون التشريع فى شخص الرسول إذ وظيفته بينهم ربط النفوس بالله وتطييب قلوبهم وقد سبق الحديث بقوله تعالى : « ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدا »[٢] مما يشعر بصعوبة هــــذا الأمر الشاق المخالف المألوف من العادات .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧ (٢) سورة الأحزاب آية ٣٦

ثانياً : أن فى هذه الآية تحطيم للفوارق الطبقية داخل الجماعة الإسلامية فلا فرق داخل المجتمع المسلم بين السيادة والموالى[1] فزوج الرسول مولاه زيد إلى شريفة قرشية وهى زينب بنت جحش بنت عمته — ليسقط هذه الفوارق داخل أسرته والتى كانت من العمق والعنف بحيث لا يسقطها إلا فعل واقعى وليكون تشريعاً للمسلمين فى كل الأزمنة وكما قال النبى ﷺ إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ألا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير .

ولهذا يمكن أن يجاب على الطاعنين فى عصمة الأنبياء بأن ماذكر فى قوله : « أمسك عليك زوجك » بأن النبى لم يخف شيئاً أمره الله به بل أن النبى أراد أن يختبر من زيد مالم يكن يعامه من عدم رغبته عنها فأبدى زيد منها النفرة والكراهية ولتكون دليلا على إقامة الحجة ومعرفة العاقبة .

وعلماء الكلام يقولون قد يأمر الله العبد بالإيمان وهو يعلم أنه لا يؤمن فليس فى مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع الأمر به عقلا وحكما — وفعل النبى من هذا القبيل ليعلم من زيد عزمه الأكيد على الفراق ولتكون الحجة عليه ألزم .

ثانياً : أن قوله « وتخشى الناس » فليس المراد به أن النبى كان يخشى الناس ولا يخشى الله بل معناه أن الله أحق بالخشية وحده ودعك من كلام الناس كما قال تعالى « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحد إلا الله »[2]

---

(١) طبقة من الرقيق المحرر دون السادة .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٩

أو هو عتاب من الله لنبيه إذ قد أعلمه أن زينب ستكون زوجة له وقد انتظر النبى بعض الوقت وليس فى هذا خطيئة وخصوصاً فى أمور النكاح والطلاق فإن التروى فيها واجب — والنبى لم يؤمر بالاستغفار أو التوبة من هذا مما يدل أنه ليس بخطيئة إلا أنه قد يكون غيره أحسن منه وأخفى ذلك فى نفسه خشية أن يفتن الناس .

يقول الشيخ الباجورى : أن معنى الخشية استحياؤه ﷺ من الناس أن يقولوا تزوج زوجة ابنه أى من تبناه فعاتبه الله على هذا الاستحياء لعلو مقامه وما قيل من أنه ﷺ تعلق قلبه بها وأخفاه فلا يلتفت إليه — وأن أجلى ناقلوه فإن أدنى الأولياء لا يصدر عنهم مثل هذا الأمر فما بالك به ﷺ [1] .

وأخيراً بعد هذه السياحة الطويلة فى النبوات العاطرة نستطيع القول أن الأنبياء لا يجوز فى حقهم الكبائر فهم معصومون منها قبل البعثة وبعدها ، أما الصغائر أو خلاف الأولى فمرجعه إلى هذين الأمرين أن صدورها منهم على فرض لو حدثت فإن ذلك لم يكن عن عمد وإنما ينسب إلى أنه صدر منهم سهواً وهو معفو عنه .

---

(١) شرح الباجورى على الجوهرة ص ٢٦

الصفة الثالثة : التبليغ :

التبليغ إيصال الأحكام التى أمروا بتبليغها إلى من أرسلوا إليهم .

والدليل على وجوب اتصافهم بها قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته »[١] .

وقوله تعالى : « فهل على الرسول إلا البلاغ »[٢] .

والدليل القائم على وجوب اتصافهم بهذه الصفة هو :

١ — أنهم لو كتموا شيئاً مما أمروا بتبليغه لكنا مأمورين بكتمان العلم لأن الله أمرنا بالاقتداء بهم وقد لعن الله كاتم العلم فقال تعالى: « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون »[٣] .

٢ — لو جاز عليهم الكتمان لكتم رئيسهم الأعظم سيدنا محمد ﷺ قوله تعالى : « وتخفى فى نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .

٣ — لو كتموا لضاعت المهمةالتى أرسلوا من أجلها فيكون إرسالهم عبثاً والعبث على الله محال .

ثم إن الرسل شهداء على الأمم يوم القيامة فكيف تقوم شهادتهم إذا هم خانوا بكتمان ما أمروا بتبليغه .

---

(١) سورة المائدة آية ٦٧ (٢) سورة النحل آية ٣٥

(٣) سورة البقرة آية ١٥٩

يقول ابن تيمية : ومعلوم أنه ﷺ قد بلغ الرسالة كما أمر ولم يكتم منها شيئاً فإن كتمان ما أنزل الله تعالى إليه يناقض موجب الرسالة كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة ، قال ومن المعلوم فى دين المسلمين أنه معصوم من الكتمان لشىء من الرسالة كما أنه معصوم من الكذب فيها ، والأمة تشهد له بأنه مبلغ الرسالة كما أمر الله تعالى وبين كل ما أنزل إليه من ربه وقد وجب على كل مسلم تصديقه فى كل ما أخبر به[١] .

هذا وما ثبت لواحد من الأنبياء فهو ثابت لجميعهم .

الصفة الرابعة : الفطانة :

الفطانة من الفطنة وهى الفهم وحدة العقل وذكاؤه .

وهى عبارة عن التفطن والتيقظ لإلزام الخصوم وإبطال دعواهم الباطلة . وإزالة شبهة المتشككين .

وهذه من ألزم الصفات التى يجب أن يتصف بها الأنبياء وقد قام الدليل على إلزامها للأنبياء عليهم السلام قال تعالى : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا »[٢] .

وقال فى حق إبراهيم عليه السلام : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه »[٣] .

وقال فى حق سيدنا محمد ﷺ « وجادلهم بالتى هى أحسن »[٤] :

---

(١) السفارينى لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٣٠٨

(٢) سورة هود آية ٣٢ (٣) سورة الأنعام آية ٨٣

(٤) سورة النحل آية ١٢٥

فلولم تجب لهم الفطانة لكانوا عاجزين عن إقامة الحجة على خصومهم. وبذلك تضيع الفائدة من إرسالهم .

يقول الشيخ الباجورى : ومن لم يكن فطناً بأن كان مغفلا لاتمكنه إقامة الحجة ولا المجادلة[1] .

كما أنه لولم تجب لهم صفة الفطنة لكانت بلادتهم عاملا من العوامل التى تؤدى إلى نفرة الناس منهم وهذا يتنافى مع الغاية التى أرسلوا إليها وهى هداية البشر .

## مايستحيل فى حق الأنبياء

قدمنا أن الأنبياء يجب فى حقهم إجمالا كل كمال بشرى ويجب لهم تفصيلا الصفات الأربع من الصدق — والأمانة — والتبليغ — والفطانة .

كذلك يستحيل فى حقهم كل نقص يؤدى إلى خستهم أو نفرة الناس منهم وأى صفة تؤدى إلى تضييع الفائدة من رسالتهم والتى انتدبهم الله للقيام بأعبائها ويستحيل عليهم تفصيلا : الكذب — والخيانة — والكتمان — والبلادة — هذا وقدمنا الدليل على وجوب الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة فاستحالت عليهم أضداد هذه الصفات .

يقول السنوسى أن أفعالهم دائرة بين الواجب والمندوب والإباحة وليس وقوع المباح منهم كوقوعه من غيرهم[2] . بل إن المباح لايصدر

---

(١) شرح الباجورى على الجوهرة ص ٢٥ .

(٢) شرح السنوسية الكبرى ص ٣٧٢ .

منهم إلا علـــى وجه يصير به طاعة أو يقصد به التشريع للغير وهم مندوبون للتعليم .

## مايجوز فى حق الأنبياء :

يجوز فى حق الأنبياء الأعراض البشرية التى لاتخل بمراتبهم العالية أو تؤدى إلى انصراف الناس عنهم فيجوز أن يكون النبى تاجراً أو فى صناعة قومه أوراعياً للغنم أوالإبل . كما يجوز عليهم معاشرة الناس والنوم بما تستريح به أبدانهم — ونكاح النساء سواء كان بالحل أوبالملك . ويجوز عليهم وطء الأمة الكتابية بخلاف الوثنية فانها لاتحل .

وخالف فى هذا ابن عربى بأن النبى لايحل له الأمة الكتابية معللا بأنه عليه الصلاة والسلام شريف فى أن يضع نطفته فى رحم كافرة وبأنها تكره صحبته [1] .

والحق أنه من الأفضل الاعتقاد أن النبى لاتحل بهمن الإماء إلاالمسلمة وذلك لخوف العنت عليها .

وذهب النووى أنه لايجوز عليهم الاحتلام لأن الشيطان لايتلاعب بهم فإن كان بمجرد ماء من غير تلاعب فلا مانع .

ولا يجوز عليهم الأغماء ولو خفيفا وكذا الجنون أو الجذام أو البرص أو العمى وغير ذلك من الأمور المنفرة .

وأما ماقيل فى حق يعقوب عليه السلام من أن العمى قد أصابه — لما ورد من قوله تعالى : « وابيضت عيناه من الحزن » [2]

---

(١) شرح الباجورى على الجوهرة ص ٢٦ .
(٢) سورة يوسف آية ٨٤ .

فان ماأصابه لم يكن سوى غشاوة على العين وهو مايسمى فى عرف الأطباء بالعمى الهستيرى — نتيجة لصدمة معينة — ويعقوب أصابته غشاوة حزناً على يوسف عليه السلام فلما أن جاء البشير وألقى القميص على وجهه رجع بصيراً كما كان أولا .

وماقيل فى حق أيوب فإن هذا من قبيل الإسرائيليات التى لا يعبأ بها . فقد أغرقوا فى الخيال وقالوا إن الدود كان يتناثر من جلده وقد سقط لحمه حتى لم يبق منه سوى لسانه وقلبه وأنه مكث سنين طويلة على هذا — هذا مالا يصدقه عقل ولا ينطلى إلا على مخدوع . أما قوله تعالى « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر »[1] وقوله تعالى « مسنى الشيطان بنصب وعذاب »[2] .

فإن معناه أنه ابتلى بضياع ماله والتفرقة بينه وبين أهله مما يعد أمراً عاديا يحدث مرات عديدة فى دنيا البشر ولا يحتاج إلى تعليل وأن هذا كان من قبيل الاختبار فصبر على هذا البلاء وكان الشيطان يوسوس له ليصرفه عن الصبر — وكان أيوب يصرف مايجول بخاطره بعناء ومشقة لما يحدث من هذه الوسوسة . وقد كافأه الله فرد إليه ماله وجمع بينه وبين أهله ولهذا يقول سبحانه « فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر » .

ومما لاشك فيه أن الشكاية لله تعالى لاتنافى الخشوع . فالمس المذكور فى الآية معناه الوسوسة وقد عبر القرآن عن هذا بقوله « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون »[3]

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨٣ ، ٨٤
(٢) سورة ص آية ٤١ .
(٣) سورة الأعراف آية ٢٠١ .

وبالجملة فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من البشر وأرسلوا إلى البشر فظواهرهم خالصة للبشر يجوز عليها من الآفات والتغييرات والآلام والأسقام وتجرع كأس الحمام مايجوز على البشر مما لا نقيصة فيه فإن نبينا ﷺ كان يمرض ويتألم ويشتكى وكان يصيبه الحر والقر والجوع والعطش والغضب والضجر والنصب والتعب ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه ولا يوجب الإتصاف به نوع نفرة عند كل نبيه .

هذا والله أعلى وأعلم

## المعجزة

المعجزة مأخوذة من العجز الذى هو نقيض القدرة — والمعجز فى الحقيقة فاعل العجز فى غيره — وهو الله تعالى كما أنه هو المقدر أى فاعل القدرة فى غيره وسمى غير الله معجزاً — كما فى فلق البحر — وإحياء الموتى — من قبيل التوسع والتجوز على سبيل أنه سبب لظهور الإعجاز وهو الأنباء عن امتناع المعارضة لا الإنباء عن العجز عن الإتيان بمثل تلك المعجزة .

أو أن الأمر الدال على صدق الرسول يسمى معجزة بمعنى أن هذا الأمر هو الذى خلق العجز فى المعارضين مع أن الخالق لذلك هو الله تعالى. اذ لا فاعل سواه حكما .

والمعجز مصدر أعجز زيدت عليه التاء إما للمبالغة أو للتأنيث أو للنقل من الوصفية إلى الأسمية .

تعريف المعجزة :

عرف المتكلمون المعجزة بتعريفات منها :

ما ذكره الأشعرى بأنها فعل من الله تعالى أو قائم مقام الفعل . يقصد بمثله التصديق .

وقال ابن حمدان فى نهاية المبتدئين : المعجزة هى ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدى ابتداء بحيث لا يقدر أحد عليها ولا على مثلها ولا على ما يقاربها [١] .

---

(١) السفارينى لوامع الأنوار البهية جـ ٢ صـ ٢٩

ويلاحظ على هذين التعريفين بما يلى :

هل الخارق للعادة المعجزة . أو الفعل .

فان كان الخارق للعادة الفعل فيكون خرق العادة ليس مضبوطا لأنه يلزم عليه أن يكون هذا الفعل لا يوجد له نظير فى العالم — وهذا باطل فان آيات الأنبياء قد تكون متشابهة فى بعض الأحيان — كإحياء الموتى مثلا قد جرى على يد عيسى — وخزفيال [١] والياس وسيدنا إبراهيم الخليل — وإن أريد بها هى الخارق لعادة المخاطبين بالنبوة فهذا ليس بحجة .

فإن هذا مشترك بين الأنبياء وغيرهم فقد يكون المخاطبون بالنبوة ليس فيهم هؤلاء — فالمبرز فى فن من الفنون يقدر على مالا يقدر عليه فى زمنه وليس هذا دليلا على النبوة ولم يقل صاحبه أنه نبى — فطب أبقراط مثلا بل وعلم عالم كبير من علماء المسلمين خارج عن عادة الناس وليس هو دليلا على نبوته [٢] .

---

(١) جرى الله على يد عيسى إحياء الموتى فى قوله: «واحيي الموتى بإذن الله» ، وعلى يد خزفيال على أنه المعنى بقوله تعالى: «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » ، وعلى يد إبراهيم فى قوله تعالى: « فخذوا أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ... » الآية — وعلى يد إلياس المراد به أرليا العجيب الذى فلق البحر بردائه فعبر العابرون واحيي الموتى بإذن الله » — راجع موقف اليهود من قضية الألوهية والنبوات بعد موسى — موقف الإسلام منهم د . عبد العزيز تمام ( رسالة دكتوراه ) .

(٢) ابن تيمية النبوات ص ٢٢

وبعد : فإن أشمل التعاريف التى تكون جامعة مانعة بأن المعجزة: «أمر خارق للعادة مقرونة بالتحدى مع عدم المعارضة » .

وهذا التعريف هو ماارتضاه العلامة سعد التفتازانى والفخر الرازى» وزاد البغدادى فى أصول الدين فى دار التكليف لإظهار صدق نبوة الأنبياء[١] .

شروط المعجزة :

من خلال التعريف السابق تكون المعجزة :

أولا : أمر يعنى أنها من متعلقات قدرة الله تعالى وحده .

والأمر يشمل الفعل كتسبيح الحصى — وإطعام العدد الكثير بالقليل من الطعام ، كما يشمل القول القرآن كالقرآن الكريم ويشمل أيضا الترك كعدم احراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام أوقول كنوح عليه السلام « ثم اقضوا إلى ولا تنظرون »[٢] .

فقد وقع التحدى بعدم الفعل كالضرب والترك .

ثانياً : أن يكون خارقا للعادة :

وللنظار فى الخارق للعادة رأيان :

أحدهما : أن العادة لاتخرق إلا لنبى — وهذا هو مذهب المعتزلة وعلى رأيهم كذبوا خرق العادة للكهان والسحرة وأنكروا كرامة الأولياء وفسروا ماحدث لمريم عند الولادة أن هذا ليس خاص لمريم بل هو إرهاص لعيسى عليه السلام .

(١) البغدادى أصول الدين ص ١٧٠ ط دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان .

(٢) سورة يونس آية ٧١

وأما الأولياء فانما تخرق العادة لهم لاتباعهم للرسول فكذلك كل ماتأخر عنه فهو من معجزاته مثل ماتقدم .

فالمعتزلة يكذبون ماتواتر من خوارق العادات لغير الأنبياء .

أما الجهمية فانهم يجوزون خرق العادة لغير النبي بل كل ما خرق العادة للأنبياء يجوز أن يخرق للأولياء والسحرة والكهان وليس ثمة فرق إلا أن الخارق على يد النبي مقروناً بالتحدى ولايمكن لأحد معارضته — هذا ماذهب إليه الجهمية حيث جوزوا فى أفعال الرب فعل كل ممكن فيجوز خرق العادات مطلقاً على يد كل أحد .

ويلزم على هذين المذهبين مفاسد :

أولا : لايوجد فرق بين أن يخلق الله الخارق على يد النبي وغيره — بل أن كلاهما جائز — فإذا كان لايوجد ثمة فرق بينهما فلم كان أحدهما دليلا على النبوة دون الآخر . ومن أين أتى العلم بأن الله لايخرقها إلى على يد الصادق والجهمية يجوزون كل فعل مقـــدور لله وخلقها على يد الـكاذب فى مقدور الله أيضا وخرق العادات عندهم جائز مطلقا على يد كل أحد .

ثانيا : لم يميزوا بين الخوارق بعضها للبعض ولا فرق بينها وبين الخارق الذى يظهر على يد النبى إلا بدعوى التحدى .

يقول ابن تيمية :

بل صرح أئمتهم أن كل ماخرق العادة لنبي يجوز أن يخرق للأولياء حتى معراج محمد وفرق البحر لموسى — وناقة صالح وغير ذلك كما أنهم لم يذكروا فرقاً معقولا بين المعجزة والسحر بل يجوز أن يأتى الساحر

يمثل فعل النبي إلا أنهم يقولون أن نفس النبي طاهرة ونفس الساحر خبيثة أما الفرق بين الفاسق والصالح فتعذر على قول هؤلاء [١].

وأفضل الآراء فى خلق الخارق على يد النبى مقروناً بدعوى التحدى مع العجز التام عن المعارضه كما هو مذهب أهل السنة. إذ لو كانت عامة يستوى فيها البار والفاجر والصالح والطالح والمفترى بدعواه ومدعى النبوة الحق لما أفاد مايقدر معجزاً تمييزاً وتنصيصا على الصادق ، وقد بين أهل السنة الفرق بين الخوارق بعضها عن البعض مما سنبينه فى حينه أن شاء الله تعالى.

الشرط الثالث : أن تكون مقرونة بدعوى الرسالة .

وهذا يقتضى أن يتحدى النبي بالمعجزة وتظهر على وفق دعواه .

فلو ظهر الخارق مكذباً له لا يكون معجزة — فلو قال أنا رسول وآية صدق أن ينطق الله يدى — فلو نطقت قائلة أنه كاذب لم يكن ذلك دليلا على صدقه — لأن شرط ذلك المكذب أن يكون مما يقع فى جنسه خرق العادة .

أما إذا قال : آية صدق . إحياء هذا الميت فأحياه الله ونطق مكذباً له فإنه يكون دليلا على صدقه — فالخارق هو الإحياء وقد وقع .

كما أنها لاتجوز أن تكون صفة قديمة ولا مخلوقة للرسول — .

ولا تتقدم على النبوة — وما وقع يسمى إرهاصا .

ولا تتأخر عنها — وقال بعض النظار إن كان التأخير بزمن يسير جاز .

أما إذا كان الزمن طويلا فإن ذلك لا يكون معجزة للنبي .

(١) ابن تيمية النبوات ص ٧

الشرط الرابع :

أن تكون موافقة لدعواه فإن خالفته لا تكون معجزة كما قدمنا فى مثال اليد إن نطقت مكذبة له، فليس بمعجزة للنبى أو كما إذا قال معجزتى انفلاق هذا الجبل فانفلق البحر مثلا فلا يكون دالا على صدقه .

الشرط الخامس :

أن يكون ظهورها على يد مدعى النبوة فإن ظهرت على يد الولى فكرامة أو عبد صالح فمعونة أو على يد كاذب فاهانة أو استدراج .

الشرط السادس :

أن تكون مقرونة بالتحدى وهذا إما أن يكون التحدى بالقول كالقرآن الكريم أو بالفعل كنبع الماء من بين أصابعه .

الشرط السابع :

أن تتعذر معارضته وبذلك يخرج السحر فإنه يمكن معارضته من أرباب الصنعة . كما تخرج الشعوذة وغرائب المخترعات إذ يمكن أن يأتى بمثل فعلهم .

وزاد بعضهم شرطاً ثامناً وهو أن لا تكون فى زمن نقض العادات كطلوع الشمس من المغرب عند دنو يوم القيامة .

الفرق بين خوارق الأنبياء وغيرهم :

أولا : أنواع الخوارق :

١ — إما أن يعين الخارق صاحبه على البر والتقوى والصلاح كما هو الحال فى خوارق الأنبياء .

٢ — إما أن يعين صاحبه على فعل مباح يستعين به على قضاء مصالحه كاستعانته ببعض الجن بحيث تكون الاستعانة بهم ترفع صاحبها ولا تخفضه كما سخر الجن لسيدنا سليمان عليه السلام .

٣ — وإما أن يعين الخارق على المحرمات من الفواحش والظلم والشرك والقول الباطل وهذا من جنس خوارق الكهان والسحرة والكفار .

ثانياً : الخوارق التى تعطى للأنبياء :

يظهر الله سبحانه على يد أنبيائه خوارق للعادات وهى ماتسمى بالنسبة للأنبياء بالمعجزة وقد أجمع أهل السنة على أن جنس الخوارق كما تكون للأنبياء قد تكون لغيرهم ، أما مايعطى للأنبياء فيتميز عن مايعطى لغيرهم بما يلى :

١ — أن تكون خوارق الأنبياء خارجة عن مقدور البشر بل وعن مقدور الحيوان والجن أيضا ، أما مايقال عن السحر فهو فى مقدور البشر ولذلك خر السحرة ساجدين لما أدركوا أن ماجاء به موسى ليس من فعلهم ولا فى مقدورهم الإتيان بمثله .

٢ — الرسول يخبر من أنباء الغيب قال تعالى: « عالم الغيب » فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول»[1] .

٣ — الرسول يخبر عن الأمور البعيدة الكبيرة مفصلا مثل أخبار النبى ﷺ « إنكم تقاتلون الترك صغار الأعين ذلف الأنف ينتقلون

(١) سورة الجن آية ٢٥ ، ٢٦

الشعر كأن وجوههم المطرقة »[١] وقوله عليه الصلاة والسلام «ولا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى » فهذا ماليس فى مقدور إنس ولا جن أن يخبر به [٢].

وبذلك تكون خصائص خوارق الأنبياء قد وضحت ويقتضينا الأمر أن نبين الفرق بينها وبين غيرها من الخوارق الأخرى .

وقبل الكلام عن هذه الفروق يجب أن نعلم أن جمهور المعتزلة منعوا ظهار الخارق على يد غير النبى وقالوا لوجاز ظهور مثل ذلك على يد من ليس بنبى لأفضى ذلك إلى تكذيب النبى وافترائه — ويؤدى إلى عدم تمييز النبى من غـــيره ، كما يؤدى إلى التشكيك فى المعجزات التى تحصل على يد النبى .

أما أهل السنة: فقالوا أنه يجوز أن يجرى الله الخارق على يد غير النبى.

وقالوا ما من أمر سواء كان خارقا أو غير خارق إلا وهو مقدور لله تعالى وإنكاره يؤدى إلى التعجيز وابطال كون الفعل مقدوراً لله تعالى وهو مستحيل [٣] .

والحق هو ما ذهب إليه أهل السنة إذ قد وقعت أمور كثيرة خارقة ولكنها ليست من النبوة وذلك مثل قصة أهل الكهف الذين ناموا ثلاثمائة

---

(١) ذلف الأنف قصره وانبطاحه وقيل ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته والذلف بسكون اللام جمع أذلف كأحمر وحمر والأنف جمع قلة للأنف وضع موضع جمع الكثرة .

(٢) ابن تيمية النبوات صـ ١١

(٣) الآمدى غاية المرام فى علم الكلام صـ ٣٣٤ ومابعدها ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة .

سنين وتسعة وهم ليسوا بأنبياء وقصة أم موسى ومريم وليس فى هذا تكذيب للنبى . ولا يلزم على وجود الخوارق على يد النبى تكرارها فى زمننا هذا فهو وإن كان جائز عقلا إلا أنه مستحيل عادة .

كما أنه من المعلوم بالضرورة أن النبوة قد ختمت فما يحدث فى زمننا هذا ليس من جنسها . ولا يلتفت إليه فى هذا المجال .

الفرق بين المعجزة وخوارق العادات الآخرى :

قدمنا تعريف المعجزة باعتبارها أمراً خارقاً للعادة يظهره الله تأييداً لنبيه فى دعواه الرسالة وعجز المعارضين عن الإتيان بمثلها وهى تشترك مع غيرها من خوارق العادات فى أن كلا منهما خارق للمعتاد والمألوف ولهذا يجب أن نبين الفروق بينها وبين غيرها حتى لا يلتبس النبى بغيره ، ومن هذه الخوارق :

أولا : الإرهاص : هو الأمر الخارق للعادة الذى يظهر قبل بعثة نبى من الأنبياء تأسيساً لنبوته — كإظلال الغمام لسيدنا محمد ﷺ ، وكلام عيسى فى المهد . وقد يكون فى شخص آخر كما كان يظهر النور فى وجه عبد الله أب النبى ﷺ . وبما كان يحدث من إرهاصات قبل مولده كقصة أصحاب الفيل وغير ذلك .

والفرق بينه وبين المعجزة أن المعجزة تكون بعد التكليف بالرسالة ويتحدى بها .

أما الإرهاص فإنه يكون قبل الرسالة ولا يتحدى به .

ثانيا : الكرامة — وهى أمر خارق للعادة يظهره الله على عبد ظاهر الصلاح تكريما له غير مدع النبوة .

الفرق بينها وبين المعجزة :

١ — أن المعجزة لابد فيها من الظهور والتحدى — أما الكرامة فقد يخفيها صاحبها ولا يتحدى بها .

٢ — أن المعجزة مقرونة بدعوى النبوة — أما الكرامة فإنها ليس فيهادعوى النبوة .

٣ — أن صاحب المعجزة مأمون التبديل معصوم عن الكفر والمعصية بعد ظهور المعجزة عليه وصاحب الكرامة لا يؤمن بتبديل حاله كما هى حالة بلعم بن باعوراء أوتى مالم يؤت غيره ثم ختم له بالشقاء [١] .

والكرامة قد ظهرت على يد كثيرين مثل ماحدث لمريم ، قال تعالى : فأنبتها نباتا — الآية أى أنشأها إنشاءا حسناً وجعلها تنبت فى اليوم كما ينبت المولود فى العام — وكفلها زكريا كلما دخل عليها وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف فلما سألها من أين لك هذا ؟ قالت هو من عند الله وكمثال قول عمر بن الخطاب وهو على المنبر ياسارية الجبل الجبل والجيش بنها وندو المسافة بينهما مسيرة شهر .

وجمهور أهل السنة يثبتون الكرامة للأولياء مستدلين بما حدث ووقع فعلا لهم .

وبقوله تعالى : «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون»[٢] .

ووافق أهل السنة أبو الحسن البصرى المعتزلى فى جواز كرامات الأولياء ووقوعها .

---

(١) أصول الدين للبغدادى ص ١٧٥

(٢) سورة يونس آية ٦٢

وقالوا يجوز فى الكرامات أن تقع بسائر وجوه خوارق العادات على اختلاف أنواعها.

وقال قوم الكرامات تختص بمثابة إجابة ودعاء وذهب النووى إلى أنها تجرى حتى فى قلب الأعيان.

وأهل السنة يقولون بأن الكرامة هبة من الله وليست باكتساب ولا تؤدى إلى سقوط التكليف عن الولى مادام بالغا عاقلا (١).

وقد أنكر المعتزلة الكرامة هى وسائر الخوارق ولم يثبتوا من الخوارق إلا المعجزة للأنبياء وحجتهم فى ذلك:

أولا: لو جاز ظهور الخارق على يد من ليس بنبى لأدى ذلك إلى تكذيب النبى بحيث لايميز النبى عن غيره من السحرة والمشعوذين والأولياء.

ثانيا: أن وقوع الخوارق للأولياء يؤدى إلى كثرتها وخروجها عن كونها خارقة للعادة مما يؤدى إلى التشكيك فى المعجزة.

ويجاب عن هذا:

أولا: أما القول بأن وقوع الكرامة يؤدى إلى الالتباس بينها وبين المعجزة فان ذلك ليس بلازم.

فان الكرامة لاتكون مع دعوى النبوة بخلاف المعجزة فإنها مقرونة بالنبوة.

---

(١) السفارينى الأنوار البهية جـ ٢ ص ٣٩٢

ثانياً : أن القول بكثرتها يخرجها عن كونها خارقة للعادة فإن ذلك ليس بالضرورة بل غاية الأمر استمرار خرق العادة وذلك لا يوجب كونها عادة .

يقول الآمدى : « وما ذكروه من تجويز انخراق العادات فى زماننا فهو إنما يستحيل بالنظر إلى العادات لا بالنظر إلى العقليات[1].

هذا وكما علمت فإن جمهور أهل التحقيق على جواز وقوع الكرامة وقد قال بعض المحققين أن للولى شروطا حتى لا يلتبس بغيره وحددوا هذه الشروط :

أولا : بأن الولى يجب أن يكون عارفاً بأصول الدين حتى يفرق بين الخلق والخالق وبين النبى والمتنبى .

ثانياً : أن يكون عارفا بأحكام الشريعة نقلا وفهما .

ثالثاً : أن يتخلق بالأخلاق الحميدة التى دل عليها الشرع والعقل من الورع عن المحرمات والمكروهات وامتثال المأمورات وإخلاص العمل وحسن المتابعة .

رابعاً : أن يلازمه الخوف أبدا واحتقار النفس وأن ينظر إلى الخلق بعين الرحمة وأن يبذل جهده فى مراقبة النفس ومحاسبتها .

يقول فضيلة الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع فى شرح الكوكب الدرية « وبهذا يتبين أن من ظهر على يديه شىء من الخوارق التى يسمونها كرامات الأولياء وهو مصر على دعوة غير الله تعالى من الأحياء

---

(١) الآمدى غاية المرام فى علم الكلام ص ٣٣٥

والأموات معتقداً أنهم ينفعون أويضرون فهو من الحيل والشعوذة لا من الكرامات إذ من شروط حصولها صحة الاعتقاد . وأى اعتقاد أفسد من الإشراك بالله تعـــالى وكذا يتبين كذب من ادعى الولاية وهو تارك للصلوات مع المسلمين فى مساجدهم أو يزعم أنه يصلى بمكة جميع الصلوات، ولو كان بينه وبينها مسافة أيام[١] .

المعونة :

وهى أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد مستور الحال — من عوام المسلمين تخليصاً له من المحن أو المكاره غير مدع النبوة .

مثال المعونة : مارواه مسلم عن الثلاثة الذين آووا إلى مغارة فسدت عليهم صخرة باب المغارة فدعا كل واحد ربه بصالح عمله فكشف الله عنهم مما هم فيه من كربة ومكروه .

وأنت خبير بعد بالفرق بين المعونة والمعجزة — فالمعونة لا تكون مع دعوى النبوة ولا يتحدى بها بخلاف المعجزة .

السحر :

هو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر بأمور حسابية فى مطالع النجوم فيتخذ من تلك الجواهر هيكلا على صورة الشخص المسحور ويرصد به وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين .

والفرق بينه وبين المعجزة ظاهر . إذ السحر يكتسب بالتعليم ويستعين فاعله بالشياطين ولا يتحدى به وليس مقروناً بدعوى النبوة بخلاف

---

(١) شرح الكواكب الدرية ص ٩٩

المعجزة فإنها ليست مكتسبة بل هي من فعل الله تعالى ويتحدي بها وتظهر على يد مدعى النبوة ، والسحر يكون على أيدي الفساق والكفرة .

واختلف العلماء فى حقيقة السحر . فذهب قوم إلى أن الساحر له تمكن فى قلب الأعيان واستدلوا بحديث أرجعوه فى إسناده إلى السيدة عائشة قال عنه ابن كثير أنه أثر غريب وسياق حديث .

وذهب آخرون إلى أن الساحر ليس له القدرة إلا على التخييل واستدلوا بقوله تعالى : « سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم »(١) وقوله تعالى : « يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى »(٢) .

والحق أن الساحر ليس له القدرة على قلب حقائق الأشياء بل أن هذا من مقدورات القدرة الإلهية والتى لايظهرها الله إلا على أيدى الأنبياء تأييداً لهم فى دعواهم النبوة .

رأى أهل السنة : جمهور أهل السنة على أن السحر ثابت وقالوا لايمتنع أن يترقى الساحر فى الهواء ويتحلق فى جو السماء ويسترق ويتولج فى الخوخات إلى غير ذلك مما هو من قبيل البشر إذ الحركات فى الجهات من قبيل مقدورات الخلق ولايمتنع عقلا أن يفعل الرب تعالى عند ارتياد الساحر ما يستأثر بالاقتدار عليه فإن كان ماهو مقدور للعبد فهو واقع بقدرة الله عندنا(٣) .

أما الدليل النقلى : فاستدلوا بما ورد فى قصة هاروت وماروت — وبسورة الفلق .

---

(١) سورة الأعراف آية ١١٦ (٢) سورة طه آية ٦٧

(٣) الجوينى الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد ص٣٢٢ ط السعادة بمصر ١٩٥٠

يقول الجوينى وقد اتفق الفقهاء على وجود السحر واختلفوا فى حكمه وهم أهل الحل والعقد وبهم ينعقد الإجماع[١] .

وقد أنكر المعتزلة السحر كما أنكروا سائر الخوارق سوى المعجزة وقد استدلوا بمثل ما استدلوا به فى إنكار بقية الخوارق .

ومذهبهم هذا مردود عليه بما هو ثابت فى نصوص الكتاب والسنة .

يقول الجوينى : وحق اللبيب والمعتصم بحبل الدين أن يثبت ما قضى العقل بجوازه ونص الشرع على ثبوته ولا يبقى لمن ينكر إبليس وجنوده والشياطين المسخرين فى زمن سليمان كما أنبأ عنهم أى من كتاب الله تعالى لا يحصيها مسكة فى الدين وعلقة يتشبث بها[٢] .

الشعوذة :

هى خفة فى اليد يرى أن لها حقيقة ولا حقيقة لها كما يفعل الحواة .

الإهانة :

وهى ما يظهره الله خارقاً للعادة على يدى كاذب فى ادعائه النبوة إهانة له . كما حدث لمسيلمة الكذاب حينما تفل فى عين أعور فعميت السليمة ، ومسح على رأس غلام فانقرع .

الاستدراج :

وهو أمر خارق للعادة يظهره الله على يد فاسق مدع للألوهية على وفق مطلوبه خديعة له حتى إذا أخذه أخذه أخذ عزيز مقتدر

(١) المصدر السابق ص ٣٢٣
(٢) الجوينى — الإرشاد ص ٣٢٣

قال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم أن كيدى متين »[1] .

والفرق بينه وبين المعجزة :

١ — أن المعجزة تكون على يد مدعى النبوة — والاستدراج يكون بادعاء الألوهية .

٢ — أن ظهور المعجزة على يد النبي تصديقا له أما الاستدراج فظهور الخارق على يديه ليس تصديقا لأن كذبه وفسقه ظاهر .

غرائب المخترعات :

وهى ناشئة عن معرفة بعض خواص المادة وعلم بالطبيعة الكيمياء — كالراديو — والتليفزيون والتليفون والكمبيوتر وغير ذلك .

حكم المعجزة :

اختلفت الآراء حول حقيقة المعجزة فذهب فريق إلى أن المعجزة ممكنة عقلا وواقعة فعلا .

أما كونها ممكنة عقلا : فلأن المعجزة من الأمور الممكنة . وقد قام الدليل على إثبات وجود الله وقدرته — وفى قدرة الله تعالى خلق الأشياء على غير المألوف فى عادة البشر فتختلف الأسباب عن مسبباتها على يد النبي تصديقاً له بقدرة من يخلق الخارق بدون سبب ليس مما عليه العقل أو يمنعه .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨٢، ١٨٣

أما كونها واقعة فعلا : ماظهر من المعجزات على يد أنبياء الله عليهم السلام وصدق بها من شاهدها ونقلت إلينا بطريق التواتر الذى هو أحد الضروريات العقلية .

وذهب فريق آخر إلى القول باستحالة المعجزات واستدلوا بشبهات:

١ — قالوا فيها أن تجويز الأمر الخارق يؤدى إلى قلب حقائق الأشياء فينقلب الجبل ذهباً والماء حجراً ويجوز أن يكون من ظهرت على يديه المعجزة غير النبي .

يجاب عن هذا :

أن الأمر الخارق ممكن عقلا وإن كانت العادة تحكم بامتناعه والإمكان لا ينافى الامتناع . كما أن قولكم إن هذا يؤدى إلى قلب الحقائق فليس كون المعجزة خارقة للعادة بأن تقلب العصا حية وأن ينطق الجماد أو ينشق القمر ليس ذلك بأغرب ولا أعجب من صنع السموات والأرض وما بينهما من عجائب المخلوقات التى وقعت العين عليها والتى لم نراها .

الشبهة الثانية :

قالوا فيها على فرض ثبوت المعجزة فانها يستحيل أن تكون دليلا إلا على من شاهدوها وعاصروها أما الذين لم يشاهدوها فمن الإستحالة أن تكون دليلا عليهم — لأنهم لا سبيل إلى معرفتها إلا النقل بالتواتر — وهو لا يفيد اليقين — فمن أين أتى العلم بأن واحداً من المتواترين لا يجوز عليه الكذب وبذلك يكون كذب المجموع إذ الفرد أحاد المجموع .

كما أنه يقال إذا أفاد المتواتر اليقين فان الآحاد يفيدها فالخبر المتواتر إذا حذفنا من أفراده واحداً فهل الباقى يفيد اليقين أم لا ؟

فإن لم يفد الباقى اليقين — فيكون اليقين محصوراً فى الواحد المحذوف فيكون أحاداً وليس متواتراً .

وإن فاد اليقين استمررنا فى الحذف حتى يبقى واحد فقط وهو الذى يفيد اليقين . ثم إن العبرة فى التواتر ليس فى عدد معين بل الظابط هو حصول اليقين فى ذهن السامع بصرف النظر عن العدد وبذلك لا يكون الخبر متواتراً إلا إذا حصل اليقين — فيكون التواتر متوقفاً على اليقين وحصول اليقين متوقف على التواتر وهكذا تمضى السلسلة إلى مالا نهاية وهذا يؤدى إلى الدور وهو باطل .

الجواب عن هذه الشبهة :

أن المتواترات أحد أقسام الضروريات العقلية والطعن فيها هدم للقواعد العقلية وهى موجبة للعلم الضرورى . يقول البغدادى فى أصول الدين : « والتواتر فيما أنكروه كالتواتر فيما أقروا به ومن أنكر ذلك توجه الإلزام عليه بانكار البلدان التى يدخلها الناس مع تواتر الأخبار عنها وانكار أبويه وإن عرفهما بتواتر الأخبار وهذا مالا محيص له منه[1] . ثم يقال لهم أن مجموع الأفراد غير الفرد فالمجموع يقوى بعضها البعض ألا ترى إلى حزمة العصى لا تستطيع كسرها مجتمعة فاذا ما تفرقت كسرت كل واحدة على حدة .

وأما ما يقال عن مسألة الدور فان اليقين الحاصل عن الخبر المتواتر يكون لمضمون الخبر بخلاف اليقين الذى يثبت به التواتر وهو ما يحصل عند السامع حتى يوقن بصدق ما يسمع فلا يتوقف أحدهما على الآخر ولا دور حينئذ .

---

(١) أبى منصور عبد القاهر بن طاهر التميمى البغدادى أصول الدين ص١٨٠

وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول :

اختلف المتكلمون فى دلالة[1] المعجزة على صدق الرسول فمن قائل أنها دلالة عقلية وآخر أنها وضعية وثالث أنها دلالة عادية .

وقد اتفقوا على استبعاد أن تكون الدلالة سمعية وذلك لأنه يستحيل أن تثبت صحة الأدلة السمعية قبل ثبوت المعجزة .

أما كونها دلالة عقلية لأن خلق الله الخارق على يد النبى على وفق دعواه مع وجود التحدى والعجز عن المعارضة يدل عقلا على أن الله يصدقه .

وقد اعترض على هذا بأن التصديق صفة للخارق — فيكون صفة الله حادثة كسائر الأفعال الحادثة .

ويجاب على هذا الاعتراض : بأن التصديق المراد به خبر عن الصدق وخبر الله تعالى أزلى ولا يصح أن يكون حادثاً ولا صفة لحادث .

وأن التصديق الذى تعلقت به الإرادة هو التصديق لهذا الخارق فيكون خبره الدال على صدق رسوله مدلولا بهذا التصديق الحادث الذى هو متعلق الإرادة .

أما كونها دلالة وضعية : بمعنى أن الخارق وضع للدلالة على صدق الرسول على معانيها وكدلالة الإنسان على الحيوان الناطق — مثلا .

والقائلون بكونها عقلية أو وضعية استدلوا على قولهم :

(١) الدلالة كون الشىء بحالة يلزم من العلم به العلم بشىء آخر أو هى فهم أمر من أمر ، راجع شرح القطب على الشمسية .

بأنه يستحيل صدور الخارق المعجز على يد الكاذب لما يلزم من كونها عقلية نقص الدليل العقلى بأن يوجد ولا يوجد مدلوله . فيصير الدليل شبهة والعلم جهلا وذلك قلب للحقائق .

أما كونها وضعية فإنهـا لو صدرت من الكاذب لأدى ذلك إلى الخلف[1] فى خبره تعالى . إذ تصديق الكاذب كذب والكذب محال عليه تعالى .

وحكم المواضعة فى خبره تعالى حكم الكلام الصريح . فظهور الخارق على يد النبى كأن الله قال صدق عبدى فيما يبلغ عنى .

أما عن الثانى وهو استحالة الكذب على الله تعالى — فيجاب عليه من ثلاث وجوه :

الأول : أن كل عالم يحدث نفسه حديثاً يطابق معلومه . وهذا هو عين الخبر الصدق والله سبحانه عالم بالأشياء كلها ، فيكون كلامه مطابقاً لمعلومه فاستحال عليه الكذب وهو الإخبار بالشيء بخلاف ما هو عليه ، لأنه لايكون فى حقه إلا عن جهل ما هو عليه ذلك الشيء ، وذلك فى حق من علمه مالا يتناهى محال .

وقد اعترض على هذا : بأن الواحد يعـلم شيئاً فى نفسه ويخبر عنه بالكذب ويلزم من كذبه جهل .

يجاب عنه : أن هذا بالنسبة للمحل الذى قام به وهو خبر اللسان اللفظى أما كلامه النفسى فلا يكون إلا على وفق عقيدة أى التصديق .

---

(١) التناقض وهو الاستدلال بصدق قضية من كذب قضية أخرى والعكس .

ولما كان الله سبحانه يستحيل عليه التركيب حتى يقوم العلم والصدق بمحل والكذب بمحل آخر ويستحيل عليه الوسواس والتقادير الحادثة .

الثانى : أن كل مخبر تجرد النظر إليه فإنه يصح من العالم به أن يخبر على وفق علمه فلو صح الكذب عليه تعالى لوجب أن يتصف بجائز وذلك يمتنع أن يتصف بضده وهو الصدق وهو محال .

الثالث : أنه قد ثبت اتصافه تعالى بالكمال والصدق صفة كمال وضدها نقص والنقص فى حقه تعالى محال ، فوجب كونه صادقاً[1] .

الثالث : دلالة المعجزة على صدق الرسول دلالة عادية[2]:

بحسب قرائن الأحوال بحيث حصل العلم الضرورى عنها بصدق الآتى لأنه لو كان كاذباً لانقلب العلم الضرورى جهلا .

ولم تجر العادة من أول الدنيا حتى الآن بأن مكن الكاذب من دعواه ومن حاول ادعاء النبوة كذباً فضحه الله كمسيلمة مثلا ، أو خيل بسحر فإن الله يفضحه .

أما فى المستقبل فإن النبوة قد ختمت فمن ادعى النبوة فلا يلتفت إليه ولا إلى الخارق الذى ظهر على يديه .

ولا سبيل إليه إلا قطع رأسه بالسيف .

وهذا الرأى ذهب إليه كثير من المحققين منهم الأيجى فى المواقف والسعد التفتازانى فى المقاصد والباقلانى فى التمهيد .

---

(١) السنوسى شرح السنوسية الكبرى ص٣٦٧

(٢) دلالة عادية كدلالة الحمرة على الخجل والصفرة على الوجل .

والذى نختاره أن المعجزة دلالة على صدق الرسول بكل هذه الوجوه الثلاثة عقلية ووضعية وعادية .

فحيث ظهر الخارق على يد الرسول فيدل عقلا أن الله يصدقه بأن هذا الخارق دال على صدق الرسول مواضعة لم تجر عادة الله بتأييد الكاذب.

لا ريب أن المعجزة دليل صادق على دعوى النبوة واثباتها وقد ذهب بعض المتكلمين إلى حصر الدليل فى المعجزة فقط ومن هؤلاء :

إمام الحرمين الجوينى فيقول : لا دليل على صدق النبى غير المعجزة[1]

ويرى التفتازانى أن النبوة قد تثبت بالمعجزة وغيرها فيقول « هذا الكلام ينبغى أن يحمل على مايصلح للنبوة مطلقاً وإلا فإن النبوة قد تثبت بخلق الله العلم الضرورى فى الشخص المصدق وذلك كتصديق أبى بكر رضى الله عنه للرسول ﷺ قبل ظهور معجزة له كما قد تثبت بأخبار نبى صدقه .

فجمهور أهل السنة متفقون على أن النبوة كما تثبت بالمعجزة قد تثبت بطرق أخرى غيرها إذ النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين وأكذب الكاذبين ومن هذه الطرق :

١ — العلم الضرورى بقرائن الأحوال للتمييز بين الصادق والكاذب فإنه من أحد ادعى النبوة وهو كاذب إلا وقد ظهر عليه من الجهل والفسق بما يفضحه الله به ويظهر كذبه للناس .

فالنبى يأمر بأمور ويخبر الناس بأمور ويفعل أموراً يبين بها صدقه .

والكاذب يظهر فى نفس مايأمر به ويخبر عنه مايفعله مايبين به كذبه

(١) الارشاد للجوينى ص٣٢١ .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وأن البر يهدى إلى الجنة ومايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ومايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة فى الصناعات والحرف والعلوم ، والنبوة هى أشرف الأعمال فكيف يشتبه فيها الصادق بالكاذب .

وقد قيل : « ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه » .

فقرائن الأحوال دليل على صدق الرسول :

يقول الإمام الغزالى : « فمن هذا الطريق أطلب اليقين بالنبوة لا من قلب العصا ثعبانا وشق القمر فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده لم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر بما ظننت أنه سحر وتخيل وأنه من الله اضلال[1] .

وقد عبر عن هذا غير الغزالى « أنه يقصد محمداً ﷺ وقد اجتمع فيه من الأخلاق الحميدة والأوصاف الشريفة والسيرة المرضية مالا يجتمع إلا لنبى[2] .

وقد كانت هذه الأوصاف التى يتصف بها نبينا محمد ﷺ ما علمت به السيدة خديجة رضى الله عنها أنه صادق ، قال لها لما جاءه الوحى أنى قد

---

(١) المنقذ من الضلال ص ١٣٩ تحقيق د . عبد الحليم محمود .
(٢) المقاصد ، التفتازانى ج ٢ ص ٣٩

خشيت على نفسي فقالت : كلا — والله لايخزيك الله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل ، وتقرى الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق[١] .

ذلك لأنها علمت أن من كان مجبولا على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم لايمكن أن يكون العارض له عارض سوء .

ومنه أيضاً مااستنبطه النجاشي دليلا على صدق النبي لما استخبر المسلمين المهاجرين إلى بلاده وقرأوا عليه القرآن : «قال إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة» .

وكذلك ورقة بن نوفل حينما أخبره النبي بما رآه قال هذا الناموس الذي كان يأتي موسى[٢] .

وقالوا بالناموس الذي كان يأتي موسى ولم يذكر عيسى لأن رسالة عيسى عليه السلام وشريعته متممة لشريعة موسى وليست شريعة مستقلة كما أن المماثلة بين سيدنا محمد وبين موسى عليه السلام واضحة يعرفها لمن أراد المزيد في كتب الملل والنحل وقد كانت الجن أكثر معرفة بذلك عندما سمعت القرآن قالت : « إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى »[٣] .

ومن قرائن الأحوال الدالة على صدق الرسول ماعرف به هيرقل عندما استخبر عن أحواله ﷺ من العرب الذين كانوا في تجارة ببلاد الروم وقد كان النبي ﷺ قد كتب له رسالة يدعوه إلى الإسلام .

فسأل هيرقل أبا سفيان وأمر الباقين إن كذب يكذبوه فصاروا بسكوتهم موافقين له في الأخبار . قال هيرقل هل كان في آبائه ملكاً ؟

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة .

(٢) أخرجه البخاري وهو من تمام الحديث الذي قبله .

(٣) سورة الأحقاف آية ٣٠

قال أبو سفيان : لا .

قال: هل قال هذا القول أحد قبله ؟ .

فقالوا : لا .

ثم سألهم عن نسبه فقالوا ذو نسب .

ثم سألهم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فقالوا ما جربنا عليه كذباً .

وسألهم هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم فذكروا أن الضعفاء اتبعوه .

وسألهم هل يزيدون أم ينقصون .

فذكروا أنهم يزيدون .

وسألهم هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه .

فقالوا لا .

فسألهم هل قاتلتموه ؟ قالوا نعم .

سألهم عن الحرب بينه وبينهم فقالوا يدال علينا وندال عليه أخرى ، وسألهم هل يغدر فذكرو أنه لا يغدر .

وسألهم بماذا يأمركم فقالوا يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

ثم أخذ هيرقل يفند لهم الأدلة على صدق الرسول .

قال سألتكم هل كان في آبائه من ملك . فقلتم لا فقلت لو كان في آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتكم هل قال هذا القول فيكم أحد قبله فقلتم لا . قلت لو قال هذا القول أحد قبله لقلت رجل ائتم بقول قيل قبله . وسألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال . فقلتم لا فقلت قد علمت أنه لم

يكن ليدع الكذب على ثم يذهب فيكذب على الله تعالى . وسألتكم أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم فقلتم ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل يعنى فى أول أمرهم ثم قال وسألتكم هل يزيدون أم ينقصون فقلتم بل يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم . وسألتكم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه ؟ فقلتم لا . وكذلك الإيمان . إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد .

يقول صاحب العقيدة الطحاوية معلقاً على هذا القول : «وهذا من أعظم علامات الصدق والحق فان الكذب والباطل لابد أن ينكشف فى آخر الأمر فيرجع عنه أصحابه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه والكذب لا يروج إلا قليلا ثم ينكشف»(١) .

ثم يقول هيرقل : وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه فقلتم أنها دول كذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لها .

قال وسألتكم هل يغدر ؟ فقلتم لا — وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتكم عما يأمر به - فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم وهذه صفة نبى وكنت أعلم أن نبياً يبعث فيكم ولم أكن أظنه منكم ولوددت أنى أخلص إليه ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه . وإن يكن ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين : وكان المخاطب بذلك أبو سفيان بن حرب وهو حينئذ كافر من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ قال أبو سفيان فقلت لأصحابى ونحن خروج لقد أمر بن أبى كبشة أنه ليعظمه ملك بنى الأصفر وما زلت موقناً أن النبى ﷺ سيظهر حتى

---

(١) العقيدة الطحاوية ص ١٦٢ ، ١٦٣

أدخل الله على الإسلام وأنا كاره[١] وبعد استقراء ماسبق نعلم علما يقيناً أن رسل الله صادقين فى دعواهم النبوة وأن ما نقل من أحوالهم بطريق التواتر .

يقول الطحاوى :

«ونحن إذا علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم — علمنا يقيناً أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة :

منها :

١ — ما أخبرهم الله به من نصرهم على أعدائهم وهلاك أعدائهم ومن ذلك ما حدث من إغراق المكذبين لنوح عليه السلام — وإغراق قوم فرعون فذكر سبحانه فى قصص الأنبياء نبياً بعد نبى وفى سورة الشعراء كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده يقول فى آخر كل قصة .

« إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم »[٢] .

وقول النبى ﷺ : « ونصرت بالرعب من مسيرة شهر » وهذه خاصة نبينا ﷺ ، فقد علم أنه كان فى الأرض من يقول إنه رسول الله وآمن بهم أناس وكذب الآخرون وإن الله نصر رسله وجعل العاقبة لهم وعاقب أعداءهم وهو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها .

٢ — ومن الدلائل على صدق الأنبياء :

---

(١) الحديث بطوله من حديث أبى سفيان رواه البخارى وله عنده تتمة راجع أيضا سيرة ابن هشام والعقيدة الطحاوية صـ ١٦٤ .

(٢) سورة الشعراء آية ١٥٨ ، ١٥٩ .

أن ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفاصيل أحوالها تبين له أنهم أعلم الخلق وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل .

وأن ما جاءوا به من المصلحة والرحمة والهدى ودلالة الخلق على ما ينفعهم ودفع ما يضرهم دل أن ذلك لا يصدر إلا عن رحيم قاصد للخير والمنفعة .

٣ — ومن هذه الأدلة ما ذكره ابن خلدون فيما يدل على صدق الرسول من غير المعجزة :

أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والزكاة ومجانبة المذمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة كأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وأنها منافية لجبلته .

فقد جاء في الصحيح أنه ﷺ دعى إلى وليمة عرس ولعب فألقى الله عليه النعاس إلى أن طلعت الشمس ولم ير شيئاً مما كان يحدث من لهو ولعب .

وعندما كان يحمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فانكشف شيء من إزاره سقط مغشياً عليه حتى استتر بإزاره .

وعندما أرادت خديجة اختبار ما يأتيه حال الوحي قالت اجعلني بينك وبين ثوبك فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت أنه ملك وليس بشيطان .

معناه أنه لا يقرب النساء وكذلك سألته عن الثياب التي يأتيه فيها الملك فقال البياض والخضرة فقالت أنه الملك دالة على أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة .

هذه بعض الوجوه التي تدل على صدق أنبياء الله تعالى من غير المعجزة الخارقة للعادة ما اشتهر به أقوامهم .

شبه المنكرين لدلالة المعجزة على صدق الرسول :

قد أثار المنكرون للنبوة شبهات حول المعجزة منكرين إياها وبالضرورة فإبطالهم أن تكون المعجزة دليلا على صدق النبي . فينكرون النبوة أصلا فضلا عن عدم ثبوتها عندهم ولهم على إنكارهم للمعجزات شبه نذكرها فيما يلي .

الشبهة الأولى : قالوا فيها : يحتمل أن يكون الخارق ليس فعلا لله تعالى وإنما هو من فعل المدعى الذى له مزاج خاص وعلم بخواص الأجسام ومطالع النجوم فيعتمد على تسخير الجن أو الملائكة والمقرون بالنبوة يقرون أيضاً بوجود هذه الأشياء وقدرتها على خرق العادة على يد السحرة مثلا .

الجواب عن هذا :

قد ثبت لدينا بالدليل القاطع أن الله هو الخالق للأشياء وإجراء المعجزة على يد النبي ليست من جنس ما يفعله السحرة وغيرهم فانقلاب العصا حية حقيقة أما ما يفعله السحرة فهو أنهم سحروا أعين الناس وليس قلباً للحقائق . وكذا الكهان وغيرهم فإنهم يخبرون بالأخبار الصادقة أحيانا والكاذبة غالباً أما الأنبياء فالأخبار عندهم صادقة البتة .

الشبهة الثانية : قالوا فيها يحتمل أنه كان فى الإمكان معارضته إلا أن المرسل إليهم لم يعارضوه — إما أنهم لم يستطيعوا المعارضة . أو أنهم أرادوا أن يرفعوا من شأنه — أو أنه عورض ولكن لم ينقل إلينا .

الجواب عن هذه الشبهة :

أن المعجزة هى ما يتحدى بها ويعجز المعارضون عن الإتيان بمثلها ومن المعروف أن الرسول يأتى مخالفاً لما عليه عادة القوم من الجهالة والسفه وهم أحرص الناس على تكذيبه — ولو قدروا لأعلنوا ذلك بكل السبل — والمتتبع لحياة الأنبياء يرى كيف كانت المعارضة لهم فالسحرة أتوا من كل صوب متحدين وفرعون بجبروته يدعى الألوهية وهذا موسى يريد أن يسلب من فرعون ادعاءه ومن السحرة مكانتهم ومنزلتهم فى أعين الناس ولكنهم عندما أدركوا أن ما أتى به موسى ليس سحراً قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون .

وسيدنا رسول الله ﷺ تحداهم فى مصدر فخرهم وعزهم والتى كانوا ينصبون لها الأسواق المشهورة يتبارون فيها بالفصاحة والبلاغة فإذا محمد يعارضهم بما أعجزهم وأخرس ألسنتهم .

الشبهة الثالثة : قالوا فيها يحتمل أن يكون خلق الأمر الخارق ليس بقصد تصديق مدعى النبوة وخصوصاً وأن أهل السنة يقولون أن أفعال الله خالية عن الاغراض والمصالح .

أو يكون لغرض ولكنه يقصد اللطف بالشخص المدعى استجابة لدعوة رجل صالح أو اختبار للناس أو اضلالا لهم .

الجواب عن هذا :

أن الفارق بين المعجزة وغيرها واضح ومحال أن يظهر الله على يد غير النبى أمراً خارقاً تأييداً له فى كذبه .

الشبهة الرابعة : أن المعجزة لا تدل على صدق الرسول إلا إذا ثبتت استحالة الكذب فى اخباره تعالى وهذا لا يكون إلا بالدليل السمعى الذى أتى به الرسول الذى ثبت صدقه فتكون المعجزة متوقفة على صدق الرسول ، وصدق الرسول متوقف على ثبوت المعجزة وهـذا يؤدى إلى الدور .

ويجاب عن هذا : بأن إظهار المعجزة دليل على صدق الرسول من غير حاجة اعتبار آخر — فلا دور .

وبهذا نكون قد أجبنا على بعض الشبهات التى تثار حول المعجزة .

أنواع المعجزات :

المعجزات تنقسم الى أعداد كثيرة غير أنها فى الجملة ترجع إلى نوعين :

أحدهما : وجود فعل غير معتاد وهذا ضربان :

الأول : ما كان غير داخل تحت قدرة من هو معجزة له ولا قدرة غيره من الخلق ولا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى وذلك مثل إيجاد الأشياء من العدم وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . ونحو ذلك .

والثانى : ما لا يدخل تحت قدرة من هو معجزة فيه . وله على الوجه الذى أظهره الله تعالى وإن دخل مثل أبعاضه وجنسه تحت قدرة العباد بأن يكتسبوه فى أنفسهم ويستحيل منه فعله فى غيرهم لقيام الدلالة على إبطال التولد . وهذا مثل الكلام المنظوم نظم القرآن فى فصاحته وبلاغته المفارقة لبلاغة البلغاء . وإن كان جنس العبارة ومفردات الألفاظ بعض أنواع التركيب منها مقدوراً للعباد .

الثانى : تعجيز الفاعل بشيء معتاد عن فعله مثل تعجيز زكريا عن الكلام

ثلاث ليال بعد أن كان معتاداً له للدلالة على صحة ما بشر به[١] .

وعلى هذا نستطيع القول بأن المعجزة إما أن تكون قولا أو فعلا أو تركا .

فالقول ما شمل الكتب السماوية المنزلة وفى الدرجة العليا القرآن الكريم وان كان معظم الكاتبين يذهبون إلى أن المعجزة القولية خاصة بالقرآن وحده إلا أننا نرى أن الكتب السماوية باعتبار أنها كلام الله المنزل على أنبيائه وبما اشتملت عليه من أمور خارقة للعادة فإنها تكون معجزة . لكن ليست مما يتحدى به .

والفعل — كانقلاب العصا حية — وإحياء الموتى بإذن الله — ونبع الماء من بين أصابع النبى ﷺ والترك كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام — وعدم كلام زكريا ثلاث ليال عندما بشر بالولد .

وهناك تقسيم آخر للمعجزات باعتبار كونها حسية أو معنوية إلى قسمين[٢] :

١ — مادية محسوسة ومرئية وملموسة . وهذا لمن عاصرها وشاهدها ونقلت بطريق التواتر — كانشقاق القمر . ورد عين قتادة بن النعمان . وهذا النوع من المعجزات يحدث وينقضى فلا تتجاوز آثاره الزمن الذى حدثت فيه ولا تبقى مع الأيام .

٢ — المعجزات المعنوية وهى المعجزات التى لا تقع تحت بصر الإنسان وحسه ولكن يتم اخبار الرسول بها[٣] وهذا مثل القرآن الكريم والإسراء والمعراج للنبى ﷺ .

---

(١) البغدادى أصول الدين ص ١٧١ ، ١٧٢

(٢) هناك تقسيم آخر للمعجزات باعتبار ثبوتها

(٣) ما ثبت بطريق التواتر وهى المعجزات المعنوية .

**معجزات الأنبياء :**

معجزات الأنبياء كثيرة جداً ومتعددة إذ هى إحدى الدلائل على صدقهم فى دعواهم النبوة ولن يكون فى مقدورنا حصرها وسنكتفى فى حصر المعجزات لأنبياء الله عليهم السلام والتى كانت فى جملتها مادية محسوسة انقضت بانقضاء وقتها ولولا أن القرآن الكريم الذى هو معجزة نبينا ﷺ تحدث عنها لقال الناس عنها أنها ضرب من الخيال فثبوت معجزات الأنبياء بما تحدثت به المعجزة المعنوية لنبينا ﷺ [١] .

**أولا : معجزات الأنبياء :**

كان من مقتضى الحكمة الألهية أن يؤيد الله أنبياءه بالمعجزة الخارقة عن جنس ما اشتهر فيه القوم الذين بعث فيهم النبى. أوما عاندوه فيه مكابرة فيكون عذابهم بما توعدهم به النبى معجزة له .

فمعجزة آدم عليه السلام : علمه بالأسماء كلها من غير قراءة ولا تدريس. قال تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم »[٢] .

ومعجزة نوح عليه السلام الطوفان وخلاصه منه .

قال تعالى : « فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين »[٣] .

---

(١) ما ثبت بطريق الآحاد كباقى المعجزات

(٢) سورة البقرة آية ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣

(٣) سورة الشعراء آية ١١٩ ، ١٢٠

ومعجزة هود عليه السلام الريح وما كان من شأنها مع قوم عاد .

قال تعالى : « كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » [١] .

فكانت الريح تقلعهم من أماكنهم وروى أنهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فقلعتهم الريح وصرعتهم موتى فكأنهم حين تقلعهم الريح أعجاز نخل منقلع من مغارسه وساقط على الأرض وشبهوا بها لأنهم كانوا طوال الأجساد فكانت الريح تقلع رؤوسهم فتبقيهم أجساداً بلا رؤوس[٢] .

وكانت معجزة صالح الناقة والصيحة التى دمرت القوم .

فكانت الناقة من صخر لا من أبوين كما هى العادة — آية معجزة دالة على صدقه ولكنهم عتوا عن أمر ربهم وعقروا الناقة — أى نحروها لأن الإبل تنحر وإنما قال عقروها لأن ناحر البعير يعقروه أولا ثم ينحروه .

فلما عقروها أخذتهم الرجفة عقاباً لهم على ما أقدموا عليه — فأهلكتهم الزلزلة الشديدة يقال رجفت الأرض إذا اضطربت وزلزلت وفى آية أخرى فأخذتهم الصيحة « أى من السماء التى زلزلت بهم الأرض وكانوا بارکین على ركوبهم أو مقيمين والمراد أنهم هامدون صرعى لا حراك لهم . يصور ذلك قوله تعالى : « قالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين[٣]

---

(١) سورة القمر آية ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .
(٢) صفوة البيان الشيخ حسنين مخلوف ص ٦٨٣ .
(٣) سورة الأعراف آية ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ .

ومعجزة إبراهيم عليه السلام النجاة من النار — قال تعالى : « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى برداً وسلاما على إبراهيم »[١] .

ومعجزة موسى عليه السلام : اليد البيضاء وقلب العصا حية وسائر الآيات التسع وروى عن ابن عباس رضى الله عنه أن الآيات التسع هى اليد البيضاء والعصا والطوفان — والجراد والقمل والضفادع ، والدم والجدب والنقص فى الثمرات[٢] قال تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات »[٣] .

أما معجزة عيسى : فكانت من جنس ما نبغ فيه قومه وهو الطب فلما أنكر عليه اليهود دعوته جاءهم بما عجزوا عنه فكان إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وإنزال المائدة من السماء وأن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله .

وقد حكى القرآن معجزات عيسى عليه السلام فقال تعالى : « ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وتدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين »[٤] .

وكذلك كل نبى له معجزة مخصوصة واجتمعت لنبينا ﷺ جميع وجوه المعجزات التى تفرقت فى الأنبياء .

---

(١) سورة الأنبياء آية ٦٨ ، ٦٩ .
(٢) صفوة البيان لمعانى القرآن الشيخ حسنين مخلوف ص ٣٧٢ .
(٣) سورة الإسراء آية ١٠١ . (٤) سورة آل عمران آية ٤٩ .

# الفصل الخامس

## معجزات نبينا محمد ﷺ

أوتى النبى ﷺ معجزات حسية وأخرى معنوية. وكانت معجزته الكبرى هى القرآن الكريم معجزة معنوية له إذ المعجزات الحسية تنقضى بانقضاء وقتها ولا تفارق الزمان والمكان الذى حدثت فيه. أما المعجزة المعنوية فهى باقية إلى يوم القيامة.

أولا : المعجزات الحسية :

ذكر ابن تيمية فى آيات النبى ﷺ المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير أنواع — منها ماهو فى العالم العلوى[1] : كانشقاق القمر وحراسة السماء بالشهب الحراسة التامة ومعراجه إلى السماء.

فمعجزة انشقاق القمر : قد ثبتت بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وأجمع على ذلك أهل الحق فى أن النبى ﷺ قد انشق له القمر نصفين قال تعالى : «اقتربت الساعة وانشق القمر»[2]، وروى الإمام أحمد من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقالوا سحرنا محمد وقالوا إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فاسألوا فإن شهدوا بما أبصرتموه فهو حق وليس سحراً، فسألوا من كان مسافراً عن مكة من أهلها ومن غيرهم فأخبروهم أنهم رأوا ذلك فتمادوا فى كفرهم وعتوهم ولم يؤمنوا.

---

(١) السفارينى — لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٢٩٣.

(٢) سورة القمر آية ٢.

وهذه المعجزة اختص بها سيدنا محمد — ﷺ — عن سائر الأنبياء والمرسلين فلم تقع لأحد سواه ولم يشاركه فيها غيره ولا يفوقها غير القرآن الكريم .

يقول البغدادى « ولو لم يقع ذلك لقال أعداؤه متى كان هذا »[1] .

ثانياً — نبع الماء من أصابعه ﷺ :

روى أن جماعة من الناس طلبوا ماء للوضوء فلم يجدوا فأتى النبى — ﷺ — بقليل من الماء فصبه فى إناء ووضع يده فى الإناء فصار يفور من بين أصابعه كأمثال العيون فتوضأ العدد الكثير . ويذكر فى بعض الروايات أنهم كانوا ثلاثمائة فرد .

ثالثاً : تسبيح الحصى فى كفه ﷺ :

فقد روى ثابت أن أنس بن مالك قال كنا جلوساً عند رسول الله — ﷺ — فأخذ كفاً من حصى فسبحن فى يده حتى سمعنا التسبيح ثم صبهن فى يد أبى بكر فسبحن ثم فى يد عمر فسبحن ثم فى يد عثمان فما سبحن ثم فى أيدينا فما سبحن[2] .

رابعاً : حنين الجذع :

وهو ساق النخلة الذى كان يخطب عليه النبى — ﷺ فلما صنع له المنبر انتقل إليه فسمع للجذع حنيناً وصوتاً عظيماً لفراق النبى ﷺ سمعه الحاضرون فى المسجد فضمه الرسول إلى صدره فجعل يئن كأنين الصبى

---

(١) البغدادى أصول الدين ص ١٨٢

(٢) شرح البيجورى على الجوهرة ص ٤٢

الذى تسكته أمه عن البكاء فقال له النبى إن شئت رددتك إلى بستانك فينبت غرسك أو أغرسك فى الجنة فقال بصوت مسموع بل تغرسنى فى الجنة فيأكل منى أولياء الله وأكون فى مكان لا بلاء فيه فقال النبى ﷺ قد فعلت ثم قال اختار دار البقاء على دار الفنـــاء وأمر به فدفن تحت المنبر — وكان الحسن إذا حدث بهـذا الحديث بكى وقال يا عباد الله إن الخشبة تحن إلى رسول الله فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه .

## خامساً : إبراء المرضى :

ومنها رد عين قتادة بن النعمان الذى أصيب فى عينه يوم أحد فسالت على خده فذهب إلى رسول الله وهو يحمل عينه فى يده فلما رآها الرسول بكى وقال إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت رددتها ودعوت لك فلم تفقد شيء فقال يا رسول الله أخشى أن يعيرنى الناس فردها وادعو الله لى ففعل النبى فكانت أحسن مما كانت .

وروى أنه كانت ترمد السليمة ولا ترمد التى أصيبت .

وغير ذلك من المعجزات الحسية التى وقعت على يد النبى ﷺ كنطق الضب وشهادته بأنه نبى الله .

وكنطق الشاة المسمومة يوم خيبر — ودرور ضرع شاة أم معبد . وكتسبيح العنكبوت وبيض اليمامة على غار حراء حتى لا يراه المشركون وغير هذا كثير مما لا ينبغى لأحد أن يشك فيها لأنها قد وردت بطريق التواتر والمتواترات من القضايا الضرورية التى لا ينازع فيها .

## ثانياً : المعجزات المعنوية :

يذكر المؤرخون لكتب العقائد أنواعاً من المعجزات المعنوية التى يستدل بها على صدق نبينا ﷺ :

منها أولا — الاستدلال بصورته وهيئته :

أن من ينظر فى نفس النبى ﷺ وصورته وطلعته الشريفة وأفعاله التى كان يقوم بفعلها بخلاف ما جبلت عادة قومه من لهو ومجون وتعلق بالأصنام وبعده عن الفواحش الظاهرة والباطنة وسمو خلقه وأدبه حتى قال أدبنى ربى فأحسن تأديبى ليدرك عقلا أنه نبى صادق فيما يدعيه ، ولهذا عندما نظر عبد الله بن سلام فى وجهه قال فلما رأيت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب

من سمع كلامه ورأى أدبه لم يدخله شك فى نبوته .

قال ابن الجوزى وكان فى صغره يعرف بالأمانة والصدق ، وجميل الأخلاق . وقال هيرقل فى حديث أبى سفيان . ما كان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى .

وقد نقل ابن تيمية عن نفطويه فى تفسير قوله تعالى : « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار »[1] هو مثل ضربه الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يقول يكاد منظره يدل على نبوته وإن لم ينل قرآنا ، وكما قال عبد الله ابن رواحة :

لو لم تكن فيه آيات مبينة ‏ ‏ كانت بديهته تأتيك بالخبر

ثانياً : البشارات فى الكتب السماوية السابقة بنبينا محمد ﷺ ذكر القرآن أن الكتب السابقة قد دلت على الرسول باسمه ونعته الذى وصفه به فقال تعالى :

«الذين يتبعون الرسول النبى الأمي الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت

---

(١) سورة النور آية ٣٥

عليهم(١) وقد أخذ الله الميثاق على كل الأنبياء بأن يؤمن كل نبي بمحمد ﷺ وأن يبلغوا أقوامهم إذا أدركوا زمانه أن يكونوا ناصروه ومؤيدوه قال تعالى: «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم أصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين»(٢).

قال ابن عباس رضى الله عنه «مابعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ الله عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حى ليؤمن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته(٣).

ومن هنا ندرك بشارة التوراة والإنجيل «وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد»(٤).

وليت شعرى أين نجد هذه البشارات وقد شوهت اليهودية ومن بعدها المسيحية التلمودية عن قصد وسوء نية — الآيات الدالة على اسمه صراحة ووضعوا رموزاً لايفهمها إلا الأحبار والرهبان الضالعين فى العقيدة منهم بأنها دالة على نبى الإسلام محمد ﷺ. أما العامة فلا يفهمون ذلك.

يقول الإمام الجوينى فى كتابه شفاء العليل فقد نطق الخبر اليقين فى صريح

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٧
(٢) سورة آل عمران آية ٨١
(٣) محمد على الصابونى — صفوة التفاسير ج ١ ص ٢١٤
(٤) سورة الصف آية ٦

القرآن مبيناً نصوص التوراة والإنجيل على ذكر سيد المرسلين صلوات الله عليه ، وهذا السبب هو الحامل علماء الإسلام على القول بالتبديل[١].

ويمكن أن نلقى بعض النصوص التى فى التوراة (العهد القديم الآن) والانجيل والتى تدل على الرسول محمد .

ففى سفر التثنية ، جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير. وتلألأ من جبال فاران[٢] فمجيء الرب من سيناء إشارة إلى رسالة موسى عليه السلام واشراقه من ساعير إشارة إلى رسالة عيسى عليه السلام وساعير فى بيت لحم الذى ولد فيه عيسى .

أما تلألأ من جبال فاران فإشارة إلى رسالة محمد ﷺ حيث جبال فاران إحدى سلاسل جبال مكة .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الأماكن الثلاثة فقال تعالى: «والتين والزيتون ، وطور سينين وهذا البلد الأمين » .

فإن التين والزيتون مشهور انباتهما فى أشرف بقعة فى بلاد الشام وهى فلسطين — مولد عيسى ومهجر إبراهيم ومسرى النبى ﷺ .

وطور سيناء مكان مناجاة موسى .

والبلد الأمين مكة مكان ميلاد محمد ﷺ .

وفى الإنجيل قال لهم يسوع : أما قرأتم قط فى الكتب الحجر الذى رفضه البناءون قد صار رأس للزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجب

---

(١) الجوينى شفاء العليل ص ٢٩
(٢) تثنية ٢/٢٣

لأعيننا كذلك أقول لكم أن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لامه تعمل على إثماره، ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يستحقه[١].

فالمحققون يذهبون إلى أن الحجر الذى رفضه البناءون هو إسماعيل والذى كان محمد ﷺ من عقبه ونسله — فقد هاجرت هاجر بابنها اسماعيل إلى جبال فاران حيث لا زرع ولا ماء وطمأنها الله ووعدها بأن يكثر من ذريتها وقد تحقق وعد الله وانتزعت ملكوت الله من نسل اسحاق وأعطى لنسل اسماعيل الذى كان منه النبى محمد ﷺ .

وقد جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويقولون ما أحسنه وأجمله إلا موضع هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين[٢] .

هذا بعض ما اشتملت عليه الكتب السابقة وهى تدل دلالة ظاهرة على التبشير والإشارة إلى نبوة محمد ﷺ صاحب الشريعة الحاكمة والخالدة والخاتمة للشرائع السماوية . غير أن المقام لا يتسع لذكر هذه الإشارات .

ثالثا : من المعجزات المعنوية الدالة على صدق سيدنا محمد ﷺ :

الإسراء والمعراج :

ثبت بالقرآن وبصحيح السنة النبوية أن الإسراء والمعراج قد وقعا — وأنه أسرى بالنبى ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السموات العلى .

---

(١) متى ٢١ / ٤٢ : ٤٤

(٢) صحيح مسلم جـ١٥ صـ ٥ ط المصرية .

والذى ذهب إليه أهل العلم من المحدثين والمفسرين والفقهاء والمتكلمين أن الإسراء والمعراج كانا يقظة بالجسد والروح معاً .

والدليل على ذلك: أنه قال: « سبحانه سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » .

والعبد عبارة عن الجسد والروح معاً إذ الإنسان معروف بأنه المركب من الجسد والروح .

كما أنه لو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة وذلك يؤدى إلى إنكار الملائكة وهذا كفر .

قال أهل الحق وهذا هو الحق من غير افتراء وعليه يدل القرآن نصاً وصحيح الأخبار إلى السموات استفاض استفاضة تكاد تبلغ التواتر أو بلغته ولا يعدل عن الظاهر فى الأخبار الواردة فى ذلك ولا عن الحقيقة المتبادرة إلى الأذهان من ألفاظها إلى التأويل إلا عند الإستحالة وتعذر حمل اللفظ على حقيقته وليس ثم استحالة تؤذن بالتأويل — فلا جرم وجب اعتقاده على ظاهره مع تفويض علم مادق إلى الحق [١] .

هذا فيجب الإيمان بالإسراء والمعراج ومنكر الإسراء كافر لأنه أنكر أمراً أثبت بالكتاب والسنة ومنكر المعراج مبتدع لأنه خالف إجماع المسلمين وأنكر أمرا ثبت بالأحاديث المشهورة .

## أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم:

القرآن هو المعجزة الكبرى المعنوية لسيدنا محمد ﷺ — والقرآن الكريم هو كلام الله المنزل على عبده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المتعبد به المتحدى بأقصر سورة منه .

---

(١) السفارينى لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٢٨٩

قال تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين »[١] .

تحدى به فرسان البلاغة وأرباب البيان وأثار فيهم الحمية متواعداً إياهم بالنار وبين عجزهم وهذا التحدى لجميع الخلق وسمعه القاصى والدانى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[٢] .

وقد سمى كتاب الله ويسمى بالقرآن المجيد وذلك لبيان أنه يعتنى به فى موضعين فلاثقة بقراءة قارىء مالم يوافق المقرؤ المكتوب ولا ثقة بكتابة كاتب مالم يوافق المقرؤ والمحفوظ فى الصدور .

وقد تكفل الله بحفظه دون سائر الكتب السماوية الأخرى قال تعالى: « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[٣] .

وذلك لما أصاب الكتب السابقة من التحريف والتبديل على أيد اليهود والنصارى كما أن الرسالات السابقة جاءت على التوقيت أما رسالة الإسلام فقد جىء بها على التأبيد وختمها للرسالة السماوية .

والقرآن الكريم معجزة الرسول محمد ﷺ الكبرى .

وقد اختلف المتكلمون فى أوجه الإعجاز :

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة الإسراء آية ٨٨

(٣) مقالات الإسلاميين للأشعرى ج ١ ص ٢٧١

١ — فمنهم من أرجع الإعجاز إلى أنه جاء فى الطبقة العليا من البلاغة والفصاحة الخارجة عن العادة فى نظم الخطب والشعر المزدوج من الكلام ، وهذا القول ذهب إليه المعتزلة إلا النظام — وعباد بن سليمان وهشام الفوطى[١] ونحو ذلك يقول الإمام محمد عبده «نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترات الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب وأغزرها مادة فى الفصاحة وأنفس ما كانت تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء »[٢] .

وقد تحداهم القرآن الكريم فعجزوا عن المعارضة ولو استطاعوا وحدث ذلك منهم لكان نقل بطريق التواتر كما نقل غيره .

كما أنهم لو استطاعوا أن يعارضوه أو يعارضوا سورة منه لكان ذلك أهون عليهم من الحروب التى تذهب صيحتها صناديدهم وأبطالهم .

٢ — ومنهم من ذهب — القاضى الباقلانى — إلى أن أوجه الإعجاز ما انطوى عليه من الأخبار الماضية وسير الأولين وما شجر بينهم ومما لا يجوز حصول علمه إلا لمن كثر لقاؤه لأهل السير ودرسه لها وعنايته بها فى مجالسته .

ومعروف أن النبى ﷺ لم يجلس إلى معلم يتعلم منه ولا قرأ كتابا من قبل ، قال تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون »[٣] .

فمن كانت هذه حالته مع إقامته بينهم دل ذلك على أن المخبر عن هذه الأمور هو الله تعالى .

---

(١) الأشعرى مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٢٧١

(٢) محمد عبده رسالة التوحيد ص ١٢٤

(٣) سورة العنكبوت آية ٤٨

الثانى من الوجهين الذى ارتضاهما الباقلانى هو ما انطوى عليه من الأخبار بالأمور المستقبلية التى يعلم كل عاقل عن معرفتها التوصل إلى إدراكها مثل قوله تعالى : « ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » (١) .

وقد كان وحدث أن انتصرت الروم على الفرس بعد هزيمتها فى الماضى البعيد . وقوله تعالى : « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون » (٢) .

وقوله تعالى « سيهزم الجمع ويولون الدبر » (٣) .

وإخباره عن اليهود بأنهم لن يتمنوا الموت وامتناع النصارى عن المباهلة فى قوله تعالى : « قل تعالوا ندعوا أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين »(٤) فامتنعوا عن المباهلة خوفا من النكال وأليم العقاب أن ينزل بهم وليس ذلك إلا لعلمهم بصدق ثبوت نبوته (٥) .

الرأى الثالث من أوجه الإعجاز القول بالصرفة .

وهو ما ذهب إليه النظام من المعتزلة والشريف المرتضى من الشيعة وابن حزم الأندلسى وقال السنوسى وهو قول لأبى الحسن الأشعرى .

أما وجهة نظر النظام إلى القول بالصرفة أى أن الله صرفهم بأن صرف

---

(١) سورة الروم الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤
(٢) سورة الفتح آية ٢٧ (٣) سورة القمر آية ٤٥
(٤) سورة آل عمران آية ٦١
(٥) الباقلانى التمهيد ص ١٥٨ ، ١٥٩

دواعيهم إلى المعارضة مع توفر الأسباب الداعية للمعارضة خصوصاً بعد التحدى والتبكيت بالعجز (١) .

ويرى النظام أنه كان يجوز أن يقدر العباد على التأليف والعجز لولا أن منعهم الله بمنع وعجز أحدثهما فيهم(٢)، كذلك ذهب النظام إلى أن الآية والأعجوبة فى القرآن ما فيه من الأخبار عن الغيوب .

فوجه إعجاز القرآن لدى النظام من حيث الأخبار عن الأمور الماضية والآتية . ومن جهة صرف الدواعى عن المعارضة ومنع العرب عن الاهتمام به خبرا وتعجيزا حتى لو خلاهم وكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما (٣) .

وقد وافق النظام على رأيه الفقيه الأندلسى ابن حزم فى كتابه الفصل فيقول : « ولم يقل أحد فى أن كلام الله غير معجز لكن لما قال الله تعالى وجعله كلاما له أصاره معجزاً ومنع من مماثلته ثم قال وهذا برهان كان لا يحتاج إلى غيره (٤) .

أما الشريف المرتضى فيرى الصرفة بأن الله قد سلبهم العلوم التى يحتاج إليها فى معارضة القرآن والإتيان بمثله ومؤدى كلامه وأنهم أوتوا القدرة على المعارضة بما كانوا عليه من بيان وبلاغة وفصاحة فهم قادرون على النظم والعبارات لكنهم عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن بسبب أنهم سلبوا العلوم التى يستطيعون بها محاكاة القرآن فى معناه (٥) .

---

(١) الأيجى المواقف ص ٥٧٧
(٢) الأشعرى مقالات الإسلاميين ص ٢٢٥
(٣) الشهرستانى الملل والنحل جـ ١ ص ٣٩
(٤) الشيخ أبو زهرة ص ٨٠ المعجزة الكبرى .
(٥) السفارينى لوامع الأنوار البهية جـ ١ ص ١٧٤

ومن المتكلمين من ذهب إلى أن وجه الإعجاز فى القرآن الكريم راجع إلى عدم تناقضه مع طوله وتصديق بعضه بعضاً فهو من لدن حكيم خبير — « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »[1] .

ومنهم من ذهب إلى أن إعجازه فى موافقته لقضايا العقول[2] .

والحق الذى نراه أن القرآن الكريم معجز من كل هذه الوجوه وأن الإعجاز فى القرآن الكريم إعجاز ذاتى وأن فصحاء العرب وبلغائهم كانوا يتعجبون من حسن نظمه وعلو بلاغته وسلاسة ألفاظه وجزالة أسلوبه — فلما لم يجدوا للطعن سبيلا قالوا إن هو إلا سحر يؤثر وهذا جواب العقل المبهوت الذى يعجز عن محاجة خصمه وقد نطق أحدهم قائلا : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه يعلو ولا يعلى عليه .

الجواب على شبهة القائلين بالصرفة :

النظام يرى أن الله صرف العرب عن المعارضة ولم يتوجهوا إليها مع قدرتهم على المعارضة ، والشريف يرى أن الله سلب العلوم التى يمكن بها المعارضة .

والجواب عن هذا :

أولا : أن القول بالصرفة باطل ولم ينقل أن العرب كانت لديهم القدرة على المعارضة ولكن المتواتر أن القرآن معجز إعجازاً ذاتياً .

---

(١) سورة فصلت آية : ٦ .
(٢) السنوسية الكبرى ص ٢٧٨ تحقيق د . عبد الفتاح بركة .

قال تعالى « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً »[١] .

وقوله تعالى : « ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله »[٢] .

يقول القرطبى إن القول بالصرفة مناقض لإجماع الأمة الذى انعقد قبل وجود القائلين بالصرفة على أن إعجاز القرآن ذاتى »[٣] .

كما أنه يمكن أن يقال أن الواقع التاريخى للعرب يكذبهم لأنه لو كانوا قادرين على المعارضة ماتوجهوا إلى الحروب وتحمل الأهوال والصبر على القتل وألم الجراح إذ أن حرب اللسان أخف وطأة من حرب السنان .

ثم أنهم توجهوا إلى أبى طالب ليفاوضه فى شأن ابن أخيه الذى سب آلهتهم وسفه أحلامهم عارضين فى مقابل ذلك أغلى وأنفس شىء لديهم حتى ولو كان أحد أبنائهم المغاوير ثم أنهم جمعوا الجيوش لخوض المعارك يقدمون أنفسهم وأبناءهم وقوداً لها والقضاء على محمد ﷺ ودعوته كل هذا كان يكفيهم مؤنته معارضة أقصر سورة من سور القرآن الكريم .

أما عن قول أن الله قد سلب من العرب العلوم التى يحتاجون إليها فى المغارضة معنى ذلك أن العرب كانت لديهم علوماً فلما نزل القرآن سلبت منهم هذه العلوم التى كانوا يستطيعون بها المعارضة .

---

(١) سورة الرعد آية ٣١ (٢) سورة الحشر آية ٢١

(٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٦٦

أين هى العلوم التى كانت قبل البعثة . بل أين أساليبهم وأشعارهم التى يستطيعون أن يحاكوا بها القرآن ولماذا لم يلجأوا إلى أساليب القدماء منهم وعارضوا به القرآن إن كانت عندهم من قبل .

يقول الفخر الرازى مبيناً ضعف الرأى القائل بالصرفة :

«إن عجز العرب عن المعارضة لو كان لأن الله أعجزهم عنها بعد أن كانوا قادرين عليها لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن ، بل كان يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك عليهم . بعد أن كان مقدوراً عليه لهم كما أن نبياً لو قال معجزتى أن أضع يدى على رأسى هذه الساعة ويكون ذلك متعذراً عليكم ويكون الأمر كما لم يكن بل من تعذر ذلك عليهم علمنا بالضرورة أن تعجب العرب كان من فصاحة القرآن نفسها وبطل ما قاله النظام[١] .

ثم يذكر اعتراضا على القول بالصرفة فيقول : إن العرب لو كانوا بحيث متى قصدوا فعل المعارضة افتقدوا العلوم التى لابد منها فيها لوجب أن يعلموا ذلك أنفسهم بالضرورة وأن يميزوا بين أوقات المنع وأوقات التخلية ولو علموا ذلك لتذاكروه ولذاع وانتشر[٢] .

هذا وقد عارض جل المتكلمين القول بالصرفة ومن هؤلاء الجرجانى والزمخشرى وغيرهم .

وقد ثبت أن القرآن الكريم المعجزة الكبرى التى أوتيها سيدنا محمد

---

(١) الفخر الرازى نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ص ٧ ط القاهرة ١٣١٧

(٢) الفخر الرازى — نهـــاية العقول جـ ٢ ورقة ١٢٧ مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٧٤٨ توحيد .

ﷺ وهو الحجة الدامغة على المكذبين والجاحدين إلى يوم القيامة وأن إعجازه ذاتى تحدى به الثقلين ومازال التحدى قائما . « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

## عموم بعثة النبى محمد ﷺ وختمها للرسالات السماوية

لقد اختص الله سيدنا محمد ﷺ بخصائص دون سائر الأنبياء منها تفضيله على جميع الأنبياء ، وبأنه مرسل إلى جميع الأنام . قال تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا »[١] .

وقوله تعالى « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا »[٢] .

ومما يدل على عمـــوم رسالته ﷺ — قوله عليه الصلاة والسلام « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون »[٣] .

وجمهور المحققين على أنه مرسل إلى الإنس والجن بالإجماع واختلفت فى إرساله إلى الملائكة على قولين :

أحدهما أنه لم يرسل إلى الملائكة قال ابن حمدان فى نهاية المبتدئين « ونجزم بأن محمداً ﷺ رسول إلى الإنس والجن كافة » وقال القاضى أبو يعلى وأنه ﷺ خاتم الأنبياء وأفضلهم .

---

(١) سورة سبأ آية ٢٨ (٢) سورة الأعراف آيه ١٥٨

(٣) أخرجه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه وقال حديث حسن صحيح ، ج ١ ص٢٩٣ .

الثانى : أنه مرسل إلى الملائكة وإليه ذهب السيوطى فى الخصائص والسبكى قبله . وقالوا أنه ﷺ مرسل إلى جميع الأنبياء والأمم السابقة وأن قوله بعثت للناس كافة من لدن آدم إلى قيام الساعة .

يقول البيجورى « والتحقيق أنه مرسل لجميع الأنبياء والأمم السابقة لكن باعتبار عالم الأرواح فإن روحه كلها وأرسلها الله لهم فبلغت الجميع والأنبياء نوابه فى عالم الأجسام »(١) .

ويؤيد هذا الرأى قوله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »(٢) .

وزاد بعض المحققين فى أنه مرسل إلى الحيوانات واستدل بشهادة الضب .

أما عن إرساله للملائكة فإننا نؤيد ما ذهب إليـــه البيجورى بأنه مرسل إليهم إرسال تشريف .

أما عن عموم رسالته فإنه لا يشك فى ذلك مسلم ومن نفى عموم رسالته فقد كفر، قال عليه الصلاة والسلام « والذى نفسى بيده لا يسمع بى من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن إلا دخل النار »(٣) .

وفيما أخرجه الشيخان من حديث جبير بن مطعم عن النبى ﷺ أنه

---

(١) شرح البيجورى على الجوهرة ص ٣٨

(٢) سورة آل عمران آية ٨١

(٣) مسند الإمام أحمد بلفظ من سمع من أمتى أو يهودى أو نصرانى ولم يؤمن لم يدخل الجنة رواه سعيد بن جبير ج٤ ص ٣٩٦ ط دار الفكر

قال : إن لى أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب والعاقب الذى ليس بعده نبى » :

فقد ثبت أنه ﷺ خاتم النبيين والمرسلين فلا نبوة ولا رسالة بعده وقد ترك تراثا هائلا يحمل الهداية للبشرية ونذيراً لمن عصى واستكبر وهو القرآن الكريم آخر الكتب السماوية . قال تعالى « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ »[1] .

أما شبهة من يقول بأن عيسى عليه السلام قد رفع وسينزل إلى الدنيا بعد محمد فلا تكون شريعته خاتمة الشرائع ولا رسالته خاتمة الرسالات فالجواب عن ذلك : بأن عيسى سينزل حاكما بشريعة محمد ﷺ وداعياً إليها ومتبعاً لنبيها ومحمد ﷺ هو الذى أخبر بذلك ولا يخفى على كل عاقل أنه يخبر بذلك وهو كما يدعون ناسخ لشريعته وقد أخبر من قبل أنه لا نبى بعده وشريعته خاتمة الشرائع . كما أن عيسى جاء تابعا لشريعة موسى وقد قال النبي ﷺ فى حق موسى « لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعى »

وفى أخبار النبي ﷺ عن نزول عيسى حاكما بشريعة الإسلام ما رواه سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا . يقتل الدجال ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ويفيض المال وتكون السجدة لله رب العالمين[2] .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٩

(٢) صحيح البخارى عن أبى هريرة باب كسر الصليب وقتل الخنزير جـ٢ صـ٣٤ ط الشعب .

وعموم رسالته ﷺ قد اختص بها من دون سائر الأنبياء ، قبله كانوا يرسلون إلى قبيلة أو شعب معين وفى زمن محدود من غير أن تعم رسالتهم أحد غير المرسل اليهم . لامن الإنس ولامن الجن . ولايقال أن سليمان عليه السلام قد سخر له الجن .

والجواب : أن تسخير الجن لسليمان كان تسخير ملك وسلطنة لاتسخير نبوة ولهذا لما خر سليمان أى سقط من فوق عصاه التى كان يتوكأ عليها ندموا على مافعلوا مجبرين وفى نفس الوقت كان سليمان قد فارق الحياة قال تعالى « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين[1] » .

ولا يقال أن تعميم البعثة ليس خاصا بالنبى ﷺ بل مثله نوح عليه السلام فقد كان مبعوثا لجميع من فى الأرض بعد الطوفان .

والجواب : أن تعميم بعثة نوح ليس من أصل البعثة بل أنها أمر اتفاقى إذ لم يسلم من الهلاك إلا من كان معه فى السفينة فالعموم صار ثانيا . أما عموم رسالة سيدنا محمد ﷺ فقد كان من أصل البعثة وكما أن بعثة نوح لم تكن عامة قبل الطوفان . فيكون بعض المفرقين لم يرسل إليهم وإنما جاء عن طريقة النقمة قال تعالى « اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ويمكن أن يقال أن التعميم كان خاصا برميه فقط على رأى من تمسك بتعميم بعثته .

ثم إن نوح لم يرسل إلى الجن وأما رسالة سيدنا محمد ﷺ فهو إلى الثقلين الإنس والجن قال تعالى : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به[2] » .

---

(١) سورة سبأ آية ١٤ (٢) سورة الجن آية ١-

والحاصل أن نبينا ﷺ مبعوث إلى الثقلين بالإجماع ورسالته مطبقة لجميع الأكوان وقد أرسل النبي إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام . وعندما أرسل إلى كسرى كتابه مزق الكتاب ثم بعث بحفنة من تراب فقال النبي ﷺ لقد بعث إلينا بتراب ملكه وسنملك أرضه وقد كان وتحقق وعد نبيه وفتحت هذه البلاد وأصبحت تحت سيطرة المسلمين من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقول النبي ﷺ « زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها »[1] .

فقد تحقق ما أخبر به النبي ﷺ وانتشر دينه ودخل الناس في دين الله أفواجا .

## المنكرون لبعثته ﷺ :

مع وضوح الدلائل الصادقة الدالة على نبوته ﷺ وأن أهل الكتاب يعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم ولكننا نجد فيهم من ينكر نبوته ﷺ عناداً وجحوداً ومن هؤلاء اليهود والنصارى .

أما اليهود: فينكرون عدم وجود رسالة بعد موسى ولذا فهم ينكرون بعثة محمد ﷺ وبعثة عيسى عليه السلام .

وأما النصارى: فينكرون وجود بعثة نبي بعد عيسى عناداً وحسداً من عند أنفسهم وكلا الفريقين على خطأ وضلال يعرفونه في أنفسهم قبل غيرهم قال «يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون»[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده عن ثوبان رضي الله عنه جـ ٥ ص ٢٧٨ ط دار الفكر

(٢) سورة البقرة آيه ١٤٦

وها نحن سنورد شبههم ونرد عليها :

١ — اليهود وهم طائفتان :

١ — الطائفة الأولى : تنكر بعثة الأنبياء الذين أتوا بعد موسى على الإطلاق ولهم فى ذلك شبه ثلاث :

أولها : وهى خاصة بسيدنا محمد ﷺ قالوا فيها : أن بعثة محمد ﷺ تقتضى نسخ شريعة من قبله والنسخ محال لما يلزم عليه من الجهل والبداء أو الترجيح بلا مرجح وعلى كل يكون النسخ محال . أما حالة الجهل فإن أحكام الله لا تخلو عن المصلحة فان كان الله لا يعلم المصلحة فى الحكم المنسوخ فذلك الجهل . وإن كان يعلمها فرأى رعايتها أولا ثم أهملها بتغير الأحكام فذلك البداء أى الندم . عما كان يفعل . وإن كان لا يعلم ثم علم المصلحة فى الحكم الثانى فذلك البداء[1] .

الجواب عن ذلك :

قبل الإجابة عن الشبهة نعرف النسخ بأنه خطاب الله المتعلق بحكم شرعى مستمر حتى يرد ناسخ له . ونقول بعد ذلك إن النسخ بهذه الكيفية ليس محالا لأن خطاب الله لا بد وأن يتعلق بسلامة الفعل عن الفساد وعلى ذلك فإن الشرائع مصلحة العباد . وقد ثبت عقلا أن الشرائع تختلف من قوم إلى قوم ومن زمن إلى زمن وعلى هذا يرد الناسخ فالله يعلم المصلحة فى الحكم الأول الملائم لقوم وأقت فى علمه الأزلى الحكم لأجل هذه المصلحة ،

---

(١) المواقف جـ ٦ ص ٢٦١

حتى جاء قوم آخرون لا تلائمهم المصلحة بل تناسبهم غيرها وهو يعلم ذلك أزلا فليس هناك جهل ولا بداء ولا بذاء .

ثانياً : أن النسخ قد ورد فى شريعة موسى أليس هى ناسخة لشريعة آدم وشريعة إبراهيم قبلها فقد كان فى شريعة آدم يجوز زواج الأخ بأخته مع أنها محرمة فى شريعة موسى .

ثم إن الله قد أحل لآدم كل ما دب على وجه الأرض وقد حرم على اليهود بعض الأشياء قال تعالى : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون »[1] .

الشبهة الثانية : وهى تنكر بعثة أى نبى بعد موسى وقالوا فيها أن موسى إما أن يصرح بدوام دينه أو بعدم دوامه أو يسكت — ولا جائز أن يصرح بعدم دوام دينه لأن ذلك من الأمور العظيمة والتى تتوفر الدواعى لنقلها ولا سيما من الخصوم .

ولا جائز أن يسكت — لأنه يقتضى أن يثبت مرة واحدة لأن المطلق يتحقق بالمرة الواحدة وأنه معلوم الانتفاء لثبوته إلى أوان النسخ بالاتفاق .

وإذا بطل هذان الأمران بقى الأمر الأول وهو أن موسى صرح بدوام دينه .

---

(١) سورة الأنعام آية ٤٦

الجواب عن هذه الشبهة :

ونحن نختار أن موسى قد صرح بدوام دينه إلى وقت ظهور الناسخ على يد نبي يأتي بعده ولم ينقل ذلك لقلة دواعي النقل حيث قتل وشرد من اليهود الكثير كما أن التوراة التي نزلت على موسى لا وجود لها فقد حرقها بختنصر — وليس من مصلحتهم إظهار ما في التوراة الأصلية وقد ذكر أهل العلم وجود ثلاث نسخ للتوراة يخالف بعضها البعض .

الشبهة الثالثة : ويسمى هذا الدليل بدليل الافتراء قالوا فيها أن موسى صرح بعدم نسخ شريعته حيث قال : « عليكم بالسبت مادامت السموات والأرض [١] وقوله شريعتي لن تنسخ [٢] .

الجواب عن هذه الشبهة :

بمنع أن يكون موسى صرح بذلك وأخبر به وأن ذلك من اختلاقات ابن الراوندي اليهودي حتى ظنه اليهود أنه خبر صحيحاً — ولو كان خبراً صحيحاً لاحتج به اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وأغناهم ذلك عن محاربته . ولم يدخل أحد منهم في الإسلام — كما أن التوراة قد بدلت وحرفت ونسبة ما فيها إلى موسى باطل باعترافاتهم وبتناقضها أما وقد صرح الرسول ﷺ على ملأ وسمعه اليهود المعاصرين ولم يعارضوا لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي [٣] ولم يحتج أحد منهم عليه .

---

(١) المواقف، الإيجي جـ ١ ص ٢٦٢ .

(٢) الأصول الخمسة ص ٥٧٦ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٤٦ .

الطائفة الثانية : وهى طائفة العيسوية من اليهود :

وهى تعترف بنبوة محمد ﷺ ولكن للعرب فقط واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »[١] ومحمد عربى فأرسل إلى مثله من العرب .

الجواب عن ذلك : بأن محمداً أرسل بلسان قومه الذين بعث فيهم وأمته أوسع من قومه ولذلك لم يقل القرآن الكريم بلسان امته ، بل قال بلسان قومه وهم أخص من أمته . ثم يقال لهم قد اعترفتم بأنه نبى والنبى لا يكذب وقد صرح بأنه مرسل إلى الناس كافة قال تعالى : «وما أرسلناك إلا كافة للناس »[٢] . وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنما بعثت إلى الأحمر والأسود »[٣] .

ثانياً : النصارى المنكرين لبعثته ﷺ :

فمبنى إنكارهم على الطعن فى القرآن الكريم فى كونه من عند الله إذ قالوا فيه أنه من تأليف محمد ومن ابتكاره وبذلك لا يكون نبياً مرسلا ومازالت النصارى تحاول تشويه هذه الحقيقة الكبرى بأن القرآن الكريم معجزة الرسول الخالدة وأنه من عند الله وليس لمحمد فيه أى دخل «قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون .

ويمكن أن يقال إن أكابر أساقفتهم دعوا إلى المباهلة ولكنهم خافوا

---

(١) سورة إبراهيم آية ٤ . (٢) سورة سبأ آية ٧ .
(٣) رواه مسلم بشرح النووى فى كتاب المساجد وموضع الصلاة عن جابر بن عبد الله ج ٢ ص ١٥٢ ط الشعب .

على أنفسهم وامتنعوا عن مباهلة الرسول ﷺ ، قال تعالى : « قل تعالوا ندعوا أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

فقال بعضهم لبعض : إنكم تدركون أنه نبي ولو باهلكم لترك بكم العذاب .

ثانياً : أن النبي ﷺ كانت تنزل به الحوادث الجسام ولا يستطيع أن يقول في ذلك رأياً حتى يأتيه الوحي من السماء أليست حادثة الإفك كانت كافية بأن تحرك فيه حميته ليدافع عن عرضه وعرضه لو كان القرآن من عنده .

ثالثاً : أنه هو نفسه نسبه إلى الله تعالى والإنسان يسرق ما لغيره وينسبه إلى نفسه فكيف بمن هو مصدر فخره إذا كان من عند نفسه ينسبه إلى غيره .

رابعاً : أنه جاء في القرآن الكريم : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين »[1] .

وهذا توعد ووعيد فكيف يتوعد الإنسان نفسه إذا كان القرآن من عند محمد ﷺ .

ولكنهم قوم قد أعماهم حقدهم وعصبيتهم فيأتوا يكيدون للإسلام وأهله ليردوكم عن دينكم إن استطاعوا ! ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر .

---

(١) سورة الحاقة آية ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

# الباب الثانى

## الفصل الأول

## مقدمات

## من مباحث السمعيات

السمعيات : هى أحد أقسام ثلاثة أساسية تختص ببحثها كتب العقائد فى الإسلام والقسمان الآخران هما الإلهيات والنبوات .

والسمعيات : جمع سمعية ، نسبة إلى السمع بمعنى مسموعة من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول .

والمقصود بالسمع هنا الشرع المتلقى بالوحى ومن ثم فالسمعيات هى الأمور المستفادة من الشرع أو التى لا تعلم إلا من جهة الشرع فالشرع هو الذى أخبر بها ولا سبيل للعقل إلى الاستقلال بمعرفتها وإن كانت تدخل فى دائرة الإمكان العقلى أى أنها ثابتة سمعاً واجبة شرعاً حكم العقل بإمكانها ويشير إلى هذا الإمام الغزالى: «وأما المعلوم بمجرد السمع فتخصيص أحد الجائزين بالوقوع فإن ذلك من مواقف العقول[1] وإنما يعرف من الله تعالى بوحى وإلهام[2] والعقائد السمعية جميعها أمور مغيبة لا تدخل فى نطاق العالم الطبيعى المشاهد بل تدخل فى العوالم الغيبية وهى لذلك لا تنال بالمعرفة الحسية ونصيب العقل فيها أنه يجوزها .

---

(1) أى مما تتوقف فيه العقول فلا تحكم بإيجاب أو استحالة بل تحصره فى دائرة الإمكان .

(2) الاقتصاد فى الاعتقاد ، أبو حامد الغزالى ص ١٠٧

والشرع هو الذى يقررها ويقضى فيها فالأصل فيها الشرع والعقل مجوز .

والسمعيات كما قررالقرآن وسنة النبى ﷺ متعددة منها «سؤال القبر، عذاب ونعيم القبر ، ضغطة القبر ، البرزخ ، الصور ، البعث ، الحشر — الحساب ، السؤال ، الشفاعة — الميزان — الصراط — الحوض — الجنة والنار — الملائكة — الجن والشياطين ، قراءة الكتب ، شهادة الأعضاء — العرش — الكرسى — اللوح — القلم» .

وكل ذلك من الأمور الممكنة فى ذاتها وكان خبر الصادق المصدوق ﷺ مفيداً للعلم بوجوبها وصحتها فلا دخل للعقـــل فى الوصول إلى الإيمان بها .

أما تسميتها بالغيبيات فلأنها أمور غائبة عنها ولا أثر لها فى حياتنا يدلنا عليها دلالة قطعية ومن حيث أن الوقوف مع أمور السمعيات بالتفصيل المناسب لا يتسع له المقام هنا فقد رأينا الاقتصار على بعضها وما يستلزمه من أبحاث ممهدة فجاء البحث مركزاً على النقاط التالية :

## إمكان الآخرة :

يعد الإيمان باليوم الآخر فى الإسلام جزءاً لايتجزأ من الإيمان بالدين الإسلامى ذلك أن عقيدة الإيمان باليوم الآخر تشكل ركناً أساسياً من أركان الإيمان بالإسلام ككل وتكون أصلا من الأصول التى تستند إليها العقيدة الإسلامية فمن أهم الحقائق التى يدعونا الدين إلى الإيمان بها فكرة الآخرة والمراد أن هناك عالم آخر غير عالمنا الحاضر وسوف نعيش فى ذلك العالم خالدين ( بعد أن ينتهى عالمنا هذا ) وأن عالمنا هذا هو مكان للاختبار والامتحان وجد فيه الإنسان لأجل معلوم فليست هذه

الحياة التى نحياها نهاية المطاف ولا غاية الرحلة البشرية بل هناك حياة أخرى وراء الحياة الدنيا يعيد الله فيها البشرية كلها إلى الحياة مرة أخرى لا يتخلف منهم أحد ولا يشرد على الله شارد « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامه فرداً »[1] .

فالدنيا إلى زوال ولا يدوم إلا وجه الله .

وكثيراً ما كان الخليفة عمر بن الخطاب يتمثل بهذه الأبيات :

لا شىء مما ترى تبـــقى بشاشته
يبقى الإله ويفنى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه
والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له
والإنس والجن فيما بينهما ترد
أين الملوك التى كانت لعزتهـــا
من كل صوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب
لابد من ورده يوماً كما وردوا

هذه الحقائق لا تختلف عليها الأديان والنصوص فى هذا الشأن كثيرة ( وللآخرة خير لك من الأولى )[2] .

أما الماديون فهم لا يؤمنون بالآخرة ( وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم )[3] .

---

(١) سورة مريم ٩٣ — ٩٥ (٢) الضحى آية ٤
(٣) سورة الجاثية ٢٤

هؤلاء وقفوا عند الحياة الدنيا لا يشعرون بحياة أخرى لما لا ذوا بالمادة واعتصموا بالحس وقالوا بأزلية وأبدية الكون، وأساس معتقدهم مبنى على الظن والتخمين .

ولتقديم أساس لما دعت إليه الأديان خاصاً بالآخرة فى مواجهة المنكرين إياها فى القديم والحديث نقف مع قضية الآخرة مؤكدين على إمكانها فاذا نجحنا فى ذلك انفسح المجال أمام العقل للاقرار بأمور الآخرة وأحوالها كما جاءت بها النصوص وشهد بها الكتاب والسنة .

ولمعالجة هذه القضية نرى أنه يلزم الكلام عن الموت كأول درجة من درجات الحياة الآخرة وذلك بالنسبة للمسلمين وغير المسلمين حيث نوضح ذلك الغموض المحيط بالموت ومدى القلق الإنسانى من ذلك المجهول الذى يقال له ( الموت ) ونبين مدى إطمئنان الإنسان المسلم إلى مصيره بعد الموت .

وسأعرض لتصور ما بعد الموت فى الأديان والفلسفات السابقة على الإسلام لمعرفة الفارق بين التصورين الإسلامى وغير الإسلامى بصدد ذلك العالم الآخر وتتبع ذلك كله بتصوير القرآن لملامح تلك الحياة الأخرى وما يحيط بذلك الموقف من جزئيات إبتداء من الموت الذى لن يفلت منه كائن حى إلى البعث والحشر ثم العرض والحساب فالجنة أو النار ، وستكون الآيات القرآنية التى تعالج كل موقف من هذه المواقف هى شاهدنا الأول وهى اليقين الأوحد الذى سيكون بناء عليه التصور الإسلامى لذلك اليوم الآخر .

## مفهوم الموت فى الوجدان البشرى عامة
### وفى الوجدان الإسلامى خاصة

يقول الله تعالى: « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور »[١] .

هذا هو الموت الذى أوجده الله بقدرته لتكون له حكمة فى الحياة الدنيا تماما كما أن للحياة حكمة كذلك فإن للموت حكمة أيضاً وتكتمل الحكمتان فى اختبار الإنسان وامتحانه وسيجازى كل على ما عمله لا فى هذه الحياة الدنيا ولكن فى حياة أخرى أكثر خلوداً ونقاء .

الموت إذن كما بينه القرآن فى الآية المذكورة له غاية والمخلوق يتجاهل هذه الغاية ويشمئز . لمجرد سماعه لفظ الموت ويفزع من لقائه ويجزع حين يرى الموت يتخطف من حوله من أحباء والسبب الأساسى للخوف من الموت لدى أفراد البشر ذلك الغموض المحيط به وحقيقة الموت التى توقف تطلعات الإنسان وتقتل آماله الكثيرة فى الحياة وتفرقه عن أهله وأحبابه ولكن ( فى مشيتنا دائماً ما ينطق بأننا فى طريقنا إلى الرحيل ، وربما كان عدم البقاء هو المعنى الأوحد لهذا الوجود )[٢] .

وعلى كل حال فان الموت حق لا جدال فيه لما نراه بأعيننا وللأخبار المتواترة فى وقوعه على كل إنسان وكل كائن حى من يوم أن خلق الله الأرض إلى أن يرثها ويرث ماعليها قال تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » . ويقول : « قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره »[٣] .

---

(١) الملك ١ — ٢

(٢) د . زكريا إبراهيم مشكلة الإنسان ص ١١٦ مكتبة مصر دار مصر للطباعة .

(٣) عبس ١٧ — ٢١

والإنسان دائم القلق من الموت ومبعث خوفه وقلقه الدائمين أنه ليس للموت أوان حيث يمكن للإنسان — إن استطاع — أن يأخذ حيطته ويتخذ من حذره سبيلا أمام الموت. وإذا كان الموت يسبب جزعا بصفة عامة إلا أنه يتفاوت خوف الإنسان من الموت فى الدرجة من إنسان لآخر قد يكون ذلك مرجعه لعوامل دينية وثقافية وحضارية .

ففى الفلسفة اليونانية نجد نماذج متناقضة بصدد التعرض لمفهوم الموت. وفى الأدب اليونانى القديم وخاصة المسرح كانت تتجسم نظرة كتاب المسرح لمشكلات الإنسان اليونانى القديم وكانت معظم تلك المسرحيات تتحدث عن صراع الإنسان ضد القــــدر والموت والآلهة إلا أن هذه المسرحيات كانت تقف بالإنسان — دائماً — عند نهاية المطاف ألا وهى الهزيمة فهو لا حول له ولا قوة إزاء تلك القوى الرهيبة المسيطرة على ناموس الحياة .

وهكذا لا يملك الإنسان نفسه سوى الخوف الدائم من تلك القوى وما تمارسه من تسلط وغبن لذلك الإنسان المظلوم ونجد أنه كلما ذكرت مأساة ( أديب ) قيل هذه مأساة القـدر ففيها نجـد القـدر يرسم للأبطال طريق مجدهم ويسطر لهم خطوط السقوط فكأنما البشر من قطع الشطرنج تحركها يد خفية ترى كل شىء ولا يراها أحد ولكن بقدر ما يهولنا فيها سيطرة القدر على الإنسان يهولنا فيها كذلك جهاد الإنسان فى سبيل تغيير مصيره وفرض إرادته الحرة .

فالمأساة إذن مأساة الصراع بين القـدر وبين الإنسان أو بين الجبر والاختيار ولئن سقط فيها الإنسان صريعاً فحسبه أنه سعى ليتجنب سوء المصير [1] .

---

(١) لويس عوض : المسرح العالمى من اسخيلوس إلى أرثر ميلر ص ١٨ ط دار المعارف ١٩٦٤ مصر .

وهكذا يظهر لنا كيف أن المسرح اليونانى — وهو الأكثر مساً لوجدان الشعب اليونانى قد صور لنا مبلغ خوف الإنسان وقلقه تجاه الموت .

وإذا كان هذا الخوف من الموت هو حال المسرح اليونانى فان هناك موقفاً آخر غير مكترث بالموت هذا الموقف من الفلسفة اليونانية حيث أن سقراط الفيلسوف كان زاهداً فى هذه الحياة الدنيا القصيرة متطلعاً إلى حياة أخرى بعد الموت أسعد حالا وأحسن مآلا وكيف لا وهو الفيلسوف الحكيم المجرب الذى خبر الحياة وذاق حلوها ومرها واتعظ بحوادثها فلم يخرج منها إلا بحقيقة واحدة مؤكدة ألا وهى أن هذه الدنيا فانية وهى إلى زوال وإن طالت .

وهانحن نسمع عن سقراط وحوله تلاميذه إبان احتضاره وقد أحاطوا به يناقشونه فى أمر الحياة والموت والخلود والفناء . ونلاحظ أن خوف سقراط من الموت معدوم وجزعه ورهبته لاوجود لها وربما كان خوف الحاضرين من حوله أكثر من خوف سقراط نفسه بل أنه على العكس من ذلك فلقد كان الفيلسوف سعيداً جداً غير آبه بشىء ومابعث تلك السعادة إلا يقينه بالحياة بعد الموت .

ولقد أثارت سعادة سقراط دهشة تلاميذه فهو الذى أدنى إلى الموت ولما أفصحت دهشتهم عن سؤال وجه إليه عن سبب سعادته هذه قال : « عندى أمل عظيم أن هناك شيئاً مابعد الموت وكما تقول سنة قديمة أن فى هذا الشىء خيراً كثيراً للصالحين وليس للأشرار »[١].

لقد طرد سقراط الخوف من الموت من قلبه وأكثر من ذلك —

---

(١) على النشار عباس الشربينى : فيدون تحقيق وتعليق ص ٣١ دار المعارف مصر ١٩٦٥ م .

وهذه ميزة لاتتأتى إلا لخواص الناس — استطاع أن يرسم السعادة على وجوه الآخرين من حوله وذلك لفرط سعادته هو شخصياً ومقابلته الموت بنفس مطمئنة راضية بقدرها مستريحة لما ستلقاه بعد الموت حيث أنه — كما يقول سقراط :

سوف يذهب إلى جوار آلهة آخرين حكماء وخيرين وبجوار أناس سبقونا هم خير من أناس هذه الدنيا .

ولقد اتضح لنا مما سبق أن هناك اختلافا حول مفهوم الموت بالنسبة للوجدان اليوناني القديم .

فهناك من الناس من يتقبله بالبغض والكراهية والرهبة وهناك من يتقبله بالسعادة والفرحة ثم إذا جاز لنا أن ننتقل بعد فترة زمانية طويلة إلى الفلسفة الحديثة فاننا نجد بسكال يصارحنا بقوله : ( أنني في حالة جهل تام بكل شيء فكل ما أعرفه هو أنني لابد أن أموت يوما ما ولكنني أجهل كل الجهل هذا الموت الذي لاأستطيع تجنبه )[١].

فهذا القول لبسكال يصور لنا مدى تخوفه من ذلك المجهول الذي يسمى الموت وإن كان متيقنا من هذا الموت فهو لا يستطيع تجاهله كحقيقة وإن كان يجهله كطبيعة وموعد ويندهش الوجوديون من ظاهرة الموت ولا يستطيعون تفسيرها .

يقول الفلاسفة الوجوديون :

(إن الموت إن هو إلا حدث غريب مجهول يرد إلينا من عالم خارجي لاندري من أمره شيئا [١] وحينما يقرر سارتر إننا جميعا نتوقع الموت ولكننا لا ننتظره بحال فانه يعني بذلك أن الموت ليس حدثا ننتظره بل هو واقعة مفاجئة تباغتنا دائماً على غير ميعاد[٢].

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي الموت والعبقرية ص ٤ مكتبة النهضة المصرية.

(٢) د. زكريا إبراهيم: مشكلة الإنسان ص ١٣٠ مكتبة مصر دار مصر للطباعة.

هذا هو رأى الوجودية كفلسفة تعنى بالإنسان كفرد وبحريته والموت هو أساس القلق لدى الإنسان الفرد ومثار تخوفه عند الفلسفة الوجودية.

ولقد فرق الفيلسوف الألمانى المعاصر (كارل ياسبرز) بين نوعين من الجزع بإزاء الموت فيتحدث عن جزع من العدم أو اللاوجود ويتحدث أيضاً عن جزع آخر باطن فى صميم إرادة الحيــاة ألا وهو ذلك القلق الوجودى الذى استشعره حينما أحس بأنى لم أحى بالقدر الكافى[1].

وإذا كان الخوف من طبع الإنسان — ذلك أن الإنسان لا يطلع على الغيب — فهو يخاف ويقلق من كل شىء يمس مصيره فهو يخاف من المرض ويقلق من الشيخوخة وغير ذلك إلا أن كل هذا القلق شىء والقلق من الموت شىء آخر إنه ليس خوفاً عادياً بل هو حصر أو قلق مركب فى الوقت نفسه بمشاعر الفزع والخشية والجزع والرهبة.

خلاصة الأمر فى هذا القلق من الموت «إنه قلق فريد فى نوعه: لأنه قلق لا سبب له سوى الوجود نفسه فهو مرض ميتافيزيقى لا علاج له لأنها لعنة التناهى التى تحل بالإنسان منذ ولادته وكأنما قد كتب عليه أن يموت لمجرد أنه قد ولد»[2].

ولقد عرضنا فيما سبق لحالة القلق البشرى التى تعترى الإنسان من لقاء الموت باستثناء موقف الفيلسوف سقراط الذى أدرك الحقيقة ورأى أن ما بعد الموت حق فلم يخف من الموت بل أنه كان سعيداً بلقائه كما رأينا.

وقبل أن نعرض لكيفية فهم الإسلام للموت كمقدمة ضرورية يتم بعدها الانتقال إلى عالم ماوراء الموت نتناول فى إشارات سريعة عقيدة اليوم الآخر قبل القرآن عند بعض الأمم.

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٩

(٢) د. زكريا إبراهيم: مشكلة الحياة ص ١٩٨ مشكلة ٧ ط أولى سنة ١٩٧١ م.

عند المصريين :

كان المصريون قديماً حوالى (٢٦٠٠ق م) يؤمنون بعالم آخر فيه للخير والشر جزاء حيث كانت فى ذلك الوقت عبارة «أوزريس» العبارة الشعبية وأساس هذه العبارة أن كل إنسان — ملكا أو فرداً عادياً — مسؤول بعد الموت عن أعماله فى الدنيـــا أمام محكمة إلهيئة يتولى القضاء فيها أوزوريس نفسه ويساعده فيها (توت)— إله الحكمة— (وانوبيس) مدير دفن الموتى (وحوريس) ابن أوزريس وإيزيس ومعات واثنان وأربعون قاضياً فإذا حكمت المحكمة بأن حسنات الميت أكبر من سيئاته كوفىء بالنعيم الخالد وإلا فجزاؤه أن يفترسه الوحش أو يلقى فى النار بأنواع العذاب المختلفة[١] وكانوا يجسمون هذه المحاسبة فيضعون لها فى كتاب الموتى وعلى التوابيت رسم محكمة ومحاكمة وميزان يجلس (أوزريس) على العرش حاملا عصاه وكرباجه ومعه اثنان وأربعون قاضياً من الآلهة ، ويلاحظ هنا أن مصر كانت مقسمة إلى اثنين وأربعون إقليما فكان كل من القضاة يمثل إقليما من هذه الأقاليم وعندما يأتى الميت يأخذ (أنوبيس) قلبه فيضعه فى إحدى كفتى الميزان وفى الكفة الأخرى تمثال الإله (معات) ويقف توت بجانب الميزان وبيده القلم والسجل ليكتب نتيجة الوزن ليرفعها إلى (أوزريس) ويكون بالقرب من توت الوحش اسمه (أمايت) وهو وحش له رأس تمساح وجسم أسد — متأهباً لأن يلتهم الميت إذا ما حكم عليه بذلك وفى بعض الرسم تضاف نيران إلى المحكمة فى مكان خاص منها ليلقى فيها المذنبون والقلب يمثل أعمال الإنسان فى حياته وهو الذى يشهد بكل ما فعله صاحبه من خير أو شر[٢] .

---

(١) سيد قطب مشاهد يوم القيامة ص ١٥

(٢) عبد القادر حمزة على هامش التاريخ المصرى ص ١٠٢

نستطيع القول إذن بأن الحضارة المصرية القديمة وما بلغته من شأن مرتفع ومكانة مرموقة على مر العصـــور ماهى فى مجموعها إلا نتاج تلك العقيدة فى البعث والحياة بعد الموت فتلك الأهرامات الشامخة والمعابد الخالدة والنقوش والتماثيل كل أولئك كان نتاجا حقيقياً لتلك العقيدة المصرية القديمة فى البعث والخلود .

لقد هداهم تفكيرهم إلى كيفية التزود لتلك الحياة المقبلة بعد الموت إلى بناء الأهرامات والمعابد لتكون عونا على الحفاظ على البدن بعد موته حتى تعود إليه الروح فتعرفه والنقوش التى على جدران المعابد التى تكاد تنطق بالقدسية والتبجيل وتقديم القرابين وتصور لكيفية الروح التى جعلوها على شكل طائر له جناحان يحلق بهما ثم يعود إلى الجسد المعد له مرة أخرى .

بل إنهم وضعوا مع الميت فى قبره طعامه وشرابه وملابسه وحليه ، وجميع أدواته الشخصية ولم يكن كل ذلك الاهتمام إلا لإحساسهم بأن هذا الموت ليس انتهاء إلى الأبد ولكن هناك بعثاً آخر تكون فيه الحياة من جديد وتحنيط المومياوات ذلك السر الذى عجزت البشرية فى قمة علمها — عن تحديد تفسير له هـذا التحنيط أيضا ما هو إلا أثر من آثار اهتمام المصريين بعقيدة البعث والخلود . ولا شك أن فكرة المصريين قامت فى ظل عقيدة وثنية.

الزرادشتية :

عندما يموت الميت تظل الروح ثلاثة أيام وثلاث ليالى معلقة إلى جانب الجسم منعمة بنعيمه أو معذبة بعذابه وفى فجر اليوم الرابع تهب عليها ريح إما معطرة إذا كان الميت خيراً وإما نتنة إذا كان الميت شريراً

فتحملها إلى موضع يلتقى فيه إما بفتاة جميلة وإما بعجوز مفزعة وليست الأولى فتاة حقيقية ولا الثانية كذلك وإنما هى صور أعماله .

وعند الحساب ثلاثة قضاة بينهم ( ميتهرا ) حيث الميزان توضع فى إحدى كفتيه حسنات الميت وفى الأخرى سيئاته ، وبناءاً على هبوط وصعود الكفتين يصدر الحكم على الميت وبعد الحساب يمر المحاسب فوق المعبر أو الصراط الممتد فوق الجحيم الذى يتسع أمام الأخيار ، ويضيق حتى يكون أدق من الشعرة وأحد من السيف أمام الأشرار حيث يهوى الأشرار فى جحيم مظلم مع من سبقهم من الظالمين .

أما الأخيـــار فيذهبون إلى النور حيث يستقبلهم أهورا مزدا إله الخير بعد أن يمروا فى وسط العمل الصالح وهناك السعادة الأبدية ، أما من تساوت حسناتهم وسيآتهم فيوضعون فى مكان فسيح بين السماء والأرض يقاسون فيه ألم الحر والبرد ويحسون بجميع التغيرات الجوية حتى يصدر الحكم عليهم[1] .

اليونان :

تظهر عقيدة اليوم الآخر فى ( أوذيسة هومير ) وذلك أن عوليس ينزل إلى الجحيم وحينئذ يقص فيقول رأيت مينوس جالساً والصولجان بيده وهو يقضى بين الأموات وهؤلاء يجتمعون حوله يعرضون قضاياهم عليه جالسين أو واقفين فى دور ( الهاديس ) أى دار الأموات أو دار الجحيم فى الأساطير اليونانية — ويطلق بعضهم هذا الإسم على ملك دار الموت ذات الأبواب السبعة[2] .

---

(١) د . محمد غلاب فلسفة الشرق ص ١٩٥

(٢) عبد القادر حمزة — على هامش التاريخ المصرى .

ومينوس الذى يذكره هنا هومير على لسان عوليس كان ملكا قديماً من ملوك جزيرة كريت وكان اليونانيون يزعمون فى ذلك الوقت أنه يجلس على عرش الحكم فى الجحيم ومعه أخواه ( ايياك ) ( وردا مانت ) ثم يلاحظ عبد القادر حمزة مشابهة عقيدة هومير لعقيدة المصريين بعد أن عقد مقارنة التشابه بينهما لأن عوليس ينزل إلى الجحيم وساتنى وولده ينزلان إلى الجحيم فى القصة المصرية ، ومنيوس يقبض بيده على صولجان من الذهب فى جحيم هومير وأوزريس يقبض بيده على صولجان فى العقيدة المصرية وكذلك عرض الأموات على كل من منيوس وأوزريس.

كما يلاحظ حمزة[١] فارقاً فى الجوهر هو أن هومير يقول إن مينوس يقضى بين الأموات بعد أن يعرضوا عليه قضاياهم — وهذا معناه فى رأى ( مورى ) وهو مصيب فيه — أن القضايا منازعات بين الأموات بعد الموت كالمنازعات التى تكون بين الأحياء وليست حساباً يؤديه الأموات عن أعمالهم فى الحياة .

ثم نترك هومير حتى نصل إلى الشاعر اليونانى ( بندار ) فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد حيث يقول :

سيجد العظماء فى الأرض قاضياً فى الجحيم فالذين ارتكبوا منهم أعمالا محرمة تحاكمهم الآلهة ( أنانكى )[٢] .

ثم جاء أفلاطون ووضع فكرة حساب الأموات فذكر أن فى الجحيم قضاة يحكمون بالعدل هم منيوس وردا مانت وإيياك ، وتريبوليتيم وجميع أنصاف الآلهة الذين كانوا فى حياتهم عادلين .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٨

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٠

ويذكر أن الحساب كان يجرى للناس وهم أحياء على يد قضاة أحياء في اليوم الذى يموتون فيه حينما كان الحكم لسارتون ( أى زحل ) وفى السنين الأولى من حكم ( جوبتير أى المشترى ) وكان فى هذه الأحكام كثير من الأخطاء فذهب بلوتون بن سارتون وملك الجحيم وحكام الجزائر السعيدة الجنة عند اليونانيين ، إلى جوبتير وقالوا ( إن القضاة يبعثون إليهم برجال لا يستحقون الثواب الذى يكتب لهم ولا العقاب الذى ينزل بهم فقرر جوبتير أن تكون المحاسبة بعد الموت على يد منيوس وردا مانت ( لآسيا ) وإيباك لأوربا فإذا جاء الأموات أمام قاضيهم دعاهم ردا مانت إلى القرب منه ثم فحص روح كل واحد منهم من غير أن يعرف لمن هى فإذا وجدها مملوءة فساداً وخبثاً وكانت قد عاشت بعيداً عن الحقيقة بعث بها إلى السجن لتتلقى فيه العقاب الذى تستحقه أما الروح الذى يرى أنه عاش فى الطهر وفى الحقيقة فإنه يبتهج به ويرسله إلى الجزائر السعيدة[1] .

الهنـد :

لا نجد فى الديانات الهندوكية ولا فى البوذية وهى عقيدة طائفة من الهنود وعقيدة أهل سيلان ومعظم اليابانيين وكثير من الصينيين لا نجد عالما آخر للحساب والجزاء إنما نجد مكانه ( النيرفانا ) وهى الفناء فى الروح الأعظم ويذكر أحمد أمين[2] على أن كتب الوحى عند الهندوكين وهى الفيدا « وبراهمانا وبوبانشاد» تشتمل على نزعات مختلفة متباينة نرى فيها تعدد الآلهة والآلهات ونزعة التوحيد ونزعة الحلول ووحدة الوجود

---

(١) نفس المصدر جـ ٢ ص ١٦٣

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٦٦

فهى نظام اجتماعى يسمح بالعقائد المختلفة أكثر منها دعوة إلى عقيدة معينة ومحور الفيدانتا « هو أن الله والنفس الإنسانية شىء واحد فإن خيل للإنسان أنهما شيأن مختلفان فما ذاك إلا لأن إدراكه أضيق من أن يرى اتحادها وأن الإنسان ليظل على ضلاله حتى يحطم من نفسه حدود الذات حيث ظهرت هذه النزعة فى اليوبنشاد وبلغت أقصاها فى خاتمة الفيدا ( الفيدانتا ) .

وتحطيم حدود الذات كما ينقله « سيد قطب »[1] عن بعضهم يكون بالتخلص من الجسد عن طريق تعذيب الجسد بأشد أنواع العقوبات لتتخلص الروح منه منطلقة لتصل إلى درجة « النيرفانا » ، ولا يصل الإنسان إلى هذه الدرجة إلا حين تتطهر روحه وتخلص وتصبح جديرة بأن تفنى فى الكل وهنا تتم عملية التناسخ حين يموت الإنسان تنتقل روحه إلى جسم حيوان أو إنسان وتلاقى العذاب ألواناً حتى تتطهر فتصل فى النهاية إلى « النيرفانا » وتستريح من التناسخ فهى تنتقل من بدن إلى آخر كما يستبدل البدن اللباس إذ خلق وتترقى فى الأبدان كما يترقى الإنسان من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة لأن النفس تطالب الكمال فتبقى هكذا تنتقل من الأرذل إلى الأفضل حتى تبلغ كمالها وتتحد بالله .

---

(١) سيد قطب مشاهد يوم القيامة ص ٢٥

البوذية :

أما البوذية فلا تؤمن بالتناسخ على هذا الشكل لأنها تبشر الفرد بالوصول إلى درجة النيرفانا متى صفت روحه وتخلصت من حب الذات ولذائذ الجسد واتجهت إلى الروح الأعظم بكل قواها وكان آخر مافاه به بوذا : « إن الفناء لاحق بالأجسام جميعاً فجاهدوا لتحرير أنفسكم ما استطعتم[١] .

والجنة والنار فى هذه الأبدان وأعلى عليين درجة النبوة وأسفل السافلين درجة الحية فلا وجود أعلى من درجة الرسالة ولا وجود أسفل من درجة الحية[٢]

اليوم الآخر عند النصارى :

يقول الأستاذ العقاد : ( الأديان الكتابية على اتفاق فى الإيمان بالحياة بعد الموت وإن اختلفت بينها فى تمثيل تلك الحياة )[٣].

فالنصارى يؤمنون باليوم الآخر ولكن الصورة عنه مضطربة فهل يكون فى الدنيا أم يكون بعد انتهاء العالم لأنهم يقولون تكاد قوانين الإيمان كلها تجمع مع قانون الرسل بأن المسيح سيأتى فى آخر العالم[٤] ليدين الأحياء والأموات : أى الأحياء الذين سيكونون

(١) عبد القادر حمزة على هامش التاريخ ص ١٢١ ، المصرى .
(٢) أحمد أمين ، قضية الأدب فى العالم ج ١ ص ٥٥
(٣) عباس العقاد : الفلسفة القرآنية ص ١٧٢ ط ١٩٤٧ — القاهرة ط : لجنة التأليف والنشر .
(٤) مشاهد يوم القيامة ص ٢٧ ، سيد قطب [illegible]

عندمجيئه على قيد الحياة والأموات الذين سيقومون إذ ذاك فهذا القول يتضح منه أن القيامة فى الدنيا وقبل النهاية العامة لهذا العالم .

ولهم رأى آخر يقولون: سيخرب[1] العالم الحالى فى اليوم الآخر قضية أكيدة ثم قالوا يخبر يسوع عن تقلبات كونية عظيمة وعلى أثر ضيق تلك الأيام تظلم الشمس والقمر لا يعطى ضوءاً والكواكب تتساقط من السماء وقوات السماء تتزعزع والسماء والأرض تزولا وكلامى لا يزول وهاأنا معكم كل الأيام إلى منتهى الدهر .

ويعلن القدس بولس[1] : « أن هيئة هذا العالم فى زوال » بينما يتنبأ القديس بطرس عن خراب العالم بالنارسيأتى يوم الرب كاللص فيه تزول بدوى قاصف وتنحل العناصر متقدة وتحترق الأرض وما فيها من مصنوعات .

وكذلك تضطرب الصورة عن الجزاء والثواب ففى ( متى )[3] تجتمع كل الأمم أى كل البشر أمام منبر المسيح ابن البشر ويتميز الصديقون والأشرار نهائياً بعضهم عن بعض وحالا بعد الحكم المجازاة فيذهب الأشرار إلى العذاب الأبدى والصديقون إلى الحياة الأبدية .

وعند الحديث عن الدينونة الخاصة يقولون بعد الموت فوراً يتقرر مصير المتوفى الأبدى فى دينونة خاصة بحكم إلاهى فالمجمعان اللذان عقدا للاتحاد فى ليون وفلورنس قد أعلنا أن نفوس الأبرار الخالية من كل خطيئة وعقوبة تقبل حالا بعد موتها فى السماء وأن نفوس الذين يموتون فى الخطيئة المميتة تنزل حالا إلى الجحيم .

---

(١) أحمد أمين : قصة الأدب فى العالم ج ١ ص ٩٠

(٢) الشهرستانى الملل والنحل ج ٢ ص ٩١

(٣) لودفيغ اوث مختصر فى علم اللاهوت العقائدى ج ٢ ص ١٦٣

والسماء هى مسكان وحالة من السعادة الفائقة الطبيعية تقوم على رؤية الله عياناً وعلى محبته حجة تامة : ثم يقولون إن النعيم السماوى يدوم إلى الأبد كما تتفاوت درجات النعيم السماوى لمختلف القديسين على حسب استحقاقاتهم من الإيمان .

والجحيم هى جهنم وهى حالة شقاء أبدى حيث يسكون الذين رذلهم الله وعذابهم عذاب حرمان من الرؤية الطوباوية وعذاب الحس الذى يكون بوسائل حسية ويمتاز عذاب الجحيم بأبديته كذلك وتفاوته تبعاً لمقدار الذنوب[١] .

وهناك المطهر لنفوس الأبرار التى ذالت عندموتها مثقلة بخطايا عرضية أو بعقوبات زمنية تذهب إلى المطهر لتطهيرها بعقوبات خاصة .

وعندهم أن المسيح نفسه الذى يتولى إدانة الأحياء والأموات فنى متى[٢] :

أن ابن البشر مزمع أن يأتى — بمجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازى كل أحد بحسب أعماله ، وفى لوقا[٣] وحينئذ تظهر علامة ابن البشر فى السماء وتنوح حينئذ جميع قبائل الأرض ويرون ابن البشر آتياً على سحاب السماء بقوة وجلال عظيمين .

وعندهم علامات تسبق مجيء المسيح منها التبشير بالإنجيل فى العالم كله ويستدلون بقول يسوع سيكرز بانجيل الملكوت هذا فى جميع المسكونة شهادة لكل الأمم وحينئذ ينتهى المنتهى[٤] .

---

(١) لود فيغ اوث مختصر فى علم اللاهوت العقائدى ج ٢ص١٤٦

(٢) فصل ١٣ / ٢٦ (٣) فصل ٢١ / ٢٧

(٤) متى ١٤ ، مرقص ١٣ / ٢٠

ومنها اهتداء اليهود ويكون هذا كما يقول بولس[1] فى رسالته إلى الرومانيين متى دخل ملء الأمم أى عدد من الوثنيين حـــدود الله فى ملكوت الله عندئذ يهتدى « إسرائيل كله » ويخلص وهذا تعميم بالمعنى المجازى ومنها الجحود « فقد تنبأ يسوع للحقيقة التى تسبق المنتهى عن قيام أنبياء كذبة يطغون كثيراً من الناس » .

كما يؤكد القديس بولس[2] أن الإرتداد لابد أن يسبق مجىء الرب أى الإرتداد عن الإيمان المسيحى ومنها مجىء المسيح الدجال الذى سيكون سبب هذا الإرتداد كما يقول بولس[3] .

لابد أن يسبق الإرتداد أولا ويظهر إنسان الخطيئة بن الهلاك المعاند المترفع فوق كل يدعى إلها أو معبوداً كما تنبأ يسوع عن حروب ومجاعات وزلازل أرضية وعن إضطهادات هائلة ستنزل بتلاميذه وحينئذ يسلمونكم إلى الضيق ويقتلونكم وتكونون مبغضين من كل الأمم لأجل اسمى[4] .

ويقرر المجمع اللاتزانى[5] الرابع ١٢١٥ م بأن الموتى سيقومون جميعاً بالجسد عينه الذى يلبسون الآن وأجساد الأبرار ستتغير وتتمجد على مثال جسد المسيح القائم من الموت وبناء على تعليم القديس بولس يتميز جسد الأبرار بخواص أربعة هى جسد ممتنع عن التألم وهو جسد روحانى لطيف وهو جسد خفيف الحركة والرابعة جسد منير بينما تقوم أجسام الأشرار خالدة بغير فساد لكن لن تكون ممجدة .

---

(١) فصل ١١/ ٢٥ — ٣٢ .

(٢) تسالونيكى فصل ٢٤/٤ — ٥

(٣) تسالونيكى فصل ٣/٢ — ٤ (٤) متى ٩/٢٤

(٥) لود ميغ اوث مختصر فى علم اللاهوت العقائدى ج ٢ ص ١٦٠

فهذه نظرة تاريخية سريعة لتصوير السابقين لحقيقه اليوم الآخر الذين يعترفون جميعاً به ولكنهم يختلفون فى تصويره ويمكن ملاحظة أمور على ما سبق ذكره :

١ — كثرة الأساطير والخرافات التى لا يقبلها العقل السليم .

٢ — لا نكاد نعرف بالضبط وقت اليوم الآخر فهل هو فى هذه الحياة أم فى حياة أخرى يدان فيها الجميع .

٣ — من هذه التصورات كالنصارى يقولون بدينونة صغرى بعد الموت مباشرة ودينونة كبرى اختلفوا فى وقتها منهم من يقول أنها فى هذه الحياة ومنهم من يقول فى حياة أخرى بعد أن تتبدل الأرض غير الأرض .

٤ — الصورة أو العرض العام لذلك اليوم مضطربة فكأن الأمور تجرى بدون نظام أو رقابة والذين يتولون الحساب آلهة كثيرون كما فى التصورات السابقة والمسيح هو الذى يقوم بذلك عند النصارى ونحن عرفنا أن الله واحد له الأمر من قبل ومن بعد لا يشرك فى حكمه أحداً .

ولذلك لا نطمئن إلى هذه التصورات لأن الإنسان تصرف فيها وهى من العقائد السمعية التى لا يعلمها إلا الله ولا نقبل وصفها إلا منه تعالى وهذا لا يتوفر فى الكتب السماوية السابقة التى حرفت، فالى القرآن الذى تميز عما سبقه من الكتب بتعهد الله بحفظه « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1] وقبل ذلك نعرض لوجهه نظر الماديين فى اليوم الآخر .

---

(١) سورة الحجر آية ٩ .

رأى الماديين :

والماديون لا يؤمنون بالآخرة وهم ( يحاولون بدافع الغريزة أن يجعلوا من هذا الكون عالما أبدياً لأفراحهم ولذلك بحثوا كثيراً عن أسباب الموت حتى يتمكنوا من الحيلولة دون وقوع هذه الأسباب من أجل تخليد الحياة ولكنهم أخفقوا إخفاقا ذريعاً وكلما بحثوا فى هذا الموضوع رجع إليهم بحثهم برسالة جديدة عن حتمية الموت وأنه لا مناص منه[1] .

ولأنهم ماديون فقد رفضوا القول بوجود روح منفصل عن الجسم مستقل عن المادة وكلما حصل الموت فلابد لحصوله من سبب مادى يكمن فى الجسم ذاته من حيث هو كيان مادى .

ونظرة كهذه لا شك ترفض صلة الموت بالروح ورفض هذه الصلة هو رفض مباشر لإمكان بقاء حياة بعد الموت أو عودة تلك الحياة بعودة الروح إلى البدن كما تؤمن الأديان . ومن ثم لا يكون للحياة الآخرة مكان فى علم الماديين وهم فى محاولاتهم النشطة لمعرفة أسباب الموت ولماذا يكون ؟ أسفرت تلك المحاولات عن تقديم ما يقرب من مائتى إجابة عن هذا السؤال الخطير وكانت غالباً تدور حول أمور مادية مرتبطة بالكيان المادى للجسم ذلك الذى لا يعترفون إلا به .

من إجاباتهم ( أن الموت ) فقدان الجسم لفاعليته — إنتهاء عملية الأجزاء التركيبية — تجمد الأنسجة العصبية — حلول المواد الزلالية القليلة الحركة محل الكثيرة الحركة منها — ضعف الأنسجة الرابطة — إنتشار سموم بكتريا الأمعاء فى الجسم .. وغير ذلك من الإجابات[2] .

---

(١،٢) وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ص ١٢١ .

والواضح أن هذه الإجابات لم تفلح فى تقديم فرض صحيح لسبب الموت حتى من الوجهة المادية وبذا تبدد الحلم الذهبى فى تخليد الإنسان فى العالم المشاهد .

ونستطيع مناقشة هذه الشبه الواهية فيما يلى :

فقدان الجسم لفاعليته :

إن القول بأن سبب الموت هو فقدان الجسم لفاعليته أمر فيه جاذبية للعقل فإن الآلات الحديدية والأقمشة والأحذية كلها تفقد فاعليتها بعد أجل محدد فأجسامنا أيضاً تبلى وتفقد فاعليتها كالجلود التى نلبسها فى موسم الشتاء ولكن العلم الحديث لا يؤيدنا لأن المشاهدة العلمية للجسم الإنسانى تؤكد أنه ليس كالجلود الحيوانية ، والآلات الحديدية وليس كالجبال وأن أقرب شيء يمكن تشبيهه به هو ذلك النهر الذى لا يزال يجرى منذ آلاف السنين على ظهر الأرض فمن الذى يستطيع القول بأن النهر الجارى يبلى ويهن ويعجز[1] .

وهنا يبدو القياس العقلى للجسم الإنسانى على الآلات والأحذية ساقطاً فى نظر العلم الذى يقبل أن الجسم كالنهر فى تدفقه واستمراره وتجدده وبالتالى فلا وهن ولا عجز ولا فقدان فاعلية عكساً لما تقرر عند الماديين من أن الموت عائد فى أحد أسبابه إلى الضعف والعجز والوهن ولهذا فالإنسان أبدى إلى حد كبير — نظرياً — فإن خلايا جسمه تقوم بإصلاح ما فيه من الأمراض ، ومعالجتها تلقائياً . وبرغم ذلك .

---

(١) المرجع نفسه ص ١١١ — ١١٢

فإن الإنسان يعجز ويموت ولا تزال علل هذه الظاهرة أسراراً تحير العلماء[1] .

فلا أعتبار الجسم كالآلة يبلى مثلها ولا اعتباره كالنهر المتجدد دائماً أفلح فى نظر العقل والعلم فى إبعاد الموت وتلمس علته .

حقيقة ( إن جسمنا هذا فى تجدد دائم وأن المواد الزلالية التى توجد فى خلايا دمائنا تتلف كذلك ثم تتجدد ومثلها جميع خلايا الجسم تموت وتحل مكانها خلايا جديدة اللهم إلا الخلايا العصبية .

وتذكر البحوث العلمية أن دم الإنسان يتجدد تجدداً كلياً خلال مايقرب من أربع سنين كما تتغير جميع ذرات الجسم الإنسانى فى بضع سنين .

ونخرج من هذا بأن الجسم الإنسانى ليس كهيكل وإنما هو كالنهر الجارى .

أى أنه عمل مستمر ومن ثم تبطل جميع النظريات القائلة بأن علة الموت هى وهن الجسم وفقده لقوته .

فإن الأشياء التى فسدت أو تسممت من الجسم أيام الطفولة أو الشباب قد خرجت من الجسم منذ زمن طويل ولا معنى لأن نجعلها سبب الموت فسبب الموت موجود فى مكان آخر وليس فى الأمعاء والأنسجة البدنية والقلب[2] .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٢

(٢) المرجع نفسه ص ١١٢

الأنسجة العصبية :

وافتراض أن سبب الموت هو تلف الأنسجة العصبية افتراض ربما يكشف عن بعض الغموض الذى يكتنف تلك المشكلة ذلك أنها تبقى إلى نهاية الحياة فلا تتجدد كباقى الجسم ومن ثم تكون نقطة ضعف فى الجسم الإنسانى يفسر بها الموت لكن إن صح ذلك فمن الممكن أن نزعم أن أى جسم خال من النظام العصبى لابد أن يحيا عمراً أطول من الأجسام ذات النظام العصبى .

ولكن المشاهدة العلمية لا تؤيدنا فإن هذا النظام لا يوجد مثلا فى الأشجار وبعضها يعيش لأطول مدة ولكن شجرة القمح التى لا يوجد بها هذا النظام العصبى لا تعيش أكثر من سنة .

وليس فى كائن ( الأميبا ) جهاز عصبى وهى مع ذلك لا تبقى على قيد الحياة أكثر من نصف ساعة .

ومقتضى هذا التفسير أيضاً أن تلك الحيوانات التى تعد من نسل أعلى والتى تتمتع بنظام عصبى أكمل وأجود لابد أن تعيش مدة أطول من تلك التى هى أحقر نسلا وأضعف نظاما .

ولكن الحقائق لا تؤيدنا فى هذا أيضاً فإن السلحفاة والتمساح .. أطول عمراً من أى حيوان آخر وكلها من النوع الثانى حقير النسل وضعيف النظام[1] .

وبهذا تنخرم التفسيرات المادية للموت ويتبدل القول بارتباطه

---

(١) المرجع السابق ص ١١٣

بالنظام العضوى والفسيولوجى للجسم وتبقى الحقيقة فى أنه قد أخفقت تماماً تلك البحوث التى استهدفت أن تجعل من الموت أمراً غير يقينى يمكن أن لا يقع فبقى الاحتمال الذى أكدته الأديان وهو أن يموت الإنسان فى أى عمر وفى أى زمن ، ولم نستطع العثور على أى مكان يمنع الموت رغم جميع الجهود .

لقد بحث الدكتور — الكسيس كاريل — هذه المشكلة فى مقال طويل بعنوان : « الزمن الداخلى » فذكر الجهود المخفقة التى بذلت فى هذا الصدد ثم قال : « إن الإنسان لن يسأم أبداً من البحث عن الخلود والسعى وراءه مع أنه لن يظفر به إلى الأبد فتركيبه الجسمانى يخضع لقوانين معينة أنه يستطيع أن يوقف الزمن الفسيولوجى لأعضاء الجسم حتى يؤخر الموت لفترة لكنه لن يتغلب على الموت أبداً[١] .

فالموت حتم لا محالة وربطه بأسباب مادية بحتة لن يظفر بالنجاح دوما والأمل فى خلود الإنسان فى الدنيا يخبو حتما مهما تقدمت الأبحاث .

وفى كل ذلك القناعة الأكيدة بما صرحت به الأديان من ضرورة الموت « كل نفس ذائقة الموت »[٢] ومن أن الموت ليس واقعاً على البدن لسبب مادى بل واقع عليه بسبب مفارقة الروح له .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٣

(٢) سورة آل عمران من الآية ١٨٥

مفهوم الموت فى الإسلام :

ومفهوم الموت فى الإسلام له بعد آخر إنه ليس ذلك المجهول الذى يبعث الخوف والرهبة فى النفوس ولكنه قضاء الله وحكمته فى أن يعيش الإنسان عمراً زائلا فى الدنيا ثم يعيش عمراً خالداً فى الآخرة .

الموت إذن معروف للمسلم ولن يفلت منه حى ذلك أنه إذا أفلت حى من الموت لكان ذلك اختلالا فى سنة الله وحاشا لسنة الله أن تختل «وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون»(١) .

يقول بعض العلماء «إن هذه الدنيا دار تكليف وعمل والآخرى دار حساب وجزاء هذا ما يقول به الدين ويقضى به العدل والعقل والمنطق ويصدق به المؤمنون ولكن الجاحدين بالله .. يرون أنه لا حياة على ظهر الأرض وأن الموت بداية العدم الذى لا يتلوه وجود ولا حياة أخرى بحال، وهؤلاء لا يصح أن يقيم العاقل لهم وزناً ولا لآرائهم وسيتمثل لهم بعد الموت باطل ما كانوا يعتقدون(٢) .

الموت فى الإسلام انتقال بين حياتين وليس نهاية أو خاتمة مطاف وإنما الآخرة هى دار القرار التى لن يكون فيها موت مطلقاً وإنما كل ما فيها خلود يقول بعض المفكرين : يؤدى الموت فى الديانات السماوية دوراً هاماً فى إقامة العقيدة الدينية وفى تعميق جذورها فى قلوب المؤمنين بها وبعث الحماس للأعمال الصالحة التى تدعوا إليها واجتناب ما تنهى عنه من

---

(١) الحجر الآية ٢٣

(٢) د/ محمد يوسف موسى الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص١٣٨ ط ثانية سنة١٩٦١ م الشركة العربية للطباعة والنشر .

أعمال سيئة فانه لولا الموت لما فكر الإنسان فيما بعد الموت والتفكير فيما بعد الموت هو الذى تعمل الديانات السماوية على توجيه تفكير الناس إليه واستعدادهم له .

وليس من خلاف بين الديانات السماوية كلها فى تقرير هذه الحقيقة وتوكيدها . . وتكاد تكون دعوة الرسل — بعد الدعوة إلى الإيمان بالله — منحصرة فى توجيه الناس إلى الإيمان بما بعد الموت والإعداد له(١) .

وإذا كانت بعض الفلسفات أو المذاهب قد جعلت من الموت هماً يحمله قبل لقائه فالدين بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة قد يجعل من الموت هدفاً فاستتراح الإنسان بعد أن عرف حكمة الله من هذه الحياة ومن الموت .

هكذا الموت فى الإسلام حقيقة فلا داعى للخوف أو الرهبة فانه أينما كنا سيلاقينا ويعتبر الموت بالنسبة للمؤمن ولادة جديدة يقول الرسول ﷺ « الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا » .

مصدر الجزع من الموت إذن فى المسرح اليونانى أو فى بعض المذاهب الفلسفية المعاصرة إنكار فكرة الحياة بعد الممات وسر السكينة عند أصحاب الأديان — مصريين قدامى أو مؤمنين بكتب سماوية وعلى الأخص المسلمين — إيمان لا ريب فيه بالحياة بعد الممات .

---

(١) عبد الكريم الخطيب : الله والإنسان ص ٢١٧ دار الفكر العربى ط سنة ١٩٧١ م .

## الروح الإنسانيـة :

حقيقة الروح: المقصود بالروح فى هذا المجال الروح الإنسانية إذ أن كل كائن حى به ما تقوم به الحياة ويسمى روحه أما حقيقة الروح الإنسانية فإنها من الأمور الغامضة والتى لا يستطيع المرء أياً كان أن يعطى معنى واضحاً لها إذ هى كما أخبرت الكتب السماوية بأن حقيقتها من الأمور الغيبية والتى لم يطلع الله عليها أحد ففى القرآن الكريم « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

وفى الصحيحين واللفظ للبخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال بينا أنا أمشى مع النبى ﷺ فى حرث وهو متوكىء على عسيب إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه — أى محمد ﷺ — عن الروح فقال — بعضهم — ما رابكم إليه — وقال بعضهم لا — أى لا تسألوه — لا يخبركم بشىء تكرهونه ، فقالوا سلوه فسألوه عن الروح فأمسك النبى ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً . قال ابن مسعود فعلمت أنه يوحى إليه فقمت مقامى فلما نزل الوحى قال : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » ... الآية .

غير أن الباحثين يرون أن الروح يقصد بها النفس الإنسانية أو هى ما بها حياة النفس أو غير ذلك ولذا نرى أنه من الواجب معرفة كل على حدة .

### أولا : معنى الروح فى معاجم اللغة العربية :

الروح لفظة مشتقة من الروح أو الريح بمعنى الهواء الذى يتردد فى صدر الحى شهيقاً وزفيرا عند النفس إذا منع عنه تنقضى حياته والريح فى لغة العرب ما يدل على الحركة والمسير ولعل ذلك يتصل باشتقاق كلمة

الريح من المادة لأن الهواء متحرك بالطبقة المحيطة بالأرض والحركة هى المظهر الأساسى للحياة ولهذا أطلقت كلمة الروح على ما به حياة الإنسان .

يقول الراغب الأصفهانى فى مفردات القرآن — أن الروح اسم للجزء الذى تحصل به الحياة والتحرك واستجلاب المنافع واستجلاب المضار .

ويقول ابن الأثير فى النهاية : الروح هو الذى يقوم به الجسد .

وإذا ما ذهبنا وراء التعريفات اللغوية وجدناها كثيرة جداً .

فقيل : هى جسم هوائى فى القلب أو هى جزء فى الدماغ لا يتجزأ .

وقيل : هى جسم لطيف بخارى يتكون من لطافة الأخلاط وبخاريتها .

أو هى لطبقة سارية فى البدن سريان الماء فى الورد باقية من أول العمر إلى آخره لا يتطرق إليها تحلل ولا تبدل حتى إذا قطع عضو من البدن انقبض ما فيه من الروح إلى سائر الأعضاء .

ونحن نلاحظ أن أغلب التعريفات للروح تعتمد على التعبير عن الخواص والآثار والمظاهر دون بيان حقيقتها لأنها مستورة عنا محجوبة ولا ندركها إلا بآثارها .

الروح يذكر ويؤنث والجمع أرواح ويسمى القرآن وعيسى وجبريل عليهما السلام روحا . والملائكة والجن روحانى والجمع روحانيون [1] .

وقد جاء فى تعبيرات العرب بأن الروح والنفس بمعنى واحد غير أن

---

(١) المختار الصحاح باب الراء مع الواو والحاء .

العرب تذكر الروح وتؤنث النفس، وقال صاحب المحكم والجوهرى: الروح يذكر ويؤنث — كأن التأنيث على معنى النفس قال بعضهم الروح النفس فإذا انقطع الحيوان فارقته الحياة .

وكلمة النفس شاملة للإنسان بجسده وروحه قال تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها »[1] ، وقال تعالى : « كل نفس ذائقة الموت »[2] ، وقال تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »[3] .

والنفس تطلق أحياناً على الدم كما فى تفسيرات الفقه الإسلامى وما لا نفس له سائلة إذا وقع فى الإناء ومات فيه فإنه لا ينجسه . أى ما لا دم له سائل .

ومنه النفساء وهى الأنثى التى يسيل منها دم الولادة .

ولعل السر فى تسمية الدم بالنفس أن العرب وجدوا أن حياة الإنسان تنتهى بنزف دمه فربطوا بين الأمرين .

وعلى كل فلا يوجد فى الأدب العربى حديثاً يفصل فيه بين الجسم والروح والنفس لأن البداهة العربية كانت تدرك أن كلمة النفس تشمل الجسم وسر حياته من غير انفصال بينهما .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨٩ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٨٥ .
(٣) سورة الشمس الآيات ٧، ٨ .

# الفصل الثاني

## الروح فى اصطلاح المتكلمين

اختلفت آراء المتكلمين حول المراد بالروح والنفس هل هما بمعنى واحد أم مختلفان .

رأى أهل السنة :

ذهب أهل السنة إلى أن النفس والروح بمعنى واحد وأن الروح هى النفس الناطقة المستعدة للبيان وفهم الخطاب ولا تفنى بفناء الجسد وأنها جوهر لا عرض واستدلوا بقوله تعالى : « بل أحياء عند ربهم يرزقون » أى أرواحهم ، وقد أيد هذا الرأى ابن القيم حيث يرى أن من معانى النفس الروح .

وقال الجوهرى : النفس الروح يقال خرجت نفسه أى روحه ، وسميت الروح نفسا من الشىء النفيس لنفاستها وشرفها .

وأما من تنفس الشىء إذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها فى البدن سميت نفسا .

والخلاف فى النفس والروح خلاف لفظى فقط فان النفس تطلق على الروح إذا كانت متصلة بالبدن فيقال نفس الإنسان أى روحه .

أما إذا كانت الروح مجردة عن البدن فان تعريف الروح أغلب عليها .

ويقول ابن القيم أن الفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات (١) .

---

(١) السفارينى لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٣١

ومن خلال ما سبق تبين لنا أنه لا خلاف عند أهل السنة بين النفس والروح ولهـذا عرفوا الروح بأنها أجسام لطيفة متشابكة للأجسام المحسوسة أجرى الله تعالى العادة باستمرار حياة الأجسام ما استمرت مشابكتها لها فاذا فارقتها يعقب الموت الحياة فى استمرار العادة [1] .

وهذا الرأى للجوينى حيث يرى أن الروح سارية فى أجزاء البدن سريان الماء فى العود الأخضر وأنها شىء مخالف للجسد .

وقد قال بهذا الرأى أبو الحسن الأشعرى والباقلانى حيث يذهبان إلى أن الروح والنفس بمعنى واحد وأنهما عرض وليس شيئا آخر سوى الحياة وعلى هذا لابقاء لها بعد فناء البدن [2] .

وقد قال ابن القيم بهذا الرأى فيقول : والصحيح أن الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نورانى علوى خفيف متحرك ينفـذ فى جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء فى الورد وسريان الدهن فى الزيتون والنار فى الفحم فمادامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقى هذا الجسم اللطيف متشابكا بهذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة والإرادة وإذا فسدت هـذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح [3] .

ومن هنا يتضح لنا أن هذا الفريق يذهب إلى أن النفس هى الروح ولا خلاف بينهما إلا فى التسمية فقط .

---

(١) الجوينى الإرشاد ص ٣٧٧ — نشر مكتبة الخانجى .
(٢) مدكور ، الفلسفة الإسلامية ص ١٥٦
(٣) السفارينى لوامع الأنوار البهية ج ٢ ص ٢٩

## رأى المعتزلة :

فأبو الهذيل العلاف يرى أن النفس غير الروح والروح غير الحياة والحياة عرض وذهب إلى أن الإنسان يكون فى نومه مسلوب النفس والروح ولكنه حى واستشهد على ذلك بقوله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها »[١] .

وأما النظام فذهب إلى النفس والروح معنى واحد وأن الروح جسم وأنكر أن تكون الحياة والقوة معنى غير الحى القوى وأن سبيل كون الروح فى البدن على جهة أن البدن آفة وباعث له على الاختيار ولو خلص لكانت أفعاله على التولد والاضطرار[٢] .

يقول الشهرستانى بأن النظام استمد فكرته هذه من الفلاسفة الطبيعيين فقالوا بأن الروح جسم لطيف مشابك للبدن مداخل للقلب بأجزائه مداخلة المائية فى الورد والدهنية فى السمسم والسمينة فى اللبن والروح هى التى تكون لها قوة واستطاعة وحياة ومشيئة وهى مستطيعة بنفسها ولا استطاعة قبل العقل[٣] .

ولا شك أن هذه الفكر مستمدة من فكر الرواقيين القائلين بأن الروح نسمة والنسمة جسم لطيف كما أن المداخلة فكرة رواقية .

إذا وقفنا عند كل من الآراء المعروضة لدى أهل السنة والمعتزلة فإننا نجد البحث يتناول الروح والنفس على اعتبار أنها عنصر مادى سواء لدى القائلين بأن النفس هى الروح أو غيرها .

---

(١) الأشعرى مقالات الإسلاميين ج ٢ ص ٢٩ والآية من سورة الزمر رقم ٤٢

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧

(٣) النشار نشأة الفكر ج ١ ص ٦٠٠

ثالثاً : بالإضافة إلى الاتجاهين السابقين هناك اتجاهاً ثالثاً :

يقولون فيه بأن النفس ليست جسما ولا عرضا لجسم فلا طول لها ، ولا عرض ولا مكان لها فى الحقيقة ولا تماس شيئا ولا يماسها شىء ولا يجوز عليها الحركة والسكون ولا لون لها ولا طعم — كل ما يجوز عليها العلم والقدرة ، والحياة والإرادة والحب والكراهة — فهى تحرك البدن دون أن تمسه .

وقد ذهب إلى هذا الرأى معمر بن عباس السلمى الذى قال بأن النفس علم خالص وإردة خالصة والعلاقة بينهما وبين الجسم إنما تتم بواسطة ذلك المنتشر فى البدن(١) .

وهذا الاتجاه روحانى يتفق وما قال به معمر السلمى فى مذهبه الجزء الذى لا يتجزأ — فهو يعتبر الإنسان جزءاً لا يتجزأ وهو المدبر فى العالم — فالإنسان إذن نفس والبدن آلة ظاهرة لهذه النفس، يقول النشار : وقد أخذ معمر هذا القول من الفلاسفة حين قضوا بإثبات أن النفس جوهر قائم بنفسه لا متميز ولا متمكن و نطاق النفس هو الأفعال النفسية والعقلية أما أفعال الجسد فهى الأفعال المادية(٢) .

رابعاً : رأى من يفرق بين الروح والنفس ويرى أنهما مختلفان : —

وهذا الرأى يقول به فرقة من أهل الحديث والفقه والتصوف : قال مقاتل ابن سليمان: للإنسان حياة وروح ونفس فإذا نام خرجت نفسه التى يعقل بها الأشياء ولم تفارق الجسد بل تخرج كحبل ممتد له شعاع ، فيرى الرؤيا بالنفس التى خرجت منه وتبقى الحياة والروح فى الجسد فيه ينقلب

---

(١) د . مدكور فى الفلسفة الإسلامية ص ١٥٦

(٢) د. النشار نشأة الفكر جـ١ ص ٦٢٦ — ٦٢٧

ويتنفس . فإذا تحرك رجعت إليه روحه أسرع من طرفة عين — فإذا أراد الله أن يميته فى المنام أمسك تلك النفس التى خرجت وقال أيضاً إذا نام خرجت نفسه وصعدت إلى فوق فإذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح والتى هى الأخرى تخبر القلب فيحدث العلم وتقص بأنها رأت كيت و كيت[1] ] .

وبناء على ما سبق فإنهم يرون أن النفس غير الروح وغير القلب ، ولهذا فإنهم يضعون فرقا بين النفس والروح ، يقول عبد الله بن مندة من علماء السلف :

ثم اختلفوا فى معرفة الروح والنفس فقالوا :

النفس طينية نارية والروح نورية روحانية وزعم بعضهم أن الروح لاهوتية والنفس ناسوتية وأن الخلق بها ابتلى وقال طائفة من أهل الأثر أن الروح غير النفس والنفس غير الروح وقوام النفس بالروح — والنفس صورة العبد والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها ولا عدوى أعدى لابن آدم منها — إذ النفس تريد الدنيا والروح تريد الآخرة .

ومنهم من توقف فى تعريف الروح وقال إنها من أمر الله أخفى حقيقتها وعلمها عن الخلق[2] .

هذا مجمل الآراء فى تعريف الروح فريق ينحوا بها إلى العنصر المادى وآخر يجردها من المادة إلى الروحانية وكلاهما لا يرى ثمت فرق بينها وبين النفس وثالث يرى أنها مخالفة للنفس ويجردها عن المادة إذ المادة من خواص النفس عندهم لأنها تنزع إلى الشهوات المادية والحق الذى نراه أن الروح والنفس بمعنى واحد وهى التى تقبض وتتوفى وتخرج إلى الجسد الذى هو آلة يتحرك بوجودها البدن ويقتل ويأكل ويشرب ويمارس

(١) السفارينى لوامع الأنوار البهية ج ٢ ص ٣١

(٢) راجع لوامع الأنوار البهية ج ٢ ص ٣٢

حياته العادية فإذا انتزعت منه انطفت كل هذه الأفعال . وأن الروح سر الله فى خلقه أودعها الجسد تسرى فيه دون تحديد لمكانها. ولا سبيل إلى معرفة حقيقتها وإنما تدرك بآثارها .

ومن خلال ما تقدم فان الرأى الراجح على أنه ليس ثمه فرق بين النفس والروح وهنا يرد سؤالا — هل النفس واحدة أم ثلاث ؟

ولعل السبب فى إيراد مثل هذا السؤال ما جاء فى القرآن الكريم بتسمية النفس بأنها لوامة تارة وأمارة السوء تارة أخرى ومطمئنة مرة ثالثة .

وهنا نجد أن الآراء فى ذلك على اتجاهين :

أحدهما : يرى أنها ثلاث أنفس — نفس مطمئنة — ونفس لوامة ، ونفس أمارة .

وأنها تختلف باختلاف الناس فمن الناس من تغلب عليه أحدهما دون الأخرى .

واستدلوا على ذلك بأدلة منها :

١ — قوله تعالى : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية »[1] .

فقد وصف الله هذه النفس بأنها مطمئنة فيلزم وجود نفس بهذه التسمية .

٢ — واستدلوا أيضا بقوله تعالى : «ولا أقسم بالنفس اللوامة »[2] .

فقد أقسم الله بوجود نفس تلوم صاحبها على فعل المنكرات وتؤنبه على المعاصى وهى اللوامة فثبتت وجود هذه النفس اللوامة .

(١) سورة الفجر الآيات ٢٧ ، ٢٨ (٢) سورة القيامة آية ٢

٣ — واستدلوا بقوله تعالى : « إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى »[1] . فقد وصف الله هذه النفس بأنها أمارة بالسوء فثبت وجود نفس بهذه الإسم .

فتكون النفوس ثلاثة : مطمئنة — لوامة — أمارة بالسوء .

الاتجاه الثانى : وهذا الاتجاه يخالف ماعليه أصحاب الرأى السابق حيث يذهبون إلى القول بأن النفس لواحدة وأن ماذكر من كونها مطمئنة أو أمارة أو لوامة فهى صفات خاصة بها فباعتبار قيامها بصفة من هذه الصفات تسمى بها فتكون مطمئنة باطمئنانها إلى ربها بعبوديتها له والتوكل عليه والإنابة إليه وهذا هو الحق فى معنى طمأنينة النفس وأقوال المفسرين فى طمأنينة النفس ترجع إلى ذلك قال ابن عباس « المطمئنة هى المصدقة » وقال قتادة هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله وقال مجاهد هى النفس التى أيقنت بأن الله ربها المسلمة لأمر فيما هو فاعل بها[2] .

وتكون هذه النفس لوامة بمعنى أنها تلوم صاحبها على تقصيرها فيما أمر الله تعالى وقيل أنها هى التى لاتثبت على حالة واحدة من التلوم وهو التردد وهى نفس المؤمن تلومه على الذنب والتقصير وبهذا قال الحسن البصرى أن المؤمن لاتراه إلا يلوم نفسه دائماً يقول ما أردت بهذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان غير هذا أولى أو نحو هذا من الكلام[3] .

أما النفس الأمارة بالسوء وهى المذمومة وهى التى يكون السوء من طبيعتها إلا من وفقه الله تعالى وأعانه على نفسه فما تخلص أحد من شرها

---

(١) سورة يوسف آية ٥٣

(٢) الروح لابن القيم ص ٢٩٥

(٣) ابن القيم الروح ص ٢٩٩

ولهذا كان قول إمرأة العزيز «وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحم ربى»[١].

وقوله تعالى «ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا»[٢].

وقوله تعالى لنبيه وأكرم خلقه: «ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا»[٣].

وكان النبي ﷺ يتعوذ فى خطبته من شر هذه النفس فكان يقول نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا[٤].

والحق فى هذا أنها نفس واحدة وهو أسلم الآراء وأكثرها صوابا وقد أيد هذا الرأى الإمام أبو حامد الغزالى حيث يقول: «إن النفس هى الجوهر الذى هو محل المعقولات وهو من عالم الملكوت ، نعم تختلف أسماؤها باختلاف أحوالها العارضة لها فتسمى مطمئنة إذا اتجهت إلى الصواب ونزلت عليها السكينة الإلهية.

وتسمى لوامة إذا استولى عليها بعض القوى الحيوانية التى تنزل الشخص إلى درجة البهائم. وتسمى أمارة بالسوء إذا انسلخ عن مرتبة الإنسان العاقل واتضع إلى حضيض البهائم لا يفرق بينهما إلا بالصورة[٥]

---

(١) سورة يوسف آية ٥٣

(٢) سورة النور آية ٢١

(٣) سورة الإسراء آية ٧٤

(٤) الروح لابن القيم ص ٣٠

(٥) الغزالى معارج القدس ص ١٢

وهذا هو الصواب بأنها نفس واحدة والله يمتحن عباده كما جاء فى قوله تعالى : « ثم أرثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله »[١] .

ويقول ابن القيم مؤيداً : «أن النفس واحدة» فهى أى الروح — فى الحقيقة شىء واحد له صفات متعددة بحسب متعلقاته فانه يسمى نفساً مطمئنة ونفساً لوامه ونفساً أمارة وليس هى ثلاثة نفوس بالذات والحقيقة ، ولكن هى نفس واحدة ولها صفات متعددة[٢].

آراء العلماء فى خلق النفس قبل البدن أم بعده :

اختلفت الآراء حول أسبقية الروح للجسد أم العكس على فريقين ولكل منهما أدلته التى يدعم بها رأيه :

الفريق الأول يقول بخلق الأرواح قبل الأبدان وقد أرجع ابن القيم فى كتابه الروح نسبة هذا الرأى إلى محمد بن نصر المرزوى وأبو محمد ابن حزم وحكاه ابن حزم إجماعا[٣] .

وقد استدلوا على رأيهم هذا بأدلة :

١ — قوله تعالى « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا »[٤] وثم تفيد الترتيب والمهلة فقد تضمنت الآية

---

(١) سورة فاطر آية ٣٢
(٢) ابن القيم مدارج السالكين ج ٢ ص ١٢٦
(٣) ابن القيم الروح ص ٢١
(٤) سورة الأعراف آية ١١

أن خلقها مقدم على أمر الله للملائكة بالسجود ومن المعلوم قطعاً أن أبداننا حادثة بعد ذلك فعلم أنها الأرواح .

٢ — قوله تعالى «وإذ أخذ ربك من بنى آدم ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى»[1] . قالوا فى هذا إن الإستنطاق والإشهاد إنما كان للأرواح إذ لم تكن الأبدان خلقت بعد واستدلوا على ذلك بحديث ورد فى موطأ الإمام مالك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله ﷺ يسئل عنها فقال «خلق الله آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون . وخلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون . فقال رجل يارسول الله ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ إن الله إذا خلق الرجل للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة . وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار[2] .

٣ — استدل القائلون بخلق الأرواح قبل الأبدان بحديث رواه عطاء بن عجلان عن يونس بن حلبس عن عمرو بن عبسة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفى عام فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[3] وهذا الحديث واضح فى الدلالة على تقدم خلق الأرواح على الأجساد .

ثانياً : من يقول إن الأجساد خلقت قبل الأرواح وهذا هو رأى

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢

(٢) هذا الحديث رواه الحاكم فى المستدرك ج ٢ ص ٣٢٥

(٣) ابن القيم ، الروح ص ٢١٥

جمهور المسلمين على أن الأرواح الإنسانية خلقت بعد الأبدان واستدلوا على ذلك بأدلة :

١ — قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى »[١] قالوا فيه هذا خطاب للإنسان الذى هو مخلوق من روح وبدن وهو مخلوق بعد خلق الأبوين قال تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله »[٢] .

فهذا صريح أن خلق جملة الإنسان بعد خلق أصله والآيات والأحاديث كثيرة فى خلق آدم ، قوله تعالى « إنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » فالآية صريحة فى أنه نفخ فيه من روحه بعد خلق جسده ولو كانت الروح مخلوقة قبل الجسد ماتعجبت الملائكة من خلقه . ولما تعجبت الملائكة من خلق النار[٣] . وقالت لأى شيء خلقتها وهى ترى أرواح بنى آدم فيهم المؤمن والكافر والطيب والخبيث .

٢ — استدل القائلون بخلق الجسد قبل الروح بحديث ورد فى

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣

(٢) سورة النساء آية ١

(٣) ورد فى حديث ابن زيد « ن الله لما خلق النار ذعرت منها الملائكة ذعراً شديداً وقالوا ربنا لم خلقت هذه النار ولأى شيء خلقتها ؟ قال لمن عصانى من خلقى ولم يكن لله خلق يومئذ إلا الملائكة والأرض ليس فيها خلق إنما خلق آدم بعد » لوامع الأنوار البهية السفارينى جـ ٢ ص ٤٤

الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أن خلق ابن آدم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح .. الحديث .

فالملك وحده يرسل إليه فينفخ فيه فاذا نفخ فيه كان ذلك سبب لحدوث الروح — ولو كانت الروح مخلوقة قبل الجسد — لم يقل يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح مخلوقة قائمة بنفسها .

وفرق بين أرسل إليه الملك ومعه الروح وبين أن يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح .

٣ — لو كانت الروح مخلوقة قبل البدن لكانت عالمة ناطقة عاقلة ولكانت ذاكرة بذلك لها من الشعور والعلم والفعل شيئا — وهذا باطل لأن الله تعالى قال «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون [١] .

فلو كانت الروح قبل البدن لكانت لها من الصفات التى اكتسبتها بعد تعلقها البدن من الكفر والشرك والخبث — وكانت هذه الصفات ثابتة لها قبل التعلق وقد جاء فى الحديث «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » بيد أن هذه الأمور مكتسبة بعد تعلقها بالبدن .

ولا يقال أن اشتغالها لها بتدبير البدن هو الذى منعها من شعورها بحالها الأول ؟

يجيب عن هذا ابن القيم فيقول « معلوم أن تعلقها بالبدن لم يمنعها عن

---

(١) سورة النحل آية ٧٨

الشعور بأول أحوالها وهى فى البدن فكيف يمنعها من الشعور بما كان قبل ذلك »[1] .

ثم يؤكد على أن الروح خلقت بعد البدن فيقول :

ولو دل على أنها خلقت جملة ثم أودعت فى مكان حية عالمة ناطقة ثم كل وقت تبرز إلى أبدانها شيئا فشيئا لكنا أول قائل به ، فالله سبحانه على كل شىء قدير ولكن لاتخبر عنه خلقا ولا أمرا إلا بما أخبر به عن نفسه على لسان رسول الله ﷺ ومعلوم أن الرسول ﷺ لم يخبر عنه بذلك وإنما بما فى الحديث الصحيح «أن خلق ابن آدم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح فاذا نفخ كان ذلك سبب حدوث الحياة فالملك وحده يرسل إليه فينفخ فيه ولم يقل يرسل إليه الملك فيدخلها فى بدنه فدل على أن الروح خلقت بعد الجسد[2] .

وهكذا يمضى القائلين بحدوث الروح بعد البدن مدعمين أدلتهم ومبينين ضعف أدلة الفريق الآخر .

موقفهم من أدلة القائلين بتقدم الروح على البدن :

أولا : قالوا عن استدلالهم بقوله تعالى «ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» أن الأمر بالسجود لآدم المركب من البدن والروح وهو متقدم على خلقناكم فكأن قوله « ولقد خلقناكم» أى آدم ( ثم صورناكم ) أى ذريته فى ظهره ـ وسجود الملائكة لآدم قبل خلق ذريته وهذا مايدل عليه قوله تعالى:«يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة[3] فالخلق من تراب لأبيهم

(١) ابن القيم الروح ص ٢٣٣
(٢) ابن القيم الروح ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ (٣) سورة الحج آية ٥

مع أنه واقع عليهم وذلك لاعتبار أصلهم المخلوق من تراب . والاستدلال بظاهريته لترتيب الأمر بالسجود لآدم على خلقنا وتصويرنا .

ثانياً : عن استدلالهم بقوله تعالى « وإذا أخذ ربك من بنى آدم ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ... الآية .

قالوا : إن الأمر هو إخراج صورهم وأمثالهم فى صور البدن واستنطاقهم ثم ردهم إلى أصلهم .

وقيل: إن المراد به تعبير عن المستقبل بالماضى فقوله وإذا أخذ ربك أنه سيأخذ قال الجرجانى أن الله لما خلق الخلق ونفذ علمه فيهم بما هو كائن وما لم يكن بعد مما هو كائن كالكائن. إذ علمه بكونه مانع من غير كونه شائع فى مجاز العربية أن يوضع ما هو منتظر بعد مما لم يقع بعد موقع الواقع لسبق علمه بوقوعه كما قال سبحانه فى موضع آخر « ونادى أصحاب النار » وقوله « ونادى أصحاب الجنة»[1] .

فعلى هذا يكون المعنى يأخذ ربك ويشهدهم على أنفسهم بما ركبه فيهم من العقل الذى به يكون التكليف وما يترتب عليه من الثواب والعقاب وهذا الرأى اختاره جمهور المفسرين من أمثال الفخر الرازى والزمخشرى والعلامة أبو السعود .

٣ — أما عن حديث خلق الأرواح قبل الأجساد بألفى عام — فقالوا فيه أنه لا يصح إسناده .

وهو حديث منقطع لأن مسلم بن يسار لم يلق عمر بن الخطاب وبينهما فى هذا الحديث نعيم بن ربيعة وهو لا يقوم به حجة وقالوا إن مسلم ابن اليسار مجهول وقيل أنه مدنى وليس بمسلم بن يسار البصرى[2] :

---

(١) ابن القيم الروح ٢٢١
(٢) ابن القيم الروح ص ٢١٧

واستدلوا على نكران هذا الحديث قوله فكان روح عيسى من تلك الأرواح التى أخذ عليها الميثاق ومعلوم أن الروح الذى أرسل إلى مريم ليس هو روح المسيح بل ذلك الروح (جبريل) نفخ فيها فحملت بالمسيح قال تعالى « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا »[1] .

فروح المسيح لا يخاطب عن نفسه بهذه المخاطبة قطعاً .

وبعد : فهذه أدلة كل من الفريقين ولكل أدلته التى يستند فيها إلى النقل وليس ثمت ما يرجح أحد الرأيين على الآخر وحيث أن الله سبحانه وتعالى لم يعلم أحد من خلقه بأمر الروح بل أنها من أمر الله فكل فريق يعتمد على أدلة ظنية وليست يقينية فالأفضل التوقف والتفويض فى هذه المسألة لله سبحانه .

يقول صاحب المواقف : « وغاية هذه الأدلة الظن دون اليقين الذى هو المطلوب أما الآية فلجواز أن يريد بقوله « ثم أنشأناه خلقاً آخر » جعل النفس متعلقة به وإنما يلزم من ذلك حدوث تعلقها لا حدوث ذاتها » .

وأما الحديث فلأنه خبر واحد فتعارضه الآية وهى مقطوعة المتن مظنونه الدلالة . والحديث بالعكس فلكل رجحان من وجه فيتقاومان[2] .

---

(١) سورة مريم آية ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .
(٢) عضد الدين الإيجى المواقف جـ٧ صـ ٢٩١ .

قدم النفس وحدوثها :

القول بقدم النفس الإنسانية أو حدوثها للناس فيه قولان :

أحدهما يقول بالحدوث والآخر يقول بقدمها وثالث توقف فقالوا لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة .

وسنعرض لرأى كل من الفريقين وأدلتهم :

الأول : رأى من يقول بحدوث النفس ( أى أنها مخلوقة ) .

مذهب جمهور المسلمين على أنها محدثة مخلوقة وهذا معلوم بإضطرار من دين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم — كما يعلم بالإضطرار من دينهم أن العالم حادث ، وأن معاد الأبدان واقع وأن الله وحده هو الخالق وكل ما سواه مخلوق له وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون المفضلة على ذلك من غـــير اختلاف بينهم فى حدوثها وأنها مخلوقة[١] . ويقول صاحب المقاصد « إن النفوس سواء جعلناها مجردة أو مادية حادثة عندنا لكونها أثر القادر المختار »[٢] .

ويدلل على حدوث النفس ابن تيمية فيقول : « إذا كانت الإرادة يجب أن يقارنها مرادها كان ذلك دليلا على حدوث كل ما سوى الله تعالى ، بل إذا جاز مقارنتها أو لم يجد ذلك أو حتى إمتنعت المقارنة ، فيجب حدوث كل ما سوى الله على التقديرات الثلاثة وبهذا الطريق يعلم حدوث الأجسام وكذلك العقول والنفوس التى جعلتها المتفلسفة والمتكلمة جواهر قائمة بأنفسها وليست أجساما[٣] .

(١) السفارينى لوامع الأنوار البهية ج ٢ ص٣٤ .
(٢) شرح المقاصد ج ١ ص ٣٦ .
(٣) ابن تيمية منهاج السنة ج ١ ص ٢٧٤ .

وقد استدل القائلون بحدوث النفوس بما يلى :

١ — ما رواه الإمام أحمد فى مسنده ومسلم وأبو داود من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ورواه البخارى من حديث عائشة قول النبى ﷺ « الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

وقالوا: إن الجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة .

٢ — قوله تعالى « والله خالق كل شىء » فهذا لفظ عام لا تخصيص فيه لشىء ما فهو سبحانه الخالق وما سواه مخلوق ومعلوم قطعا أن الروح ليست هى الله ولا صفة من صفاته فوقوع الخلق عليها كأى مخلوق من مخلوقاته كالملائكة والجن . وبذلك تكون النفس حادثة .

٣ — ومنها قوله تعالى لسيدنا زكريا عليه السلام « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » وهذا الخطاب لبدنه وروحه ولا يكون الخطاب للبدن لأنه لا يتصور أن يفهم ويعقل وإنما الذى يفهم ويفعل ويخاطب إنما هو الروح فدل على أنها حادثة .

٤ — لو كانت النفس قديمة لكانت مستغنية بنفسها وصفاتها وكمالها . وهذا باطل يلزم عليه وجودها من ذاتها ووجود الشىء من ذاته باطل بالضرورة فاحتياجها إلى موجد يوجدها فثبت أنها حادثة . وقد قال تعالى مخاطبا الأرواح والأبدان « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد »[1] فالله هو الغنى والكل مفتقر إليه وهذه أمارة الحدوث .

وقوله تعالى « فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن

---

(١) سورة فاطر آية ١٥ .

أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين »[1] .

ومعنى ذلك أن الروح مقهورة مملوكة محاسبة مجزية لعملها فدل ذلك على حدوثها .

هذه بعض أدلة القـــائلين بحدوث النفس ومن أراد معرفة المزيد فليرجع إلى كتاب الروح لابن القيم فقد ذكر أدلة عدة على حدوثها ثم يقول عقب ذكر هذه الأدلة ماذكر من أحكام الروح وشأنها ومستقرها بعد الموت فهو دليل على أنها مخلوقة مربوبة مدبرة وليست بقديمة[2] .

فحدوث الروح وعدم قدمها مما أجمع عليه المسلمون ولم يشذ عن هذا إلا بعض الطوائف المغالية قال ابن تيمية « روح الآدمي مخلوقة مبتدعة باتفاق الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المرزوى الإمام المشهور الذى هو من أعلم زمانه بالإجماع والاختلاف وكذا أبو محمد ابن قتيبة وقال الإمام أبو اسحق بن شاقلا من أئمة علمائنا وهذا يعنى كون الروح مخلوقة مما لا يشك فيه من وفق للصواب أن الروح من الأشياء المخلوقة[3] .

رأى القائلين بقدم النفس :

ذهب قوم مخالفين إجماع جمهور المسلمين فى القول بأن النفس مخلوقة فقالوا بأن النفس قديمة واستدلوا على رأيهم بأدلة منها :

---

(١) سورة الواقعة الآيات ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦

(٢) ابن القيم الروح ص ٢٠٢

(٣) السفارينى لوامع الأنوار البهية ج٢ ص ٣٥

١ — قالوا إذا كانت النفس محدثة وهى أمر الله تعالى فكيف يكون أمر الله محدثاً .

٢ — أن الله أضافها إلى ذاته فى قوله تعالى « ونفخت فيه من روحى » فتكون قديمة كسائر الصفات التى تضاف إلى ذاته كعلمه وقدرته وسمعه وبصره وهذه الصفات قديمة فتكون الروح قديمة .

وهؤلاء القائلون بقدم الروح (النفس) قال عنهم ابن القيم أن القائلين صنف من الزنادقة وصنف من الروافض[١] فزعموا أن روح آدم غير مخلوقة كما تأول من قال « إن النور من الرب غير مخلوق »[٢] .

وزاد هؤلاء الروافض زاعمين أن روح آدم من نور الرب وهى غير مخلوقة انتقلت فى الوصى من بعده ثم هو فى كل نبى ووصى إلى أن صار فى على ثم فى الحسن والحسين ثم فى كل وصى وإمام فيه يعلم الإمام ولا يحتاج من أحد[٣] .

وذهب الجهم إلى القول بأن عيسى روح الله وكلمته إلا أن الكلمة مخلوقة .

ومثله فى ذلك مثل النصارى غير أن النصارى قالوا إن عيسى روح الله وكلمته من ذاته كما يقال هذه الخرقة من الثوب ومراد الجهم أنه يريد

---

(١) وهذا مايزعمه الروافض وهم غلاة الجعفرين أصحاب عبد الله ابن معاوية وهم يقولون إن الله نور وأن الأرواح تتناسخ من شخص إلى شخص وأن روح الله تناسخت كانت فى آدم ثم فى شيث ثم دارت فى الأنبياء إلى أن انتهت إلى على ثم فى أولاده الثلاثة حتى وصلت إلى عبد الله وحلت فيه . ففيه الألوهية والنبوة معاً وأنه يعلم الغيب .

(٢) ابن القيم الروح ص ١٩٦ (٣) المصدر السابق .

أن يدلل على أن القرآن مخلوق وليس بقديم فذهب إلى شطحته بالقول بأن الروح قديمة .

والجواب عن أدلتهم :

أولا : يجاب عن قولهم إن الروح أمر الله وأمره ليس بحادث .

يقال لهم : ليس المراد هنا بالأمر الطلب ولكن المراد به المأمور .

والمصدر يذكر ويراد به اسم المفعول وهذا شائع فى لغة العرب فى القرآن الكريم « أتى أمر الله » أى مأموره وقضاه الذى قدره وقوله تعالى « فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك » أى قدره وقضاه ومأموره الذى أمر به فى إهلاكهم . وقوله تعالى « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر » .

وكذلك الخلق يستعمل بمعنى المخلوق هذا على فرض أن المراد بالروح المذكورة فى الآية أنها الروح الإنسانية ولكن الجمهور من السلف على أنها ليست الروح الإنسانية يقول ابن القيم أكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسئول عنها فى الآية ليست أرواح بنى آدم بل هو الروح الذى أخبر الله عنه أن يقوم يوم القيامة مع الملائكة كما فى قوله تعالى « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا »[1] .

والحديث الثالث فى الصحيح عندما سأل اليهود الرسول ﷺ عن الروح فسكت الرسول وكان الوحى ينزل عليه فلما تجلى عنه قال : قال تعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » . ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحى وذلك هو الروح الذى عند الله لا يعلمها الناس . أما أرواح بنى آدم فليست من الغيب[2] .

---

(١) سورة النبأ آية ٣٨ (٢) ابن القيم الروح ص ٢٠٤

ثانياً : أما عن قولهم أن الله أضافها إلى ذاته فتكون قديمة :

فيجاب عنه : بأن مما يضاف إلى الله سبحانه قسمان :

صفات لا تقوم بنفسها بل تقوم بالذات كالعلم والقدرة والسمع والبصر والصفات الخبرية كالوجه واليد .. إلخ .

والثانى : ما يضاف إليه إضافة أعيان منفصلة كبيت الله ، وناقة الله وعبد الله فهذه كلها من إضافة المخلوق إلى خالقه .

فالبيوت كلها بيوت الله والنوق خلق الله ولكنه أضافها إليه إضافة محبة ورضا وتشريف وتكريم فاضافة الروح إلى الله من هذا القبيل ، فهى إضافة تخصيص يتميز بها المضاف عن غيره .

أما عن ماذهب إليه الجهم وكذا النصارى فى شأن عيسى عليه السلام يقال للجهم: أن هناك أوصافاً تجرى على عيسى ولا تجرى على القرآن فعيسى يأكل ويشرب ويتبول وينام وهذه صفات الحوادث المخلوقة وعيسى كان بكلمة « كن» ولم يكن هو « كن» الأمر « فكن » من الله قولا وليس كن مخلوقاً .

وأما النصارى: فزعمهم باطل لأن عيسى عليه السلام بالكلمة كان — وليس هو الكلمة وإنما الكلمة قول الله « وروح منه » أى بأمره كان الروح فيه ومثل هذا قوله تعالى : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه »[1] وتفسير روح الله إنما معناه بكلمة الله كما تقول عبد الله ورسول الله .

وبعد أن قدمنا الآراء المتباينة فى قدم الروح وحدوثها فإن الرأى

---

(١) سورة الجاثية آية ١٣

الراجح هو حدوثها وذلك لما يطرأ عليها من الأحوال المتغيرة من دخولها إلى البدن ثم خروجها — كما دلت النصوص الدينية — قال تعالى: « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى »[1] ، وقوله تعالى : « هل آتى على الإنسان حين من الدهر لم يك شيئاً مذكورا »[2] فلو لم تكن الروح حادثة لكانت شيئاً مذكوراً إذ الإنسان بروحه لا ببدنه — وقيل : —

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته
فأنت بالروح لا بالجسم إنسانا

وفى الصحيحين عن عبد الله بن قتادة الأنصارى عن أبيه قال سرينا مع رسول الله ﷺ فى سفر ذات ليلة فقلنا يا رسول الله — لو عرست بنا فقال إنى أخاف أن تناموا فمن يوقظنا للصلاة فقال بلال : أنا يارسول الله ، فعرس بالقوم فاضجعوا وأسند بلال إلى راحلته فغلبته عيناه فاستيقظ رسول الله ﷺ وقد طلى جانب الشمس فقال يا بلال أين ماقلت لنا ؟ فقال والذى بعثك بالحق ما ألقيت على نومة مثلها ، فقال رسول الله ﷺ : أن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء .

فهذه الروح هى المقبوضة وهى المتوفاة وهى التى تمسك وهى التى يصعد بها إلى السماء فتصلى عليها الملائكة أو تلعنها وهى التى تعذب وتنعم مع بدنها .

وهى التى تحصل لها الخشية والخوف أو الجحود والكفر فهى مخلوقة

(١) سورة الزمر آية ٤٢
(٢) سورة الدهر آية ١

من مخلوقات الله تعالى فهى حادثة موجودة بعد أن لم تكن ، إذ العالم كله بما فيه مخلوق لله سبحانه جاء فى صحيح البخارى من حديث عمران بن حصين أن أهل اليمن قالوا يارسول الله جئناك لنتفقه فى الدين ونسألك عن أول هذا الأمر فقال ﷺ كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شىء فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوى وجودها وجوده تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، لأنه لاقديم إلا الله — هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم .

هل تفنى الأرواح بفناء البدن أو لا ؟ :

فى فناء الأرواح من عدمه اختلفت الآراء إلى رأيين :

أحدهما : يرى أن الأرواح لا تفنى ولا يصيبها العدم .

واستدلوا على ذلك بأدلة منها :

الأول : قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم»[1] .

فأرواح الشهداء قد فارقت الأجساد وقد ذاقت الموت من قبل ، ولو كانت أرواحهم ميتة لانقطع عنها النعيم .

وقد أجاب ابن القيم فيقول الصواب أن موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها ، فإن أريد بموتها هـــذا القدر فهى ذائقة

---

(١) سورة آل عمران آية ١٦٩ ، ١٧٠

الموت وإن أريد أنها تعدم وتضمحل فتصير عدما محضا فإنها لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو عذاب[1] .

الثاني : من الأدلة على عدم فناء الأرواح قوله تعالى « لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى »[2] وهذا نص على أنهم لا يموتون إلا الموتة الأولى — فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان وليست موتة واحدة .

أما قول أهل النار « ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين »[3] . فإن معناه أنهم كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم ثم أحياهم ( بالخلق ) ثم أماتهم ثم يحييهم للنشور وليس في هذا إماتة للأرواح يدل على ذلك قوله تعالى: « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون »[4] . وربما يقال أن الخلائق تصعق عند نفخ الصور فلا يبقى مخلوق إلا ويصيبه الصعق إلا من شاء الله كما دل على ذلك قوله تعالى « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله »[5] .

فيجاب عن هذا : بأن الصعق ليس معناه موت الأرواح لأنه لو كان لكان موتة أخرى ولكنها صعقة فزع وخوف بدليل أن هناك من الارواح من تستثنى من هذا الفزع وهي أرواح الشهداء مثلا وكذا الأنبياء من باب أولى ويدل أيضاً حديث النبي ﷺ « أن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق إذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور » .

---

(١) السفاريني لوامع الأنوار البهية جـ٢ ص ٣٧
(٢) سورة الدخان آية ٥٦ (٣) سورة غافر آية ١١
(٤) سورة البقرة آية ٢٧ (٥) سورة الزمر آية ٦٨

وقد اختلفت الآراء حول تفسير هل صعق موسى أم لا ؟

وإننى أرجح ما ذهب إليه الإمام ابن القيم فيما ذهب إليه من أن الصعقة بوجه عام صعقة فزع لا صعقة موت وحينئذ فإن الآية لا تدل على موت الأرواح وكل من لم يمت فإنه يذوق الموت حينئذ أما من ذاقه أو لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية والله أعلم[1] .

وقد جاء فى الحديث « فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة يوم الطور » .

« فى صعقة الطور لم تحدث وفاة بل كانت تغشية قال تعالى « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك »[2] .

والإفاقة لا تكون عن موت وإلا كان الكلام فلما أحياه . فدل على أن الأرواح لا تموت عند هذه الصعقة وإنما معناه ماقدمنا من أن لم يذق الموت يذوقه والصعقة عن فزع .

ثانياً : أدلة القائلين بفناء الأرواح :

وقد ذهب هؤلاء إلى أن الأرواح تفنى وتعدم بموت الأبدان .

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى « كل نفس ذائقة الموت » . وقالوا أنها نفس وكل نفس تذوق الموت .

كما قالوا إن الأدلة قد دلت على أنه لا يبقى إلا الله وحده كما فى قوله

---

(١) السفارينى لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٤٠

(٢) سورة الأعراف آية ١٤٣

تعالى « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . وقوله تعالى « كل شيء هالك إلا وجهه » .

كما ذهبوا إلى القول بأنه إذا كانت الملائكة وهى أجسام روحانية تموت فأولى بذلك النفوس البشرية .

هذه أدلة القائلين بفناء الأرواح ونحن نختار الرأى القائل بعدم فنائها إذ الأرواح بعد مفارقتها للجسد تعود إليه مرة أخرى للعذاب أو النعيم فى القبر وقد ثبت بالأدلة أن العذاب للروح والبدن فى القبر وأن الإنسان يسأل فى قبره وتعود إليه روحه قال تعالى « النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب » ولا يعقل أن يكون العذاب للبدن فقط وإلا كان حطاما كالوقود يقدم للنار فيحول رماداً فيكون لامعنى للعذاب وفى الحديث النبوى فيما يرويه الشيخان فى الصحيحين واللفظ للبخارى عن ابن عباس قال « مر النبى ﷺ على قبرين فقال إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير أما هذا فكان لا يستتره من بوله وأما هذا فكان يمشى بالنميمة ، ثم دعا رسول الله بعسيب رطب فشقه باثنين فغرس على هذا واحد وعلى هذا واحدا ثم قال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » .

فالروح باقية إما فى نعيم أو فى عذاب إلى يوم القيامة ثم يكون النعيم الخالد أو العذاب الخالد .

والله أعلم ؟

# مشكلة تحضير الأرواح

ونشأت فى الغرب منذ أواخر القرن التاسع عشر بدعة يقال لها تحضير الأرواح ووجدت لها مدارسها التى تدعو إلى هذه البدعة ومن الغريب أن يتأثر المسلمون بهذه البدعة فوجدت على غرار هذه المدارس الغربية واهتم عدد من العلماء ومن بينهم أكثر من أستاذ جامعى وتألفت جمعية علم الروح فى مصر، وادعوا أن العلماء فى الغرب استطاعوا أن يزنوا الروح ويصوروها ويدفعوها إلى الكلام بأصواتها المباشرة المعروفة كما استطاعوا أن يجسدوها ويأخذوا لها البصمات التى تضاهى بصمات الشخص قبل انتقاله إلى عالم الروح [١].

ويقول د. رؤوف عبيد (أستاذ جامعى) أن الموت فى عرف علم الروح ليس نهاية الحياة بل مجرد انتقال من حال إلى حال. من عبودية الجسد إلى حالة انطلاق الروح. فيوم الميلاد يوم سجن الروح ويوم الموت يوم إطلاقها فهو خير من يوم الولادة والمحتضر كالنائم يحلم حلما جميلا يعقبه رد فعل عميق من الإحساس بنشوة الانطلاق إلى عالم الخلود والحرية [٢].

وفى مقال نشرته مجلة الهلال فى عددها الصادر فى نوفمبر ١٩٧١ م:

يقول الدكتور مصطفى الديوانى الطبيب (أستاذ جامعى):

إن للروحيين منطقاً لطيفاً يتلخص فى أن هناك جسداً أثيريا يفارق الجسد عند الوفاة ويتكون من مادة اسمها الاكتو بلازم توصل العلماء

(١) حقيقة الإنسان د. عيسى عبده، أحمد إسماعيل يحيى ص ٢١٤.
(٢) المصدر السابق نقلا عن كتاب الإنسان روح لا جسد .... د. رؤوف عبيد.

منهم إلى تحليلها ميكروسكوبياً وإلى تصويرها بالأشعة تحت الحمراء فوتوغرافيا وسينمائياً ويبلغ وزنها بضع عشرات من الجرامات. وهذه المادة هى التى تنبثق من جسوم الوسطاء لتصول وتجول مخترقة الحجب متعدية الأميال فى ثوان دقيقة فتصل إلى أماكن قاصية وهم يفسرون إسراء النبى ﷺ بأنه طرح روحى لا جسدى ويصفون محمداً ﷺ بأنه من أعظم الروحيين الذين وجدوا على ظهر البسيطة.

ويمضى أصحاب هذه المزاعم بانكار معجزة المسيح عليه السلام بإحياء الموتى بإذن الله.

فيذهب مولدن وكار يختون فى كتابهما الطرح الروحى إلى القول «أن معجزات يسوع عن إحياء الموتى لا يمكن تفسيرها إلا إذا افترضنا أن الذين بعثوا إلى الحياة لم يكونوا موتى بل كانوا فى حالة غيبوبة شديدة وقويا لذلك بمعجزة المسيح فى إحياء صديقه اليعازر فان يسوع بوصفه وسيطاً روحيا من الدرجة الأولى يرى غير المنظور بجلاء بصرى أدرك أن اليعازر لم يكن ميتا فقال يسوع أن اليعازر لم يمت وسأذهب إليه وأحاول إيقاظه ثم ذهب إلى المقبرة وأمر بإزالة الحجارة قائلا قم يا اليعازر فهب الأخير من نومه وتقدم إليه يسوع».

وكذا نفس الشىء مع بنت الحاكم الميتة تقدم منها يسوع وقال إن الفتاة ليست ميتة. ماذا تكون إذن؟ وأمسك بيد الفتاة وصاح فيها قائلا: قومى يا فتاة قومى. فقامت الفتاة لتوها ومشت إلى خارج الغرفة.

ونحن المسلمين ننكر عليهم قولهم هذا ونقول إن عيسى عليه السلام كان يحيى الموتى بإذن الله. والموت عبارة عن مفارقة الروح الجسد

الذى كانت به حياته الحسية وهو طارىء عليها بعد ما كانا موصوفين بالاجتماع الذى هو علة الحياة .

وقال بعض العلماء الموت عبارة عن الانتقال من منزل الدنيا إلى منزل الآخـــرة .

ولو كان كما يذكرون لم يكن معجزة دالة على صدق نبوة عيسى عليه السلام قال تعالى : « وأحيي الموتى بإذن الله »[1].

وفى الوقت ذاته الذى نذهب فيه إلى أن المعجزة إحياء الموتى دالة على صدق عيسى عليه السلام فى دعواه النبوة فاننا ننبه على الخطر من إثارة الشبهات حول القضية المثارة وهى تحضير الأرواح عن طريق وسيط خبير بمعرفة كيفية استدعائها وهذا الخبير فى زعمهم يقوم بالتمهيد بعزف قطعة موسيقية هذا إذا كانت الروح المحضرة أوروبية أو غـــير مسلمة أما الروحانيون فى البلاد الإسلامية فيكون تحضير الأرواح عندهم عن طريق عزف الموسيقى أو ترتيل القرآن .

فانظر كيف ساوى هؤلاء القوم المارقون بين الموسيقى وترتيل القرآن الكريم ثم يستدلون على ادعائهم بأن القرآن الكريم خلا من النص القطعى بشأن الدلالة على النفس والروح وترك باب الاجتهاد مفتوحا ولذلك ذهبوا إلى فريتهم هذه .

وقد زعموا أن للاجتهاد شروطا من أهمها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وإننا فى هذا المجال ننبه على الخطر الداهم الذى يحيق بالأمة الإسلامية ويريد أن يفسد عقول أبنائها تحت دعوى العلم والتقدم والمدنية والعلم من

---

(١) سورة آل عمران آية ٤٩

ذلك برىء بل أن ذلك من تخطيط الماسونية العالمية والمتغلغلة فى معظم دول العالم ، والمسلم اليقظ ينكر هذه الترهات وذلك لما يأتى :

أولا : لتعارضها مع النصوص الدينية القاطعة والدالة على عدم رجوع الأرواح على يد البشر ، لأنها من أمر الله تعالى .

ثانياً : أن أرواح الموتى لا سلطة للبشر عليها فيتصرف فيها بالحضور أو الانصراف إذ الروح بعد مفارقتها للبدن يصعد بها ملكان إلى السماء فيؤمران فينطلقا بها حتى قيام الساعة ، ولا سلطة لأحد من البشر فى استدعائها — اللهم إلا إذا كان هناك اتصال بين الملكين وبين الدجالين القائلين بقدرتهم على استدعاء الأرواح وذلك غير معقول .

ثالثاً : أن الكافرين قد طلبوا الإتيان بأرواح آبائهم عندما تليت عليهم آيات البعث فبين الله أن ذلك أمراً لن يتحقق لهم وحتى ولو كان على يد النبي فكيف إذا كان كافراً جاحداً ، قال تعالى « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[1] .

رابعاً : ما ورد من آيات وأحاديث تثبت عذاب القبر ونعيمه مما يدل أن الأرواح ليست فى حل من أمرها فتعود بإرادتها ولا حرية للملائكة الموكلة بها فتتركها تبتعد عن أفراحها أو أتراحها لتحضر جلسات التحضير المزعومة .

خامساً : يبقى أن نسأل هؤلاء الزاعمين بإمكانهم إحضار الأرواح

---

(١) سورة الجاثية آية ٢٦

البشرية نقول لهم : هل سألتم أحد هذه الأرواح المستحضرة ماذا تفعل الآن ؟ وأين هي ؟ وما مصيرها ؟ وبماذا أجابتكم .

إن القائم بهذا العمل ليس مختصاً بتحضير روح معينة فقد تكون روح لبوذي وأخرى لمسيحي وثالثة ليهودي ورابعة لمسلم مثلا فأي الأرواح من هؤلاء قالت أنها في نعيم وأن إيمانها في الحياة الدنيا هو الصحيح والأخرى باطلة ولذلك تعذب في الجحيم وهل تستطيعون إحضار أرواح آل فرعون الذين قال الله في شأنهم « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب »[1] ، حتى يخبرونا عن كيفية عرضهم على النار .

أن ما يدعيه هؤلاء لهو خلط بين دعواهم تحضير الأرواح وبين ما يصدر عن الجن ، ومن الكتاب في هذا الزمن من ينكر الجن ويتصدي لتأويل ما ورد بشأنه في القرآن الكريم .

أن ما يحدث على يد هؤلاء إنما هي لقرين الإنسان الجنى فقد جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية أن لكل إنسان قرينان أحدهما ملك والآخر جني مع الإنسان طوال حياته والذي يحضر يتكلم مع هؤلاء هو القرين الجني لأنه خبيث أما الملك فلا يعقل حضوره لأنه طيب .

ففي الحديث النبوي عن النبي ﷺ أنه قال للشيطان لمة[2] بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى ومن

---

(١) سورة غافر آية ٤٦

(٢) معنى اللمة هي الخطرة الواحدة من الألمام وهو القريب من الشيء والدنو منه .

وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا »[١] .

وقد حكى القرآن الكريم مشهداً من مشاهد يوم القيامة بين فيه كيف يتبرأ القرين الشيطان من الإنسان وبأنه كان سبباً فى طغيانه قال تعالى « وقال قرينه هذا ما لدى عتيد . ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه فى العذاب الشديد . قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد . قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد »[٢] .

فالروح المستحضرة التى تعطى بعض المعلومات الصحيحة والتى حدثت فى الدنيا ليست روح الميت ولا الملك القرين وإنما هى روح الجنى القرين وقد أعطى الله سبحانه للجن قدرة على التشكل بصور مختلفة وعلى القيام بالأعمال الضخمة والتى يعجز عنها الإنسان وإن كان الكاذب الفاجر منهم من أخبث خلق الله ولذلك يقوم بتدليس وادعاء أخبار عن قرينه وفى زعمه أنها روح الميت .

يقول الدكتور محمود ناظم نسيمى لقد اعترف أمامى أحد محضرى الأرواح فى دمشق وقال إن الذين يحضرون هم قرناء الموتى لا أرواح الموتى بالذات[٣] .

وأخيراً نقول وننبه على الخطر حول تصديق هذه الترهات أن ذلك

---

(١) رواه الترمذى وقال حسن غريب ورواه النسائى وأخرجه ابن حبان فى صحيحه كما فى الإيمان بالملائكة .

(٢) سورة ق الآيات من ٢٣ إلى ٢٨

(٣) بحث حول الروحية الحديثة د . محمود ناظم .

العمل يستهدف الأمة الإسلامية فى إبعادها عن دينها وبث الخرافات والكهانة والعودة إلى ما كانت عليه حياة العرب فى الجاهلية من اعتقادهم فى الكهانة والعرافة وغيرها ، أما وقد هدانا الله إلى الإسلام فيجب أن لا تنطلى علينا هذه الحيل التى هى نوع من الكهانة وقد وضحها الإسلام وحذر منها والتصديق بها .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت سئل رسول الله ﷺ عن الكهانة فقال ليسوا بشىء قالوا يارسول الله أنهم يحدثونا أحياناً بالشىء فيكون حقاً فقال رسول الله ﷺ تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقذفها فى أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة[1] .

وعن صفية بنت أبى عبيد رحمها الله عن بعض أزواج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال من أتى عرافاً فسأله فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً[2] .

وأخيراً نقول إن مجالس تحضير الأرواح نوع من الدجل وأن الذى يحضرها إنما هو الجن وأن ما تقدمه خلط من الكذب والصدق فلا يجوز تصديقها وهى فى نفس الوقت سلاح ضد أنصار المادية المنكرين لعالم الغيب وحجة قائمة عليهم ويمكن أن تكون سلاحاً جديداً يضاف إلى رصيد الإيمان بالغيب .

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

(٢) أخرجه مسلم فى السلام باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان برقم ٢٢٣٠

# الفصل الثالث

## البرزخ

### سؤال القبر : عذابه ونعيمه :

القبر هو أول منازل الآخرة وسمى بالقبر باعتبار الأعم والأغلب . إذ القبر هو موضع دفن الموتى وفى التنزيل « ثم أماته فأقبره »[1] أى جعل له قبراً يوارى فيه إكراماً له ولم يجعل على وجه الأرض تأكله الطير والعوافى .

ويسمى أيضاً بالبرزخ وهو الواقع بين شيئين من وقت الموت إلى القيامة من مات دخله وفى التنزيل قال تعالى « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون »[2] .

وهو العالم الذى ينتقل فيه الإنسان بعد الموت ويبقى فيه إلى يوم البعث ويسمى أيضاً بعالم الصور لأن أرواح الموتى تجتمع فيه ، قال تعالى « ويوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجاً »[3] .

ولكن تسميته بعالم القبر هو الأغلب لأن جميع الأموات يصيرون إلى عالم البرزخ قبروا أو لم يقبروا بعد موتهم يصيرون فى عالم آخر وهو عالم البرزخ . من يعبر الامتحان فى هذا العالم فما بعده أيسر منه فمن نجا منه فقد نجا من أمر عظيم وكان سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا

---

(١) سورة عبس آية ٢١ (٢) سورة النبأ آية ١٨
(٣) سورة المؤمنون آية ١٠٠

وقف على القبر بكى حتى يبل لحيته فقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتذكر القبر فتبكى ؟ فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول : القبر أول منزل من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه وقال ﷺ ما رأيت منظر قط إلا والقبر أفظع منه[١] .

هذا وعذاب القبر ونعيمه مما أجمع عليه المسلمون ولم يخالف فيه إلا بعض المعتزلة ووافقهم الخوارج .

يقول ابن حزم : ذهب ضرار بن عمرو الغطفانى أحد شيوخ المعتزلة إلى إنكار عذاب القبر وهو قول من لقينا من الخوارج وذهب أهل السنة وبشر بن المعتمد والجبائى وسائر المعتزلة إلى القول به ، وبه نقول لصحة الآثار عن رسول الله ﷺ[٢] .

ويقول الإيجى ولم يخالف فى ذلك إلا فريق من متأخرى المعتزلة والروافض[٣] .

الدليل على ثبوت عذاب القبر ونعيمه :

عذاب القبر ونعيمه من الأمور التى دل عليها العقل والنقل .

أما الدليل العقلى : فانه من الأمور المقدورة لله تعالى وكل مقدور لله ممكن وقوعه فعذاب القبر ونعيمه ممكن وقوعه .

أما الدليل النقلى : قال تعالى « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا والآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء »[٤] . أما

---

(١) رواه الترمذى وقال حسن غريب
(٢) الفصل لابن حزم صـ ٨٨ جـ ٤
(٣) الإيجى شرح المواقف جـ ٨ صـ ٣١٧
(٤) سورة إبراهيم آية ٢٧

تثبيتهم فى الدنيا مما يعتريهم من الوساوس والشبهات الشيطانية وحفظهم من الزيغ والضلال أما فى الآخرة فحين يسألون فى قبورهم كما جاء فى الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « المسلم إذا سئل فى القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فذلك قوله تعالى « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »

وعن ابن عباس يسألون فى قبورهم عن الشهادة وقال عكرمة يسألون عن الإيمان بمحمد وأمر التوحيد[1] .

وفى الحديث فيما رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وأنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا — آتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل يعنى « محمداً ﷺ فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة قال النبى ﷺ فيراهما جميعا[2] .

وفى رواية لمسلم قال قتادة وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ويملأ عليه خضرا إلى يوم يبعثون . وقال ﷺ : وأما الكافر والمنافق وفى رواية وأما الكافر والمرتاب فيقول لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس فيه فيقال لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين .

---

(١) السفارينى لوامع الأنوار البهية جـ٢ صـ٨

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى كتاب الجنائز باب الميت يسمع خفق النعال جـ٣ صـ٤٤٩ ط مصطفى الحلبى .

هذا والآثار التى وردت فى ثبوت عذاب القبر ونعيمه وسؤال الميت فى قبره مما استفاضت به كتب السنة النبوية .

اللغة التى يسأل بها الميت فى قبره :

يسأل الميت فى قبره بلغته التى مات وهو يتكلم بها فى حياته .

وقد خالف فى هذا البلقينى فيما نقله عنه السيوطى فى أن السؤال فى القبر يكون بالسريانية ... وهذا لا دليل عليه والأصح هو الرأى الأول أما ما ذهب إليه البلقينى فيقول عنه السيوطى لم أقف لذلك على مستند[1] .

أوصاف ملكا العذاب :

ورد فى تسمية الملكان اللذان يسألان الميت بأنهما فتانا القبر وذلك لأن فى سؤالهما انتهارا وفى خلقهما صعوبة .

ويقول القرطبى وأنهما سميا منكراً ونكيرا فهما لايشبهان سائر المخلوقات من الأنس والملائكة أو الحيوانات أو الطيور بل هما جنس بديع ليس فى خلقتهما أنس للناظرين[2] .

ومنكر ونكير هما اسما للملكين وذهب الشافعية إلى أن اسم ملكى المؤمن مبشر وبشير وليس عليه استدلال لأن الوارد منكر ونكير .

وأنكرت المعتزلة تسمية الملكين بمنكر ونكير وقالوا إنما المنكر ما يبدو من تلجلجه إذا سئل والنكير تقريع الملكين للميت .

أما أوصافهما فقد روى فى كتب السنة أن منكر ونكير ملكان أسودان أزرقان أعينهما كقدور النحاس وفى رواية كالبرق أصواتهما

---

(١) السفارينى لوامع الأنوار البهية جـ٢ ص١١
(٢) التذكرة القرطبى ص ١٥٠ والسفارينى جـ٢ ص٨

كالرعد إذا تكلما يخرج من أفواههما كالنار بيد كل واحد منهما مطراق من حديد لو ضرب به الجبال لذابت وفى رواية بيد أحدهما مرزبة لو اجتمع عليه أهل منى ما أقلوها[١] .

وروى الطبرانى فى أوصافهما أعينهما مثل قدور وأنيابهما مثل صياصي البقر — أى قرونهما — وأصواتهما مثل الرعد القاصف[٢] .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له كيف بك يا عمر إذا كنت من الأرض فى أربعة أذرع فى ذراعين ورأيت منكراً ونكيرا قلت يا رسول الله وما منكر ونكير ؟ قال : فتانا القبر يبحثان الأرض بأنيابهما ويطآن أشعارهما . أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف ومعهما مرزبة لو اجتمع عليها أهل منى لم يطيقوا رفعها هى أيسر عليهما من عصاى هذه : قلت يارسول الله وأنا على حالى هذه ؟ قال نعم فقلت إذا أكفيكهما . وفى رواية فامتحناك فان التويت ضرباك بها ضربة صرت رمادا[٣] .

وهما يسألان المؤمن والكافر أما المؤمن فيترفقان به وينتهران الكافر والمنافق وقيل أنهما مبشر وبشير بالنسبة للمؤمن ومنكر ونكير للكافر وقيل إن معهما ملك يقال له ناكور .

والأصح فى نظرى اطلاق منكر ونكير عليهما سواء كان الميت مؤمناً أم كافراً لما ورد فى حديث عمر بن الخطاب السابق ذكره .

---

(١) شرح البيجورى على الجوهرة ص٥٧، ٦٨

(٢) السفارينى لوامع الأنوار البهية ج٢ ص٧

(٣) المصدر السابق

وما رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ إذا أقبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير فيقولان ماكنت تقول فى هذا الرجل فيقول ماكان يقول فيه هو عبد الله ورسوله ... الحديث[١] .

## هل يسأل الميت الملكان أو أحدهما :

ما مر من أحاديث يثبت أن الذى يأتى إلى الميت بقصد السؤال ملكان .

وقد وردت أحاديث أخرى صحيحة تفيد أن الذى يأتيه ملك واحد، منها ما رواه أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال شهدنا جنازة مع رسول الله ﷺ فقال « يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها فإذا الإنسان دفن تفرق عنه أصحابه جاءه ملك فى يده مطراق فأقعده قال ما تقول فى هذا الرجل ... الحديث[٢] .

وروى أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال إن المؤمن إذا وضع فى قبره أتاه ملك فيقول له ماكنت تعبد فإن هداه الله قال كنت أعبد الله فيقال له ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول هو عبد الله ورسوله ... الحديث[٣] .

وللتوفيق بين روايات الأحاديث من حيث السائل الملكين أو أحدهما يقول القرطبى لا تعارض فى ذلك بالنسبة إلى الأشخاص فرب شخص

---

(١) سنن الترمذى كتاب الجنائز باب ماجاء فى عذاب القبر ج٢ ص٣٧٤ ط مصطفى الحلبى .

(٢) مسند الإمام أحمد ج ٣ ص٤٢٣ .

(٣) رواه أبو داود .

يأتيه ملكان فيسألانه معاً عند انصراف الناس ليكون أهول فى حقه وأشد بحسب ما اقترف من الآثام وآخر يأتيه قبل انصراف الناس تخفيفاً عليه لحصول أنسه بهم وآخر يأتيه ملك واحد فيكون أخف عليه .

ويحتمل أن يأتيا الأثنان معاً ويكون السائل أحدهما والآخر يحمل المطرقة فهما قد اشتركا فى المجىء .

وذهب بعض العلماء ومنهم السيوطى إلى أن الميت يأتيه أربعة من الملائكة منكر ونكير وناكور ورومان[١] . وقال البيجورى ما ذكر من أنه يجىء قبلهما ملك يقال له رومان لحديث موضوع وقيل فيه لين[٢].

الحكمة من سؤال القبر :

لا ينكر مؤمن أن الله لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور »[٣] . فسؤال القبر كما قال البيجورى لإظهار ما كتمه العباد فى الدنيا من إيمان أو كفر أو طاعة أو عصيان — فأما المؤمنون الطائعون يباهى الله بهم الملائكة وغيرهم يفتضحون عند الملائكة[٤] .

سؤال القبر هل هو خاص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها ؟ :

الآراء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال :

(١) السفارينى ج ٢ ص ٨
(٢) شرح البيجورى على الجوهرة ص ٦٨
(٣) سورة غافر آية ١٩
(٤) المصدر السابق ص ٦٩

الرأى الأول: بأنه خاص بأمة محمد ﷺ وإليه ذهب الحكيم الترمذى وقاله ابن عبد البر بأن السؤال فى القبر للمؤمن أو منافق منسوب إلى الإسلام بظاهر الشهادة ووافقه السيوطى على ذلك(١) .

واستدل القائلون بخصوصية السؤال لأمة محمد ﷺ :

١ — بأن الأمم السابقة كانت الرسل تأتيهم بالرسالة فإذا أبوا كفت الرسل واعتزلوهم وعوجلوا بالعذاب فلما بعث محمد ﷺ أمسك العذاب وأعطى السيف حتى يدخل فى دين الله فمنهم من دخل طواعية ومنهم من دخل مهابة السيف ولم يرسخ الإيمان فى قلبه ومن هنا ظهر النفاق وكان بين المؤمنين فى ستر فلما ماتوا قيض الله لهم فتانى القبر ليستخرج أمرهما بالسؤال .

كما استدلوا بحديث روى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها(٢) ، وفى رواية تسأل ومنها قوله ﷺ أوحى إلى أنكم لتفتنون فى قبوركم(٣) ، وقول الملكين للميت ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول المؤمن أشهد أنه عبد الله ورسوله — فهذا دليل اختصاص لهذه الأمة(٤) .

---

(١) راجع السفارينى لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ١٠

(٢) رواه مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه جـ٥ صـ٧٢

(٣) رواه مسلم كتاب المساجد باب التعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم جـ ٢ صـ ٢٤٢

(٣) راجع الروح لابن القيم صـ ٨٧

ويجاب عن هذا :

أنه من المعلوم لدى عامة أهل العلم بعد نزول التوراة لم يهلك الله تعالى مكذبى الرسل بعذاب سماوى كما أهلك قوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود وقوم لوط وغيرهم بل أمر المؤمنين بجهاد الكافرين كما أمر بنى إسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة وكذا داود وسليمان وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام .

أما ما استدلوا به من أحاديث فليس دليلا على أن الأمم الأخرى لا تسأل بل أن ما ورد من أحاديث تفيد أن الكافر يسأل فى قبره وأنه يقول لا أدرى لا أدرى فيصبان الملكان عليه العذاب صبا وقد أخبر الله بسؤال الكافرين ، قال تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون »[1] فإذا سئلوا يوم القيامة فكيف لا يسألون فى قبورهم وقوله تعالى « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين »[2] قيل نزلت فى عذاب القبر . كما يقال لهم إذا لم يسأل الكافرين قبل الإسلام والمشركين الذين عاصروا الرسول ﷺ ولم يؤمنوا أفلا يكون تلك ميزة لهم وقد ورد أن سؤال القبر من الفتن التى يتعرض لها الإنسان فى قبره وهذا لا يوافق عدل الله بين عباده .

والحق أن السؤال عام لما له من أدلة قوية دالة عليه .

---

(١) سورة الحجر آية ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) سورة إبراهيم آية ٢٧ .

الرأى الثانى :

أن السؤال عام لأمة محمد ﷺ وغيرهم من الأمم .

واستدلوا على رأيهم بقوله تعالى « إن الأبرار لفى نعيم وأن الفجار لفى جحيم »[١] وقوله تعالى « كلا إن كتاب الفجار لفى سجين »[٢] .

وأن الفاجر فى عرف الكتاب والسنة يتناول الكافر قطعاً وقد ثبت فى الأحاديث أن الكافر يعذب فى قبره ولا يكون عذاب إلا بعد سؤال . كما نقول نحن فى دنيانا « لا عقوبة إلا بتجريم » فقد ورد أن الكافر إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزل إليه ملائكة شداد وغضاب معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران فيحتشونه فتنزع روحه كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل . فإذا خرجت لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء[٣] .

الرأى الثالث :

لفريق توقف فى المسألة ولم يبدى رأياً صريحاً فيها .

والرأى الراجح :

هو القائل بعموم السؤال لأمة محمد ولغيرها وقد وردت الأحاديث والآيات القرآنية التى تؤيد هذا الرأى منها قوله تعالى « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب » فقوله غدوا وعشيا يدل على عذاب القبر إذ يوم القيامة ليس له غدو وعشى .

---

(١) سورة الانفطار آية ١٣ ، ١٤

(٢) سورة المطففين آية ٧ (٣) الروح لابن القيم ص ١١٨

ويقول ابن القيم والظاهر أن كل نبي مع أمته كذلك يعني يسئل عنه كنبينا ﷺ مع أمته — وأنهم يعذبون في قبورهم بعد السؤال لهم وإقامة الحجة عليهم كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة[١] .

ضغطة القبر :

يقصد بضغطة القبر — التقاء جانبيه على جسد الميت .

سبب هذه الضغطة :

قال الحكيم الترمذي : أنه ما من أحد إلا وقد ألم بخطيئة ما . وإن كان صالحا فجاءت هذه الضغطة جزاء لها ثم تدركه الرحمة[٢] .

الدليل على حدوث هذه الضغطة :

قد ورد أن هذه الضغطة لا ينجو منها إنسان صالحا كان أم طالحا مؤمناً أم كافراً مات في البر أو البحر أو حتى تفرق في حواصل الطير — لما روى عن النبي ﷺ أنه قال للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها لنجا سعد بن معاذ[٣] وروى النسائي أن رسول الله ﷺ قال : هذا الذي تحرك له عرش الرحمن — يعني سعد بن معاذ — وفتحت له أبواب السماء وشهد له سبعون ألفاً من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه .

ولم تذكر الروايات أن أحد نجا منها إلا ما ذكر من استثناء رسول

---

(١) السفاريني لوامع الأنوار البهية جـ ٢ صـ ١٠

(٢) السفاريني لوامع الأنوار البهية جـ ٢ صـ ١٦

(٣) رواه البيهقي في سننه

الله ﷺ لفاطمة بنت أسد[١] أم الإمام علي كرم الله وجهه وتختلف ضمة القبر باختلاف أحوال الناس فى الإيمان والكفر .

فالمسلم يضمه القبر ضمة خفيفة كالأم التى غاب عنها ولدها ثم يعقبها إنفراج وسعة .

أما الكافر والمنافق فان القبر يضغطه حتى تختلف أضلاعه بعنف وشحطاً لربه عليه — وهى مستمرة بالنسبة لهما — وفيما أخرجه البيهقى وابن مندة وابن النجار عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت يا رسول الله إنك منذ حدثتنى بصوت منكر ونكير وضغطة القبر ليس ينفعنى شىء قال : ياعائشة إن أصوات منكر ونكير فى سماع المؤمن كالثمد العين وإن ضغطه القبر على المؤمن كالأم الشفيقة يشكو إليها إبنها الصداع فتغمر رأسه غمراً رفيقا ولكن يا عائشة ويل للشاكين فى الله كيف يضغطون فى قبورهم كضغطة الصخرة على البيضة[٢] . اهـ .

الناجون من عذاب القبر :

تواترت الأخبار الصادقة عن المعصوم ﷺ عن أن بعض المؤمنين لا تنالهم فتنة القبر وهم فى مأمن منها وذلك ببعدهم عن الأسباب التى من أجلها يعذب الإنسان فى قبره وكما ذكر الرسول ﷺ أصنافهم كما رآهم فى البرزخ ليلة الإسراء والمعراج وأما الذين لا يفتنون فى قبورهم فهم :

---

(١) رواه السفارينى — أنها ضمت رسول الله ﷺ فلما ماتت سكب عليها الماء الذى فيه كافور وألبسها قميصه واضطجع فى قبرها وقال الحمد لله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت اللهم أغفر لأمى فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها . وكانت وفاتها بالمدينة ودفنت شمال قبة عثمان فى موضع يقال له الحلم .

(٢) السفارينى لوامع الأنوار البهية ج ٢ ص ١٧ .

١ — المرابط فى سبيـــل الله : وهو الملازم القائم على حماية ثغور المسلمين من تربص الأعداء بهم فارسا كان أو راجلا وهو الشخص الذى يشخص إلى الثغور الإسلامية فيرابط مدة ما أما سكان الثغور دائما بأهلهم الذين يعمرون ويكتسبون هناك فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرابطين[١] .

والأحاديث قد وردت على أن المرابط لا يفتن فى قبره ومنها :

ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : رباط يوم فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه وإن مات أجرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان . أى من فتنة القبر ومحنته وعذابه وشدته .

وفى سنن الترمذى من حديث فضالة بن عبيد رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال ، كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطا فى سبيل الله فانه يجرى عليه عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر .

٢ — الشهيد : وهو الذى استشهد فى سبيل الله فى غير خـــيلاء ولا رياء ولا سمعة وقد جاء فى الخبر الصحيح أن الشهداء لا يفتنون فى قبورهم .

روى النسائى أن رجلا سأل رسول الله ﷺ قال : يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد ؟ قال : كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة[٢] .

---

(١) القرطبى — التذكرة ص ١٦٨ .

(٢) سنن النسائى كتاب الجنائز باب الشهيد ج ٤ ص ٨١ ط مصطفى الحلبى .

هذا وقد يذكر القرآن الكريم الشهداء معطوفين على الصديقين فى قوله تعالى «فأولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا»[١] فهل يفتن الصديق فى قبره أم لا ؟ وهو مقدم على الشهيد فى التنزيل ومقامه أجل وأخطر وأعظم شأنا .

الحق أن الخبر قد ورد بالشهداء فتكون خاصية لهم دون الصديقين وقد ورد ما يفيد أن سيدنا عمر رضى الله عنه وهو رأس الصديقين يسأل فى قبره وقد سبق الحديث فى قول النبى ﷺ كيف بك يا عمر إذا أتاك الملكان .. الحديث فدل هذا على أن الصديق يسأل فى قبره وأن هذه خاصية للشهداء بأنهم لا يفتنون ؛ يقول ابن القيم عن أحمد بن حنبل — قال لا يلزم من هذه الخاصية التى اختص بها الشهيد أن يشاركه الصديق فى حكمها وإن كان أعلى منه فخواص الشهداء قد تنتفى عمن هو أفضل منهم وإن كان أعلى منه درجة[٢] .

٣ — المواظب على قراءة سورة الملك كل ليلة :

لما رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ضرب رجل من أصحاب رسول الله ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فاذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فقال ﷺ : هى المانعة هى المنجية من عذاب القبر[٣] .

وروى عنه ﷺ : أن من قرأها كل ليلة جاءت تجادل عن صاحبها وقال عليه الصلاة والسلام لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى .

---

(١) سورة النساء آية ٦٩ .
(٢) ابن القيم — الروح ص ١١٣ .
(٣) سنن الترمذى كتاب فضائل القرآن جـ ٥ ص ١٦٤ .

٤ — لا يفتن فى قبره من قرأ « قل هو الله أحد » فى مرضه الذى يموت فيه لما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : من قرأ قل هو الله أحد فى مرضه الذى يموت فيه لم يفتن فى قبره وأمن من ضغطة القبر وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها حتى تجيزه من الصراط الى الجنة[1] .

ومنه أيضاً المكثر من قول « لا إله إلا الله » كلمة التوحيد .

لما رواه الطبرانى والبيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا منشرهم وكأنى أنظر الى أهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن .

وفى رواية ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا عند القبر .

٥ — المبطون الذى يموت من داء فى بطنه — يموت وعقله لا يزال حاضراً عارفا بالله تعالى .

جاء فى سنن الترمذى عن جامع بن شداد قال : سمعت عبد الله بن يشكر يقول وكنت جالسا مع سليمان بن صرد وخالد بن عرفطة . فذكروا أن رجلا مات ببطنه فاذا هما يشتهيا أن يكونا شهيدى جنازته — فقال أحدهما للآخر ألم يقل رسول الله ﷺ : من قتله بطنه لم يعذب فى قبره[2] .

٦ — من مات يوم الجمعة أو ليلتها .

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أبى العلاء يزيد بن عبد الله ابن الشخير عن أبيه عن رسول الله ﷺ والحلية ج ٢ ص ٢١٣ نشر دار الكتاب العربى بيروت

(٢) سنن الترمذى كتاب الجنائز باب ما جاء فى الشهداء من هم ج ٣ ص ٢٦٩

روى الترمذى عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ قال : من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقاه الله فتنة القبر(١) .

## هل يفتن الأطفال فى قبورهم أولا ؟

اختلف فى فتنة من مات دون البلوغ على رأيين :

الأول : يرى أن الأطفال يفتنون فى قبورهم واستدلوا :

بحديث رواه مالك فى الموطأ عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه ﷺ صلى جنازة صبى فسمع من دعائه : اللهم قه عذاب القبر .

وأن عائشة رضى الله عنها مرت عليها جنازة صبى فبكت فقيل لها ما يبكيك يا أم المؤمنين ؟ فقالت : هذا الصبى بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر .

وقالوا إن الأطفال يكمل الله عقولهم حتى يعرفوا عما يسألون عنه .

ونسب هذا الرأى الأشعرى الى أهل السنة والحديث وقال أنهم يرون أن الأطفال يمتحنون فى الآخرة فلا يمنع امتحانهم فى القبور(٢) .

الثانى : من الآراء التى خالفت ما ذهب إليه الفريق الأول :

حيث ذهبوا إلى أن الأطفال لا يمتحنون فى قبورهم .

وقالوا إن السؤال يكون لمن عقل الرسول والمرسل فيسأل هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا ؟

والصبى لا يميز بوجه ما ، فكيف يقال له كيف تقول فى الرجل الذى بعث فيكم ؟ .

---

(١) سنن الترمذى كتاب الجنائز باب ما جاء فيمن مات يوم الجمعة جـ ٣ ص ٣٧٧

(٢) ابن القيم — الروح ص ١٢٢

وأجابوا عن أدلة الفريق الأول بما يلي :

١ — أما قولهم إن الله يكمل عقولهم فى القبر : فان السؤال يكون عما لم يتمكنوا من معرفته فلا فائدة منه .

أما أنهم يسألون فى الآخرة فان ذلك يحدث بعد أن يرسل الله اليهم رسولا فمن أطاعه نجا ومن عصاه دخل النار فذلك امتحان يأمرهم فيه بأمر يفعلونه .

وقالوا عن حديث أبى هريرة رضى الله عنه :

ليس المراد به عذاب القبر عن ترك طاعة أو فعل معصية فان الله لا يعذب أحداً على ذنب لم يفعله .

وإنما المراد ما يحصل من الألم بسبب ما يحدث من بكاء أهله عليه أى يتألم ويتضجر منه .

وبهذا يكون معنى قوله ﷺ : إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه . أى يتألم ويتوجع لا أنه يعاقب فلا تزر وازرة وزر أخرى .

وكقول النبى ﷺ : السفر قطعة من العذاب .

والعذاب أعم من العقوبة .

والأفضل أن يقال إن الله سبحانه وتعالى رحمته وسعت كل شيء والأطفال لا تكليف عليهم فمن رحمته أن لا يفتنون فى قبورهم وأن الصلاة عليهم أو الدعاء لهم مما ينتابهم من حسرات وآلام وهموم مما يحدث من جزع أهلهم عليهم والله أعلم .

المذاهب فى سؤال القبر :

اختلف المتكلمون فى سؤال القبر وعذابه ونعيمه فأثبته قوم وأنكره آخرون وسنعرض لكل فريق وأدلته :

١ — مذهب أهل السنة : على أن سؤال الميت فى قبره وما يترتب عليه من العذاب أو النعيم حق وواقع لا محالة ، واستدلوا على رأيهم .

١ — قوله تعالى فى شأن آل فرعون « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب »(١) .

ووجه الاستدلال بهذه الآية :

قالوا فيه : أن الآية تفيد عرضهم على النار غدوا وعشيا وليس المراد عرضهم يوم القيامة ، وقد عطف الإدخال فى النار الذى يكون يوم القيامة على العرض الذى هو قبل الساعة فدل على أن العرض حاصل بعد الموت وهذا يكون فى القبر .

يقول السعد : وإذا ثبت فى حق هؤلاء ثبت فى حق غيرهم لأنه لا قائل بالفرق (٢) .

يقول الفخر الرازى : ولا يجوز أن يكون المراد بالعرض — عرض النصائح عليهم فى الدنيا .

لأنه فى الدنيا قد عرضت عليهم كلمات تذكرهم أمر النار لا أنه يعرض

---

(١) سورة غافر آية ٤٦

(٢) التفتازانى المقاصد بتحقيق سليمان خميس ص ١١٠ السمعيات راجع أيضا تفسير الفخر الآية عند تفسيره لهذه الآية من سورة غافر .

عليهم نفس النار — والمعروض عليها نفس النار — ولو كان المعرض أمر النار لكان مفضياً إلى ترك ظاهر اللفظ إلى المجاز، وليس هناك داع يقتضى العدول من الظاهر إلى المجاز [١] .

٢ — قوله تعالى فى شأن قوم نوح عليه السلام « مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا نارا » [٢] .

ووجه الاستدلال بهذه الآية على عذاب القبر: أن قوله تعالى «فادخلوا نارا» تدل على أن هذه الحالة حصلت عقيب الأغراق، إذ استخدام العطف بالفاء المقتضية الترتيب والتعقيب بدون تراخ وهذا يكون فى القبر — وليس فى الآخرة وإلا بطل عمل الفاء فدل أن العذاب فى القبر وليس فى الآخرة .

٣ — قوله تعالى « ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل » [٣] .

ووجه الاستدلال بهذه الآية قالوا فيه أن إحدى الحياتين حياة القبر .

وقد يرد عليه أنه يلزم أن تكون ثلاثا .

ويجاب عنه: بأن ذلك ضعيف وساقط لوجود القاطع به وإنما المراد أن إحدى الحياتين فى القبر والثانية يوم القيامة بالبعث وذلك لأنهما اللذان أنكروهما بعد الموت أما ما يكون فى الحياة الدنيا فانها محسوسة ولا تحتاج إلى النص عليها [٤] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢٧ ص ٧٣

(٢) سورة نوح آية ٢٥

(٣) سورة غافر آية ١١

(٤) شرح السنوسية الكبرى تحقيق د/ عبد الفتاح بركة ص ٤٠٢

٤ — قوله تعالى « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر »[١] .

وقوله تعالى « سنعذبهم مرتين »[٢] .

ففي الآية الأولى أن العذاب الأدنى هو عذاب القبر .

وفي الآية الثانية أن إحدى العذاب في الدنيا والأخرى عذاب القبر .

واستدل القائلون بعذاب القبر بقوله تعالى « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » قالوا المعيشة الضنكا هي عذاب القبر — روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : أتدرون فيمن نزلت هذه الآية « فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » ، أتدرون ما المعيشة الضنك قالوا الله ورسوله أعلم قال : عذاب الكافر في القبر — والذي نفسي بيده أنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنينا، أتدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية لكل حية تسعة رؤوس ينفحن في جسمه ويلسعنه ويخدشنه إلى يوم القيامة ويحشر من قبره إلى موقفه أعمى[٣] قال ابن مسعود إن الكافر إذا مات أجلس في قبره فيقال له ما ربك ، وما دينك فيقول لا أدرى فيضيق عليه قبره ثم قرأ « فإن له معيشة ضنكا » .

كما استدل المثبتون لعذاب القبر بقوله تعالى « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون »[٤] ، قال ابن عباس أن كلا سوف تعلمون الأولى تدل على عذاب القبر والثانية في الآخرة ، إذا حل بكم العذاب .

---

(١) سورة السجدة — آية ٢١ (٢) سورة التوبة آية ١٠١

(٣) القرطبي التذكرة ص: ١٥٢

(٤) سورة التكاثر آية ١ ، ٢ ، ٣

وفيما أخرجه الترمذى عن على رضى الله عنه أنه قال مازلنا فى شك من عذاب القبر حتى نزلت « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » . وقد تواترت السنة النبوية فى إثبات عذاب القبر .

ومنها ماجاء فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت سألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر قال نعم عذاب القبر حق(١) .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال»(٢) .

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال « إن أهل القبور يعذبون فى قبورهم عذابا تسمعه البهائم » .

وروى مسلم فى صحيحه عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : بينما النبى ﷺ فى حائط لبنى النجار على بغلة له ونحن معه إذا حادت به فكادت أن تلقيه وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال من يعرف أصحاب هذه الأقبر فقال رجل أنا قال متى مات هؤلاء قال ماتوا فى الإشراك فقال إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها فلولا أن تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى كتاب الجنائز باب ماجاء فى عذاب القبر جـ ٣ ص ٤٧٩

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة باب استحباب التعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم جـ ٥ ص ٨٥ ط دار إحياء التراث .

من عذاب القبر الذى أسمع ثم أقبل علينا بوجهه فقال تعوذوا بالله من عذاب القبر ... الحديث[١] .

وإذا كان أهل السنة يقولون بعذاب القبر فانهم أيضا يثبتون أن فى القبر نعيما واستدلوا بما جاء فى حق الشهداء من قوله تعالى: « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[٢] .

فالشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله أحياء عند ربهم وحياتهم مستمرة وأكد هذه الحقيقة بقوله «يرزقون» ولا يرزق إلا حى فلا يتعجل الأكل والنعيم لأحد إلا للشهيد فى سبيل الله باجماع الأمة[٣] .

وقد استدل بهذه الآية الفخر الرازى على المعتزلة المنكرين لنعيم القبر حاملين الآية على أن النعيم المذكور يكون فى يوم القيامة فقالوا: «إن المراد أنهم سيصيرون أحياء فى الآخرة» يقول الفخر الرازى: «وقد ذهب إليه جماعة من متكلمى المعتزلة منهم أبو القاسم الكعبى قال: وذلك لأن المنافقين الذين حكى الله عنهم كانوا يقولون أصحاب محمد ﷺ يعرضون أنفسهم للقتل فيقتلون ويخسرون الحياة ولا يصلون إلى خير . وإنما كانوا يقولون ذلك لجحدهم البعث والميعاد فكذبهم الله

---

(١) مسلم شرح النووى كتاب صفة الجنة ونعيمها باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه جـ ٥ صـ ٧٢٠ ط الشعب .

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٩ ، ١٧٠

(٣) القرطبى — التذكرة صـ ١٧٦

تعالى وبين بهذه الآية أنهم يبعثون ويرزقون ويوصل إليهم أنواع الفرح والسرور والبشارة[1].

وهذا القول من المعتزلة باطل من وجوه:

الأول: أن قوله تعالى: « بل أحياء » يدل على أنهم أحياء عند نزول الآية.

الثانى: أنه مما لاشك فيه أن جانب الرحمة والفضل والإحسان أرجح من جانب العقوبة والعذاب. ثم أنه ذكر فى أهل العذاب أنه أحياهم قبل يوم القيامة فى قوله تعالى: « اغرقوا فادخلوا نارا » والفاء للتعقيب والتعذيب مشروط بالحياة.

فاحياء أهل الثواب لأجل الإحسان قبل يوم القيامة من باب أولى.

الثالث: أن الله تعالى قال « ولا تحسبن » فلو كان المراد به البعث لما قال لنبيه ﷺ هذا فعلم النبى أن جميع المؤمنين كذلك.

الرابع: أن قوله « يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم » لابد وأن يكون قبل يوم القيامة لأن الاستبشار لا يكون إلا مع الحياة فدل على أنهم أحياء قبل يوم القيامة.

الخامس: الأحاديث النبوية التى وردت فى شأن الشهداء وبأنهم أحياء فى قبورهم وكذلك الموتى لأنه سبحانه قال « لاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا » ... الآية.

ففيما أخرجه الترمذى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: قال

---

(١) تفسير الفخر الرازى.

رسول الله ﷺ : ألا أبشرك أن أباك حيث أصيب بأحد أحياه الله ثم قال ماتريد ياعبد الله ابن عمرو أن أفعل بك فقال : يارب أحب أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى[1] .

والروايات فى هذا الباب كلها بلغت حد التواتر فلا يمكن إنكارها.
يقول الطحاوى : قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ فى ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان أهلا لذلك وسؤال الملكين فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ولا يتكلم فى كيفيته إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته لكونه لا عهد له به فى هــذه الدار والشرع لا يأتى بما تحيله العقول ولكن قد يأتى بما تحار فيه العقول[2] .

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير وابن ماجه فى كتاب الجهاد حديث رقم ٢٨٠٠
(٢) شرح الطحاوية ص ٤٥٠ ط المكتب الإسلامى .

## المنكرون لعذاب القبر و نعيمه

أنكرت المعتزلة والفلاسفة والخوارج وابن حزم الظاهرى عذاب القبر ونعيمه واستدلوا على دعواهم بأدلة عقلية وأخرى نقلية :

أولا : الأدلة النقلية :

استدلوا بقوله تعالى: « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون »[١] .

وبقوله تعالى « ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين »[٢] .

وبقوله تعالى « ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »[٣] .

وقالوا فى وجه الاستدلال بهذه الآيات : « أن الله تعالى يحييهم مرة فى الدنيا والثانية يوم القيامة ولم يذكر عذاب القبر ولو كان هناك حياة فى القبر لكانت ثلاث إحياءات وثلاث موتات لا حياتين وموتتين كما هو مذكور فى الآيات القرآنية . واستدل ابن حزم أيضا بقوله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى »[٤] .

وقال: « إن الأرواح لاترجع إلى الأجساد إلا إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة » .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨ (٢) سورة غافر آية ١١ .

(٣) سورة المؤمنون آية ١٦ ، ١٧ .

(٤) سورة الزمر آية ٤٢ .

وقال أيضاً لم يرد عن رسول الله ﷺ فى خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم وإنما تفرد بهذه الزيادة من رد الروح إلى الجسد فى القبر المنهال بن عمرو وفيه يقول المغيرة بن مقسم العتبى ماجازت للمنهال ابن عمرو قط شهادة فى الإسلام .

ويجاب عن هذا :

أن الله ذكر حياة القبر فى الآية لأن قوله ثم يحييكم معناه يحييكم حياة ليست دائمة وإلا لما صح أن يقول ثم إليه ترجعون وذلك فى يوم القيامة والتعبير بـ ثم يفيد الترتيب مع التراخى فتدل الآية على حياة القبر .

وقد جاء فى التنزيل ما يفيد أن بعض الناس أمتهم الله ثلاث مرات ففى قصة نبى الله حزقيال « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم »(١) وقوله تعالى « فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم »(٢) وقد وقع ذلك، فقياس عليه تحدث الحياة فى القبر حيث النصوص قد وردت . وما قيل أن هذه حالات خاصة فاننا نقول إن قدرته لا تحد بقدر معين .

ونقول: إن ذكر الإماتة لابد وأن تسبقه الحياة إذ لو كان الموت حاصل قبل هذه الحالة لكان الموت تحصيل حاصل . وهذا محال وأما وإن المذكور حياتين وإماتتين فلأنهما هما المرادان بالذكر إذ سياق الآيات ورد على من أنكر الحياتين بعد الموت ولم تذكر الحياة الأولى لأنها محسوسة فلا تحتاج إلى نص عليها .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٣ .

(٢) سورة البقرة آية ٥٦ .

يقول السعيد : أن إثبات الواحد أو الإثنين لا ينفي وجود الثاني أو الثالث وأن قوله تعالى ثم يميتكم ثم يحييكم يمكن حمله على ما يقع بعد الحياة الدنيا من الإماتة والإحياء في القبر والحشر[1] .

وأما ما استدل به ابن حزم فيجاب عنه :

أن للروح تعلقات بالبدن فهي تتعلق به جنيناً في رحم أمه ، ثم بعد خروجه إلى الأرض ، الثالث تعلقها به في أثناء النوم ، الرابع تعلقها في أثناء البرزخ ، الخامس تعلقها بالبدن يوم البعث .

وأن تعلقها في البرزخ يراد أن تعاد إلى الجسد وهي غير الإعادة المألوفة في الدنيا من شهوة المأكل والشراب واللباس بل أنها تعاد ليسأل ويمتحن وقد دل على هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وهو يلحد فقال أعوذ بالله من عذاب القبر ثلاث مرات ثم قال إن العبد إذا كان في إقبال من الآخرة وإنقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس فجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس المطمئنة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال فتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال فيصعدون بها»... الحديث .

أما فيما رواه المنهال من حديث فإنه لم ينفرد به بل رواه ثقات آخرون

---

(١) شرح المقاصد — السمعيات — تحقيق سليمان خميس ص١١١ .

وقد روى ماهو أبلغ منه فى هذا المعنى « فيستوى جالساً » وقوله فترد إليه روحه وقوله عليه الصلاة والسلام فيجلس فى قبره وقوله فيجلسانه وكلها أحاديث صحيحة .

أما تحامل ابن حزم على المنهال فإنه لايعتد به ولم يذكر سبباً للطعن فى ثقته غير روايته لحديث « فتعاد روحه إلى جسده » وهو غير متفرد به وقد قال العلماء فى المنهال : أنه من الثقات العدول الإمام يحي بن معين يقول : المنهال ثقة وقال العجلى إنه كوفى ثقة وكل ما أخذ على المنهال أنه سمع من بيته غناء وهذا لا يقدح فى روايته — والله أعلم — .

٢ — استدل المنكرون أيضاً بقوله تعالى « وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور »[1] وقوله تعالى « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين »[2] .

قالوا فى استدلالهم بهذه الآية: أنه لا حياة فى القبر إذ لو كانت هناك حياة لما شبه الله الكافرون فى عدم سماعهم بأهل القبور .

ويجاب عن هذا :

أن الآية ليست مسوقة فى عذاب القبر حتى تكون دليلا يحتج به على نفى الحياة فى القبر وإنما السياق فى بيان حال المشركين فى عدم استجابتهم للإسلام فقد شبههم الله بأنهم كالموتى وكالصم وكالعمى فلا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يلتفتون إلى شىء من الدلائل الواضحة وأن قوله تعالى « إذا ولوا مدبرين » تأكيد لحال الأصم لأنه إذا تباعد عن الداعى فتولى مدبراً كان أبعد عن إدراك صوته .

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٨ (٢) سورة النمل آية ٨٠

٣ — استدلوا بقوله تعالى فى شأن أهل الجنة «لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى»[1] .

وقوله تعالى «أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى»[2] .

وقوله تعالى «أمن هو قانت آناء الليل ساجداً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه»[3] .

وقالوا فى الاستدلال بهذه الآيات :

أنها تدل على عدم وجود حياة فى القبر إذ لو كان فى القبر حياة يعقبها الموت — لكانت موتتان لا موتة واحدة كما هو مذكور فى الآية .

وفى الآية الثانية — قالوا إن كلام المؤمنين بعد دخولهم الجنة حق وصدق ولو حصلت لهم حياة فى القبر لكانوا قد ماتوا موتتين وذلك على خلاف قوله تعالى «إلاموتتنا الأولى» وقالوا فى الآية الثالثة — لو كانت توجد حياة فى القبر لكان الحذر منها حاصلا — ولو كان الأمر كذلك لذكره ولما لم يذكر الحذر من حياة القبر دل على أنها غير حاصلة .

الجواب عن هذه الشبهات :

أولا : أن الآية الأولى والثانية معناهما أنهم لا يذوقون فى الجنة طعم الموت إذ حياتهم غير منقطعة ونعيمهم دائم ويحتمل أن تكون لا بمعنى لكن ويكون المعنى لايذوقون فيها الموت لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فليس فيها دلالة على انتفاء الحياة فى القبر .

يقول الإيجى أن الآية فى وصف أهل الموقف والضمير فى فيها الجنة

(١) سورة الدخان آيه ٥٦ (٢) سورة الصافات آية ٥٨ ، ٥٩
(٣) سورة الزمر آية ٩

أى لايذوقون فى الجنة الموت وأن قوله « إلا الموتة الأولى » — للجنس لاللواحدة نحو إن الإنسان لفى خسر وليس فيها نفى تعدد الموت بمعنى أن أهل الجنة لايذوقون فيها إلا الجنس الموتة الأولى فيصدق الجنس بالمتعدد ويشمل الموتتين[1] وهذا أيضاً يقال مثله فى الآية الثانية .

أما عن ماقالوه فى الآية الثالثة : فإن قوله يحذر الآخرة — يدخل فيه الحياة الآخرة سواء كانت فى القبر أو فى الحشر .

أما وقد دلت الأحاديث على إثبات عذاب القبر وأن الرسول ﷺ كان يتعوذ من عذاب القبر فدل الأمر على أن الحياة فى القبر حق وصدق وقد دل قوله تعالى « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » على حياة القبر وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة ويقول النبى ﷺ « فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها »؛ يقول ابن القيم ولم يقل فيأتيه حرها وسمومها فإن الذى وصل إليه بعض ذلك وبقى له أكثره والذى ذاقه أعداء الله فى الدنيا بعض العذاب وبقى لهم ماهو أعظم منه[2] .

## ثانياً : الأدلة العقلية :

استدل المنكرون على نفى الحياة فى القبر بأدلة عقلية قالوا فيها :

١ — قد وضعنا على صدر الميت زيبقاً فكشفوا عنه فوجدوه بحاله ولم يجدوا فيه ملائكة يضربون الموتى بمطارق من حديد ولا وجدوا عقارب ولا حيات ولا نيران — وقالوا إن هذا ضرب من الوساوس والترهات[3] .

---

(١) شرح المواقف جـ ٧ ص ٣١٩

(٢) ابن القيم الروح ص ١٠٤

(٣) السفارينى لوامع الأنوار جـ ٢ ص ٢٠

وأجيب عن ذلك :

بأن الله سبحانه وتعالى جعل أحـــكام الآخرة وما يتعلق بها أمراً محجوباً عنا ليتميز الذين يؤمنون بالغيب عن غيرهم .

يقول القرطبي: « فأحوال المقابر وأهلها على خلاف عادات أهل الدنيا فى حياتهم فليس تقاس أحوال الآخرة على أحوال الدنيا وهذا مما لا خلاف فيه ولولا خبر الصادق بذلك لم نعرف شيئاً مما هنالك»[1] .

كما أنه يمكن أن يقال : أن نار الآخرة ليست من نار الدنيا فتشاهد بالعين المجردة أو بالحواس . وإن كانت أشد منها على من هى له وعليه .

وربما دفن رجلان فى قبر واحد وتختلف أحوالهما فأحدهما يعذب وفى حفرة وعذاب أليم والآخر فى نعيم وروضة الجنة دون أن ينال أحدهما من الآخر شىء ولا يشعر به .

ويقال أيضاً : أن الله سبحانه قد أجرى فى الدنيا ماهو أعجب من ذلك فهذا جبريل كان ينزل بالوحى على الرسول ﷺ دون أن يراه أحد فمن أنكر ذلك فلينكر الوحى .

وقد قال الله تعالى فى وصف الشيطان « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم »[2] .

فإذا كان هـــذا يحدث فى الدنيا دون أن نراه فمن باب أولى أن

---

(١) القرطبي — التذكرة ص١٤٠

(٢) سورة الأعراف آية ٢٧

يحجب عنا أمور الآخرة لمصلحة يعلمها الحكيم الخبير والتي لو رأيناها ما كان للحياة طعم ولا لذة .

٢ — قال المنكرون :

كيف تكون للميت حياة في القبر ونحن نرى المصلوب على صليبه مدة طويلة وهو لا يسأل ولا يجيب ولا يتحرك ولا يتوقد جسمه نارا[1] .

وأجيب عن هذا :

أن الله القادر على كل شيء لا يستبعد في قدرته إعادة الحياة إلى المصلوب ونحن لا نشعر كما نحسب المغمى عليه ميتاً .

فالإنسان وهو نائم ساكن الحركة قد يرى في منامه ما يزعجه كأسد يحاول افتراسه أو حية تلدغه أو حتى يرى ما يجعله في لذة وسرور ونحن بجواره لا نشعر به . فكذلك أحوال الميت .

فقد انتقل إلى عالم الملكوت الذي تعجز عنه إدراكاتنا الحسية والعقلية يقول ابن القيم :

« لقد أرانا الله سبحانه وتعالى بلطفه ورحمته وهدايته أنموذجا في الدنيا من حال النائم فإن ما ينعم به أو يعذب في نومه يجرى على روحه أصلا والبدن تابع له وقد يقوى حتى يؤثر في البدن تأثيراً مشاهداً فيرى النائم في نومه أنه ضرب فيصبح وأثر الضرب في جسمه ويرى أنه قد أكل أو شرب فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فيه ويذهب عنه الجوع والظمأ أعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم من نومه ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان وهو نائم لاشعور له بشيء من ذلك » .

---

(١) لوامع الأنوار للسفاريني ص ٢، والتذكرة للقرطبي ص ١٤٠ .

وذلك أن الحكم لما جرى على الروح استعانت بالبدن من خارجه ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس . فاذا كانت الروح تتألم وتنعم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع فهكذا فى البرزخ بل أعظم فان تجرد الروح هنالك أكمل وأقوى وهى متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع[١] .

٣ — ذهب المنكرون إلى القول :

أن بعض الموتى تكون قد تفرقت أجزاؤه فى أجواف السباع أو حواصل الطير أو مدارج الرياح فكيف يسئل . وكيف يصير القبر على مثل هذا روضة أو حفرة وكيف يتسع قبره أو يضيق[٢]

وأجيب عن هذا :

بأن المقاييس فى الحياة الآخرة تختلف عن مقاييس الدنيا فان لله سبحانه أن يفعل ما يشاء من عقاب ونعيم ويوسع القبر مائتى ذراع ولا يستبعد أن يخلق الله الحياة فى أجزائه وهو الذى خلقه من قبل ولم يك شيئا .

يقول الجوينى فى رده على المنكرين « وهذا من قائله ملزم بعدم الطمأنينة إلى الإيمان والركون إلى الإيقان وهو بمثابة استبعاد نشر العظام البالية وتأليف الأجزاء المتفرقة فى أجواف السباع وحواصل الطيور وأقاصى التخوم ومدارج الرياح[٣] .

---

(١) ابن القيم — الروح ص٨٨

(٢) السفارينى لوامع الأنوار البهية ح٢ص٢٠ — السمعيات من شرح المقاصد ص١١٤ — القرطبى التذكرة ص١٤٠

(٣) الإرشاد للجوينى ص ٣٧٦ نشر مكتبة الخانجى .

ثم إن السؤال قد يقع على أجزاء يعلمها الله تعالى من القلب أو غيره فيحييها الله تعالى فيتوجه السؤال عليها، فيكفى أن تتعلق الروح بأى جزء من أجزاء البدن وعندئذ يسأل الميت .

وقد ثبت فى الصحيحين أن رجلا أمر إذا مات أن يحرق ثم يسحق ثم يذرى ثم حتى تنسفه الرياح وفيـــه أمر الله البر فجمع ما فيه وأمر البحر فجمع ما فيه ثم قال ما حملك على مافعلت قال خشيتك أو قال مخافتك[1] .

ثم إن الآيات القرآنية والأحاديث قد دلت بصريح العبارة على ذلك ففى التنزيل ما جاء فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولـكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً وأعلم أن الله عزيز حكيم »[2] .

وبعد : فإن شواهد القواطع السمعية قد شهدت بثبوت حياة فى القبر وأن إنكارها من المكابرة وجحود للعقيدة وإنكار لنصوص الدين وأن إثباتها ليست مستحيلة عقلا خصوصاً وأننا نرى فى حياتنا الدنيا ما هو لاندركه بحواسنا كالملائكة وجلوس الرسول معهم وهو بين أظهرهم والجن وانتقال الصوت عبر الأثير والصواريخ عابرة القارات مما كان يعد خيال فليس يبعد فى قدرة الله أحياء الموتى فى قبورهم .

قال بعض العلماء وليس ذلك بأبعد من الذر الذى أخرجه الله تعالى

---

(١) الحديث نقله القرطبى فى التذكرة وقال خرجه البخارى ومسلم التذكرة ص ١٤١

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٠

من صلب آدم عليه السلام «وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى»[١] والله سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسؤال القبر وعذابه ونعيمه مما أجمع عليه أرباب الديانات وأنه حق وصدق فقد جاء فى الحديث النبوى فيما أخرجه البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت: «دخلت على عجوز من عجائز يهود المدينة فقالت إن أهل القبور يعذبون فى قبورهم قالت فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها قالت فخرجت ودخلت على رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله أن عجوزاً من عجائز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل القبور يعذبون فى قبورهم قال صدقت أنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها[٢]، فما رأيته بعد صلاته إلا تعوذ من عذاب القبر .

## أنواع عذاب القبر :

تختلف درجات العذاب فى القبر باختلاف درجات العصاة فقد ورد فى الأحاديث النبوية أنواعاً مختلفة لصنوف العذاب: منها :

### أولا: الكافر :

١ — أن الكافر يساط عليه فى قبره تسعة وتسعون تنيناً تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة وذلك لأنه أنكر أسماء الله الحسنى وعددها تسع وتسعون اسماً .

وروى أبو سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: يسلط

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى كتاب الجنائز ما جاء فى عذاب القبر ج ٢ ص ٤٧٨

على الكافر فى قبره تسعة وتسعون تنيناً تنهشه وتلدغه حتى قيام الساعة ولو أن واحداً منها نفخ فى الأرض ما أنبتت خضراً»[1] .

وفى رواية عن عبد الله بن عمرو بن العاص « ثم يؤمر به — يعنى الكافر — فيضيق عليه قبره ويرسل عليه حيات كأمثال أعناق البخت فتأكل لحمه حتى لا تذر على عظمه لحماً وترسل عليه ملائكة صم عمى فيضربونه بفطاطيس » ، ولا تعارض بين قوله إن الكافر تأكل الحيات لحمه وبين ملائكة صم عمى يضربون بل أنه يكون بين العذابين قال تعالى : « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن »[2] .

٢ — ورد أيضاً أن الكافر يعذب فى قبره فيضرب بمطارق من حديد فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « وأما المنافق والكافر فيقال ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس فيقال لا دريت ولا تليت ويضرب بمطارق من حديد فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين »[3] .

٣ — ورد أيضاً أن الكافر تفتح له طاقة إلى جهنم فيأتيه من حرها وسمومها .

---

(١) مجمع الزوائد الفوائد للهيثمى — كتاب الجنائز باب فى العذاب فى القبر ج ٣ ص ٥٥ ط القدس .

(٢) سورة الرحمن آية ٤٢ ، ٤٣

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى كتاب الجنائز باب ما جاء فى عذاب القبر ج ٢ ص ٤٧٩

روى البراء بن عازب عن رسول الله ﷺ أنه قال « يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما دينك فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها[1] .

ثانياً : عذاب عصاة المسلمين فى قبورهم :

١ — منها : أن بعض العصاة ترضح رؤوسهم بالحجارة كلما رضحت عادت كما كانت — وهم الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة .

٢ — ومنها : من يخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة وهؤلاء هم الذين يتبخترون فى ثيابهم خيلا وكبرياء .

٣ — ومنها : من يملأ القبر عليه ناراً وهم الذين يصلون بغير طهور . روى الطحاوى عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال أمر بعبد من عباد الله عز وجل أن يعذب فى قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله تعالى ويدعوه حتى صارت واحدة فامتلأ عليه ناراً ، فلما ارتفع عنه فاق فقال لماذا جلدتمونى قال إنك صليت صلاة بغير طهور . ومررت على مظلوم فلم تنصره .

وغير هذا كثير مما يطول المقام فى ذكره ونكتفى بهذا القدر ليكون علامة وعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد نسأل الله أن يقينا من عذاب القبر وفتنته .

---

(١) رواه الإمام فى مسنده جـ ٤ صـ ٢٨٧ ، ٢٨٨ وأبو داود فى الجنائز باب الجلوس عند القبر رقم ٣٢١٢

## نعيم القبر

تختلف مراتب النعيم أيضاً باختلاف أحوال الناس ودرجات قربهم من الطاعة وبعدهم عن المعصية .

فهناك مقام الأنبياء والمرسلين : فهم فى المقام الأعلى وأقوى نعيما وأعظم منزلة فهم أحياء فى قبورهم لأن الله حرم أجسادهم على الأرض بأن تأكلها .

روى البيهقى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون » .

٢ — وهناك مقام الشهداء والصديقين :

قال تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

وروى أبو داود والإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « لما أصيب أخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم فى جوف الطير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ أخواننا عنا قال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم قال فأنزل الله عز وجل « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله . . . » الآية .

٣ — وهناك من يوسع الله له قبره سبعون ذراعا فى سبعين ذراعا وروى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : « إذا قبر الميت أو قال أحدكم آتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر

نكير فيقولان : ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول ما كان يقول فيه هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فيقولان : قد كنا نعلم أن تقول هذا ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا فى سبعين ثم ينور له» ... الحديث[1] .

وهذا المقام لعامة المسلمين وقد يكون منهم من يوسع له فى قبره أربعون ذراعا فقط لما روى عن على بن معبد عن معاذة قالت : قلت لعائشة رضى الله عنها « ألا تخبرينا عن مقبورنا وما يلقى وما يصنع به ؟ فقالت إن كان مؤمناً فسح له فى قبره أربعون ذراعا »[2] .

٤ — ومن المؤمنين من يوضع فى قبره قنديل من نور فيكون قبره منيراً كالقمر ليلة البدر . فقد ورد : « أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : يا موسى تعلم الخير وعلمه الناس فإنى منور لمعلم العلم ومتعلمه قبورهم حتى لا يستوحشوا لمكانهم »[3] .

٥ — ومنهم من يفتح له من الجنان فيفرح فيها ويرتع .

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ نسمة المؤمن طائر تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم القيامة .

يقول الحافظ بن كثير بعد ما أورد هذا الحديث وفيه دلالة لعموم المؤمنين لهم التجول فى ظلال أشجار الجنة .

---

(١) رواه البخارى ومسلم أنه يفسح له سبعون ذراعاً

(٢) القرطبى — التذكرة ص ١٥١

(٣) نسبه السيوطى للإمام أحمد فى الزهد كتاب شرح الصدور للسيوطى ص ١٥٨

ويقول الإمام الغزالى رحمه الله تعالى : وأعلم أن المؤمن ينكشف له عقب الموت من سعة جلال الله تعالى ماتكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق يكون مثاله كالمحبوس فى بيت مظلم فتح له باب بستان واسع الأكناف . لايبلغ طرفه أقصاه . فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهى العود إلى السجن المظلم وقد ضرب رسول الله ﷺ له مثلا فقال لرجل مات أصبح هذا مرتحلا عن الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضى — بأن كان كامل الإيمان — فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه[1] .

نعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم — ا. ﻫ .

هذا ماذكرناه فيض من غيث والله يمن على من يشاء .

دوام العذاب وانقطاعه :

وردت الآثار بأن فى القبر نوعين من العذاب :

أحدهما: دائم غير منقطع . واستدل عليه بقوله تعالى ماورد فى شأن آل عمران: « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا »[2]. وبقوله تعالى« ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا »[3] يقولون هذا ساعة قيامهم من قبورهم .

---

(١) قال الحافظ العراقى فى هذا الحديث رواه ابن أبى الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلا ورجاله ثقات — ا. ﻫ .

(٢) سورة غافر آية ٤٦

(٣) سورة يس آية ٥٢

ووفى الحديث الذى ورد فى شأن المعذبون فى قبورهم عن ابن عباس - رضى الله عنهما أن النبى ﷺ مر بقبرين فقال أنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ثم قال بلى وأنه لكبير أما أحدهما فكان لايستبرأ من بوله، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة ثم أخذ جريدة رطبة فشقها باثنين ثم غرز على كل قبر منهما واحدة . قالوا لم فعلت هذا يارسول الله قال لعله يخفف عنهما مالم ييبسا[1] .

هذا يدل على أن التخفيف مقيد بالرطوبة وليس دليلا على انقطاع العذاب عنهما .

ومنه حديث البراء بن عازب فى قصة الكافر ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة[2]

ثانيهما - منقطع وغير دائم بأن يكون إلى مدة ثم ينقطع .

وهذا ما يكون بالنسبة لعصاة المؤمنين - الذين خفت جرائمهم فيكون العذاب بحسب كل إثم، ثم يخفف ويزول نهائياً ببركة دعاء أوصدقة أو استغفار أو ثواب حج أو قراءة قرآن تصل إليه من بعض أقاربه فى الدنيا أو انتفاع بعلم .

والحديث الذى رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال « إذا مات الميت انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية

---

(١) رواه مسلم كتاب الطهارة باب نجاسة البول ووجوب الاستبراء ج ١ ص ٥٨٨

(٢) هذا الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده بطريق آخر ثم يخرق له خرقا إلى النار فيأتيه من غمها ودخانها إلى يوم القيامة .

أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له[1] دليل على ذلك .

هذا وقد ذكر ابن القيم رحمه الله فى كتابه الروح أحوال أناس عفاهم الله من عذاب القبر فليرجع إليها من أراد الاستزادة .

منها : مارواه ابن أبى الدنيا قال : حدثنا أحمد بن يحيى قال حدثنى بعض أصحابنا قال : مات أخى فرأيته فى النوم فقلت ما كان حالك حين وضعت فى قبرك قال آتانى آت بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعا لى لرأيت أنه سيضربنى به[2] .

## مستقر الأرواح بعد فراقها الأبدان

تباينت الآراء فى مستقر الأرواح بعـــد فراقها للأبدان — أى : مابين الموت إلى يوم القيامة — ولا سبيل إلى معرفة حقيقة هذا التلقى من السمع .

وسنذكر بعض الآراء على سبيل الإجمال :

١ — قائل يرى أن أرواح المؤمنين عند الله فى الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم يحبسهم عنها كبيرة أو دين — وهـــذا ماقاله أهل الحديث كأبى هريرة وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم ومن نحا نحوهم وقال الإمام أحمد أرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكافرين فى النار .

٢ — وهناك من يرى أن أرواح المؤمنين على باب الجنة يأتيهم من نعيمها ورزقها .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الوصية باب مايلحق الإنسان من ثواب بعد وفاته .

(٢) ابن القيم — الروح ص ١٢٥

٣ — ومن قائل أنها بأفنية القبور .

٤ — وذهب ابن حزم إلى أن مستقر الأرواح حيث كانت قبل خلق أجسادها وهذا بناء على رأيه فى أن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد وليس على ذلك دليل من كتاب أو سنة .

٥ — وقد ذهب جماعة منهم ابن الباقلانى وأبو الهذيل العلاف المعتزلى إلى أن الأرواح تصير بعد الموت إلى العدم المحض إذ الروح عندهم عرض البدن وأن الأبدان إذا ماتت وعدمت أرواحها فلا تعذب ولا تنعم وإنما العذاب والنعيم للأبدان بأن ترد اليها الحياة فى وقت يريد تنعيمه أو تعذيبه وإلا فلا روح هناك قائمة بنفسها البته[1] .

ولكن الأفضل من هذا كله الاعتقاد بأن الأرواح فى البرزخ متفاوتة .

فمنها : أرواح فى أعلى عليين وهى أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ومنها : أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت وهى أرواح الشهداء ما لم يحبسها على باب الجنة حابس لدين مثلا كما جاء فى مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن جحش أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله مالى إن قتلت فى سبيل الله قال : الجنة فلما ولى قال إلا الدين سارنى به جبريل آنفا[2] .

ومن الأرواح من تكون محبوسة على باب الجنة كما فى حديث

---

(١) راجع السفارينى لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٤٨

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده جـ ٤ ص ١٣٩

قال رسول الله ﷺ «رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة».

ومنهم: من يكون محبوساً في قبره ... ومنهم من يكون في الأرض.

ومنها: أرواح تكون في تنور الزناة والزواني.

وأرواح تسبح في أنهار من الدم وتلقم الأحجار فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد بل أحوال متنوعة.

وكل هذا شاهدة به السنة النبوية وأن المقصود أن النفس وأحكامها لها شأن غير شأن البدن وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن وهي أسرع شيء حركة وانتقالا وصعود أو هبوطا وهي تنقسم الى مرسلة ومحبوسة وعلوية وسفلية.

وأن لها بعد المفارقة صحة ومرض ولذة ونعيم.

يقول ابن القيم: «وما أشبه حالها بهذا البدن بحال البدن في بطن أمه وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار. فلهذه الأنفس أربع دور كل دار أعظم من التي قبلها.

الدار الأولى: بطن أمه وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث

الدار الثانية: هذه الدار التي نشأت فيها وألفتها واكتسبت الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة فيها.

الدار الثالثة: دار البرزخ وهي أوسع من هذه الدار وأعظم بل نسبتها كنسبة هذه الدار إلى الأولى.

الدار الرابعة : دار القرار وهى الجنة أو النار فلا دار بعدها — والله تعالى ينقل الروح فى هذه الدار طبقاً بعد طبق حتى يبلغها الدار التى لا يصلح لها غيرها ولا يليق بها سواها وهى التى خلقت لها وهيئت للعمل الموصل إليها . ولها فى كل دار من هذه الدور شأن غير شأن الدار الأخرى فتبارك الله فاطرها ومنشئها ومميتها ومسعدها ومشقيها[1] .

---

(١) ابن القيم — الروح ص ١٥٨ ، ١٥٩

## عذاب القبر ونعيمه

## روحانى أم للجسد والروح

اختلفت آراء العلماء حول عذاب القبر ونعيمه هل هو روحانى فقط أم جسمانى فقط أم هو للجسم والروح معاً .

ثلاثة أقوال إليهم ترجع بقية الأقوال الأخرى :

أولا : مذهب أهل السنة :ـــ

أن العذاب للروح والجسد معاً وأن الإنسان إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب بروحه وبدنه .

يقول ابن تيمية : «العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة . تنعم النفس وتعذب منفرده عن البدن وتنعم وتعذب متصله بالبدن والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما مجتمعين»[1] .

وأدلتهم على أن العذاب والنعيم للروح والبدن معاً كثيرة منها :

١ ـــ ما رواه أبو داود فى سننه عن البراء بن عازب رضى الله عنه فى حديث طويل عن النبى ﷺ جاء فيه « فتعود روحه فى جسده »[2] .

٢ ـــ ما رواه البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن الرسول ﷺ

---

(١) السفارينى لوامع الأنوار البهية جـ٢ ص ٢٤

(٢) سنن أبى داود كتاب السنة باب المسألة فى القبر وعذاب القبر جـ٢ ص ٤٩١ ط مصطفى الحلبى

قال فى حق الكافر والمنافق « يضرب بمطارق من حديد فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين [١] .

ونكتفى بهذين الاستدلالين على رأى أهل السنة فى أن النعيم والعذاب فى القبر للروح والبدن معاً وأن ما ذكر عن رسول الله ﷺ صريح الدلالة فى أن الروح تعود إلى الجسد بعد مفارقته وتحصل بهما الحياة فى القبر إعادة تحصل بها المساءلة والعذاب والنعيم وليست الحياة التى يكون بها الاشتهاء إلى المأكل والمشرب كما فى الدنيا .

الرأى الثانى :

وهو مذهب من يقول أن الروح لا تنعم ولا تعذب وإنما يقع ذلك على الأبدان فقط .

وهذا مذهب الكرامية [٢] وبعض المعتزلة .

فالكرامية يرون أن العذاب فى القبر أو النعيم يجرى على الميت من غير رد الروح إلى الجسد وأن الميت يجوز أن يألم ويحس بالألم ويعلم بلا روح .

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى وكتاب الجنائز باب ما جاء فى القبر جـ ٢ ص ٤٧٩

(٢) وهم أتباع محمد بن كرام كان من سجستان ثم خرج إلى نيسابور فى أيام محمد بن طاهر بن عبد الله فاغتر بما كان يريه من زهده جماعة من أهل السواد فدعاهم إلى بدعة التبصير ص ٦٥ ، ومن آرائه التى دعا إليها تجسيم المعبود وأن الإله جسم له حد ونهاية توفى ٢٥٥ هـ ، وبلغ أتباعه فى خراسانة أكثر من عشرين ألفاً ومثلها فى أرض فلسطين — الفرق بين الفرق ص ٨٣١

وقالت جماعة من المعتزلة : « أن الله سبحانه وتعالى يعذب الموتى فى قبورهم ويحدث فيهم الآلام وهم لا يشعرون ، فاذا حشروا وجدوا تلك الآلام واحسوا بها ، وقالوا سبيل المعذبين من الموتى سبيل السكران والمغمى عليه لو ضربوا لم يجدوا الألم فاذا عاد إليهم العقل أحسوا بألم الضرب »[1] .

وهذا المذهب بين البطلان لتعارضه مع النصوص الدينية الصريحة فى عذاب القبر ونعيمه للروح والبدن وقد تقدمت من الأحاديث والآيات القرآنية ما يكفى دليلا على بطلان دعواهم .

ومنها قوله تعالى: « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » .

والعرض على النار غدوا وعشيا فى القبر .

وقوله تعالى « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا » فإدخالهم النار عقب الاغراق مباشرة وهذا لا يكون إلا فى القبر .

ومن السنة : ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال .

وفى الصحيحين عن أبى أيوب قال خرج النبى ﷺ وآله وقد وجبت الشمس فسمع صوتا فقال يهود تعذب فى قبورها » .

---

(١) السفارينى لوامع الأنوار البهية ج ٢ ص ٢٥

الرأى الثالث :

وهو رأى من يقول أن العذاب والنعيم فى القبر للروح فقط وهو ماذهب إليه الفخر الرازى وابن حزم وغيرهم من الفلاسفة الآلهين الذين ينكرون العذاب والنعيم فى القبر مطلقا كما ينكرون البعث الجسمانى .

وقد استدلوا على رأيهم بأدله :

١ — قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله »[١] أى فى غبطة وسعادة .

ويقول ابن حزم وهذا الرزق للأرواح بلاشك ولا يكون إلا فى الجنة [٢] .

وذلك عندما رآهم النبى ﷺ ليلة الإسراء والمعراج فابن حزم يقول إن النبى رأى أرواحهم فى الجنة واستدل بحديث « نسمه المؤمن طائر يعلق من ثمار الجنة ثم تأوى إلى قناديل تحت العرش » .

٢ — قوله تعالى « ربنا أمتنا اثنتين واحييتنا اثنتين »[٣] وقوله « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون »[٤] .

قالوا فى وجه الاستدلال هذا :

هذا حق لايدفع عذاب القبر لأن فتنة القبر وعذابه والمساءلة إنما هى للروح فقط بعد فراقه للجسد أثر ذلك قبر أو لم يقبر »[٥] .

---

(١) سورة آل عمران ١٦٩ ، ١٧٠

(٢) ابن حزم الفصل جـ ٤ ص ٩٣

(٣) سورة غافر آية ١١ (٤) سورة البقرة آية ٢٨

(٥) الفصل لابن حزم جـ ٤ ص ٨٨

وقالوا لو كان الميت يحيا في قبره لكان الله تعالى قد آماتنا ثلاثا وأحيانا ثلاثا وهذا باطل بخلاف القرآن .

٣ — استدلوا أيضاً بأن النبي ﷺ أخبر أنه رأى الأرواح ليلة أسرى به عند سماء الدنيا عن يمين آدم عليه السلام أرواح أهل السعادة وعن شماله أرواح أهل الشقاء[1] وأخبر عليه الصلاة والسلام بأنه رأى موسى عليه السلام قائما يصلي وأنه رآه مرة أخرى في السماء السابعة .

يقول ابن حزم : إنما رأى روحه أما جسده فوارى بالتراب بلا شك فعلى هذا أن موقع كل روح يسمى قبر فتعذب الأرواح حينئذ وتسأل حيث كانت[2] .

٤ — واستدلوا بما خبر به النبي ﷺ يوم بدر إذ خاطب القتلى وأخبر أنهم وجدوا ماتوعدهم به حقا قبل أن يكون لهم قبور فقال المسلمون يارسول الله تخاطب قوما قد جيفوا فقال عليه السلام ما أنتم باسمع لما أقول منهم .

فلم ينكر عليه السلام على المسلمين قولهم أنهم قد جيفوا وأعلمهم أنهم سامعون نصح أن ذلك لأرواحهم فقط بلا شك أما الجسد فلا حس له[3] .

٥ — يستند ابن حزم على أن من الأموات من قد يكون أكله السبع أو غرق أو أحرق بالنار وتفرقت أجزاء بدنه .

---

(١) الفصل لابن حزم ج ٤ ص ٨٨

(٢) الفصل ج ٤ ص ٩٠

(٣) ابن حزم الفصل ج ٤ ص ٨٩ ط محمد علي صبيح وأولاده .

فلو كان لهؤلاء عذاب أو نعيم للروح والجسد معـــا فى القبر فلا يتصور أن لهم قبراً كما هو المعهود ، أما لو كان على الروح فقط فإن ذلك واقع لا محالة فى أى مكان استقرت فيه[١] ويؤيد القـول بالعذاب والنعيم فى القبر بأنه روحانى الفخر الرازى حيث يقول .

إن الإنسان جوهر لطيف نورانى ساكن فى هذا البدن — فبعـد خراب هـذا البدن إن كان كاملا فى قوة العلم والعمل كان فى الغبطة والسعادة .

وإن كان ناقصا كان فى البلاء والعذاب ويستدل على رأيه فيقول إن القرآن الـكريم يدل عليه .

أما فى حق السعداء فقوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتـلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله » .

وأما فى حق الأشقياء فقوله تعالى « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا » وقوله تعالى « أغرقوا فادخلوا نارا »[٢] .

وبعد : فهذه جملة آراء القائلين بعذاب ونعيم فى القبر ولـكنه روحانى فقط .

والجواب عن هذه الشبهات :

أولا : ماورد فى حق الشهداء وبأنهم أحياء عند ربهم يرزقون فإن هذا يـكون فى الدنيا لأن الذين لم يلحقوا بهم مايزالون أحياء لم يموتوا ولم يضلوا .

---

(١) المصدر السابق ج ٤ صـ ٨٨
(٢) راجع أصول الدين الفخر الرازى صـ ١١٩ ط الـكليات الأزهرية

والشهداء أحياء فى قبورهم بأبدانهم وأرواحهم مستمرون على الحياة وأكد ذلك بقوله تعالى « يرزقون » فهم أحياء على الحقيقة حياة أقوى من حياتهم الدنيا ولكن لاتحسون ولاتدركون حياتهم لأنهم فى البرزخ لايطلع أحد عليه إلا من اختصه الله تعالى كالأنبياء .

ثانياً : يجاب عن استدلالهم بقوله تعالى « ربنا امتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » وقوله « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا .... » الآية أن إحدى الموتين أو الحياتين يحدثان فى القبر .

فيحتمل أن الثالثة لم تذكر لأنها أمر مفهوم أو يقال لأن المنكرين ينكرون الحياة التى بعد الموت ولم يذكر الحياة الأولى لأنها محسوسة فلا حاجة لذكرها .

يقول ابن القيم : « أن قول الله تعالى « ربنا أمتنا اثنتين وأحيينا اثنتين » لاينفى ثبوت الإعادة العارضة للروح فى الجسد كما حدث فى قتيل بنى إسرائيل الذى أحياه الله بعد قتله ، ثم أماته ، لم تكن تلك الحياة العارضة له للمساءلة معتداً بها[1] ولهذا لم تذكر .

ثالثاً : يجاب عن إخبار الرسول برؤيته للأرواح ليلة الأسراء فإن هذا لاينفى اتصال الروح بالبدن للعذاب والنعيم والمساءلة . فإن الروح لها إشراف على البدن تصعد وتهبط فى زمن يسير كما ترى فى حالة النوم مثلا تترك البدن ثم تعود إليه فى فترة وجيزة يقول ابن القيم فان نفس الشمس لاتنزل من السماء والشعاع الذى على الأرض ليس هو الشمس ولا صفتها ، بل هو عرض حصل بسبب الشمس والجرم المقابل لها والروح نفسها تصعد وتنزل[2] .

---

(١) ابن القيم الروح ص ٦٠ ، ٦١

(٢) ابن القيم الروح ص ٦٣

أما رؤيته لإبراهيم مسند ظهره إلى بيت المعمور وكذا رؤيته لموسى قائما يصلى فان رؤيته إياهما بأرواحهم وأجسامهم إذ الروح لها اتصال بالبدن وأبدان الأنبياء محرمة على الأرض . أما عن رؤيته لموسى مرة أخرى فى السماء السابعة فلا مانع عقلا أن يصعده الله بجسده وروحه والإنبياء تخرق لهم العادات .

رابعاً : أما عن أخباره عليه الصلاة والسلام عن أهل بدر ومخاطبته إياهم وأخبار بأنه يسمع كلامهم بعد ماقد جيفوا ، فإن ذلك لا يمنع أن يكون قد ردت أرواحهم إلى أجسادهم فى ذلك الوقت والخطاب للأرواح التى متعلقة بالأجساد وكونها قد جيفت فلا يمنع وقوع العذاب والنعيم لهم بطريقة تعجز عنها مداركنا الحسية وقوانين الآخره تختلف عن قوانين الدنيا ونواميسها] .

خامساً : فى من أكله السبع أو أحرق بالنار أو كان فى بطن البحر أو صلب ... إلخ فانه لامانع عقلا أن تجمع هذه الأشلاء والشتات المتفرقة الأجزاء كما كانت ويقع عليها العذاب والنعيم .

وقد ورد فى صحيح مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « ليس من الإنسان شىء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب »[1] ومنه يركب الخلق يوم القيامة .

يقول ابن القيم ومما ينبغى أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر فلو

---

(١) وهو رأس العصعص كما رواه ابن أبى داود فى كتاب البعث من حديث أبى سعيد الخدرى قيل يارسول الله ماهو ؟ قيل مثل حبة الخردل ومنه تنشأون التذكره القرطبى ص ١٨٤

أكلته السباع أو أحرق حتى صار رغادا ونسف فى الهوء أو صلب أو غرق فى البحر وصل إلى روحه وبدنه مايصل إلى القبور (١) وهذا ينبغى أن يعلم أن هذه أمور سمعية وقد أخبر الصادق المصدوق بأن فى القبر عذاباً ونعيماً للأبدان والأرواح فى أكثر من موضع فى القرآن والأحاديث فينبغى الإيمان بهامن غير تكلفه للتأويل أو مكابرة للإنكار فاذا كانت من قدرة الله تعالى أن جعل فى الجمادات شعوراً واحساساً تسبح ربها « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » وحتى الحجارة الصماء تهبط من خشيته وقد سمع لجذع النخيل أنيين « فالأجساد التى كانت فيها الأرواح أولى بذلك .

يقول ابن القيم : « فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ماغيره مستقرة يقضى بها ما أمره فيها ويستنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعمالها وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود وبالله التوفيق (٢) .

ويقول الآمدى : « وليس الخطاب والسؤال لمجرد الروح المفارقة التى أجرى الله تعالى . العادة بوجود البدن عند مفارقتها والفوات عند فواتها — إذ هو مخالف للحق والعيان وذلك محال (٣) .

ولكن السؤال والنعيم والعذاب للروح والبدن كما هو مذهب أهل الحق ، كما تدل عليه ظواهر النصوص الدينية ولا حاجة بنا إلى الخروج عن ظاهر النص إلى التأويل . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ

---

(١) ابن القيم الروح ص ٩٩ — ١٠٠

(٢) الآمدى غاية المرام فى علم الكلام تحقيق حسن محمود عبد اللطيف ص ٣٠٥

وقف على القليب الذى ألقيت فيه جثث المشركين يوم بدر وخاطبهم قائلا إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا — فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ولولا علمه ﷺ أن الأجداث بنفسها هى التى تسمع كلامه لما اتجه فى خطابه إليهم وقد كان جوابه على عمر رضى الله عنه عندما تعجب من مخاطبته تلك الأجساد قال عليه الصلاة والسلام والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

ولهذا فإننا نقول : إن الإيمان يجب أن يكون بأن النعيم أو العذاب فى القبر للروح والجسد معاً حيث لم يرد دليل على التأويل والتخصيص فان القول بهما قول بما لادليل عليه .

## قيام الساعة أمر يقيني

يجزم القرآن الكريم فى أكثر من آية بأن الساعة آتية لا ريب فيها فيقول: «وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها»[1] .

ويقول: «وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم»[2] .

علمها عند الله :

وقد أخفى الله حقيقتها وعتم وقتها وجعله بحيث لايعلم به أحد سواه وأكد لنا بأنه قد استأثر بالعلم بذلك وأنه حجبه عن غيره حتى الأنبياء والملائكة ، قال تعالى : «إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى» ولقد ذكرت السنة ذلك أيضاً .

ولقد نقلت إلينا الأخبار بأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يسألون النبى ﷺ عن الساعة وكذلك كان المشركون يسألونه عنها كما ظهر من بعض الآيات المذكورة آنفاً ولكنهم لم يجدوا عنده مايحقق لهم فيها بعض رغائبهم وقد ورد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال مفاتح الغيب خمس لايعلمهن إلا الله : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً وماتدرى نفس بأى أرض تموت» .

---

(١) الكهف ٢١ (٢) سبأ ٣ — ٤

### تحديد وقتها :

ومثل هذا الحديث يجعلنا نجزم بأن أى خبر يأتى مخالفاً للحقيقة التى تضمنها هو باطل حتما وبخاصة ذلك الخبر الذى شاع ترديده على ألسنة الناس من أن « الدنيا تؤلف ولا تؤلفان » وقد ورد عن ابن حزم « وأما نحن فلا نقطع على علم عــــدد معروف عندنا ومن ادعى فى ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل فقد قال مالم يأت قط عن رسول الله ﷺ فيه لفظة تصح بل صح عنه خلافه بل نقطع على أن الدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله تعالى الذى يقـــول : ( ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم )[1] .

### الحكمة فى إخفاء العلم بوقت الساعة

وربما تكون الحكمة فى سبب إخفاء العلم بوقت حلول الساعة عن العباد شبيهة بالحكمة من إخفاء أجل الإنسان أيضاً علما بأن ثمة أخباراً تفيد بأن (من مات فقد قامت قيامته) وذلك ليظل العبد حذراً من المصير متشوقاً إليه واعياً لما يكون منه محاسباً نفسه خائفاً من السقوط فيما يسخط الله وحريصا على فعل ما يرضيه فجهلها يكون سبباً زاجراً عن العصيان وداعياً إلى طاعة الرحمن ومساعداً بالتالى على أن يجزم الإنسان أمره ويصونه من الانفلات والفوضى .

### الساعة واليوم الآخر:

وقد يشتبه الأمر على كثير من الناس فيخلطون بين مفهوم الساعة ومفهوم اليوم الآخر بينما الحقيقة هى أن الساعة على نوعين ساعة صغرى وساعة كبرى .

---

(١) الكهف ٥١

والساعة الصغرى هى خاصة بكل إنسان تقع له حين خروج روحه وفراق أهله وانقطاع سعيه بالموت وقد قال العلماء :

(أن كل ميت مات فقد قامت قيامته) بدليل قول الرسول ﷺ فيما أخرجه مسلم وغيره لقوم من صحابته وقد سألوه عن موعد يوم القيامة وقد نظر إلى أحدث غلام فيهم : إن يعش هـــذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم )

وأما الساعة الكبرى فهى الوقت الذى يحسم فيه قضاء الله وحكمه على تخريب الكون ونقض أسسه وأنظمته وإهلاك مجموع الناس وكل المخلوقات فيأخذهم أخذة واحدة يقول الله تعالى : ( ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون )[1]

وأما اليوم الآخر فهو اليوم الذى يلى البعث من القبور وهو يكون متأخراً عن قيام الساعة . وفى هـذا اليوم يحشر الناس للموقف بين يدى الله تعالى للحساب والجزاء فهو اليوم الآخر ويوم القيامة الحساب وأسماؤه كثيرة حتى قيل: إن له نحواً من ثلاثمائة اسم[2] .

وابتداؤه من أول الحشر إلى مالا يتناهى على الصحيح وقيل : إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

### الساعة كيف تكون

ولقد عنى القرآن بذكر الساعة كثيراً فساق أخبارها بأساليب متنوعة وكشف لنا أنها تكون ثمرة نفخ فى الصور أو صيحة واحدة أو رجفة ترجف منها الأرض ويرتج لها الكون وما فيه وتكون الساعة ويكون ما يكون .

---

(١) الجاثية ٢٧

(٢) ذكر الإمام الغزالى الكثير منها فى الاحياء ج٤ ص٥٠٠

النفخ فى الصور :

ومن أجل هذا يقول الله تعالى ( ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله )[١] ويقول :

( ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله )[٢] .

وقد فهم بعض العلماء من هذين النصين خلافا بين نفختين نفخة الفزع ونفخة الصعق ولكن الراجح لدى أهل العلم أنهما شيء واحد[٣] .

وأما الصور فهو كما ورد فى الأثر قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل وقد قال عنه مجاهد أنه كهيئة البوق .

وقال أبو الهيثم من أنكر أن يكون الصور قرنا فهو كمن ينكر العرش والميزان .

بيد أن ثمة من العلماء من يقول إن الصور جمع صورة مثل بسر و بسرة ومعناه صور الموتى والأرواح وقد قرأ الحسن وعياض يوم ينفخ فى الصور .

ولكن هذا المفهوم بعيد كما يبدو لأنه إن صح معنى النفخ فى صوته للبعث من القبور حيث ينفخ فى صور الموتى والأرواح فكيف يصح هذا المعنى بالنسبة للصعق وخراب الكون كله !! وموت الناس ؟!

وقد روى عن أبى هريرة أنه ﷺ قال : « إن الله تعالى لما فرغ من خلق السماوات خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخة، قلت يارسول الله ما الصور؟

---

(١) النمل ٨٧ (٢) الزمر ٦٨

(٣) الإسلام ورؤيته فيما بعد الحياة حسن خالد دار النهضة العربية بيروت.

قال قرن والله عظيم والذى بعثنى بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه . . ) .

وفى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى : قال ﷺ كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن واستمع الأذن حتى يؤمر بالنفخ » .

ويرى القرطبى أن النفخ نفختان لا ثلاثاً وهما نفخة الصعق ونفخة البعث وأن نفخة الفزع تعود لنفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لهما أى فزعوا فزعاً ماتوا منه أو إلى نفخة البعث كما ذهب القشيرى وغيره[1].

والراجح أن دلالة النص الصريح فى الكتاب يساعد عـــلى هذا المذهب .

وأما المذهب الآخر فهو من مفهومات المفسرين والمفهوم لا ينتهض إلى قوة الصريح إلا بدليل وليس ثمة مايكونه .

ونفخة الصعق أو الفزع هى النفخة التى يتغير فيها هذا العالم ويفسد نظامه وهى التى أشار إليها الله تعالى حسب أقوال المفسرين فى قوله : ( وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق)[2].

يسير الله بين يديها الجبال فتكون سراباً ويرج الأرض رجا فتصبح كأنها السفينة تتلاعب بها أمواج البحر .

والله يصف بعضاً من مشاهد آثار هذه النفخة فيقول :

( إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً)[3].

---

(١) القرطبى ج٧ ص ٢٠٤ (٢) ص ١٥
(٣) الواقعة .

عندما تضطرب الأرض وتذهل المراضع عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ويشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة فى أقطار الدنيا فتتلقاها الملائكة وتضرب وجوهها فترجع ويولى الناس ينادى بعضهم بعضاً وذلك كما يقول الله تعالى:

( يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ) .

ثم تتصدع الأرض وتصبح السماء كالمهل ( أى القطران ) .

ثم تنشق وتتناثر نجومها وتنخسف شمسها وقمرها ويختلط الجن بالإنس والطير بالوحوش بعضهم ببعض لقول الله تعالى:

( إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت وإذا العشار عطلت وإذا الوحــــوش حشرت ( أى إختلطت ) وإذا البحار سجرت ( أى اشتعلت نيرانا ).

ويقول : ( إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت ) .

وعندما يصعق أهل السماء وأهل الأرض إلا من شاء الله يكون قد استكمل الخراب مداه فيسأل الله اسرافيل من بقى حياً ؟ وهو أعلم بذلك : فيقول اسرافيل بقيت أنت الحى القيوم وبقيت حملة العرش وجبريل وميكائيل وملك الموت وأنا.

فيقول الله تعالى فليمت جبريل وميكائيل فيموتان ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار فيقول ؟ قد مات جبريل وميكائيل .

فيقول الله تعالى فليمت حملة العرش فيموتون ويأمر الله العرش أن يقبض الصور من إسرافيل فيموت ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار ويقول رب قدمات حملة العرش فيقول الله تعالى له: أنت خلق من خلق خلقتك لما

رأيت فت فيموت فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار طوى السماء والأرض كطي السجل للكتب وقال: (أنا الجبار أين الملك اليوم) ويكرر هذا القول ثلاثاً دون أن تكون ثمة إجابة وعندها يقول: الله الواحد القهار، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات فيبسطها ويمدها مد الأديم لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً[1] .

وقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة مرفوعاً: يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين الملوك)؟

ما بين النفختين :

روى ابن المبارك عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: «بين النفختين أربعون سنة، قال الحليمي اتفقت الروايات على أن بين النفختين أربعون سنة يجمع الله خلالها ما تفرق من أجساد الناس من بطون السباع وحيوانات الماء وبطن الأرض وما أصابت النيران منها بالحرق والميـــاه بالغرق وما أبلته الشمس وذريته الرياح ثم يجمع الأرواح فى الصور ويأمر إسرافيل فيرسلها من الصور فترجع كل واحدة إلى جسدها بإذنه تعالى مرتقبة النفخة الثانية[1] .

ونقل ابن كثير بأن الإمام مسلم قال فى صحيحه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بين النفختين أربعون يوماً. قال أبيت» (أى أمتنع عن الأخبار بما لا أعلمه) قال أربعون شهراً قال أبيت قال أربعون سنة قال ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل قال وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة .

(١) القرطبى التذكرة ج١ ص١٧٢ (٢) المرجع نفسه ص١٨٤

ثم يقول: والمقصود ذكر النفختين وأن بينهما إما أربعون يوماً أو شهراً أو سنة، وهاتان النفختان هما نفخة الصعق ونفخة القيام للبعث والنشور بدليل إنزال الماء بينهما.[1]

وقد أوضح هذا الحديث بحديث آخر نقله البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «بين النفختين أربعون قالوا يا أبا هريرة أربعون يوما؟ قال أبيت قالوا: أربعون شهراً؟ قال أبيت قالوا أربعون سنة؟ قال أبيت. ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب الذنب منه يركب الخلق[2]

وقال ابن زيد: (يخلق الله الناس فى الأرض الخلق الآخر ثم يأمر السماء فتمطر عليهم أربعين يوماً فينبتون فيها حتى تنشق عن رؤوسهم كما تنشق عن رأس الكمأة فمثلها يومئذ كمثل الماخض تنتظر أن يأتيها أمر الله فتطرحهم على ظهرها فلما كانت تلك النفخة طرحتهم)[3]

وجوهر هذا الخبر واضح فى آيات كثيرات فى كتاب الله نذكر منها قوله تعالى: (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور)[4].

وقوله تعالى: (ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج)[5]

---

(١) نهاية البداية والنهاية، ابن كثير جـ١ ص ٢٩٤
(٢) المرجع السابق ص ٢٦١
(٣) التذكرة ١٨٣
(٤) فاطر. (٥) ق ٩ — ١٢

## علامات القـــيامة

وتسمى بالساعة لقربها أو لأنها تأتى بغتة أو فى ساعة أو لأن بعث الموتى من قبورهم فى حينها يكون أسرع من اللمحة .

وقد روى عن على رضى الله عنه أنه سئل عن محاسبة الخلق فقـال : كما يرزقهم فى غداة واحدة كذلك يحاسبهم فى ساعة واحدة[1] .

وقد سميت علامات الساعة بالأشراط أخذاً من الآية : ( فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقدجاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم[2]

والأشراط إذن هى العلامات واحدها شرط وقد قال الإمام البغوى وكان النبى ﷺ من أشراط الساعة[3] .

وأشراط الساعة هى علامات القيامة التى تسبقها وتدل على قربها ، وقيل : هى ماتنكره الناس من صغار أمورها قبل أن تقوم الساعة .

وقيل : هى أسبابها التى هى دون معظمها وقيامها[4] .

والساعة تطلق على ثلاثة معان :

---

(١) لوامع الأنوار جـ٢ ص ٧٠
(٢) محمد آية ١٨
(٣) لوامع الأنوار جـ ٢ ص ٦٥
(٤) لسان العرب جـ ٧ ص ٣٢٩ — ٣٣٠

(أ) الساعة الصغرى :

وهى موت الإنسان فمن مات فقد قامت قيامته لدخوله فى عالم الآخرة.

( ب ) الساعة الوسطى :

وهى موت أهـــل القرن الواحد ويؤيد ذلك ماروته عائشة رضى الله عنها .

قالت : كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة متى الساعة ؟ فنظر إلى أحداث إنسان منهم فقال :

أن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم ،[1] أى موتهم وأن المراد ساعة المخاطبين[2] .

( ج ) الساعة الكبرى :

وهى بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء وإذا اطلقت الساعة فى القرآن فالمراد بها القيامة الكبرى قال تعالى ( اقتربت الساعة )[3] أى اقتربت القيامة .

وقد ذكر الله القيامتين الصغرى والكبرى فى القرآن فتجده يذكر القيامتين فى السورة الواحدة كما فى سورة الواقعة فإنه ذكر فى أولها

---

(١) صحيح البخارى كتاب الرقاق — باب سكرات الموت جـ ١١ ص ٣٦١

(٢) فتح البارى جـ ١١ ص ٣٦٣

(٣) القمر آية ١

القيامـــة الكبرى . فقال: ( إذا وقعت الواقعة . . . إلخ ) ثم ذكر فى آخرها القيامة الصغرى وهى الموت فقال : ( فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ) الواقعة ٨٣ — ٨٥

والقيامة الكبرى هى التى نحن بصدد بيان أشرطها التى جاءت فى الكتاب والسنة[1] .

وقد تناول العلماء أشراط الساعة هذه بالدرس وتتبعوا أخبارها بالتمحيص والتدقيق وانتهوا إلى الحكم بأنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ — أشراط قد ظهرت غابراً ومضى عهدها .

٢ — أشراط ما يزال ظهورها يتتابع يوما بعد يوم .

٣ — أشراط ستظهر ويكون ظهورها علامة على وقوع الساعة عقبها .

وسنورد فيما يلى الحديث فى كل قسم لتوضيحه :

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ج٤ ص٢٦٣

## الأشراط التى ظهرت ومضى عهدها

نماذج منها :

١ — بعثة النبى ﷺ :

أخبر ﷺ أن بعثته دليل على قرب قيام الساعة وأنه نبي الساعة ففى الحديث عن سهل رضى عنه قال قال رسول الله ﷺ : بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير بأصبعيه فيمدهما )[١] .

وقد علق سيد قطب على هذا بقوله : ( وإذا كان الزمن يلوح ممتداً منذ هذه الرسالة الأخيرة فإن أيام الله غير أيامنا ولكنها فى حساب الله قد جاءت الأشراط الأولى وما عاد لعاقل أن يغفل حتى تأخذه الساعة بغتة حيث لا يملك حمداً ولا ذكراً )[٢] .

٢ — موقعة الجمل التى دارت بين الإمام على والسيدة عائشة وطلحة والزبير رضى الله عنهم فإنه لما قتل عثمان أتى الناس عليا وهو فى المدينة فقالوا له أبسط يدك نبايعك فقال : حتى يتشاور الناس فقال بعضهم : لئن رجع الناس إلى أمصارهم بقتل عثمان ولم يقم بعـــده قائم لم يؤمن الاختلاف وفساد الأمة فألحوا على على رضى الله عنه فى قبول البيعة فبايعوه وكان ممن بايعه طلحة والزبير رضى الله عنهما ثم ذهبا إلى مكة للعمرة فلقيتهم عائشة رضى الله عنها وبعد حديث جرى بينهم فى مقتل

---

(١) صحيح البخارى كتاب الرقاق باب قول النبى ﷺ بعثت أنا والساعة جـ ١١ ص ٣٤٧

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٨ ص ٦٧

عثمان توجهوا إلى البصرة وطلبوا من على أن يسلم لهم قتلة عثمان[1] فلم يجبهم لأنه كان ينتظر من أولياء عثمان أن يتحاكموا إليه فإذا ثبت على أحد بعينه أنه ممن قتل عثمان اقتص منه . فاختلفوا بسبب ذلك وخشى من ينسب إليهم القتل وهم الخارجون على عثمان — أن يصطلحوا على قتلهم فأنشبوا الحرب بين الطائفتين[2] .

وقد أخبر النبي ﷺ علياً أنه سيكون بينه وبين عائشة أمر ففى الحديث أن رسول الله ﷺ قال لعلى بن أبى طالب : أنه سيكون بينك وبين عائشة أمر قال أنا يا رسول الله قال : نعم قال : فأنا أشقاهم يا رسول الله قال : لا ولكن إذا كان ذلك فأرددها إلى مأمنها[3] .

وكذلك وقعة صفين التى دارت رحاها بين على ومعاوية رضى الله عنهما وأنه قد صح عن النبي ﷺ قوله : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعواها واحدة » .

٣ — ظهور مدعى النبوة :

ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله[4] .

---

(١) يروى أبو بكر بن العربى فى العواصم من القواصم أن خروجهم إلى البصرة إنما كان للصلح بين المسلمين وقال ( هذا هو الصحيح لا شىء سواه وبذلك وردت صحاح الأخبار ) انظر العواصم ص ١٥١

(٢) فتح البارى ج ١٣ ص ٥٤ — ٥٩

(٣) مسند الإمام أحمد ج ٦ ص ٣٩٣ — انظر فتح البارى ج ١٣ ص ٥٥

(٤) صحيح البخارى كتاب المناقب باب علامات النبوة ج ٦ ص ٦١٦

القسم الثانى ظهر ولم ينقض :

١ — أن يسود الناس الحمقى واللئام وسفلة الناس وأن تصير الأمور إلى من لا يحسن التصرف فيها .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال : كيف إضاعتها يارسول الله ؟ قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »[١] .

ويقول ﷺ : « لاتقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع » أى العبد الأحمق اللئيم .

٢ — انتشار الربا :

عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « بين يدى الساعة يظهر الربا »[٢] ، ومنها كثرة القتل فى المسلمين فقد أخرج مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج قالوا : « وما الهرج يارسول الله قال : القتل القتل » ونحن نرى اليوم كيف يقتل المسلمون تقتيلا جماعياً فى بلدانهم وبأيدى حكامهم وأيدى غيرهم ولا ناصر لهم .

ومن هذه الأشراط فشو الغيبة وشرب الخمر وتباهى الناس بالمساجد وقطيعة الأرحام وقلة العلم وإماتة الصلاة وتعطيل الحدود وكثرة القول وقلة العمل وإئتلاف الألسن واختلاف القلوب .

روى البخارى بسنده عن زينب بنت جحش أنها قالت :

---

(١) صحيح البخارى الرقاق باب رفع الأمانة جـ ١١ ص ٣٣٣
(٢) رواه الطبرانى كما فى الترغيب والترهيب للمنذرى جـ٣ ص ٩

استيقظ النبي ﷺ من النوم محمراً وهو يقول :

لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج . .

وفي رواية له عن أسامة بن زيد قال أشرف النبي ﷺ على أطم «الحصن» من آطام المدينة وقال : هل ترون ما أرى قالوا : لا فقال إني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع المطر » .

وفي رواية عن أبي هريرة قال : يتفاوت الزمان وينقص العلم ويبقى الشح وتظهر الفتن ويكثر الهرج قالوا يارسول الله أيما هو ؟ قال : القتل القتل» وبسند آخر له عن أبي هريرة أيضاً : ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي . والماشي فيها خير من الساعي . من يشرف لها تستشرفه فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً ليعذبه » .

وروى الإمام أحمد أيضاً بسنده إلى أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لثوبان : كيف أنت ياثوبان إذا تداعت عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها ؟ فقال بأبي أنت وأمي يارسول الله أمن قلة بنا ؟ قال : لا بل أنتم يومئذ كثير ولكن يلقى في قلوبكم الوهن، قال : «وما الوهن يارسول الله قال حبكم الدنيا وكراهيتكم الموت » .

وروى الترمذي بسنده عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء قيل: وما هي يارسول الله ؟ قال : إذا كان المغنم دولا والأمانة مغنما والزكاة مغرما وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر صديقه وجفا أباه وارتفعت الأصوات في المساجد وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخـافة شره وشرب الخمر ولبس الحرير واتخذت القيان والمعازف ولعن آخر هذه الأمة أولها

فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وخسفاً أو مسخاً »[1] .

وهناك الكثير من أخبار أشراط الساعة التى ظهرت ولا تزال ويمكن لمن يريد المزيد الرجوع إلى كتب السنة وهى على كل حال تزيد الإنسان إيمانا بصدق الرسول ﷺ الذى كشف لنا هذه الأمور وهو الأمى وتزيده ثقة به ويقينا بالغيب وبحقيقة اليوم الآخر ليستعد له بصالح الأعمال .

ومنها كثرة البلاء فى ظلم وتسلط وضيق عيش حتى أن الرجل ليتمنى الموت فقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لا تمر الدنيا حتى يمر الرجل بالقبر فيتمرغ عليه ويقول : ياليتنى مكان صاحب هذا القبر وليس به الدين ما به إلا البلاء » .

واليوم نرى جماهير من المسلمين يرون الموت أرحم ألف مرة مما يلاقونه من الإذلال وانتهاك الحرمات والتعذيب الجسدى فيتمنون الموت ولا يجدونه[2] .

٣ — القسم الثالث : الأمارات الكبرى التى يعقبها قيام الساعة :

وهذه الأمارات هى كما يلى : ظهور المهدى — ظهور الدجال — نزول عيسى عليه السلام — ظهور يأجوج ومأجوج — ظهور الدجان — طلوع الشمس من مغربها — ظهور الدابة إلخ وسنتكلم عن كل شرط من هذه الأشراط .

---

(١) جامع الأصول من أحاديث الرسول ص ٨٨—٨٩

(٢) العقيدة الإسلامية فى مواجهة المذاهب الهدامة ص ٣١٦ . د/ محمد أبو الغيط

٧ — المهدى :

فى آخر الزمان يخرج رجل من أهل البيت يؤيد الله به الدين يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً وظلماً وتنعم الأمة فى عهده نعمة لم تنعمها قط تخرج الأرض نباتها وتمطر السماء قطرها ويعطى المال بغير عدد .

يقول ابن كثير فى النهاية : « فى زمانه تكون الثمار كثيرة والزروع غزيرة والمال وافر والسلطان قاهر والدين قائم والعدو راغم والخير فى أيامه دائم » [1] .

اسمه :

لقد ورد أن اسم المهدى المنتظر هو محمد وقيل أحمد وأن اسم أبيه عبد الله وقد ثبت ذلك فى حديث رسول الله ﷺ الذى أخرجه الترمذى وأبو داود عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلا منى أومن أهل بيتى يواطىء اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت ظلماً وجورا » .

نسب المهدى :

ويرتقى نسب المهدى إلى فاطمة البتول بنت رسول الله ﷺ فهو من آل بيت رسول الله فقد روى أبو داود والحاكم عن أم سلمة عن النبى ﷺ المهدى من عترتى من ولد فاطمة » .

صفته الواردة : فهى أنه منحسر الشعر عن مقدم الرأس طويل الأنف مع أحدب فى وسطه ودقة أرنبته كما ورد ذلك فى الحديث الذى أخرجه

(١) النهاية فى الفتن والملاحم جـ ١ ص ٣١ تحقيق د/ طه الزينى .

أبو داود والحاكم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : المهدى منى أجلى الجبهة[١] أقنى الأنف[٢] يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، الحديث .

سيرته :

والمهدى ليس نبياً ولا رسولا إذ لا يوحى إليه بشيء أبداً وإنما هو مصلح من أتباع محمد بن عبد الله يأخذ بسنة النبى ﷺ فيقيمها ويبطل البدع وأنه يملك الدنيا كلها كما ملكها من قبله ذو القرنين ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويؤلف بين المسلمين ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ويرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض والطير فى الجو والوحش فى القفر والحيتان فى البحر .

وتنال أمة محمد فى زمانه نعمة لم تسمع بمثلها قط وأنه تجرى على يديه الملاحم يستخرج الكنوز ويفتح المدائن ما بين الخافقين ويأوى إليه الناس كما يأوى النحل إلى يعسوبه يمده الله بثلاثة آلاف من الملائكة يضربون وجوه مخالفيه وأدبارهم وأن جبريل منهم وعلى مقدمتهم وميكائيل على الساقة ويرفع الربا والزنا وشرب الخمر .

---

(١) أجلى الجبهة : الأجلى الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصدغين والذى انحسر الشعر عن جبهته انظر النهاية فى غريب الحديث ج١ ص٢٩٠ .

(٢) أقنى الأنف : القنا فى الأنف طوله ورقة أرنبته مع حدب فى وسطه ، النهاية فى غريب الحديث ج٤ ص١١٦ .

## علامات ظهوره :

وروى العلماء أن من علامات ظهوره أنه يحمل قميص رسول الله وسيفه ورايته ؟!! وهى من مرط مخملة معلمة سوداء لم تنشر منذ توفى ﷺ وأنه يومىء إلى الطاير فى الهواء فيسقط وأنه يستخرج السكينة(١) .

## مكان خروجه وبيعته :

وقد ورد أنه يولد فى المدينة المنورة من أهل بيت النبى ﷺ وأنه يهاجر منها إلى بيت المقدس وأنه يبايع بمكة المكرمة بين الركن والمقام ليلة عاشوراء وأن المدينة بعد هجرته تصبح خراباً وملاذاً للوحوش وأنه يظهر بعد أن ييأس الناس من ذلك .

## هو غير المهدى الذى تنتظره الإمامية :

وهو فى رأى علمائنا الذين أثبتوا ظهوره فى آخر الزمان غير المهدى الذى تنتظره الإمامية الإثنا عشرية أى ليس هو محمد بن الحسن العسكرى ابن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم الذى تعتقد الشيعة الإمامية أنه سيظهر فى آخر الزمان بعد طول اختفائه وهو قد ولد سنة ٢٥٦ هـ ثم غاب وهو ابن خمس سنين ولم يزل غائباً .

أما المهدى الذى نتحدث عنه فهو إلى حتى الآن غير ثابت الوجود وهو لم يولد فى قديم الزمان ولكنه سيظهر ولا يدرى ما إذا كان الآن قد ولد أو لم يولد .

---

(١) لوامع الأنوار ج ٢ ص ٧٠ — ٨١ .

## الأدلة من السنة على ظهوره :

جاءت الأحاديث الدالة على ظهور المهدى وهذه الأحاديث منها ماجاء فيه النص على المهدى ومنها ماجاء فيه ذكر صفته فقط[1] .

وسأذكر هنا بعض هذه الأحاديث وهى كافية فى إثبات ظهوره فى آخر الزمان علامة من علامات الساعة :

١ — عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يخرج فى آخر أمتى المهدى يسقيه الله الغيث وتخرج الأرض نباتها ويعطى المال صحاحاً وتكثر الماشية وتعظم الأمة يعيش سبعاً أو ثمانياً يعنى حججاً[2] .

٢ — وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أبشركم بالمهدى يبعث على اختلاف من الناس وزلازل فيملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت جوراً وظلماً يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض يقسم المال صحاحاً . فقال له الرجل : ما صحاحاً ؟ قال : بالسوية بين الناس قال : يملأ الله قلوب أمة محمد ﷺ غنى ويسعهم عدله حتى يأمر منادياً فينادى فيقول من له فى مال حاجة ؟ فما يقوم من الناس إلا رجل فيقول : ائت السدان يعنى الخازن فقل له : إن المهدى يأمرك أن تعطينى مالا فيقول له : احث حتى إذا جعله فى حجره وأبرزه ندم . فيقول : كنت أجشع أمة محمد نفساً أو عجز عنى ماوسعهم قال : فيرده فلا يقبل منه فيقال له : أنا لا نأخذ

---

(١) وقد صحح كثير من الحفاظ أحاديث المهدى ومنهم ابن تيمية فى منهاج السنة فى نقض كلام الشيعة والقدرية جـ ٤ ص ٢١١ وابن كثير فى كتابه النهاية ( الفتن والملاحم ) جـ ١ ص ٢٤ — ٣٢ تحقيق طه زينى .

(٢) مستدرك الحاكم جـ ٤ ص ٥٥٧ — ٥٥٨ .

شيئاً أعطيناه فيكون كذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين ثم لاخير فى العيش بعده أو قال : ثم لاخير فى الحياة بعده )[١] .

وفى هذا دليل على أنه بعد موت المهدى يظهر الشر والفتن العظيمة .

٣ — وعن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : المهدى منا أهل البيت يصلحه الله فى ليلة[٢] .

٤ — وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ المهدى منى أجلى الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين[٣] .

٥ — وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( المهدى من عترتى من ولد فاطمة[٤] .

٦ — وعن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم المهدى تعالى صل بنا فيقول : لا أن بعضهم أمير بعض تكرمة الله لهذه الأمة[٥] .

---

(١) مسند الإمام أحمد جـ ٣ ص ٣٨ مع منتخب الكنز .
(٢) مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ٥٨
(٣) سنن أبى داود — كتاب المهدى جـ ١١ ص ٣٧٥ ومستدرك الحاكم جـ ٤ ص ٥٥٧ وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقال الذهبى : عمران أحد رواة الحديث ضعيف لم يخرج له مسلم .
(٤) سنن أبى داود جـ ١١ ص ٣٧٣ قال الألبانى فى صحيح الجامع صحيح.
(٥) رواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده كما فى المنار المنيف لابن القيم ص ١٤٧ — ١٤٨ قال ابن القيم هذا إسناد جيد .

بعض ماورد فى الصحيحين من الأحاديث فيما يتعلق بالمهدى :

١ — عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم[١] .

٢ — وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة قال : فينزل عيسى بن مريم ﷺ فيقول أميرهم تعال صل لنا فيقول : « لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة »[٢] .

٣ — وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون فى آخر أمتى خليفة يحثى المال حثياً لا يعده عدد » . قال الجريرى[٣] أحد رواة الحديث قلت لأبى نضيرة[٤] وأبى العــلاء أتريان أنه عمر ابن عبد العزيز ؟ فقالا : لا[٥] .

فهذه الأحاديث التى وردت فى الصحيحين تدل على أمرين :

أحدهما : أنه عند نزول عيسى بن مريم — عليه السلام — من السماء يكون المتولى لأمرة المسلمين رجلا منهم .

---

(١) صحيح البخارى كتاب أحاديث الأنبياء — باب نزول عيسى ابن مريم جـ٦ ص ٤٩١ وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب نزول عيسى بن مريم حاكما جـ ٢ ص ١٩٣

(٢) مسلم كتاب الإيمان باب نزول عيسى جـ ٣ ص ١٩٣

(٣) هو أبو مسعود سعيد البصرى توفى سنة ١٤٤ هـ تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ٥ — ٧

(٤) هو المنذر بن مالك توفى سنة ١٠٨ هـ تهذيب التهذيب جـ ١٠

(٥) مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة جـ١٨ ص ٣٨ قال البغوى حديث صحيح .

والثانى : أن حضور أميرهم للصلاة وصلاته بالمسلمين وطلبه من عيسى بن مريم عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلى لهم يدل على صلاح فى هذا الأمير وهدى وهى وإن لم يكن فيها التصريح بلفظ المهدى إلا أنها تدل على صفات رجل صالح يؤم المسلمين فى ذلك الوقت .

وقد جاءت الأحاديث فى السنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التى فى الصحيحين ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمى محمد ابن عبد الله ويقال له المهدى والسنة يفسر بعضها بعضا ومن الأحاديث الدالة على ذلك :

الحديث الذى رواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدى [1] .

فهو دال على أن ذلك الأمير المذكور فى صحيح مسلم الذى طلب من عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام أن يتقدم للصلاة يقال له المهدى .

والأحاديث الواردة فى المهدى المصرحة باسمه أو غير المصرحة هى فى مجموعها خمسون حديثاً جاءت عند الترمذى وأبى داود وابن ماجة والحاكم والطبرانى وأبى يعلى الموصلى وهذه الأحاديث صحيحة وتدل على التواتر فى المعنى وقد نص على ذلك بعض العلماء .

يقول الشوكانى : الأحاديث فى تواتر ما جاء فى المهدى المنتظر التى أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثا فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر وهى متواترة بلاشك ولاشبهة بل يصدق وصف التواتر على ماهو دونها فى جميع الاصطلاحات المحررة فى الأصول وأما الآثار عن الصحابة

---

(١) أشراط الساعة يوسف بن عبد الله يوسف ص ٢٠٠ طيبة ط ١٩٨٩م.

المصرحة بالمهدى فهى كثيرة أيضا لها حكم الرفع إذ لا مجال للاجتهاد فى مثل ذلك [1] .

## المنكرون لأحاديث المهدى :

وأنكر بعض العلماء وجود المهدى نظراً لأن كل حديث ورد فيه ذكره فيه مقال وقد صنف الشيخ عبدالله بن زايد آل حمود فى ذلك كتابه ( لا مهدى ينتظر بعد الرسول سيد البشر ) ومن المنكرين لظهور المهدى ( الشيخ محمد رشيد رضا ) يرى أن المهدى ما هو إلا اسطورة اخترعها الشيعة ثم دخلت فى كتب أهل السنة ويوصف الشيخ محمد رشيد أحاديث المهدى بالتناقض والبطلان فمنها مايقول بأن المهدى هو على بن أبى طالب ومنها ما يقول بأنه ابنه الحسن أو ابن الحسن هذا ومنهم من يورد أنه محمد ابن الحنفية وأنه حى فى جبل رضوى بين مكة والمدينة وعنده عسل وماء ومنها ما يشير إلى أنه رجل اسمه الحارث ويطلب من الناس أن يسعوا إليه لبيعته ولو اقتضى ذلك منهم أن يحبوا على الركب أو على الثلج .

بل أن فيها ثمة خلافا على اسم المهدى هل هو محمد أو أحمد أو الحسن أو الحسين أو على أو أنه من ولد فاطمة أو من ولد العباس أو من ولد الحنفية أو غير ذلك ثم أن ثمة خلافا حول مكان مولده الذى هو فى بعض الروايات المدينة وفى البعض الآخر بلاد المغرب دون تحديد وأما عمره فهو أربعون فى نقل وبين الثلاثين إلى أربعين فى نقل آخر .

---

(١) من رسالة للشوكانى اسمها التوضيح فى تواتر ما جاء فى المهدى المنتظر والدجال والمسيح ) ذكر ذلك صديق حسن فى كتابه الإذاعة ص١١٣ — ١١٤ ونقل ذلك أيضا عن الشوكانى الكتانى فى كتابه ( نظم التناثر من الحديث المتواتر ) ص ١٤٥ — ١٤٦

قال الشيخ محمد رشيد رضا ( أما التعارض فى أحاديث المهدى فهو أقوى وأظهر والجمع بين الروايات فيه أعسر والمنكرون لها أكثر والشبهة فيها أظهر ولذلك لم يعتد الشيخان بشىء من رواياتها فى صحيحها وقد كانت أكبر مثارات الفساد والفتن فى الشعوب الإسلامية [١] .

ثم ذكر نماذج من تعارض أحاديث المهدى وتهافتها — ومن ذلك قوله : أن أشهر الروايات فى اسمه واسم أبيه عند أهل السنة أنه محمد ابن عبدالله وفى رواية أحمد بن عبدالله .

والشيعة الإمامية متفقون على أنه محمد بن الحسن العسكرى وهما الحادى عشر والثانى عشر من أئمتهم المعصومين ويلقبونهم بالحجة والقائم والمنتظر ، وزعمت الكيسانية [٢] أن المهدى هو محمد بن الحنفية وأنه حى مقيم بجبل رضوى ) [٣] .

وقال : المشهور فى نسبه أنه علوى فاطمة من ولد الحسن وفى بعض الروايات من ولد الحسين وهو يوافق قول الشيعة الإمامية وهنالك عدة أحاديث مصرحة بأنه من ولد العباس [٤] .

ثم ذكر أن كثيراً من الإسرائيليات دخلت فى كتب الحديث وكذلك

---

(١) تفسير المنار ج ٩ ص ٤٩٩

(٢) الكيسانية إحدى فرق الرافضة وهم أتباع المختار بن أبى عبيد الثقفى الكذاب وينسبون إلى كيسان مولى على رضى الله عنه وقيل إن كيسان لقب لمحمد بن الحنيفة انظر الفرق بين الفرق ص ٣٨ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد .

(٣) تفسير المنار ج ٩ ص ٥٠١

(٤) السابق ج ٩ ص ٥٠٢

فان للعصبيات العلوية والعباسية والفارسية دوراً كبيراً فى وضع كثير من الأحاديث فى المهدى وكل طائفة تدعى أنه منها وأن اليهود والفرس روجوا لهذه الروايات بقصد تخدير المسلمين حتى يتكلوا على ظهور المهدى الذى يؤيد الله به الدين وينشر العدل فى العالمين )[1] .

ومن المنكرين لظهور المهدى الدكتور كامل مصطفى الشيبى الذى يرى أن جذور هذه الفكرة كانت فى التيار الشيعى الذى أوجده المختار ابن أبى عبيد الثقفى وأنها صارت فيما بعد من عقيدة الشيعة عموما وأنه من ثم حدث التطور الذى وصل ظهور المهدى بنزول عيسى فى أواخر القرن الثالث الهجرى عندما أعلنت غيبة المهدى الإمام الاثنى عشر عند الفرقة الامامية[2] .

ويرى الدكتور أحمد أمين فى كتابه ضحى الإسلام أن الاستعمال الاصطلاحى لكلمة المهدى ظهر أول ماظهر على يد كيسان مولى على ابن أبى طالب وذلك بمناداته بمهدية محمد بن الحنفية ثم بعد ذلك على يد المختار ابن عبيد الثقفى بينما يتوسع الشيخ محمد رضا المظفر فيؤكد أن عقيدة المهدى ليست خاصة بالشيعة أو الإمامية بل هى ثابتة عن النبى ﷺ على وجه عرفها معه جميع المسلمين .

وأن جميع الفرق المسلمة قد آمنت بالمهدى واتجهت إلى انتظار ظهوره وأن الفرق بين الإمامية والمسلمين كافة أن الإمامية ينتظرون واحداً بعينه هو محمد بن الحسن العسكرى المولود ٢٥٦ هـ . والذى اختفى ليرجع فيظهر فى آخر الزمان .

---

(١) السابق جـ ٩ ص ٥٠١

(٢) الإسلام ورؤيته فيما بعد الحياة حسن خالد ص ٢١٠ ط دار النهضة ببيروت .

أما الأستاذ سعد محمد حسن فى كتابه (المهدية فى الإسلام) فهو يرى أن عبد الله بن سبأ كان أول من قال بظهور المهدى وأكد العقيدة فيه وأنه قد ذهب إلى أن المهدى هو على بن أبى طالب وأنه سيرجع فيظهر فى آخر الزمان.

وهو يرى أن الإمامية فى هذه العقيدة انقسمت إلى فرق فكان لكل فرقة مهديها ولكن انتهى أخيراً إلى الالتقاء على مهدية محمد بن الحسن العسكرى ولقد نقل بأن الناس كانوا من قبل يرون أن موسى بن طلحة ابن عبيد الله وكان قد هرب من المختار من الكوفة إلى البصرة هو المهدى كما نقل أن التابعى الكبير سعيد بن المسيب كان يرى أن عمر بن عبدالعزيز هو المهدى[١].

ويرى ابن خلدون فى مقدمته أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على تقلب الدهور كان أنه لابد فى آخر الزمان من ظهور رجل يؤيد الدين ويظهر العدل ويلتف حوله المسلمون . . يسمى بالمهدى ويورد ابن خلدون كثيراً من أحاديث المهدى ويطعن فى كثير من أسانيدها. يقول: (فهذه جملة الأحاديث التى خرجها الأئمة فى شأن المهدى وخروجه آخر الزمان وهى كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه)[٢].

وعبارته تدل على أنه قد تسلم من نقده القليل من الأحاديث .

ونقول لو صح حديث واحد لكفى به حجة فى شأن المهدى كيف والأحاديث فيه صحيحة ومتواترة؟[٣].

---

(١) الإسلام ورؤيته فيما بعد الحياة حسن خالد ص ٢١٠

(٢) مقدمة تاريخ ابن خلدون المجلد الأول ص ٥٧٤

(٣) وسار على منوال ابن خلدون ومحمد رشيد رضا كثيرون فى =

. . . . . . . . . . . . . . .

= إنكار أحاديث المهدى نذكر منهم محمد فريد وجدى فى دائرة المعارف القرن العشرين ج ١٠ ص ٤٨٠ — وأحمد أمين فى كتابه : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٣٣٧ — وعبد الرحمن محمد عثمان فى تعليقه على تحفة الأحوذى ج ٦ ص ٤٧٤ — ومحمد عبد الله عنان فى كتابه موافقة حاسمة فى تاريخ الإسلام ص ٣٥٩ — ٤٦٤ — وعبد الكريم الخطيب فى كتابه المسيح فى القرآن والتوراة والإنجيل ص ٥٥٩ وقد تولى الرد على هؤلاء الشيخ عبد المحسن بن محمد العبا فى كتابه : الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة فى المهدى » وخص منها رسالة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمد فى كتابه : لامهدى ينتظر بعد الرسول ﷺ ).

وبعض أهل السنة والخوارج والزيدية من الشيعة يستنكرون هذه العقيدة فالمهدية عند الزيدية لاتنفصل فى مفهومها عن الإمامة ذاتها فكل فاطمى شجاع عالم زاهد يخرج بالسيف يدعو إلى الحق فهو إمام ومهدى فى آن واحد دون اعتقاد فى المهدية بالمفهوم الذى يفيد انتظار محرر أو مخلص مبعوثا من الله وكل أئمة الزيدية كزيد وابنه يحيى ومحمد (النفس الزكية ) مهديون .

انظر نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثنى عشرية أحمد محمود صبحى ص ٤٠٣ — ٤٠٤ دار المعارف فالزيدية لا تذهب إلى التقية والخوارج يتفقون معهم فى ذلك ومن ثم فان هذه العقيدة عندهم غير ذات موضوع وهم ليسوا فى حاجة إلى انتظار مهدى يخرج بهم لتقويض دولة الظلم بل لعلهم يجدون فى مثل هذه العقيدة ما يثبط الهمم عن جهاد أهل الباطل ) المصدر السابق ص ٤١٧ وأما اختلاف أهل السنة على أنفسهم فى أمر هذه العقيدة قديما يرجع فى أحد أسبابه إلى عدم اخراج البخارى ومسلم لأحاديث المهدى فى صحيحيهما فأداهم ذلك إلى الاختلاف حول صحة الأحاديث وضعفها .

ومن السهولة الرد على الشبه التي أثارها الشيخ رشيد رضا ومن سار على شاكلته على النحو التالي :

أن الروايات في خروج المهدي صحيحة ومتواترة تواتر معنويا — وأما دعوى أن الشيخين . البخاري ومسلم لم يعتدا بشيء من الأحاديث في المهدي فنقول السنة كلها لم تدون في الصحيحين فقط بل ورد في غيرهما أحاديث كثيرة صحيحة في السنن والمسانيد والمعاجم وغيرها .

قال ابن كثير : إن البخاري ومسلما لم يلتزما بإخراج جميع ما يحكم بصحته من الأحاديث فانهما قد صححا أحاديث ليست في كتابيهما كما ينقل الترمذي وغيره عن البخاري تصحيح أحاديث ليست عنده بل في السنن وغيرها )[1] .

وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات فهذا صحيح ولكن أئمة الحديث قد بينوا الصحيح من غيره وضعفوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذاب إلا وظهر أمره فحفظ الله السنة من تحريف الغالين وإذا كان هناك روايات موضوعة في المهدي تعصباً فان ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه .

والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه فإذا عين إنسان شخصا وزعم أنه هو المهدي دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحة فان ذلك لا يؤدي إلى إنكار المهدي على ما جاء في

---

(١) باعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير ص ٢٥ تأليف أحمد شاكر ط دار الكتب العلمية .

الحديث ثم أن المهدى الحقيقى لا يحتاج إلى أن يدعو له أحد بل يظهره الله للناس إذا شاء ويعرفونه بعلامات تدل عليه وأما دعوى التعارض فقد نشأت عن الروايات التى لم تصح .

وأما الأحاديث الصحيحة فلا تعارض فيها وأيضا فان خلاف الشيعة مع أهل السنة لا يعتد به والحكم العدل هو الكتاب والسنة الصحيحة وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم فلا يجوز أن تكون عمدة يرد بها ما ثبت من حديث رسول الله ﷺ .

« حديث لا مهدى إلا عيسى بن مريم » والجواب عنه :

احتج بعض المنكرين لأحاديث المهدى بالحديث الذى رواه ابن ماجة والحاكم عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الدنيا إلا إدبارا ولا الناس إلا شحا ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس ولا المهدى إلا عيسى بن مريم»[١] .

قال ابن تيمية : هذا الحديث ضعيف[٢] .

وقال أبو عبد الله القرطبى : يحتمل أن قوله عليه السلام ولا مهدى إلا عيسى «أى لا مهدى كاملا معصوماً إلا عيسى وعلى هذا تجتمع الأحاديث ويرتفع التعارض[٣] .

ومن المفيد أن نذكر كلمة فى هذا الموضوع ذكرها الشيخ

---

(١) سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٣٤٠ — ١٣٤١ ومستدرك الحاكم جـ ٤ ص ٤٤١ — ٤٤٢ .

(٢) منهاج السنة النبوية جـ ٤ ص ٢١١ .

(٣) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٦١٧ .

حسن خالد[1] تحت عنوان « العقيـــدة الإسلامية ودعوى المهدية » .

أن الاعتقاد بظهور المهدى آخر الزمان ليس أصلا من أصول الدين كالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والرسل والكتب والقضاء والقدر والبعث والحساب والجنة والنار التى هى من العقائد الإسلامية التى أمر القرآن الكريم بالأخذ والالتزام بها فهو مما لم يأت القرآن على ذكره ولا طلب الإيمان به لا صراحة ولا تلميحا صحيح .

أننا لا نستطيع تجاهل خبر المهدى ولا الروايات العديدة التى نقلته ولا الرواة الكبار الذين اعتمدوه ولا نستطيع نسيان تأثر الكثيرين من الناس بها على اختلاف العصور ثم استغلالهم لها وتفاعلهم معها حتى كان البعض منهم يتسابقون فى تهيىء أولادهم لها بل إننا نعتبر هذا وإلى جانبه تطلع الكثيرين من الطامعين فى السلطان والملك لانتحال صفة المهدى وادعائها والخروج بها على ضعفاء الناس وبسطائهم هو الذى يزيد فى حملنا على الاعتقاد بأن نظرية المهدى دخيلة على الإسلام وبالتالى على عقائده وعلى الميل إلى القول بأن الأخذ بها ليس مفروضا .

على أنه يمكن تأويل الروايات الصحيحة الواردة فى هذا الخبر التى نقلتها كتب الصحاح بأن يكون المراد من المهدى هو مجدد دينى ينشط أمر الأمة السياسى وشأنها الروحى والدينى وخاصة وأن أكثر النصوص الواردة حول هذا الموضوع يفيد هذا المعنى ويؤكده ما ورد من أنه على رأس كل مئة سنة يبعث الله فى الأمة من يجدد لها أمر دينها فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال . إن الله يبعث لهذه

---

(١) حسن خالد مفتى لبنان الإسلام ورؤيته فيما بعد الحياة ص ٣٢٠ — ٢٢٣ .

الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها ، رواه أبو داود والطبرانى فى الأوسط والحاكم .

وقد ذكر العجلونى من هؤلاء عمر بن عبد العزيز والشافعى والأشعرى والأسفرايينى والباقلانى والغزالى والرازى ثم قال ما يؤيد ما ذهبنا إليه بعد أن ذكر آخر هؤلاء المهدى ظنا أو المسيح عليه السلام قال ابن كثير وقد ادعى كل قوم فى إمامهم أنه المراد بهذا الحديث والظاهر والله أعلم أنه يعم حملة العلم من كل طائفة وكل صنف من أصناف العلماء[1] .

(١) كشف الخفاء ج ١ ص ٢٤٣ ابن كثير .

## خروج الدجال

اسمه : الدجال بفتح الدال وتشديد الجيم من الدجل وهو التغطية وسمى الدجال دجالا لأنه يغطى الحق بباطله ولقب الدجال بالمسيح كعيسى لأن كلا منهما يمسح الأرض فالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام الصديق والمسيح الدجال الضليل الكذاب فخلق الله المسيحين أحدهما ضد الآخر . فعيسى عليه السلام مسيح الهدى يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله .

والمسيح الدجال — لعنه الله — مسيح الضلالة يفتن الناس بما يعطاه من الآيات كإنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات وغيرهما من الخوارق وسمى الدجال مسيحا : لأن أحدى عينيه ممسوخة أو لأنه يمسح الأرض فى أربعين يوما [١] .

وخروج الدجال حق ثابت ووجوده فى آخر الزمان صحيح حاصل وأن خروجه علامة من علامات الساعة واستند أهل الحق على ذلك بصريح السنة وصحيحها ففى الصحيحين عن ابن عمر — رضى الله عنهما — اللفظ للبخارى — قال : ذكر الدجال عند النبى ﷺ فقال : إن الله لايخفى عليكم أن الله ليس بأعور وأشار بيده إلى عينه وأن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينيه طافية وعند مسلم طافئة [٢] .

---

(١) انظر النهاية فى غريب الحديث جـ ٥ ص ٣٢٦ ولسان العرب جـ٢ صـ ٥٩٤ — ٥٩٥

(٢) راجع رواية مسلم فى صحيح مسلم جـ ٤ صـ ٢٢٤٧ باب ذكر الدجال وصفته ومامعه ( كتاب الفتن وأشراط الساعة ) وقوله طافية بدون الهمز ( وطافئة ) بالهمز كلاهما صحيح رواية والمعنى فى طافية التى نتأت وطفت مرتفعة . والمعنى فى ( طافئة ) التى ذهب ضوؤها .

صفته :

بين لنا الرسول ﷺ بعض الصفات الخلقية للدجال فمن صفاته أنه قصير جسيم أحمر اللون أعور العين اليسرى قد غطتها جلدة غليظة أما عينه اليمنى فهى جاحظة فوق رأسه شعر شديد الجعودة بشع المنظر منفرج الرجلين فى المشى فقد روى مسلم عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ إن الدجال ممسوح العين عليها ظفيرة [١] غليظة مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب ) يعنى أن ملامحه العامة تجعل من يراه يجزم بأنه كافر — وروى مسلم عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ الدجال أعور العين اليسرى جفال الشعر ) [٢] .

وأخرج الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : بينما أنا نائم رأيتنى أطوف بالكعبة فإذا رجل جسيم ، أحمر جعد الرأس أعور العين كأن عينه عنبة طافية [٣] .

قالوا : هذا الدجال ورؤيا الأنبياء حق .

وروى أبو داود أن المسيح الدجال رجل أفحج — والأفحج : المنفرج الرجلين فى المشى .

مكان خروجه وتطوافه فى الأرض :

تذكر الروايات متفقة على أن الدجال سيخرج من ناحية الشرق فقد ذكر الترمذى بسند صحيح عن أبى بكر الصديق أن رسول الله ﷺ

(١) جلدة تغطى البصر (٢) كثير الشعر
(٣) طافية جاحظة

قال : الدجال يخرج من المشرق من أرض خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة ، ثم يتجه الدجال نحو الغرب فيمر بأصبهان فيتبعه من يهودها سبعون ألفا [1] .

فقد روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : ( تبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة ) ومن البدهى أنه لايراد بقول رسول الله سبعون ألفا الحصر ولكن : الكثرة ثم يتابع سيره نحو الغرب فيدخل البلاد ويتبعه أهل الفساد .

ويدخل المدن والقرى — حاشا مكة والمدينة — حيث يمنعه الله من دخولهما لشرفها ومنزلتهما عند الله فقد روى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله : ( ليس من بلد إلا سيطؤها الدجال إلا مكة والمدينة وليس نقب من أنقابها — أى مدخل — إلا عليه ملائكة صافين تحرسها فينزل بالسبخة فترجف المدينة ثلاث رجفات يخرج إليه منها كل كافر ومنافق. ويقول ( التفتازانى ) فى المقاصد : ويشبه أن يكون حديث خروج الدجال متواتر المعنى [2] .

ومن أوصافه أنه لايولد له ولايدخل مكة ولا المدينة وأنه يهودى كما جاءت السنة الصحيحة [3] .

---

(١) العقيدة الإسلامية فى مواجهة المذاهب الهدامة د/ محمد أبو الغيط ص ٣١٨ .

(٢) المقاصد ج ٢ ص ٣٢٥

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٤ كتاب الفتن باب ذكر ابن صائد أحاديث أرقام ٨٩ ، ٩٠

دعوته :

لقد ورد فى الأحاديث مايدل على أنه يدعى الألوهية وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى ، من إحياء الميت الذى يقتله ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه جنته وناره وأمره السماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تنبت فتنبت فيقع كل ذلك بقدرة الله ومشيئته ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ويبطل أمره ويقتله عيسى ﷺ ويثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وهذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار[1] .

بشهادة الأحاديث الصحيحة التى ذكرها البخارى ومسلم وغيرها من أصحاب الصحاح والسنن .

مدة لبثه فى الأرض :

وليس غريباً أن نتساءل عن مـــدة لبث الدجال فى الأرض فقد تساءل عنه أصحاب رسول الله ﷺ فسألوا رسول الله ﷺ فقالوا : يارسول الله ومالبثه فى الأرض فقد قال رسول الله : ( أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم ) قلنا يارسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : ( لا اقدروا له قدره ) أخرجه مسلم وأبو داود ـ ويتعجب أصحاب رسول الله ﷺ كيف يستطيع بهذه المدة اليسيرة أن يقطع تلك الفيافى

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٤٧ وراجع عن أوصافه وأحواله ومظاهر فتنته شرح الخريدة ص ٦١ — ٦٢

والقفار ويطوف البلاد من خراسان إلى الجزيرة العربية وهم فى وقت ليس لديهم من وسائل النقل أسرع من الخيل ويخبر رسول الله أصحابه أنه يسير لابسرعة الإبل ولا بسرعة الخيل بل بسرعة فائقة فقد روى مسلم وغيره عن النواس بن سمعان قال: قلنا يارسول الله وما إسراعه فى الأرض قال: كالغيث استدبرته الريح.

نهايته:

ومايزال الدجال يطوف البلاد ويغوى العباد حتى ينزل الله تعالى عيسى بن مريم فيطلبه فيدركه بباب (لد) وهى بلدة قريبة من بيت المقدس فيقتله.

الاستعاذة منه:

يجب علينا أن نؤمن بأن للدجال من علامات الساعة فان النبى ﷺ أخبر فى الصحيح بذلك وكان يستعيذ فى صلاته من فتنة الدجال [1].

والحكمة من وجوده: هى اختبار الناس ليتحق التمايز بين المؤمن وغير المؤمن وبخاصة المنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان [2].

---

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم ج ٢ ص ٣٣٦ د. موسى شاهين لاشين.

(٢) العقيدة الإسلامية فى مواجهة المذاهب الهدامة د/ محمد أبو الغيط ص ٣٢١ دار البحوث العلمية الكويت ط أولى.

### ٣ — نزول عيسى عليه السلام :

ومن العلامات الدالة على دنو قيام الساعة العظمى نزول عيسى عليه السلام من السماء للخبر الصريح الوارد فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير[١]...

وقد نقل السفارينى انعقاد الاجماع على أن عيسى عليه السلام سينزل ويحكم بشريعة محمد ﷺ[٢] .

### وصفه :

وقد نقلت بعض الأحاديث وصفه عليه السلام فنقل البخارى أنه أحمر جعد عريض الصدر وفى رواية أنه أدم كأحسن ماأنت راء من أدم الرجال سبط ) وفى رواية أخرى لمة بين منكبيه وأنه رجل الشعر ثم فى رواية ثانية « مربوع إلى أحمر والبياض وكأنما خرج من ديماس يعنى حمام[٣] .

وقد وفق بعض العلماء بين هذه الروايات من كونه فى بعضها أحمر وبعضها أدم وماجاء أنه سبط الشعر وفى بعضها بأنه جعد أنه لامنافاة بين الحمرة والأدمة لجواز أن تكون أدمته صافية[٤] .

---

(١) صحيح البخارى أحاديث الأنبياء باب نزول عيسى وصحيح مسلم باب نزول عيسى حاكما .

(٢) لوامع الأنوار جـ ٣ ص ٩٤

(٣) صحيح مسلم جـ ٣ ص ٢٣٦

(٤) لوامع الأنوار جـ ٢ ص ٩٤

أخباره :

ورد من أخباره أن الكنوز تظهر فى زمنه وأنه لو يقول للبطحاء سيلى عسلا لسالت وأنه لايوجد من يحتاج إلى الزكاة وأنه هو لايرغب فى اقتناء المال وينشر السلام فى الأرض حتى لترعى الشاة مع الذئب فلا يضرها ويعز الإسلام ولايقبل سواه ويقرر شريعته ويبسط العدل بين الناس .

ففى صحيح مسلم :

( والله لينزلن ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد ) .

صفة نزوله عليه السلام :

بعد خروج الدجال وإفساده فى الأرض يبعث الله عيسى عليه السلام فينزل إلى الأرض ويكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقى دمشق الشام وعليه مهرودتان[1] .

ويدخل عليه المسلمون والمسيحيون واليهود وبعد ارتفاع الآذان لايبقى فية غير المسلمين وإنه يمكث فى الأرض أربعين عاما ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون[2] .

وأنه هو الذى يقتل الدجال عند باب اللد ويقضى على جماعة اليهود

---

(١) مهرودتان : روى بالدال المهملة والذال المعجمة والمهملة أكثر والمعنى لابس مهرودتين أى ثوبين مصبوغتين بورس ثم زعفران انظر شرح النووى لمسلم جـ ١٨ صـ ٦٧ ولسان العرب جـ ٣ صـ ٤٣٥

(٢) العقيدة الإسلامية فى مواجهة المذاهب الهدامة د / أبو الغيط صـ ٣٢٢ — ٣٢٣

حتى أن الشجر والحجر لينادى إذ ذاك ياعبد الله هذا يهودى فتعال فاقتله إلا شجر الغرقد وهو شجر اليهود .

ثم إن عيسى عليه السلام يزور المدينة أخيراً ويزور قبر الرسول ويحج البيت الحرام وتكون وفاته فى المدينة المنورة ويدفن فيها وفى رواية يدفن مع رسول الله وصاحبيه فيكون رابعا .

## أدلة نزول عيسى عليه السلام :

نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان ثابت فى الكتاب والسنة الصحيحة المتواترة وذلك علامة من علامات الساعة الكبرى .

### ١ — من القرآن الكريم :

١ — قال الله تعالى : ( ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون إلى قوله تعالى ( وإنه لعلم للساعة ) [١] .

فهذه الآيات جاءت فى الكلام على عيسى عليه السلام وجاء فى آخرها قوله تعالى ( وإنه لعلم للساعة ) أى أن نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيام علامة على قرب الساعة ويدل على ذلك القراءة الآخرى ( وانه لعلم للساعة ) بفتح العين واللام أى علامة وأمارة على قيام الساعة وهذه القراءة مروية عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما من أئمة التفسير [٢] .

وروى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير هذه الآية ( وانه لعلم للساعة ) قال : هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة [٣] .

---

(١) سورة الزخرف ٥٧ — ٦١ .
(٢) تفسير القرطبى ج ١٦ ص ١٠٥ والطبرى ج ٢٥ ص ٩٠
(٣) مسند أحمد ج ٤ ص ٣٢٩ تحقيق أحمد شاكر وقال : إسناده صحيح .

وقال ابن كثير (الصحيح أنه — أى الضمير — عائد على عيسى فإن السياق فى ذكره[1] واستبعد أن يكون معنى الآية : ما بعث به عيسى عليه السلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من ذوى الأسقام وأبعد من ذلك ما روى عن بعض العلماء أن الضمير فى (وأنه) عائد على القرآن الكريم)[2] .

٢ — قول الله تعالى : (وأن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً)[3] .

وجه الدلالة فى الآية أن فريقاً من أهل الكتاب سيؤمن بعيسى عليه السلام إيماناً صحيحاً كما أخبر القرآن عنه بأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ولا يكون ذلك إلا بعد نزوله من السماء قبيل الساعة.

وهذا يؤكد ما يعتقده أهل السنة من أن عيسى عليه السلام قد رفع إلى السماء حياً وأنه لم يمت بل انتقل من حياة أرضية إلى حياة أخرى يعلمها الله تعالى .

وأنه سيعود إلى الحياة الأرضية مرة ثانية ليقيم أحكام الشريعة الإسلامية ولا يأتى برسالة جديدة وتصبح الملة آنذاك ملة واحدة .

قال ابن تيمية فى جوابه لسؤال وجه إليه عن وفاة عيسى ورفعه .

الحمد لله : عيسى عليه السلام حى وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٢٢ .

(٢) المرجع السابق جـ ٧ ص ٢٢٣  (٣) النساء ١٥٩

(٤) نقلاً عن أشراط الساعة ٢٦٩ يوسف بن عبد الله دار طيبة ابن الجوزى .

على أن ثمة أخباراً تفيد أن عيسى عليه السلام قد مات .

فعن وهب بن منبه أن الله تعالى توفى عيسى ثلاث ساعات ثم رفعه إلى السماء ، كما روى ابن طلحة عن ابن عباس أن معنى قوله تعالى : إنى متوفيك ) هو مميتك[١] .

والفهم الذى عليه الكثير من العلماء المعاصرين هو أن التوفى فى الآية يراد منه الموت وأن عيسى عليه السلام قد مات وإن كانوا جميعاً لا يستبعدون أن يكون الله تعالى قد استبقى لعيسى عليه السلام الحياة ورفعه إليه بالوصف المذكور ولا يستكثرون على قدرة الله شيئاً[٢] .

ويرتكز الفهم الأول إلى نصوص ثبتت صحتها فى الصحاح وإلى أن المدلول اللغوى لكلمة التوفى مع القرينة اللفظية المتبعة وهى قوله تعالى: ( ورافعك إلى ) تنفى أن يكون المراد من التوفى الموت الحقيق .

خصوصاً وأن القرآن الكريم قد استعملها فى آيات من الكتاب بغير معنى الموت كما فى قوله تعالى :

( الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها )[٣] .

وقوله : ( وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار )[٤] .

ولو كان مراد الله تعالى — وهو أعلم — التوفى بمعنى الموت فلماذا أتبع التوفى بقوله : ( ورافعك إلى) .

---

(١) حسن خالد الإسلام ورؤيته فيما بعد الحياة ص ٢٤٠
(٢) المرجع نفسه
(٣) الزمر ٤٢ (٤) الأنعام ٦٠

فإذا كان رفع الروح فقد ثبت أن جميع الأرواح ترفع ولا جديد فلم يبق إذن إلا أن يكون المراد من قوله تعالى :

( إنى متوفيك إنى قابضك ) ويكون على هذا التأمل أن التوفى بمعنى الأماتة يكون بعد إنزاله تعالى من السماء إلى الدنيا فى آخر الزمان كما هو مفهوم النصوص الواردة فى الأحاديث .

وعلى هذا الفهم يكون الله تعالى قد رفع عيسى عليه السلام بروحه وجسده حياً إلى السماء من غـــير وفاة ولا نوم كما قاله القرطبى واختاره الطبرى والكثيرون من العارفين يقولون بأنه رفع إلى السماء الرابعة .

ويقول ابن عباس أن الله تعالى رفعه إلى السماء الدنيا فهو فيها يسبح مع الملائكة ثم يهبطه الله تعالى عند ظهور الدجال على صخرة بيت المقدس[1] .

أدلة نزوله من السنة :

١ — روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الحرب ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ) ثم يقول أبو هريرة واقرأوا إن شئتم ) وأن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً )[2] .

---

(١) الألوسى جـ٣ ص ١٨٢

(٢) صحيح البخارى كتاب أحاديث الأنبياء باب نزول عيسى بن مريم جـ٦ ص ٤٩٠ — ٤٩١ ومسلم باب نزول عيسى حاكما جـ ٢ ١٨٩

٢ — وروى الشيخان أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم)[1]

٣ — وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : ( لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة قال فينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم : صل لنا فيقول : لا أن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة )[2] .

٤ — وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ( الأنبياء أخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وإني أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي وأنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه )[3] .

## الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام متواترة :

ذكرت فيما سبق بعض الأحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام ولم أذكر جميع الأحاديث الواردة في نزوله خشية التطويل .

وقد جاءت هذه الأحاديث في الصحاح وهي تدل دلالة صريحة على ثبوت نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان .

وبعض العلماء مثل الشيخ محمود شلتوت أنكر على من قال برفع عيسى عليه السلام ببدنه وأنكر نزوله في آخر الزمان ورد الأحاديث الواردة

---

(١) صحيح البخاري ج ٦ ص ٤٩١ باب نزول عيسى ، ومسلم باب نزول عيسى حاكما .

(٢) صحيح مسلم باب نزول عيسى بن مريم حاكما ج٢ ص١٩٣ — ١٩٤

(٣) مسند أحمد ج٢ ص٤٠٦ بهامشه منتخب الكنز .

فى ذلك وقال أنه لا حجة فيها لأنها أحاديث آحاد[1] وأحاديث الآحاد ليس لها قوة الأحاديث المتواترة ولا قوة نص القرآن . وأحاديث الآحاد وإن كان يمكن الاستفادة منها بالتعرف إلى الأحكام الشرعية إلا أنها لا تكون ملزمة إن كانت متعلقة بشأن اعتقادى لأن الأمور الاعتقادية لا يؤخذ بها وتكون ملزمة إلا إذا كانت واردة بنص قطعى يفيد اليقين وذلك كنص القرآن ونص الحديث المتواتر[2] .

وعلى هذا يذهب الشيخ شلتوت إلى القول بأن مفهوم التوفى فى قوله تعالى ( إنى متوفيك ورافعك إلى ) هو على ظاهره أى مميتك ومفهوم الرفع هو رفع المكانة لا رفع الجسد وهو ماذهب إليه ابن حزم والشيخ محمد عبده .

ويرى الشيخ محمد رشيد رضا ( أن خبر رفع عيسى عليه السلام بجسمه وروحه ثم نزوله غير وارد بصراحة لا فى القرآن ولا فى الحديث وأن ذلك المفهوم انتشر فى المسلمين بتأثير من النصارى الذين استطاعوا بأسلوب ما دفعه فى اتجاه الفكر الإسلامى بحيث أصبح مع الزمن مقبولا وفى هذا يقول فى كتابه تفسير المنار : ( وليس فى القرآن نص صريح على أن عيسى رفع بروحه وجسده إلى السماء وليس فيه نص صريح بأنه ينزل

---

(١) يقول بعض العلماء أن الأحاديث التى حملت أخبار نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان بعضها مرفوع إلى رسول الله وبعضها صحيح وبعضها آراء للمفسرين أو لبعض من أسلم من أهل الكتاب وأنها كلها لم تتجاوز أن تكون أحاديث آحاد وأحاديث الآحاد ليس لها قوة الأحاديث المتواترة ولا قوة نص القرآن — حسن خالد الإسلام ورؤيته فيما بعد الحياة .

(٢) الفتاوى ص ٥٩ — ٨٢ محمود شلتوت طبع دار الشروق ط ٥ ١٣٩٦ هـ

من السماء وإنما هى عقيدة أكثر النصارى. وقد حاولوا منذ ظهور الإسلام بثها فى المسلمين :

ويقول أيضا: وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يصلح العالم فمن السهل أن يصلحه على يد أى مصلح ولا ضرورة اطلاقا لنزول عيسى أو أى أحد من الأنبياء»[1] .

ويؤكد هـذا المعنى الشيخ محمد أبو زهرة الذى يقول بأن هذه الأحاديث فضلا عن أنها ليست متواترة لم تشتهر قط إلا بعد القرون الثلاثة الأولى[2] .

وبناء على هذا الرأى يكون للنص تأويلا يخرج به عما وضع له من الحقيقة إلى المجاز ويمكن أن يكون من معانيه أن المسيحية فى آخر الزمان تستقيم وتتخلص مما اعتراها من الوثنيات والفلسفات المنحرفة وتعود إلى صفائها السماوى فتلتقى مع الإسلام فيكسر أهلها الصليب ويقتلون الخنزير ويتجافون عن جميع المحرمات ويتبعون صراط الله المستقيم وينضوون تحت راية الإسلام الذى ارتضاه الله لعباده[3] .

ولكنى أرى أن النص محمول على ظاهره وعيسى سينزل فى آخر الزمان .

ولا حجة لمن رد الأحاديث أو قال أنها أحاديث آحاد لا تقوم بها الحجة أو أن نزوله ليس عقيدة من عقائد المسلمين التى يجب عليهم أن يؤمنوا بها .

لأنه إذا ثبت الحديث وجب الإيمان به وتصديق ما أخبر به الصادق

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا .

(٢) نقلا عن المسيحية د / أحمد شلبى ص٥٤

(٣) الشيخ حسن خالد ــ الإسلام ورؤيته فيما بعد الحياة ص٢٤٣

المصدوق ﷺ ولايجوز لنا رد قوله لكونه حديث آحاد لأن هذه حجة واهية لأن حديث الآحاد إذا صح وجب تصديق ما فيه وإذا قلنا إن أحاديث الآحاد ليس بحجة فاننا نرد كثيراً من أحاديث رسول الله ﷺ ويكون ماقاله عليه السلام عبثاً لامعنى له ، كيف والعلماء قد نصوا على تواتر الأحاديث فى نزول عيسى عليه السلام .

قال ابن جرير الطبرى بعد ذكره الخلاف فى معنى وفاة عيسى:(وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال : معنى ذلك : إنى قابضك من الأرض ورافعك إلى ) لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال : ينزل عيسى بن مريم فيقتل الدجال )[١] .

ثم ساق بعض الأحاديث الواردة فى نزوله ، وقال ابن كثير : « تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلا وحكما مقسطا »[٢] .

وإلى هذا ذهب ابن حنبل والأشعرى والطحاوى وابن تيمية[٣] .

الحكمة فى نزول عيسى عليه السلام

إن ظهور عيسى عليه السلام فى آخر الزمان هو من الأخبار التى روت ولها مايبررها فقد ثبت قطعاً بنص القرآن الكريم أن اليهود لم يقتلوه ولم يصلبوه وإن ماحصل هو تشبيه فكان المصلوب غير عيسى عليه السلام وفى

---

(١) تفسير الطبرى ج ٣ ص ٢٩١

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٢٣

(٣) انظر طبقات الحنابلة وشرح العقيدة الطحاوية ومجموع الفتاوى ج ٤ ص ٣٢٩ .

القرآن يقول الله تعالى مخاطباً عيسى عليه السلام : ( إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا .. ) [1] .

والعلماء يقولون: إن المراد من هذا : « إنى قابضك » وإن الرفع والتوفى بمعنى واحد وأنه لهذا لم يمت عليه السلام بعد .

وأن هذا هو الصحيح .

ومختصر قصة عيسى هذه أنه لما أراد بعض اليهود قتل عيسى اجتمع الحواريون فى غرفة وهم أثنا عشر رجلا فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة فأخبر إبليس جمع اليهود فركب منهم أربعة آلاف فأخذوا باب الغرفة فقال المسيح للحواريين أيكم يخرج ويقتل ويكون معى فى الجنة فقال رجل أنا يانبى الله ! !

فألقى عليه مدرعة ( ثوب ) من صوف وعمامة من صوف وناوله عكازه وألقى عليه شبه عيسى فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه وأما المسيح فكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فطار مع الملائكة )[2] .

— أن نزول عيسى عليه السلام من السماء لدنو أجله ليدفن فى الأرض إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت فى غيرها فيوافق نزوله خروج الدجال فيقتله عيسى عليه السلام .

— أنه ينزل مكذباً للنصارى فيظهر زيفهم فى دعواهم الأباطيل ويهلك الله الملل كلها فى زمنه إلا الإسلام فإنه يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية .

---

(١) آل عمران ٥٥

(٢) تفسير القرطبى ج ٤ ص ١٠٠

ويحكم عيسى عليه السلام بالشريعة الإسلامية ويكون من أتباع محمد ﷺ فإنه لا ينزل بشرع جديد لأن دين الإسلام خاتم الأديان و باق إلى قيام الساعة لا ينسخ .

فيكون عيسى حاكما من حكام هذه الأمة ومجدداً لأمر الإسلام إذ لانبي بعد محمد ﷺ .

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم » .

وأما مدة بقاء عيسى عليه السلام في الأرض بعد نزوله فقد جاء في بعض الروايات أنه يمكث سبع سنين وفي بعضها أربعين سنة فيبعث الله عيسى بن مريم . . ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته[1] .

وفي رواية أحمد وأبي داود (فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون[2] وكلاهاتين الروايتين صحيحة وهذا مشكل إلا أن تحمل رواية السبع سنين على مدة إقامته بعد نزوله ويكون ذلك مضافا إلى مكثه في الأرض قبل رفعه إلى السماء وكان عمره إذ ذاك ثلاثا وثلاثين سنة على المشهور )[3] .

---

(١) مسلم باب ذكر الدجال جـ ١٨ ص ٧٥ — ٧٦

(٢) مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ٤٠٦ بهامشه منتخب الكنز — قال ابن حجر صحيح ومسند أبو داود كتاب الملاحم باب خروج الدجال جـ ١١ ص ٤٥٦

(٣) النهاية في الفتن والملاحم جـ ١ ص ١٤٦ تحقيق د/ طه زيني .

## يأجوج ومأجوج

يأجوج ومأجوج اسمان عجميان لأقوام يبلغون من الكثرة مبلغاً عظيماً يفسدون فى الأرض أيمـــا إفساد وخروجهم يكون بعد خروج الدجال وقتل عيسى إياه[١].

حيث ينكسر سد يأجوج ومأجوج وهم أمة فاسدة مفسدة تروع الناس وتنشر فى الأرض الفزع والخراب، قال تعالى : ( إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض .. )[٢].

ودلائل خروجهم واردة فى القرآن والسنة الصحيحة.

فمن القرآن : ( حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق )[٣] هو القيامة.

قال المفسرون : ( أي حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج ( وهم من كل حدب ينسلون ) أى وهم لكثرتهم من كل مرتفع من الأرض ومن كل أكمه وناحية يسرعون للنزول.

والمراد : أن يأجوج ومأجوج لكثرتهم يخرجون من كل طريق للفساد فى الأرض ( واقترب الوعد الحق ) أى اقترب وقت القيامة. قال المفسرون . جعل الله خروج يأجوج ومأجوج علماً على قرب الساعة.

قال ابن مسعود : ( الساعة من الناس بعد يأجوج ومأجوج ).

---

(١) المقاصد جـ٢ صـ٢٢٧ (٢) الكهف آية ٩٤
(٣) الأنبياء ٩٦ — ٩٧.

كالحامل المتمم لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولدها ليلا أو نهاراً)[١].

وأما السنة: فالأحاديث الدالة على ظهور يأجوج ومأجوج كثيرة تبلغ حد التواتر المعنوى ومنها ما ثبت فى الصحيحين عن أم حبيبة بنت أبى سفيان عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوماً فزعاً يقول: لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بأصبعيه الإبهام والتى تليها — قالت زينب بنت جحش فقلت يارسول الله أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث)[٢].

## تحديد المنطقة ويأجوج ومأجوج

ذكر القرآن الكريم قصة يأجوج ومأجوج فى سورة الكهف وكيف أن ذا القرنين حجز هؤلاء الأقوام الذين اتصفوا بالشر والطغيان خلف السد الذى بناه وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنه سيأتى ذلك اليوم الذى ينطلق فيه هؤلاء الأقوام من خلف السد فيفسدون فى الأرض أيما فساد ويطغون ويبغون ويخاف الناس بأسهم والله سوف يوحى لعيسى عليه السلام أن يلوذ بالمؤمنين بجبل الطور ويلجأ وهو ومن معه إلى الجبل وسيحاصرهم أولئك الأقوام فلا يجد عيسى ومن معه من ملجأ إلا الله فيلجأون إليه بالدعاء فيرسل الله على يأجوج ومأجوج نوعاً من الدود يقتلهم جميعاً.

وينزل عيسى ومن معه من الجبل إلى الأرض فلا يجدون فى الأرض

---

(١) صفوة التفاسير ج٩ ص٨٦٠

(٢) صحيح البخارى كتاب الأنبياء قصة يأجوج ومأجوج ج٦ص٣٨١ وصحيح مسلم كتاب اليقين وأشراط الساعة.

(٣) انظر الحديث فى مسلم والترمذى وأبى داود.

موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبي الله وأصحابه فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا دبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة(١).

وهكذا يقضي الله عز وجل على هؤلاء الأشرار من عباده .

والحكمة ماترك الله أمر تحديد المنطقة التي وجد فيها ذو القرنين أولئك القوم ولأمر ما لم يشأ سبحانه إبراز وصف أولئك القوم ووصف يأجوج ومأجوج .

وأما في الأخبار فقد روي عن أبي قتادة قوله : يأجوج ومأجوج اثنتان وعشرون قبيلة، بنى ذو القرنين السد على إحدى وعشرين وكانت قبيلة منهم غائبة في الغزو وهم الترك فبقوا دون السد وفي هذا الخبر نوع وصف لأولئك القوم حيث يفيدنا بأن الترك منهم وقد ورد في أحد الأقوال أنهم من ولد يافث وأن يافث هو أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج .

وقد ذهب بعض المحققين إلى القول بأن يأجوج ومأجوج قد خرجوا وأنه قد فتح لهم خصوصاً وأن القرآن يقرن خروجهم بخبر إقتراب الوعد الحق والرسول ﷺ يقول : ( بعثت أنا والساعة كهاتين ) والقرآن يوم نزوله قال : ( اقتربت الساعة وانشق القمر ) الأمر الذي يشعر بأن هذا القرب قد كان منذ مبعث الرسول ﷺ ونزول الوحي عليه ولذلك فإن الغالب كما قال القاسمي رحمه الله أن المراد بخروجهم هذا خروج المغول والتتار وهم من نسل يأجوج ومأجوج وهو الغزو الذي حصل منهم للأمم في القرن السابع الهجري وناهيك بما نعلوه إذ ذاك في الأرض ، بعد أن انتشروا فيها من الافساد والنهب والقتل والسبي .

والراجح: أن السد كان موجوداً باقليم داغستان التابع الآن لروسيا بين مدينتى دربند وخوارزم ولايزال منه حتى الآن بقايا ضخمة موصولة بالقلعة المشرفة على بلدة دربند وعلى البحر فإنه يوجد بينهما مضيق شهير منذ القدم يسمى عند كثير من الأمم القديمة والحديثة بالسد وبه موضع يسمى باب الحديد وهو أثر سد حديدى قديم بين جبلين من جبال القوقاز الشهيرة عند العرب (بجبل قاق) وقد كانوا يقولون :[1] أن فيه السد كغيرهم من الأمم )[2] .

ويقول فى موضع آخر : (كما تؤول صفات يأجوج ومأجوج إلى مايصح اطلاقها به على التتر والمنشورية ويكون وعد الله الذى يدك السد هو قرب الساعة .

ولا شك أنها قربت باعلام الشارع وحينئذ يكون الفساد الموعود به فى النصوص من أولئك القوم هو ماوقع من التتر من الفساد فى الممالك كما فى عهد جنكيز خان وماعثاه هو وأصحابه فى الدنيا والله أعلم[3] .

أما الرازى فيقول محدداً موضع السدين : الأظهر أن موضع السد فى ناحية الشمال ، وقيل : جبلان بين أرمينية وأذربيجان ، وقيل هذا المكان فى منقطع أرض الترك .

وحكى محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام

---

(١) حسن خالد — الإسلام ورؤيته فيما بعد الحياة ص ٢٥٠—٢٥١ دار النهضة - بيروت -

(٢) تفسير القاسمى جـ ٧ ص ٩٨

(٣) المصدر نفسه نقلا عن الشيخ حسن خالد

فتحها وجه إنساناً إليه من ناحية الخرز فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع وراء خندق عميق وثيق منيع )[١] .

وروى الإمام أحمد عن ابن حرملة عن خالته قالت خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب فقال : « إنكم تقولون لاعدو لكم وأنكم لاتزالون تقاتلون عدواً حتى يخرج يأجوج ومأجوج عراض الوجوه صغار العيون صهب ( حمرة أو شقرة فى الشعر ) من كل حدب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة »[٢] .

وكل هذه الأخبار توجه الأنظار إلى الشرق أو إلى الشمال الشرقى ولكن ثمة رأياً معاصراً يعتبر يأجوج ومأجوج قوماً يشملون الترك والروس والروم والانجليز والفرنسيين والألمان والأمريكان هؤلاء الذين أتوا منطقتنا ومايزالون يأتونها من كل حدب وصوب منذ الحروب الصليبية .

وأن سيلهم العرم لم ينقطع ومصائبهم وإفسادهم وعيثهم فى الأرض وبخاصة فى هذه الأزمان التى نشاهد من آثاره فيها مانشاهده من مؤامرات وفتن وثورات وحروب وكوارث مالا طاقة لنا به .

يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن سعدى : ( اعلم أن من تأمل ماذكره المفسرون والمؤرخون فى قصة ذى القرنين وعرف الواقع والمحسوس وما على وجه الأرض من أصناف بنى آدم فمن عرف ذلك كله تيقن يقينا لاشك فيه أنهم هم الأمم الموجودون الآن الذين ظهروا على الناس كالترك والروس ودول البلقان والألمان وإيطاليا والفرنسيين والانجليز واليابان والأمريكان ومن تبعهم من الأمم .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) نهاية البداية والنهاية ج ١ ص ١٨٣ .

فقد دل الكتاب ودلت السنة دلالة واضحة بينة أنهم ليسوا بعالم آخر غيبي كالجن ونحوهم ممن حجب الآدميون عن رؤيتهم والاحساس في الدنيا بهم) إلى أن يقول: وذلك أن هناك جبلين متقابلين متصلين بمشارق الأرض ومغاربها وليس للناس في تلك الأزمان طريق إلا من تلك الفجوة التي بين السدين حيث كان مسير الناس في ذلك الوقت على الإبل والبغال والحمير فبنى ذو القرنين سداً محكماً بين الجبلين فتم بنيانه للردم بين الناس وبين يأجوج ومأجوج وبقي ماشاء الله أن يبقى ثم بعد ذلك ظهروا على الناس من جميع النواحي والجبال والبحار فتحركوا في وقت النبي ﷺ في أول قتال من المسلمين مع النصارى في وقعة مؤتة وكان المسلمون أربعة آلاف وجيش النصارى مئة وعشرين ألفاً فكشف النبي ﷺ عنهم يوم قتالهم فقال وهو يخطب الناس: أخذ الراية جعفر فأصيب ثم أخذها زيد بن حارثة فأصيب ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ثم أخذها سيف من سيوف الله وهو خالد بن الوليد ففتح الله عليه) يخبرهم بذلك وهو يبكي.

وهذا هو مبدأ تحركهم لقتال المسلمين والخروج عليهم وهو معنى قوله ﷺ «ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» قال ولم يزالوا في ازدياد وظهور على الناس حتى وصل الأمر إلى هذه الحال المشاهدة ولا بد أن يقع كل ماأخبر الله به ورسوله.

ومنها: أن الناس قد شاهدوا السد قد اندك ورأوا يأجوج ومأجوج قد تجاوزوه فإن السد كما ذكرنا في الموانع الجبلية والمائية ونحوها المانعة من وصولهم إلى الناس فقد شاهدوهم من كل محل ينسلون.

فالبحر الأبيض والأسود والمحيط من جميع جوانبه وما اتصل بذلك من الموانع كلها قد مضى عليها أزمان متطاولة وهي سد محكم بينهم وبين

الناس لا يجاوزها منهم أحد بل هم منحازون فى أماكنهم وقد زال ذلك كله وشاهدهم الناس وقد اخترقوا هذه البحار ثم توصلوا الى خرق الجو بالطائرات وبما هو أعظم منه فلا يمكن لأحد إنكار هذا ولا المكابرة فيه .

وهذه الأدلة التى ذكرناها من نص الكتاب والسنة الصحيحة والأدلة الفعلية والواقع والمشاهدة كلها أمور يقينية لا شك فيها ولا مناقض لها .

والمقصود أن ظهورهم على الوصف الذى شرحناه قد تبين موافقته للكتاب والسنة الصحيحة والعلم الصحيح العقلى الحسى يعتبر آية وبرهانا عظيما على صدق القرآن وصحة ما جاء به رسول الله ﷺ من آيات بينات لا تزال تشاهد وتظهر كل وقت وحين يعتبر بها المعتبرون وينتفع بها المؤمنون ويسترشد بها الغافلون المعرضون وتقوم بها الحجة على المعارضين المعاندين»[1] .

وعلى هذا التأويل لم يعد السد هو فقط الذى بناه ذو القرنين لأولئك القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا ، بل هو ذلك السد وغيره مما كان يحول بين يأجوج ومأجوج وبين الناس للنيل منهم والعدوان على مصالحهم وأوطانهم ومقدساتهم .

وإذا أخذنا بالاعتبار التوجيه الذى اعتمده الشيخ عبد الرحمن ابن سعدى فى كلمته السابقة فيمكن القول بأن يأجوج ومأجوج من عهد رسول الله كانوا قد فتحوا الردم وجعلوا ينسلون إلى أن كان منهم أولئك التتار الذين دمروا الحضارة الإسلامية فى فترة ازدهارها وما أن انحسروا حتى بدأ تدفق أفواج آخرين منهم من الشرق والغرب تحت شعار الصليبية

---

(١) من كتاب لا مهدى ينتظر عبد الله بن زيد آل محمود ص ٨٧-٨٠

وكان منهم ما كان من دمار وخراب وحروب دامت زهاء قرنين وتحمل هذا المشرق ثقل أعباءها وعظيم ويلاتها ومصائبها ثم ما أن انحسر هؤلاء حتى عادت الحروب تتكرر من جديد مقرونة بالمؤامرات والويلات حتى كانت بداية القرن العشرين وبدت موجة جديدة ليأجوج ومأجوج على شكل خطير وبوسائل تقنية جديدة وما زال هذا المشرق حتى اليوم يئن من آثار افساد حملاتها وعبث دفعاتها العسكرية أو العلمية أو الصناعية أو التجارية أو غيرها .

إن هذا التأويل لا يرفضه المنطق ولا أظن أنه يتعارض مع النصوص القطعية التى وردت فى القرآن ولا مع النصوص التى حوتها السنة المطهرة ؟!!

خروج دابة الأرض :

ظهور دابة الأرض فى آخر الزمان علامة على قرب الساعة ثابت بالكتاب والسنة :

فمن القرآن : قال الله تعالى : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون »[1] .

فهذه الآية جاء فيها ذكر خروج الدابة وأن ذلك يكون عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق يخرج الله لهم دابة من الأرض فتكلم الناس على ذلك[2] .

قال العلماء فى معنى قوله تعالى : ووقع القول عليهم، أى وجب الوعيد عليهم لتماديهم فى العصيان والفسوق والطغيان وإعراضهم عن آيات الله

(١) النمل آية ٨٢

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٢٠

وتركهم تدبرها والنزول على حكمها وانتهائهم فى المعاصى إلى مالا ينجح معه فيهم موعظة ولا يصرفهم عن غيهم تذكرة .

يقول عز من قائل: «فإذا صاروا كذلك أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم» ، أى دابة تعقل وتنطق والدواب فى العادة لا كلام لها ولا عقل ليعلم الناس أن ذلك آية من عند الله[1] .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : وقع القول يكون بموت العلماء وذهاب العلم ورفع القرآن ثم قال : اكثروا تلاوة القرآن قبل أن يرفع قالوا هذه المصاحف ترفع فكيف بما فى صدور الرجال ؟

قال : يسرى عليه ليلا فيصبحون منه قفرا وينسون لا إله إلا الله ويقعون فى قول الجاهلية وأشعارهم وذلك حين يقع القول عليهم[2] .

من السنة :

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض[3] .

ومن تمام القول فى عقيدة خروج الدابة أن نقول إن خروجها وتكليمها الناس وكونها علامة من علامات القيامة كل ذلك لا خلاف عليه عند السلف وأهل السنة والجماعة كما شهدت له النصوص فوجب اعتقاده .

أما ما دون ذلك فأمور خلافية لا يكلف باعتقادها المسلم ولا يضره التوقف عن الخوض فيها ومعرفة تفاصيلها من مثل ما هيئتها وشكلها ومحل

---

(١) التذكرة للقرطبى ص ٦٩٧

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٢٣٤

(٣) صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة باب ذكر الدجال جـ ١٨ / ٧٧ — ٧٨

خروجها وعدد خروجها ومقدار مايخرج منها وماتفعل بالناس وماالذى تخرج به حيث اختلفوا فى كل ذلك اختلافا مضطربا معارضاً بعضه بعضاً فليطرح ذكره .

قال الألوسى : بعد أن نقل بعض أوصافها وأحوالها ، قال : « وإنما نقلت بعض ذلك دفعاً لشهوة من يحب الاطلاع على شىء من أخبارها صدقاً كان أو كذبا »[1] .

طلوع الشمس من مغربها :

ولعل هذا بدء اختلال نظام الكون وبه يتغير حال العالم وطلوع الشمس من مغربها ثابت بالسنة الصحيحة وبالكتاب الكريم إذ قد ورد فيه « يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون » .

وقد ذهب جمهور المفسرين[2] إلى أن طلوع الشمس من مغربها هو من بعض هذه الآيات وبخاصة وأن هذا المعنى قد بينته الأحاديث الواردة فى تفسير هذه الآية ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » .

---

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم د/ موسى شاهين ج ٢ ص ٣٣٨ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ج ٨ ص ٩٦ وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٦٦ ، وتفسير القرطبى ج ٢ ص ٣١٥ — ٣١٦ .

علامة طلوعها من المغرب :

وآية طلوع الشمس من مغربها كما نقله ابن مردويه عن حذيفة رضى الله عنه : طول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين وقيل قدر ثلاث ليال يدهش معه الصالحون ويخافون لعدم طلوع الشمس رغم مضى الزمن المقدر لليلة الأولى ثم لليلة الثالثة فيفزعون إلى المساجد ثم يفاجأون بطلوع الشمس من مغربها .

خروج النار والدخان :

ومن الآيات الدالة على قيام الساعة خروج النار من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب والدخان الذى يغشى السماء فيملأ ما بين المشرق والمغرب .

وعمدة العلماء فى تثبيت هاتين الآيتين الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

أما آية خروج النار فمن العلماء من يرى أنها آخر الآيات الدالة على قيام الساعة ظهوراً ومنهم من يرى أنها أولها كما أن العلماء مختلفون فيما إذا كانت ناراً واحدة أم ناران ومنهم من يحددها بنار واحدة ومنهم من يرى أنها ناران تحرق من اليمن فتطرد الناس إلى أرض الشام .

وللعلماء كلام حول هذه الآية للتوفيق بين هذه الروايات .

ولا فائدة من استعراضه ولكن الذى ينبغى تثبيته هنا أنه قد صح عن رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى عن ابن عمر أنه ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضىء أعناق الإبل ببصرى» ، كما صح عنه ﷺ فيما رواه البخارى أيضاً قوله : «أما أول أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب» .

وفى رواية «أنها ترحل تنزل معهم إذا نزلوا وتقيل معهم حيث قالوا»

وإن ثبتت هذه الآية فقد تكون ناراً حقيقية تظهر فى آخر الزمان ويكون منها ما نصت عليه الأحاديث ، وقد تكون كما قال بعض العلماء كناية عن معنى يشترك مع النار فى خطره وفعله فقد اعتاد العرب بأن يشبهوا فتنة الحرب بالنار ، وقد أشار القرآن إلى مثل هذا فى قوله تعالى : «كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين»[1] .

وهم لذلك يرون أنه ليس المقصود من النار الواردة فى الأحاديث على أنها ستخرج فى آخر الزمان حقيقة بل نار الحرب ونار فتنتها والفساد المقارن لها والذى يعم العباد بشره وآذاه[2] .

وهؤلاء العلماء يرون أن هذه النار قد ظهرت فى الماضى يوم وقعة الجمل بين عائشة وكبار الصحابة ووقعة صفين بين على ومعاوية .

وفى حروب الخوارج فى نجد والعراق ثم يوم غزو هولاكو للشرق الإسلامى وغيرها ويمكن أن يضاف إليها النار الخطيرة التى شبت أخيراً بين العراق وإيران والتى تكاد تحشر الناس من المشرق إلى المغرب أما النار التى ورد ذكرها فى الحديث الثانى من رواية البخارى فلا يستبعد البعض من العلماء أن تكون تلك التى ظهرت اليوم فى مناطق الدمام والظهران وما حولها من شرق الجزيرة العربية حتى إيران والتى تضىء بالفعل أعناق الإبل ببصرى وهى نار غاز النفط الذى ظهر أخيراً فى هذه المناطق وأصبح يستضاء به بشكل موسع ويعتمد عليه فى إشعال نار الحروب والفتن[3] .

وأما آية الدخان فقد ثبت فى رأى بعض العلماء بالكتاب والسنة .

---

(١) المائدة .

(٢) حسن خالد الإسلام ورؤيته فيما بعد الحياة ص ٢٦٦ دار النهضة بيروت . (٣) المرجع السابق .

وأما الكتاب فقد ورد قوله تعالى : ( فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم )[1] .

ومن السنة ماروى عنه — ﷺ — قال: أول الآيات الدخان ونزول عيسى ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر قيل : وما الدخان ؟ فتلا رسول الله — ﷺ — قوله تعالى : ( فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ) ، وقال يملأ مابين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام وأما الكافر فهو كالسكران . يخرج من منخريه وأذنيه ودبره .

وللعلماء فى فهم كلمة الدخان الواردة فى هذه الآية ثلاثة أوجه :

الأول : أنه كان ذلك حين دعا رسول الله ﷺ على قريش أن يؤخذوا بسنين كسنى يوسف فأخذوا بالمجاعة .

قالوا وعنى بالدخان ماكان يصيبهم حينئذ من شدة الجوع .

وأنه كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً .

وقد قال ابن مسعود وقد كشفه الله عنهم ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم وهذا واضح فيمارواه البخارى عن عبد الله قال : إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصت على النبى ﷺ دعا عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى مابينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله تعالى الآية ... قال فأتى الرسول فقيل له . . يارسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت قال : لمضر !! إنك لجرىء ( فاستسق فسقوا ) .

---

(١) الدخان ١٠ — ١١

ومعنى الدخان الجدب القحط سمى دخاناً ليبس الأرض من حين يرتفع منها كالدخان .

وروى ابن جرير عن مسروق قال كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً وهو مضطجع بيننا فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن إن قاصاً عند أبواب كنده يقص ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام فقام عبد الله وجلس وهو غضبان فقال : (يا أيها الناس اتقوا الله !! فمن علم شيئاً فليقل بما يعلم ومن لا يعلم فليقل : الله أعلم فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم وما على أحدكم أن يقول لما لا يعلم لا أعلم فإن الله عز وجل يقول لنبيه ﷺ : ( قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين )[(١)] .

أن النبي لما رأى من الناس إدباراً قال اللهم سبعاً كسبع يوسف فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف ينظر أحدهم إلى السماء فيرى دخاناً من الجوع فأتاه أبو سفيان بن حرب فقال: يا محمد إنك جئت تأمرنا بالطاعة وبصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم فنزلت الآيات من قوله تعالى : ( فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين — إلى قوله تعالى : إنكم عائدون )[(٢)] .

قال فكشف عنهم .

الثاني : أنه دخان يظهر ولم يأت بعد وهو آت وهو من علامات الساعة . وهو قول حذيفة ويروى عن علي وابن عباس وجمع من التابعين

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير .

(٢) سورة الدخان ١٠ — ١٥ ، انظر تفسير الطبري جـ ١٥ ص ١١١ والقرطبي جـ ١٦ ص ٣١

وقد رجح الإمام ابن كثير هذا الوجه مجاراة لما صح عن ابن عباس ترجمان القرآن ومن يوافقه من الصحابة والتابعين من الأحاديث الصحيحة والحسنة ولأنه هو الظاهر من نص القرآن الكريم ولو كان الدخان هو ماغشى أهل مكة المشركين لما قال الله تعالى ( يغشى الناس ) ولما قال ( هذا عذاب أليم )[1] .

وقد ورد فى خبر هذا الدخان أنه يمكث فى الأرض أربعين يوماً يملأ مابين السماء والأرض فأما المؤمن فيصيبه كالزكام وأما الكافر والفاجر فيدخل فى أنوفهم فيثقب مسامعهم ويضيق أنفاسهم وهو من آثار جهنم يوم القيامة .

وفى صحيح مسلم عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال : اطلع النبى ﷺ ونحن نتذاكر فقال : ماتذكرون ؟ قالوا نذكر الساعة . قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات — فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم وخروج يأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم ) .

الثالث : أنه يوم فتح مكة لما حجبت السماء غبرة الجيش الإسلامى التى أثارها عند دخولها وقد حصر الإمام الرازى معنى الدخان الوارد فى الآية بوجهين الأول والثانى فقط وقال : ( ولاشك أنه يقتضى القائلين بالوجه الأول صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز وذلك لايجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته ممتنع . والقوم لم يذكروا ذلك الدليل فكان المصير إلى ماذكروه مشكلا جدا ) إلى أن يقول ولم لايجوز

---

(١) انظر رأى ابن عباس فى تفسير الطبرى جـ٢٥ ص١١٣ وابن كثير جـ٧ ص ٢٣٥

أن يكون ظهور هذه العلامة جاريا مجرى ظهور سائر علامات يوم القيامة [1] .

وقد ورد فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود : خمس قد مضين الدخان واللزام ( يوم بدر والروم ) إشارة إلى قوله تعالى غلبت الروم ) والبطشة ( يوم بدر والقمر ) [2] .

---

(١) انظر تفسير الرازى فى تفسير آية الدخان ، وكذا القرطبي والقاسمى .

(٢) لوامع الأنوار جـ ٢ ص ١٣٠

## هدم الكعبة المشرفة — ورفع القرآن

يسوق السفاريني من علامات الساعة الكبرى هدم الكعبة ويستند في هذا مع من ذهب مثله إلى ذلك على ما أخرجه البخاري ومسلم والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة كأني به أسود أفحج يقلعها حجرا حجرا »[1] .

ويقرر الحافظ ابن حجر شارح البخاري : أن ذلك محمول على أنه يقع في آخر الزمان قرب الساعة حيث لا يبقى في الأرض أحد يقول : الله الله ، كما ثبت في صحيح مسلم لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله ، الله[2] .

وقد ورد في الحديث أنه ﷺ قال : حجوا قبل ألا تحجوا فوالذي فلق الجنة وبرأ النسمة ليرفعن هذا البيت من بين أظهركم حتى لا يدرى أحدكم أين مكانه بالأمس[3] .

أما رفع القرآن آخر الزمان وقبل قيام الساعة كدليل على قيامها فقد ورد عن ابن عبد الله بن عتبة عن أبيه عن عبد الله قال رسول الله

---

(١) الفحج : تباعد ما بين الساقين : وذو السويقتين « السويقتان » : هما تصغير ساق الإنسان قيل صغرهما لرقتهما والرقة هي صفة سوق السودان غالبا .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري جـ٣ ص٤٥٥ تحقيق عبد العزيز ابن باز ط ، السلفية .

(٣) راجع مختصر اللوامع ص ٣٦٧ — ٣٧٢ .

ﷺ : أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يرفع قالوا هذه المصاحف ترفع فكيف بما فى صدور الرجال ؟ قال : يسرى عليه ليلا فيصبحون منه فقراء وينسون قول لا إله إلا الله ويقعون فى قول الجاهلية وأشعارهم وذلك حين يقع القول عليهم ) (١) .

---

(١) سنن الدارمى جـ ٢ ص ٣١٥ باب تعاهد القرآن ط سنة ١٩٦٦ ١٣٨٦ هـ الفنية المتحدة .

# الباب الثالث

## الفصل الأول

## أحوال القيامة

### البعث

تعريف البعث : هو : إحياء الله الموتى وإخراجهم من قبورهم فى صورة بدنية مادية ورد الأرواح إلى هذه الأجسام سواء كان عن عدم محض أو عن تفريق محض .

والبعث بهذا المعنى ممكن عقلا دل عليه الشرع من الكتاب والسنة والإجماع فالمسلمون يرون أن الله سبحانه وتعالى سيعيد الخلائق يوم القيامة للحساب والجزاء .

بيان إمكانه عقلا :

البعث يتطلب طرفين أحدهما قابل وهو الجسم الإنسانى الذى كان قبل الموت ثم تفرقت أجزاءه أو عدمت بالموت .

وثانيهما فاعل : وهو الله سبحانه وتعالى ففى البعث باعث ومبعوث .

والبعث بطرفيه هذين ممكن فالجسم المبعوث يقبل الوجود والعدم لأنه كان معدوما ثم وجد فى الحياة الدنيا فهو قابل للوجود والعدم قبولا ذاتياً فليس بمستحيل أن يوجد ثانية بعد موته الذى تفرقت فيه الأجزاء أوعدمت ويشير إلى ذلك : شارح المقاصد فيقول : الكلام فيما عدم بعد الوجود أو تفرق بعد الاجتماع أومات بعد الحياة فيكون قابلا لذلك[1] .

---

(١) السمعيات من شرح المقاصد ص ٩١

أى للعدم والوجود والتفرق والاجتماع والموت والحياة وحيث هو قابل لكل ذلك ، فقبوله الحياة الثانية أمر ممكن عقلا لأن « هذا القابل لو امتنع وجوده لذاته لكان مستحيل الوجود ضرورة لكنه وجد ولو كان ممتنع العدم لذاته لاستحال عدمه لكنه عدم فلم يبق ... إلا أن هذا القابل — الإنسان — ممكن الوجود والعدم»(١) لذاته .

فاذا ماجئنا إلى الطرف الثانى وهو الفاعل الذى هو الله تبارك وتعالى ألفينا البعث أشد إمكاناً، ذلك أنه جل وعلا هو القادر التام القدرة العالم بكل شىء فلا غرو يكون عالما بالأبدان وبجزئيتها وقادراً على جمعها وإعادة الحياة إليها بل إن الإعادة لتكون أهون فى منطق العقل وإن كان بالنظر إلى ذاته وقدرته جل وعلا لا يكون شىء هيناً وآخر أهون بل الممكنات بالنظر إلى قدرته سواء .

يقول الفخر الرازى : « وأما بالنظر إلى الفاعل فلأنه تعالى بدأ بأعيان جزء كل شخص لكونه عالما بالجزئيات وقادراً على جمعها وخلق الحياة فيها لكونه قادراً على كل الممكنات .

وإذا كان كذلك كانت الإعادة ممكنة(٢).

البعث إذن ممكن عقلا لأن الجسم قبول محض دائم والفاعل متصف بالقدرة التامة والعلم الشامل فأى مانع يمنع العقل السليم من الإقرار بالإمكان والاطمئنان اليه .

---

(١) فى العقيدة الإسلامية والأخلاق د. محمد عبد الستار نصار وآخرون ص ١٥٤ ط سنة ١٩٧٢ م ١٤٠١ هـ .

(٢) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازى ص ٢٤٣

إن الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء والقابل يقبل كل شيء وإذا كان الأمر كذلك فإن الله سبحانه وتعالى الذى أوجد الإنسان من العدم لا يعجزه أن يعيده من العدم أى يبعثه بعد الموت)[1].

العلم يقر بإمكان البعث :

إذا كان الماديون ينكرون حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا فان العلم يؤيد القول بإمكان البعث .

فمن المعروف أن الجسم الإنسانى يتألف من خلايا وهى عبارة عن أجزاء صغيرة جداً ومعقدة غاية التعقيد وهذه الخلايا دائمة التناقص ودائمة التكاثر والتجدد بواسطة الطعام ومن ثم ( فالجسم الإنسانى يغير نفسه بنفسه بصفة مستمرة وهو كالنهر الجارى المملوء دائما بالحياة لا يمكن أن نجد به نفس الماء الذى كان يجرى فيه منذ برهة لأنه لا يستقر فالنهر يغير نفسه بنفسه دائماً ومع ذلك فهو نفس النهر الذى وجد منذ زمن طويل ولكن الماء لا يبقى بل يتغير وجسمنا مثل النهر الجارى يخضع لعملية مستمرة حتى أنه يأتى وقت لا تبقى فيه أية خلية قديمة. لأن الخلايا الجديدة أخذت مكانها :

هذه العملية تتكرر فى الطفولة والشباب بسرعة ثم تستمر بشكل ملحوظ فى الكهولة ولو حسبنا معدل التجدد فى هذه العملية فسوف نخرج بأنها تحدث مرة كل عشرين سنة .

---

(١) فى العقيدة الإسلامية والأخلاق صـ١٥٥ د. محمد نصار وآخرون ط سنة ١٩٧٢ م .

إن عملية فناء الجسم المادى الظاهر تستمر ولكن الإنسان فى الداخل لايتغير بل يبقى كما كان علمه وعاداته وحافظته وأمانيه وأفكاره تبقى كلها كما كانت أنه يشعر فى جميع مراحل حياته بأنه هو الإنسان السابق الذى وجد منذ عشرات السنين ولكنه لا يحس بأن شيئاً من أعضائه قد تغير ابتداء من أظافر رجليه حتى شعر رأسه[١].

وفحوى كل ذلك :

أن الكيان المادى للإنسان دائم التغير والتجدد فى الوقت الذى يبقى فيه العلم والعادات والأمانى والأفكار وغيرها دون تغير. أى أن الإنسان ليس هو ذلك الكيان المحسوس فقط بحيث لو تبدد هذا الكيان وانتهى انتهى كل شىء بل فيه جانب غير مادى يظل دائماً فى حالة استقرار وتواجد مهما تغيرت المادة .

دليل ذلك ، أنه لو ( كان الإنسان يفنى بفناء الجسم لكان لازما أن يتأثر — على الأقل — بفناء الخلايا وتغيرها الكامل .

ولكننا نعرف جيداً أن هذا لايحدث وهذا الواقع يؤكد أن الإنسان أو الحياة الإنسانية شىء آخر غير الجسم هو (الروح) وهى باقية رغم تغير الجسم وفنائه وهو كنهر مستمر فيه سفر الخلايا بصفة دائمة .

وهذا هو الذى دعا عالما أن يصف الإنسان ( بشىء مستقل بذاته وباق غير متغير رغم التغيرات المتسلسلة فهو يعتقد: أن الشخصية هى عدم التغير فى عالم التغيرات ) ولو كان الموت فناء للإنسان فمن الممكن أن نقول — بعد كل مرحلة من مراحل حدوث هذا التغير الكيماوى الذى

---

(١) الإسلام يتحدى ص ١١٧ — ١١٨

يجرى فى الجسم — أن الإنسان قد مات وأنه يعيش حياة أخرى جديدة بعد موته .

ومعناه أن الرجل الذى أراه فى الخمسين من عمره — وهو يمشى فى الشارع على رجليه — قد مات خمس مرات فى هذه الحياة القصيرة .

فإذا لم يمت هذا الإنسان بعد فناء أجزاء جسمه المادية خمس مرات فكيف أستطيع أن أعتقد بأنه مات فى المرة السادسة على وجه اليقين ؟ ولا سبيل له الآن إلى الحياة )[1] .

إن الحياة العقلية والشعورية للإنسان غير الحياة المادية البدنية له حتى نقول إنها تنعدم بإنعدامها بل الأولى باقية مستمرة مغايرة .

وعلى ذلك لا نجد حرجا فى أن نقول : إن العلم — فى الجملة — يؤيد معتقد الأديان فى أن الإنسان له حياة بعد الموت يشعر فيها بلذة أو ألم كان ذلك فى القبر أو الجنة والنار بعد البعث والحساب على السواء .

وفيما أفادنا العلم إياه الرد على من زعم أن الحياة ترتبط فقط بالنظام الذرى المادى فى الجسم بعامة والذهن بخاصة كما قررنا عنهم سابقاً .

بل إنه يكون من الأليق القول بأن بعثرت الذرات المادية فى الجسم الإنسانى لا تقضى على الحياة فان الحياة شىء آخر وهى مستقلة بذاتها باقية بعد فناء الذرات المادية وتغيرها )[2] .

إنه لو صح أن الإنسان على الحقيقة هو البناء المادى فحسب وأن الإدراك والشعور بل والروح يرتبط بذلك البناء إرتباطاً عضوياً ونوعياً

---

(١) المرجع السابق ص ١١٨ — ١١٩
(٢) السابق ص ١١٧

( فلنجرب أن نخلق إنساناً حياً ذا شعور ونحن اليوم نعرف بكل وضوح جميع العناصر التى يتألف منها جسم الإنسان .

وهذه العناصر توجد فى الأرض والفضاء الخارجى بحيث يمكننا الحصول عليها وقد علمنا بناء النظام الجسمانى وعرفنا هيكله وأنسجته ولدينا فنانون مهرة يستطيعون أن يصنعوا أجساما كجسم الإنسان بكل مواصفاتها .

فلنجرب — لو كان معارضوا الروح يصرون على حقية مبدأهم — ولنصنع مئات من هذه الأجسام ولنضعها فى شتى الميادين فى بقعة الأرض الفسيحة ثم لننتظر ذلك الوقت الذى تمشى فيه هذه الأجسام وتتكلم وتأكل بناء على تأثير العالم الخارجى[1] .

إن الحياة شىء آخر غير الجسم والروح شىء آخر غير التفاعل بين الجهاز العصبى والعالم الخارجى . وهذه نتائج جد عظيمة فى التأكيد على إمكان الحياة بعد الموت وإمكان البعث وإمكان الآخرة بعامة ترتكز على معطيات العلم التجريبى .

## مسلك القرآن الكريم فى إثبات البعث

فى السنة المطهرة العديد من الأحاديث الصحاح التى أكدت على حقية البعث وإقراره كعقيدة أساسية فى بناء الإيمان الكامل فقد صح عنه ﷺ وقد سئل عن الإيمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره[2] .

---

(١) السابق ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٢) جزء من حديث رواه البخارى ومسلم صحيح البخارى ج ٧ =

وبالرجوع إلى منهج القرآن الكريم نلاحظ حواراً عقلياً مع منكرى البعث نشاهد هذا فى كثير من آيات القرآن فمن ذلك قوله تعالى: (وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة .. )[1] .

ومنهج القرآن فى الجدل مع المنكرين إنما هو منهج قائم على توضيح دعوى الإنكار لدى المنكرين ثم يأتى بالحجج التى تفحم هؤلاء المنكرين فلا يستطيعون إزاءها إلا التسليم لقوة الحجة والدليل .

يجادل القرآن هؤلاء المنكرين الذين يستبعدون أن يكون هناك بعث أو تكون هناك إعادة ومن هنا تنبثق المشكلة التى نحن بصددها ألا وهى مشكلة (إعادة المعدوم) هل يمكن أن يعاد المعدوم ؟ وإذا كان ذلك فى مقدور القدرة الإلهية فهل تكون هذه الإعادة لعين ما كان أم لمثل ما كان ؟

ولقد بين الله ذلك للناس بأدلة ملموسة ومعقولة :

الأدلة الحسية . وبيان ذلك: أن القرآن الكريم يقدم صوراً ومشاهد تشهد لقضية البعث وتحدث عن إمكانها فمرة يلفت النظر إلى تجارب فعلية لهذه القضية كما حدث مع سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أراد أن يصل فى قضية إحياء الموتى من علم اليقين إلى عين اليقين فقال كما يحكى القرآن :

(رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن

---

= ص ٣٦٩ — لجنة إحياء كتب السنة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٣٩٧ هـ .

(١) سورة الإسراء ٤٩ — ٥١

قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم أجعل على كل جبل منهن جزاء ثم ادعوهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ) [١] .

وأخرى يبين أن التجربة ليست قاصرة على فرد بل تضمنت القرى والبلاد فقال الله ( أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ) [٢] .

ففى هذه الآية دليل قاطع على أن الموت لو امتد بهذا المار بدل المائة ألفاً ماتغير الوضع وكذلك لو امتدت هذه المائة إلى مالا نهاية من الدهور لكانت النتيجة واحدة .

ومرة ثالثة نجد القرآن الكريم يذكر لنا قصة أصحاب الكهف المشهورة فى التاريخ والتى كانت نومتهم فى كهفهم ثلاث مائة سنة وتسع سنوات ، ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا [٣] .

وليست مائة عام كالذى مر على القرية لتعد دليلا على أن بعث الأموات بعد مئات السنين أو الآف السنين ، لن يكون أغرب من هذا البعث ولا أبعد منه قال تعالى :

( إذ آوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ثم بعثناهم

---

(١) البقرة الآية ٣٦ (٢) البقرة الآية ٢٥٩
(٣) الكهف الآية ٢٥

لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً،[1] ويقول الله بعد هذه الآية «وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم )[2].

فهذه الواقعة التى ذكرها القرآن الكريم وسجلتها كتب التاريخ تصور البعث المرتقب يوم القيامة بل هى وغيرها مما ذكر شواهد حسية تحد عن بعث الأموات وهل ما يحدث للموتى شىء غير هذا ؟

والقرآن ينوع الأدلة العقلية على حقيقة البعث ويخاطب العقول المستنيرة ليلفتها إلى حقائق قد تغيب عن العقول الملتاثة ولكنها تتلألأ وتومض فى حنايا العقول الراشدة ولأن شبه المنكرين للبعث على كثرتها وتنوعها لاتبعد أن تكون إما اتهاماً لعلمه تعالى وإما اتهاماً لحكمته تعالى .

جاءت الدلائل الشرعية تنطق بكمال قدرته تعالى وعلمه وحكمته ولتقرر أن البعث حق مقدور لله تعالى لأن العالم بما خلق الحكيم فلا يلحق فعله عبث أو هوى من هذه الدلائل : الأدلة العقلية :

١ — دليل النشأة الأولى :

يوضح الله فى هذا الدليل أن الذى خلق الإنسان وأنشأه أولا قادر على إمكان النشأة ثانياً .

وهذا الدليل قد ورد فى كثير من آياته من مثل قوله تعالى : (كما بدأنا أول خلق نعيده[3] وقوله : (كما بدأكم تعودون[4] .

---

(١) الكهف الآية ١٠ — ١٢ (٢) الكهف الآية ١٩
(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠٤ (٤) الأعراف الآية ٢٩

وقوله : (أولم يرى الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قال يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون)[1] .

وقد أوضحت الآيات ذلك الإنكار الشديد المستند إلى شبهة استبعاد الأجساد إلى حالتها الأولى بعد أن أصبحت عظاما رميما تذروها الرياح . وأعظم شبهة لدى المنكرين للبعث هى :

استبعاد إعادة الأجسام بعد تمزقها وتفتيتها ثم اختلاطها بأجزاء الأرض إذ تصبح متصورة بصورة التراب . فكيف يمكن إعادتها إلى حالتها التى كانت عليها من قبل .

هذا أمر غريب على عقول المنكرين وعجيب فى نفس الوقت عندهم والحديث عنه خرافة والمتحدث به إما مفتر على الله الكذب وإما مجنون سلب عقله فخيل له جنونه ذلك الحديث وأجراه على لسانه .

وقد عبر شاعرهم عن ذلك الإنكار مبيناً أن الحديث عنه خرافة بقوله :

حياة ثم موت ثم نشر ... حديث خرافة يا أم عمرو
أيوعدنى ابن كبشة أن سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهام[2]

---

(١) سورة يس الآيات ٧٧ — ٨٣
(٢) جواد على تاريخ العرب قبل الإسلام ج٦ ص ١٢٦

## سبب نزول الآيات السابقات

ذكر المفسرون لهذه الآيات أن أبى بن خلف أتى إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم يفته ويذروه فى الهواء وهو يقول: يامحمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟؟ فقال رسول الله: نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار فنزلت الآيات،وفى رواية أن العاص بن وائل السهمى أتى إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته بين يديه فقال: يا محمد أيبعث الله هذا حياً بعدما أرم ؟؟ قال نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم فنزلت الآيات [1] .

فقد تبين لنا من أسباب النزول اعتراض بعض المشركين على الرسول ﷺ فى تقريره البعث وقد أكدوا إنكارهم ذلك بما ضربوه من المثل لله تعالى فكان ضرورياً أن يرد عليهم إنكارهم وأن يبطل لهم مثلهم، والآيات وإن كان سبب نزولها خاصا فهى عامة فى كل منكر للبعث لما هو مقرر فى الأصول من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والألف واللام فى قوله ( أولم ير الإنسان) للجنس فيعم كل منكر.

بينت الآيات أن استبعاد الإعادة للأجسام بعد الموت آت من إنسان لم ينظر فى مبدأ خلقه أولا إذ لو نظر فى نشأته الأولى نظرة تبصر واعتبار لكفاه خلقه من نطفة ضعيفة حقيرة دليلا على إعادته بعد موته فنسيانه لمبدأ خلقه من تلك النطفة هو الذى دعاه لهذا الإنكار ثم ضربه المثل لله القادر بقدرة الإنسان العاجز ( أولم ير الإنسان )بنشأته ، أى ألم يعلم

---

(١) تفسير القرطبى ص٥٧ — ٥٨ ، تفسير ابن كثير ج٣ ص٨١ ط١١٤ ومحمد بن جرير الطبرى التفسير ج ٢٢ ص ٣٠ ط ١٣٧٣ هـ.

( إنا خلقناه ) أى ابتدأنا خلقه وإيجاده ( من نطفة ) من منى يمنى وما أضعف النطفة وأعجزها .

( فإذا هو ) بعد العجز والضعف إنسان قوى ناطق ).

( خصيم مبين ) أى بعد تلك الأطوار الضعيفة أصبح يخاصم ويجادل أبين جدال وأبلغ خصام ومن ذلك خصامه وجداله فى أمر البعث والجزاء ينكر قدرة خالقه الذى أنشأه أول مرة ويدعى عدم قدرته على إعادته ثانياً ، (وضرب لنا مثلا ) أى صفة غريبة عجيبة يعارض بها قدرتنا الثابتة بالدليل القاطع على إعادته فجعل لنا مثلا ونظيراً من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم ثم بين تعالى أن سبب ذلك هو ذهوله وعدم التفاته إلى خلقه الأول فقال (ونسى خلقه) وكان من حقه ألا ينسى فيستدل به على إمكان عوده كما بدأه ولو تأمل فى ذلك لعلم أن القدرة التى سوته أولا لا يعجزها بأى حال إعادته ثانياً بعد أن صار كما يرى عظماً رميماً مفتتاً وأن تلك الرجعة ليست بعيدة على القوى القادر وقد قدم قوله ( ونسى خلقه ) على ضرب مثله تنبيهاً على جهله وغبائه وغفلته عما فى نفسه وبين يديه من الأدلة وماذا قال فى مثله الذى يعتمد عليه فى تأييد دعواه ؟ ؟ قال :

(من يحيى العظام وهى رميم) ، بالية مفتتة فقد أتى ذلك المنكر للبعث المستبعد لوقوعه إلى النبى ﷺ آخذاً بيده عظماً رميما يفته ويذروه فى الهواء قائلا للنبى ﷺ أترى يحيى الله هذا العظم ما أرم ؟؟ فقال النبى ﷺ نعم ويدخلك النار وقد دفع سبحانه وتعالى هذه الشبهة بقوله ( قل ) أمر للنبى ﷺ أى ذكر هذا الناسى لفطرته الدالة على حقيقة الأمر وكمال القدرة ( يحييها ) أى يخلق الحياة فيها الذى ( أنشأها ) أوجدها من العدم ( أول مرة ) فى بدء الخلق والنشأة فهو الذى أنشأ هذا العظم الذى تفته بيدك من نطفة ماء — لا عظم فيه فالقادر على إنشائه أولا ثم إحلال الحياة فيه لا يعجزه إعادته مرة أخرى كما قال تعالى(وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه . ) .

يقول الفخر الرازى : ( ومنهم — أى المنكرين — من ذكر شبهة وإن كانت فى آخرها تعود إلى مجرد الاستبعاد وهى على وجهين ( أحدهما ) أنه بعد العدم لم يبق شيئاً فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود ؟ .

( وثانيهما ) أى من تفرقت أجزاؤه فى مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه فى أبدان السباع وبعضه فى جدران الرباع كيف يجمع؟ بل لو أكل إنساناً آخر فكيف الإعادة ؟ وقد رد على الشبهة الأولى بقوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ) يعنى كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً .

أما الشبهة الثانية فقد أبطلها بقوله ( وهو بكل خلق عليم ) ثم ذكر الأجزاء الأصلية فى الإنسان والأجزاء الفضلية والله عالم بكل ذلك فهو يعيد كل جزء إلى صاحبه ثم يعيد فيه الحياة )[1] .

فعلم الله شامل بتفاصيل كيفيات الخلق والإيجاد إنشاءاً وإعادة محيط بجميع الأجزاء المتبددة لكل شخص من الأشخاص أصولها وفروعها كما قال تعالى :(قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ (قادر على إعادتها على النمط السابق الذى كانت عليه كما قال تعالى : (بلى قادرين على أن نسوى بنانه ) والبنان أدق شىء فى الإنسان وأصغره .

ثم اتبع ذلك بالأدلة المحسوسة الدالة على كمال القدرة الإلهية مبيناًلهم أنه لا وجه لهذا الاستبعاد إذ كيف يكون ذلك وبين أيديهم من الآيات الكونية الدالة على أن الخالق لا يعجزه شىء ما يكفيهم لو نظروا فيه بعين البصيرة والتأمل .

فقال تعالى : ( الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ) .

---

(١) الفخر الرازى التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١٠٩ ط ٢

فهذه آية عظيمة دالة على كمال القدرة الإلهية التى توجد الضد من ضده فهذا الشجر الغض الذى يقطر ماء أحدث منه الخالق هذه النار المضادة له وهذا أمر أعجب وأغرب من إعادة الغضاضة إلى ما كان غضاً فطرأت عليه اليبوسة والبلى كما أن هذه الآية متضمنة للرد على شبهة يوردها المنكر لإعادة الحياة بعد الموت ذلك أن الموت بارد يابس والحياة طبعها الرطوبة والحرارة .

فإذا حل الموت لم يكن أن تحل فية الحياة بعد ذلك لما بينهما من التضاد .

والحقيقة أن الشبهة واهية وغير واردة على موضوع البعث أصلا ذلك أن الممتنع هو الجمع بين الضدين فى آن واحد أى بأن يكون الجسم حياً وميتاً فى وقت واحد والبعث بعد الموت ليس من هذا الباب لأنه حياة بعد موت لا مع موت فحين ماحل بالجسم الموت ارتفعت الحياة فبقى ميتاً إلى حين وقت البعث فلما عادت إليه الحياة مرة ثانية ارتفع الموت فليس هناك جمع بين ضدين .

وقد تابع أدله الرد على المنكرين للبعث والحساب منكراً على الإنسان استبعاد وقوع البعث الجسمانى وإمكانه قائلا : ( أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ) ومتى قدر على ذلك فهو قادر على إعادة أعيانهم — ولو اتجه الإنسان مع فطرته الصحيحة التى فطره الله عليها لأجاب بقوله ( بلى ) أى هو قادر على ذلك لأن هذه الإجابة هى مقتضى ما يعترفون به ولا ينكرونه ( ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون )[1].

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦١

ولأنه تعالى ( هو الخلاق العليم ) أى كثير الخلق وكثير الخلق ناشىء عن كمال القدرة وهو ( العليم ) الذى لايخفى عليه شىء فعلمه شامل بجزئيات الأشياء وكلياتها كما قال تعالى : ( وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين )[١] .

ثم دل على كمال قدرته ونفاذ مشيئته فقال ( إنما أمره ) أى شأنه ( إذا أراد شيئا من الإنسان ( أن يقول له كن فيكون ) أى فيحدث ماأراده من غير توقف على شىء آخر فكيف يصعب من هذه قدرته إعادة هذا الإنسان بعد بلاه وتمزقه .

ويذكر الدكتور محى الدين الصافى — بعد ذكره للأدلة التى اشتملت عليها الآيات دليلا مأخوذاً من قوله تعالى : إنما أمره .. الخ تقريره : أنه ليس هناك شىء مستحيل على قدرة الله تعالى فالخلق والفعل مهما عظم المخلوق لا يحتاج من جانب الله المبدع إلى مادة ولا إلى زمان خلافا لفعل البشر فليس هناك استبعاد للبعث الجسمانى ومن أراد إثباته على طريق الحكمة يقول : إن النفوس الجزئية إذا فارقت الأبدان ولم تستغن فى تصوراتها عن آلات جسمانية احتاجت إلى الأبدان ضرورة وإلا كانت معذبة فان سعادتها فى تصوراتها إنما تكون بآلاتها والآلات إنما تتحقق إذا عادت بسعيها كما كانت فمن قال بحشر الأجساد وفى بقضية الحكمة إذ وفر على كل نفس حظها من كمالها اللائق بها واعطائها جزائها على مقدار سعيها ومن نفى ذلك قضى بالحشر على نفس — أو نفسين فى كل عصر قد تجردت عن المواد الجسمانية وقضى بالتعذيب على كل نفس فى العالم وذلك يناقض الحكمة[٢] .

---

(١) سبأ آية ٣

(٢) النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام ص١٠٨ د. محى الدين الصافى.

٢ — دليل إحياء الأرض بعد موتها

وقد عرض له القرآن الكريم فى مواضع عدة منها قوله تعالى ( والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور )[١] .

ومنها أيضا قوله ( وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور )[٢] .

والدلالة الأساسية فى كل هذه الآيات : إن إحياء الموتى مثل إحياء الموات من حيث صحة اتصافهما بالمقدورية فكلاهما مقدور لله تعالى وليس بينهما من فوق الاحتمال اختلاف المادة فى المقيس عليه وهو مالا مدخل له فى المقدورية )[٣] .

وعلى نفس هذا النهج القرآنى سارت السنة النبوية فنجد الرسول يستند إلى هذا النوع من الاستدلال المرتكز على المشاهدة والعيان فقد قال أبو ذرين العقيلى قال : قلت يارسول الله : كيف يعيد الله الخلق ؟ وما آية ذلك قال : « أمررت بوادى قومك جدبا ثم مررت به يهتز خضراً ، قلت : نعم قال : فتلك آية الله فى خلقه ، كذلك يحيى الله الموتى )[٤] .

والمعنى : أما مررت بوادى قومك حال خلوه من النبات ثم مررت

---

(١) فاطر ٩ (٢) الحج الآيات ٤ — ٧

(٣) تفسير البيضاوى المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل صـ ٥٧٥

(٣) مسند الإمام أحمد جـ٤ صـ ١١ ط المكتب الإسلامى بيروت .

به بعــد أن اخضر بالنبات فكذلك يحي الله الموتى يوم القيامة يقول بعض العلماء : أن هذا الدليل يشتمل على دعامتين قويتين على البعث يوم القيامة :

الدعامة الأولى : أن الإنسان خلق من التراب الذى ينكر الآن إعادة خلقه منه بعد أن يتحلل إليه لقد دار التراب فى دورات الخلق والتكوين وتقلب فى أطوارها ترابا ثم نطفة ثم علقه ثم مضغة ثم جنينا ثم طفلا ثم تدرج فى مدارج الحياة من طفولة إلى شيخوخة فما الذى يعوق الذى صنع من التراب أولا أن يعيد الصنعة ثانيا .

الدعامة الثانية : أن هذه الأرض الهامدة والتى لا حياة فيها ولا زرع يساق إليها الماء ويصيبها فاذا أجنتها تخرج من كل فج فيها )[1] .

٣ — دليل الحكمة والعدالة

يعرض هذا الدليل فى أكثر من آية فى القرآن من مثل قوله : «أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وانكم إلينا لا ترجعون[2] .

وقوله تعالى : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى » [3] .

خلق الله العباد لطاعته وكلفهم بعبادته كما قال تعالى : « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[4] .

وقد رسم لهم سبيل الخــير كما بين لهم طرق الشر ولما كانت الطبيعة

---

(١) د . عبد السلام محمد عبده العقيدة الإسلامية فى ضوء النقل والعقل والقلب ص٤٩٩

(٢) المؤمنون ١١٥ (٣) القيامة ٤ (٤) الذاريات .

البشرية فيها الاستعداد لقبول الخير والشر كما قال تعالى «ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها »[١].

فقد يطغى جانب الشر أحياناً على جانب الخير استجابة لداعى الشهوة الموجودة فى الطبيعة البشرية فهى غالباً ما تجمح بصاحبها إلى تعدى الحدود التى يتحتم على المرء ألا يتجاوزها فيوقع الظلم على الآخرين .

وواقع الحال يبين لنا أن كثيراً ممن ارتكبوا تلك الجرائم فى حق غيرهم وأوقعوا الظلم بالآخرين قد غادروا هذه الحياة الدنيا ولم ينل المظلوم حقه منهم مع العلم بأن كل ذلك واقع بعلم الله القوى القادر السميع البصير الذى يمهل ولا يهمل والذى حرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرما .

ولما كان الظالم والمظلوم قد غادروا هذه الحياة الدنيا ولم يأخذ المظلوم حقه من ظالمه .

ولما كانت عدالة الله تعالى تقتضى القصاص وأن يأخذ المظلوم حقه من الظالم كان لابد من حياة أخرى غير هذه الحياة يتم فيها تقاضى الحقوق بين العباد ويقتص فيها للمظلوم من الظالم ، هذه الحياة هى التى تكون فى الآخرة حين يبعث الله الناس من قبورهم «أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون »[٢] .

يقول الفخر الرازى فى هذا المقام : أن إعطاء القدرة والآلة والعقل بدون التكليف والأمر بالطاعة والنهى عن المفاسد يقتضى كونه تعالى

---

(١) الشمس آية ٧ — ٨

(٢) الجاثية ٢١

راضياً بقبائح الأفعال وذلك لايليق بحكمته فإذاً لا بد من التكليف والتكليف لايحسن ولايليق بالكريم إلا إذا كان هنـــاك دار للثواب والبعث والقيامة[١] .

ويقول بعض العلماء[٢] :

« إن اختلاف سلوك الناس فى هـــذه الحياة يستوجب حياة أخرى يجزى فيها كل امرىء أجره يوم القيامة « فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور[٣] .

وبعد : فهذه نماذج من الأدلة القرآنية لإثبات البعث يوم القيامة كان فيها القرآن الكريم أبلغ من تولى الدفاع عن هذه القضية فما ترك بعده قولا لقائل ولا حجة لملحد أو مكابر فى أمر البعث وإمكان وقوعه قال الله تعالى « واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير »[٤] .

### آراء العلماء فى حقيقة البعث

بعد أن عرضنا لمسلك القرآن فى إثبات البعث فقد رأينا من المناسب أن نذكر أقوال العلماء فى هذا الموضوع لنرى مدى موافقة هذه الأقوال أو مخالفتها لما جاء فى القرآن الكريم فنقول وبالله التوفيق :

لقد شغلت فكرة « المعدوم » وما انبثق عنها من مشكلات — جانباً

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٣ ص ٢٣٤

(٢) د . عبد الرحمن بيصار العقيدة والأخلاق وأثرهما ص ١٤٩

(٣) آل عمران الآية ١٨٥ . (٢) ق ٤١ — ٤٤

كبيراً من الاهتمام فى مناظرات المتكلمين كما أثارها فلاسفة الإسلام والمقصود بالمعدوم هو هذا الجسم البشرى الذى يتألف من أجزاء مختلفة وأعضاء متعددة لتعينه على أداء الرسالة فى هذه الحياة الدنيا أما وقد مات فإنه يتحلل ويتجزأ ويفنى كل شىء فيه وفى هذه الحالة يسمى ذلك الجسم الذى تعطلت أجزاءه أى عدمت — بالمعدوم .

وإذا كان المعدوم بهذا المعنى يمثل جانباً عينياً أو أن له وجوداً عينياً محسوساً فإن له — من ناحية أخرى — وجوداً عقلياً وأنه يمكن أن يكون موضوعاً فى قضية مثال ذلك أن يوم القيامة شىء معدوم أى أنه ليس وجود عينى محسوس ولكنه فى الوقت عينه يصلح لأن يكون موضوعا فى قضية ويمكن الإخبار عنها .

والمعدوم من ناحية أخرى هو انتفاء الوجود وعدمه أى أنه ضد الوجود وسأتناول ذكر آراء العلماء فى حقيقةالبعث هل هو جسمانى فقط أو روحانى فقط أو روحانى وجسمانى .

بيان كيفية البعث عند من يقول بإعادة الأجسام

أن الأقوال الواردة فى البعث والمذكورة فى كتب العقائد الإسلامية خمسة أقوال :

الأول : ثبوت المعاد الروحانى فقط .

الثانى : ثبوت المعاد الروحانى والجسمانى .

الثالث : ثبوت المعاد الجسمانى فقط .

الرابع : عدم ثبوت شىء من ذلك .

الخامس : التوقف فى هذه الأقسام جميعاً(١) .

---

(١) الأيجى شرح المواقف، جـ ٨ ص ٢٩٧ ط أولى سنة ١٣٢٥ سنة ١٩٠٧ السعادة مصر .

أما القول الأول : هو ثبوت المعاد الروحانى فقطفهو قول الفلاسفة الآلهيين وذلك لأن البعث عندهم عبارة عن مفارقة النفس لبدنها واتصالها بالعالم العقلى الذى هو عالم المجردات وسعادتها وشقاوتها إنما تكون بفضائلها النفسانية ورذائلها (١) .

يقول ابن سينا فى كتابه : الإشارات والتنبيهات : والعارفون المتنزهون إذا وضع عنهم درن مفارقة البدن وانفكوا عن الشواغل خلصوا إلى عالم القدس والسعادة وانتقشوا بالكمال الأعلى وحصلت لهم اللذة العليا وقد عرفتها وأما البله فإنهم إذا تنزهوا خلصوا من البدن إلى سعادة تليق بهم ولعلهم لا يستغنون فيها عن معاونة جسم يكون موضوعا لتخيلات لهم ولا يمنع أن يكون ذلك جسما سماويا أو ما يشبهه ولعل ذلك يفضى بهم آخر الأمر إلى الاستعداد للاتصال المسعد الذى للعارفين (٢) .

وأما القول الثانى : وهو ثبوت المعاد الروحانى والجسمانى معاً فهو منسوب إلى الحليمى والغزالى والراغب وأبى زيد الدبوسى ومعمر من قدماء المعتزلة وجمهور من متأخرى الإمامية وكثير من الصوفية فإنهم قالوا إن الإنسان بالحقيقة هو النفس الناطقة وهى المكلف والمطيع والعاصى والمثاب والمعاقب والبدن يجرى منها مجرى الآلة والنفس باقية بعد فساد البدن فإذا أراد الله تعالى حشر الخلائق خلق لكل واحد من الأرواح بدناً يتعلق به ويتصرف فيه كما كان فى الدنيا ) (٣)

---

(١) الإيجى شرح المواقف جـ ٨ ص ٢٩٧ .

(٢) ابن سينا الإشارات والتنبيهات النمط الثامن ص ٧٧٤ — ٧٧٨ ، دار المعارف .

(٣) الإيجى شرح المواقف جـ ٨ ص ٢٩٧ تحقيق د . سليمان دنيا .

وأما القول الثالث : وهو ثبوت المعاد الجسمانى فقط فهـذا القول منسوب لأكثر المتكلمين النافين للنفس الناطقه وهو قول أهل السنة .

وأما القول الرابع : وهو إنكار المعاد الروحانى والجسمانى جميعاً فهو قول القدماء من الفلاسفة الطبيعيين .

والقول الخامس : وهو التوقف فى هذه الأقسام كلها فهو المنقول عن جالينوس فإنه قال : لم يتبين لى أن النفس هل هى المزاج فينعدم عند الموت فيستحيل إعادتها أو هى جوهر باق بعد فساد البنية فيمكن المعاد حينئذ[1] .

هذه هى أقوال العلماء المحكية عنهم فى حقيقة البعث فما مدى موافقتها أو مخالفتها لما جاء به القرآن الكريم فى ذلك .

إن القول الرابع : وهو إنكار البعث مطلقاً والقول الخامس وهو الشك فى وقوعه فسنضرب صفحاً عن الرد عليهما ومناقشتهما وذلك لأن مسلك القرآن الكريم الذى سبق أن قدمناه فيه الكفاية لدحض شبه المنكرين لإمكان البعث والمتشككين فى وقوعه لأن إنكار البعث حلقة متصلة اعتنقها المكذبون لأنبيائهم من كل أمة كما حكى عنهم القرآن ( بل قالوا مثل ماقال الأولون قالوا أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين )[2] .

فالشبهة واحدة ورد القرآن على طائفة واحدة هو رد على كل طائفة منكرة للبعث أو متشككة فى وقوعه فلو ناقشنا هذين القولين وبينا

---

(١) شرح المقاصد جـ ٢ ص ١٥٥ والسمعيات من شرح المقاصد تحقيق د . سليمان خميس ص ٨٧ دار الطباعة المحمدية .

(٢) المؤمنون آية ٨١ — ٨٣

فسادهما ووجه الرد عليهما لكان فى ذلك تكراراً لما سبق وإنما الذى سنناقشه هنا هى بقية الآراء الأخرى .

أما قول الفلاسفة الآلهيين : أن البعث روحانى فقط وإنكارهم للمعاد الجسمانى فلا شك فى مصادمته للنصوص الشرعية الواردة فى القرآن والسنة النبوية فالمنكرون للبعث الذين رد عليهم القرآن لم ينكروا إلا إعادة هذه الأجسام بعد استحالتها تراباً وأوردوا شبههم استبعاداً لتلك الإعادة فرد عليهم القرآن وفند شبههم وبين أن الإعادة ممكنة وكلام الفلاسفة يتضمن إنكار كل شيء محسوس كالجنة والنار والصراط والميزان وكل الحقائق التى أخبر عنها الشارع ولذلك كفرهم الإمام الغزالى وغيره من العلماء فى رأيهم[1] .

وأما القول بأن المعاد روحانى وجسمانى فإنه مبنى على القول بأن الروح جوهر مجرد ليس بجسم ولاقوة حالة بالجسم وإنما تتعلق بالجسم تعلق التدبير والتصرف وأنها لاتفنى بفناء البدن وعليه فالمعاد شيئان — جسم — وروح تعاد إليه ولكن هل الجسم المعاد هو عين الأول .

الكلام الذى نقلناه عن شرح المواقف والذى نسبه إلى الحليمى والراغب والغزالى وآخرين يوحى بأن الجسم المعاد غير الأول أو غيره .

نأخذ ذلك من قوله حكاية عنهم أو نسبة إليهم « فإذا أراد الله تعالى حشر الخلائق خلق لكل واحد من الأرواح بدناً يتعلق ويتصرف فيه كما كان فى الدنيا » .

وهذا القول وإن كانت نسبته لاتصح إلى الإمام الغزالى كما يأتى

---

(١) انظر تهافت الفلاسفة للغزالى .

بيان ذلك ولا نعلم مدى صحة نسبته إلى الآخرين لعدم المراجع المتوفرة بأيدينا حاليا فإنه قول قد قيل ومتداول فى كتب العقائد ولذلك فاننا سنبحث الموضوع من حيث هو لنبين مدى موافقته أو مخالفته لما جاء به القرآن بغض النظر عن نسبته إلى قائله فنقول: إن مشكلة البعث التى عالجها القرآن بطرقه المختلفة مع المنكرين له المستبعدين لوقوعه هى إعادة هذه الأجسام بعينها مرة أخرى بعد أن أصبحت عظاما بالية مفتتة مختلطة إختلاطا كليا بأجزاء الأرض .

قال الله حكاية عنهم :

(أءذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد)[1] .

وقال (وقالوا أءذا ضللنا فى الأرض أءنا لفى خلق جديد)[2] .

وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد)[3] .

فالآيات تحكى أقوالهم الصادرة منهم فى إنكارهم للبعث وإعادة الحياة بعد الموت مرة أخرى لهذه الأجسام المتفتتة فلم تتسع عقولهم ومداركهم لإعادة هذه العظام خلقاً جديداً بعد أن صارت ترابا فهم لم ينكروا على الله عز وجل قدرته على إيجاد خلق جديد وإنشاؤه لأنهم يعلمون إنه خالق السموات والأرض وخالقهم وهم يشاهدون مخلوقاته تحدث باستمرار أمام أعينهم قال تعالى : ( ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ) .

فالخلق والإيجاد مستمر وإنما أنكروا الإعادة لعظام تفتت كما قال تعالى حكاية عنهم :

---

(١) ق آية ٣ (٢) السجدة ١٠
(٣) سبأ آية ٧

(وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال : من يحيي العظام وهى رميم) وقد أشرنا فى سبب نزولها أن أبى بن خلف جاء إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم وهو يفته ويذروه فى الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هـذا ؟ قال رسول الله ﷺ . نعم يميتك الله ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار ) .

هذا ما أنكروه على الرسول ﷺ واستبعدوا وقوعه حينما دعاهم إلى الإيمان بالبعث والجزاء فى اليوم الآخر ولذلك فقد رد الله على شبههم تلك — فقال ردآ على قولهم من يحيي العظام وهى رميم ؟ (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ) .

وقال تعالى ردآ على قولهم : ( أءذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ) .

بقوله : ( قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ) .

وقال (أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه ) — القيامة ٣—٤

وقال ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وإنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) الحج ٦—٧) وفى القبور تلك العظام المفتتة فهو القادر على إعادتها .

ومما يؤكد ذلك ويزيده وضوحا من أن المعاد هو عين الأول لامثله قوله تعالى (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذاما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة

وإليه ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون )[١] .

فهذه الآيات تدل صراحة على أن أعضاء الإنسان وجوارحه التى كانت فى الدنيا هى نفسها التى تبعث فتشهد عليه يوم القيامة بما اقترف من سيآت مستتراً عن أعين الناس ظناً منه أن الله لا يعلم عمله ذلك ولم يدر بخلده أن أعضاءه ستشهد عليه يوم القيامة بكل ما اقترف فى الحياة الدنيا ( وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ) .

ومن رحمة الله وعدله أن لا يؤاخذ عباده إلا ببينة تشهد عليهم بما عملوا وإن كان هو يعلم السر وأخفى ولذا فقد جعل مع كل إنسان من يدون عليه حركاته وسكناته قال تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد )[٢] وقال : ( كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون )[٣] .

وشرط الشهادة أن يكون الشاهد حاضراً ومطلعاً على ما يشهد به فدل ذلك على أن هذه الأعضاء التى تشهد على الإنسان هى الأعضاء الموجودة فى الدنيا حين اقترفت تلك الجريمة لا أعضاء جديدة وجدت وإلا لقال صاحبها لخالقه : إن هذه الأعضاء لم تكن حاضرة معى فى الدنيا حتى تشهد على .

أما نسبة القول — بخلق أجسام جديدة غير التى كانت فى الدنيا — إلى من أشار إليهم شارح المواقف ومنهم الغزالى يبدو أن نسبة هذا القول للغزالى خطأ ذلك أن قوله صريح فى أن المعاد هو عين الأول لا مثله وما نقل عنه من القول بإعادة بدن جديد تتعلق به الروح كما هو

---

(١) فصلت ١٩ — ٢٢ (٢) ق آية ١٨
(٣) الانفطار آية ١١ — ١٢

مذكور فى كتابه : تهافت الفلاسفة — فقد صرح فى كتابه — الاقتصاد فى الاعتقاد — أن ذلك على سبيل الإلزام منه للفلاسفة بما يعتقدون لا أنه هو المذهب الحق الذى يعتقده ولكون الغزالى متهما فى هذه المسألة حتى من أتباعه ، فسأنقل عنه ماذكره فى كتابه المشار إليه وإن طال لبيان الحقيقة — يقول تحت فصل — فى بيان قضاء العقل بما جاء الشرع به من الحشر والنشر .

« أما الحشر فيعنى به إعادة الخلق وقد دلت عليه القواطع الشرعية وهو ممكن بدليل الإبتداء فإن الإعادة خلق ثان ولا فرق بينه وبين الإبتداء وإنما يسمى إعادة بالاضافة إلى الإبتداء السابق والقادر على الإنشاء والإبتداء قادر على الإعادة وهو المعنى بقوله « قل يحييها الذى أنشأها أول مرة » فان قيل فما تقولون ؟ أتعدم الجواهر والأعراض ثم يعادان جميعا أو تعدم الأعراض دون الجواهر وإنما تعاد الأعراض ؟

قلنا كل ذلك ممكن وليس فى الشرع دليل قاطع على تعيين أحد هذه الممكنات وأحد الوجهين أن تعدم الأعراض ويبقى جسم الإنسان متصوراً بصورة التراب مثلا فتكون قد زالت منه الحياة واللون والرطوبة والتركيب والهيئة وجملة من الأعراض ويكون معنى إعادتها أن تعاد اليها أمثالها فان العرض عندنا لا يبقى والحياة عرض والموجود عندنا فى كل ساعة عرض آخر والإنسان هو ذلك الإنسان باعتبار جسمه فانه واحد باعتبار أعراضه فان كل عرض يتجدد هو غير الآخر فليس من شرط الإعادة فرض إعادة الأعراض وإنما ذكرنا هذا لمصير بعد الأصحاب إلى استحالة إعادة الأعراض وذلك باطل ولكن القول فى إبطاله يطول .

والوجه الآخر أن تعدم الأجسام أيضاً ثم تعاد الأجسام بأن تخترع مرة ثانية فان قيل فيم يتميز المعاد عن مثل الأول ؟

وما معنى قولكم أن المعاد هو عين الأول ولم يبق للمعدوم عين حتى تعاد ؟؟

قلنا: المعدوم منقسم فى علم الله إلى ما سبق له وجود وإلى ما لم يسبق له وجود كما أن العدم فى الأزل ينقسم الى ما سيكون له وجود وإلى ما علم الله تعالى أنه لا يوجد فهذا الانقسام فى علم الله لا سبيل إلى إنكاره والعلم شامل والقدرة واسعة فمعنى الإعادة أن نبدل بالوجود العدم الذى سبق له وجود ومعنى المثل أن يخترع الوجود لعدم لم يسبق له وجود فهذا معنى الإعادة .

ومهما قدر الجسم باقيا ورد الأمر الى تجديد أعراض تماثل الأول حصل تصديق الشرع ووقع الخلاص عن إشكال الإعادة وتمييز المعاد عن المثل وقد اطنبنا فى هذه المسألة فى كتابنا التهافت ومسلكنا فى إبطال مذهبهم تقرير بقاء النفس التى هى غير متحيز عندهم ، وتقدير عودة تدبيرها إلى البدن سواء كان ذلك البدن هو عين جسم الإنسان أو غيره وذلك إلزام لا يوافق ما نعتقده فان ذلك مصنف لابطال مذهبهم لا لإثبات المذاهب الحق[1] .

وقد أشار الى هذا المعنى فى كتابه الإحياء ج ٣ ص ٢١٣ .

وأما القول الثالث : وهو أن المعاد جسمانى فقط فهو مبنى على القول بأن الروح جسم لطيف سار فى البدن فالمعاد وهو كل من الروح والبدن جسم فيكون المعاد جسمانيا فقط ودليل أن الروح جسم قول الرسول ﷺ فى صحيح مسلم : «إن الروح إذا قبض تبعه البصر » .

(١) محمد أبى حامد الغزالى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٩٦ ط أولى سنة ١٣٢٠ هـ

وفى رواية أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره قالوا بلى قال : فذلك حين يتبع بصره نفسه »[١].

وقوله تعالى : (فادخلى فى عبادى)[٢].

فدل ذلك على أن الروح جسم يرى بالعين كما أن الدخول فى الأبدان ينافى التجرد لأن المجرد يكون داخلا فى البدن لا بكونه جزء منه ولا قوة حالة فيه وإنما هو عبارة عما ليس بجسم ولا قوة حالة بالجسم بل المجرد لا مكانى فلا يقبل إشارة حسية[٣] .

وهذا القول الذى هو إعادة الجسم بعينه ثم حلول الروح فيه هو الذى دل عليه القرآن وبين أنه واقع لا محالة وذلك لأنه هو الذى استبعد المنكرون للبعث إمكانه .

## كيفية إعادة الجسم عند البعث

بعد اتفاق العلماء على إعادة الجسم عند البعث اختلفوا فى كيفية إعادته : هل تكون بعد انعدامه إنعداما محضا أو بعد تفريق الأجزاء وإخراج الجسم عن هيئته المعهودة ، للعلماء فى كيفية الإعادة بعد الموت مذهبان :

---

(١) مسلم صحيح مسلم كتاب الجنائز باب فى إغماض الميت والدعاء له إذا حضر ج ٢ ص ٦٣٢ — ٦٣٥

(٢) الفجر آية ٢٩

(٣) كمال الدين محمد بن محمد أبى شرف القدش شرح المسايرة ص٢٦٣

المذهب الأول :

أن تنعدم أجزاء البدن انعداماً كلياً بحث لايبقى لها أثر أصلا ثم أن الله تعالى يعيد تلك الأجزاء بعينها بعد فنائها ويوجدها إيجاداً ثانياً كما كانت أولا، ذلك أن الإيجاد الثانى للبدن بعد عدمه الطارىء عليه كالإيجاد الأول من حيث أنه ممتنعاً لذاته ولا لشيء من لوازم ذاته، قال تعالى : ( وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ) فالموجود ثانياً هو الموجود أولا أعيد بعينه على وفق علمه تعالى فهو بكل خلق عليم .

المذهب الثانى :

أن الأجزاء التى يتألف منها البدن لاتنعدم وإنما تتفرق فتكون متصورة بصورة التراب مثلا وإنما الذى يزول عنها الحياة واللون والهيئة والتركيب .

فاذا جاء يوم المعاد جمع الله سبحانه وتعالى بقدرته تلك الأجزاء المتفرقة وألفها ثم أعادها كما كانت فى الدنيا وذلك أن الأجزاء قابلة للجمع والله سبحانه وتعالى عالم بجميع الأجزاء لأى بدن من الأبدان لعموم علمه وإحاطته بكل شيء علما قال تعالى : ( قد علمنا ماتنقص الأرض منهم ) قال : ( وهو بكل خلق عليم ) .

أدلة كل إلى ماذهب إليه :

لجأ كل فريق إلى الاستدلال العقلى وإلى النصوص الدينية يحاول ضمها إلى ماذهب إليه وإدعاؤه أنهما تدلان على مدعاه وحجة على المذهب الآخر .

هذا ولسوف أسوق دليلا عقليا واحداً لكل فريق ورد الآخر

عليه ثم أذكر بعض الأدلة النقلية لكل مذهب وموقف المذهب الآخر منها أقول :

أدلة القائلين بأن الإعادة عن عدم : [١]

أولا : الدليل العقلى :

استدل القائلون بأن الإعادة عن عدم بأدلة عقلية منها هذا الدليل :

( الإعادة إيجاد أهون من الإبتداء وكل ماكان كذلك فهو جائز فالإعادة جائزة )

دليل الصغرى : هذا المعدوم الذى كان موجوداً أقد استفاد بهذا الوجود ملكة الاتصاف به فهو قابل للوجود ثانياً بسهولة لأن له بالوجود عهداً وصلة وليس الوجود غريبا عنه لذلك كانت أولا أسهل من البدأ[٢] .

وكون الإعادة أسهل من البدأ بالنسبة لقدرة العباد لا بالنسبة لقدرته تعالى إذ الجمع أمام قدرته سواء فإعادة الله للمعدوم بالنسبة لقدر العباد أسهل من البدأ .

موقف الخصم من هذا الدليل

قال الخصم على هذا الدليل : لانسلم أن الإعادة أهون من الابتداء والدليل : « أن هذا المعدوم الثانى مثل المعدوم الأول لأنه صار بالعدم

(١) لأهل السنة وبعض مشايخ المعتزلة

(٢) د . عبد العزيز عبيد محاضرات فى مادة التوحيد ص ٢٩ وشرح المواقف ج ٨ ص ٢٩٠

فناء محضاً فكيف يقال : إيجاده أهون مع أنه يتساوى مع العدم الأول فلا أهونية فى إيجاده حتى بالنسبة لقدرتنا نعم تظهر هذه الأهونية فى الإعادة عن تفريق أو فى إيجاد مثل للأول لاعينه »[١] .

ثانيا : الدليل النقلى :

ذهب القائلون بأن الإعادة عن عدم إلى نصوص القرآن الكريم لتؤيدهم فى مدعاهم فأخذوا من قول الله تعالى ( كل شىء هالك إلا وجهه )[٢] وقوله ( كل من عليها فان )[٣] دليلا على الإعادة بعد عدم وقالوا : إن كلمتى هالك و « فان » الظاهر منهما العدم المحض وأخذوا من قول الله تعالى ( هو الأول والآخر )[٤] . دليلا على إعادة المعدوم قالوا فيه : إن معنى الآخر فى الآية هو الآخر فى الوجود ولا يكون كذلك إلا بعد انعدام جميع الخلائق حتى يكون آخراً فى الوجود أما ماورد من نصوص فى أن أجساد الأنبياء وبعض الصالحين لاتأكلها الأرض فانها تحمل على ماقبل النفخة الأولى أما عندهم فتعدم ثم تبعث[٥] .

كما أخذ المستدل على أن الإعادة تكون بعد عدم من قول الله تعالى ( كما بدأكم تعودون )[٦] وقوله تعالى ( كما بدأنا أول خلق نعيده )[٧] .

---

(١) المرجع نفسه المواقف جـ ٨ صـ ٢٩٠ د . عبد العزيز عبيد صـ ٣٩ محاضرات فى مادة التوحيد .

(٢) القصص ٨٨ (٣) الرحمن ٢٦ (٤) الحديد ٣

(٥) محاضرات فى مادة التوحيد صـ ٥٠

(٦) الأعراف ٢٩ (٧) الأنبياء ١٠٤

دليلا قال فيه : أن الإعادة مثل البدأ وقد بدأنا من العدم فيعدنا كذلك .

## موقف الخصم من هذه النصوص

لقد رد الخصم هذه الاستدلالات النقلية بقوله :

لا نسلم أن كلمتى هالك و « فان » المراد بهما العدم بل المراد بهما إنما الموت كما فى قوله تعالى : ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث من بعده رسولا (٤) .

وكما فى قول الله تعالى : ( أن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك ) (٥)

وكما يقال أفنتهم المعارك والحروب فالمراد بالهلاك والفناء هنا الموت وإما أن يراد بالهلاك والفناء الفساد وهو الخروج عن الانتفاع المقصود به واللائق بحاله كما يقال هلك الطعام أو فنى بمعنى فسد ولم يبق صالحا للأكل وإن كان صالحاً لمنفعة أخرى .

وقالوا كذلك لا نسلم أن كلمة الآخر فى قول الله تعالى هـو الأول والآخر تدل على فناء المخلوقات بمعنى انعدامها حتى يكون هو آخراً فى الوجود وإنما معناها أنه آخر فى الوجود بعد موت جميع الخلائق .

---

(١) غافر ٣٤
(٢) النساء الآية ١٧٦ (٧)

وقال الخصم للمستدل بقول الله تعالى : «كما بدأكم تعودون» :

وقوله تعالى : «كما بدأنا أول خلق نعيده» لانسلم أن هاتين الآيتين تدلان على الإعادة بعد عدم بل تدلان على أن البدأ والإعادة متشابهان فى الجمع والتركيب ولذلك جاء التعبير بالبدء حين كان عن أصل سابق فقال سبحانه «وبدأ خلق الإنسان من طين» [1] .

المذهب الثانى القائلون بأن الإعادة عن تفريق [2] :

يرى أصحاب هـذا الرأى أن الإعادة تكون عن تفريق ولهم على إثبات مذهبهم أدلة من العقل والنقل .

أولا الدليل العقلى :

حاول أصحاب هذا الرأى إبطال قول المذهب القائل بأن الإعادة عن عدم محض وإذا تم لهم هذا ثبت مدعاهم : أن الإعادة عن تفريق محض ولهم على هذا عدة أدلة عقلية منها هذا الدليل .

لو أعيد المعدوم بعينه لكان مبتدأ من حيث أنه معاد لكن كونه مبتدأ من حيث أنه معاد باطل فبطل ما أدى اليه من إعادة المعدوم بعينه باطل وثبت نقيضه وهو عدم إعادة المعدوم بعينه .

---

(١) السجدة ٧

(٢) وهو رأى بعض المعتزلة .

دليل الملازمة : من وجهين :

الأول : أن المعاد بعينه لا يكون كذلك إلا إذا أعيد معه جميع عوارضه[١] التى منها الوقت الأول .

---

(١) لقد وقع خلاف فى إعادة الأعراض التى كانت للجسم فى حياته:

فذهب الأشاعرة ومن شايعهم إلى أن الأعراض التى كانت للجسم تعاد بأعيانها لافرق بين عرض يطول بقاؤه كالطول والقصر وبين مالا يطول بقاؤه كالأصوات والادراكات ، ولا بين الأعراض المقدورة للعبد كالطاعات والمعاصى وغير المقدورة له كالإرادة والقدرة إلا أن الأعراض التى كانت ملازمة للجسم كالبياض والطول تعاد قائمة بالجسم .

ولا يلزم من ذلك اجتماع المتناقضات كالطول والقصر والصغر والكبر لأن قيامها بالجسم تدريجى كما كانت فى الدنيـــا لادفعى وأما الأعراض التى لا تكون ملازمة للجسم كالطاعة والمعاصى فانها تعاد غير قائمة بالجسم بل تصور بصورة جسمية .

وذهب آخرون إلى أن الأعراض لاتعاد بل يعاد الجسم بأعراض أخرى . مذكرات فى التوحيد ص ٨٤

وفى الحقيقة أن امتناع إعادة الأعراض لايتفق مع دليل الإمكان العام وهو : أن كل ماوجد فهـو ممكن ولا يمكن أن يتقلب الممكن مستحيلا .

ثم أن الوقت الحاضر بما نشاهد فيـه من آلات للتسجيل يدل على إعادة الأعراض إذ أن آلات التسجيل تحتفظ بالأصوات والأعمال لحين عرضها .

الثانى : أن كل حاصل فى وقتـــه الأول يكون مبتدأ فلو حصلت الإعادة العينية لاجتمع المبتدأ والمعاد معا فى شخص واحد فهو مبتدأ حيث وجد فى وقته الأول وعند إعادته مع الوقت الأول يكون مبتدأ أيضاً وهو معاد فيجتمع الضدان وذلك محال .

أما بطلان التالى . فانه ظاهر لما فيه من اجتماع الضدين لأن المبتدأ والمعاد ضدان لايجتمعان [١].

موقف الفريق الآخر من هذا الدليل :

قال الخصم على هذا الدليل لانسلم الملازمة لأن الإعادة العينية لاتحتاج إلى العوارض التى منها الوقت وإنما الإعادة تكون بجميع الأجزاء الأصلية وليس منها الوقت والأجزاء الأصلية هى التى تبقى من أول العمر إلى آخره وهى أجزاء المولود حين ولادته وهى التى لايتبدل الشخص بتبدلها والوقت ليس كذلك لأن الشخص واحد فى كل وقت فلو جنى شخص فى وقت ثم حكم عليه فى وقت آخر ثم نفذ عليه الحكم فى وقت ثالث فالمنفذ عليه هو الشخص الجانى نفسه ولم يتغير [٢] .

---

(١) شرح المواقف جـ ٨ ص ٢٩٢ محاضرات فى مادة التوحيد ص٤٣ د / عبد العزيز عبد الله عبيد .

(٢) شرح المواقف جـ ٨ ص ٢٩٢

ثانياً : الدليل النقلي :

استدل القائلون بأن الإعادة عن تفريق بآيات قرآنية منها : —

قول الله تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعوهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم » (1) .

وقوله : ( أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير)(2) .

أخذ القائلون بأن الإعادة عن تفريق من هذه الآية دليلا على مدعاهم قالوا فيه : أن القصتين ظاهرتان فى الإعادة عن تفريق فابراهيم عليه السلام فى الآية الأولى عندما طلب من ربه أن يريه كيف (3) يحيى الموتى أمره الله عز وجل أن يأخذ أربعة من الطير ثم يقطعهن إلى أجزاء على رؤوس الجبال ثم يدعوهن إليه فلما فعل ذلك تجمعت الأجزاء المتفرقة وعادت كائناً حيا كأن لم يكن به شىء فبعث الأجساد بعد الموت صورة مشابهة تماما لبعث هذه الطيور التى تفرقت أجزاؤها .

---

(1) البقرة ٢٦ (2) البقرة ٢٥٩

(3) لم يكن ابراهيم عليه السلام شاكاً فى قدرة الله على إحياء الموتى ولكنه سأل عن كيفية الإحياء حتى يصل إلى عين اليقين الذى هو أعلى من علم اليقين .

والسائل (١) فى الآية الثانية عن كيفية إحياء الله لهذه القرية بعد أن خربت وأصبحت أطلالا أراه الله كيفية ذلك فى نفسه إذ أماته مائة عام ومعه حماره ثم أحياه الله لينظر إلى طعامه وشرابه الذى لم يفز ولم يفسد مع مرور السنين ولينظر إلى قدرة الله تعالى كيف ترفع عظام حماره المتفرقة وتحركها لتردها إلى مكانها من الجسم ثم تكسوها لحما ليعلم أن الله على كل شىء قدير .

فهذه الآية — كما يقول المستدل — تصور الحياة بعد الموت إذ احتفظت قدرة الله تعالى بسلامة هذا الطعام ومنعت عنه الفساد كما احتفظت بسلامة الإنسان والحيوان فإذا بعث الأموات بعد مئات أو آلاف السنين فإن بعثهم يكون صورة مشابهة لهذه القصة .

كما استدل القائلون بأن الإعادة عن تفريق بقول الله تعالى :

( بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ) (٢) .

قال المستدل بهذه الآية أن المشركين الشاكين فى البعث عندما استبعدوا إعادتهم بعد مماتهم قالوا ( أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ) رد الله عليهم بقوله : ( قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ) فبين سبحانه أنه عالم بأجزائهم وماتنقص الأرض منهم، وقادر على جمعها بعد تفريقها وإعادتها كما كانت بدنا واحدا (٣) .

---

(١) قيل أنه عزير وقيل غير ذلك .

(٢) ق ٢ — ٣

(٣) الروح بين الإسلام والفلسفة ص ٣٣

كما استدل القائلون بأن الإعادة عن تفريق بقول الله تعالى :

( أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور)[١] إذا يرون أن هذه الآية صريحة فى أن ما فى القبور من أجزاء الميت لايفنى ولا يعدم وإنما هو باق متفرق .

موقف أصحاب المذهب القائل بأن الإعادة عن عدم محض من هذه الآيات :

قالوا : لانسلم أنهما ينصان على الإعادة عن تفريق وإنما المراد منها الحياة بعد الموت وقد بينها الله لهما فى حالة مشاهدة أو يحتمل أن الله يخلق الأجزاء من عدم ثم يجمعها ويركبها ويخلق فيها الحياة وقالوا على الآية الثانية :

أن هذه الآية وإن كانت واقعة خاصة لأنها جواب سؤال إلا أنها لاتنفى الإعادة عن عدم وإن لم تدل عليه ولو فرضنا أنها تدل على الإعادة عن تفريق فانها معارضة بالآيات المشعرة بالإعادة بعد الفناء ، وقالوا على الآية الثالثة .

أن هذه الآية لبيان الحياة بعد الموت من غير نظر إلى كيفية خاصة فهى لاتدل على البعث عن عدم أو عن تفريق [٢] .

مما سبق يتضح لنا أن العلماء انقسموا إلى فريقين أحدهما يؤيد القول بالإعادة عن عدم [٣] لأنه يتناسب مع قدرة الله تعالى ، وثانيهما

(١) العاديات ٩

(٢) محاضرات فى مادة التوحيد ص ١٥١ د . عبد العزيز عبيد والنبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام ص ١٠٥ د / محى الصافى

(٣) شرح الباجورى على الجوهرة ص ٩٦

يؤيد القول بأن الإعادة عن تفريق لكثرة النصوص الظاهرة فى ذلك وترجيح كثير من العلماء الإعادة عن تفريق إلا أنى أقول إن الواجب هو الاعتقاد أن الله سبحانه وتعالى يعيد الأجسام يوم القيامة وهو من ضروريات الدين ، وماعدا ذلك من أن الإعادة بعد العدم المحض أو بعد التفريق ليس من العقيدة فى شىء بل يجب علينا أن نفوض العلم فيه إلى علام الغيوب خاصة وأنه لم يرد دليل قاطع فى كيفية الإعادة .

يقول أمام الحرمين : يجوز عقلا أن تعدم الأجزاء ثم تعاد ويجوز أن تبق وتزول أعراضها التى منها تركيبها ثم يعاد تأليفها ولم يرد من السمع مايدل على تعيين كون الإعاد بعد العدم أو بعد التفريق فليس أحدهما مستبعداً[1] .

فامام الحرمين قد توقف ولم يجزم بأن الإعادة عن عدم أو عن تفريق وإن كنت أرجح القول بأن الإعادة عن تفريق خاصة وأن هناك نصوصاً صريحة من القرآن تشير إلى ذلك أعنى الجمع .

يقول الله فى سورة الحج بعد ذكره دليل الإعادة :

( ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور )[2] .

ومعلوم أن الذى فى القبور أجزاء الموتى بعد أن تفتت واختلطت بأجزاء الأرض فالله قادر على تمييزها ثم تأليفها وإعادتها إلى حياتها الأولى .

وفى سورة القيامة آيتان صريحتان فى جمع أجزاء الإنسان المتفرقة

---

(١) الإرشاد إمام الحرمين صـ ٤٧٤

(٢) الحج آية ٦ — ٧

بل أنهما أقوى دليل على ذلك وأبلغ دليل فى تصوير القدرة الألهية يقول الله تعالى ( أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه )[١] .

فقد صرحت الآية بجمع عظام الإنسان المتفرقة كما نصت على تسمية بنانه وقد كشفت العلوم الحديثة عن هذا السر إذ تبين أن البشرية بأسرها قد ميز الله العليم القادر بين جميع أفرادها بميزة لا يمكن أن يشترك فيها أثنان منهم حتى الأب مع ابنه تلك الميزة هى اختلاف البنان تلك الخطوط الدقيقة فى أنامل كل إنسان فقد ثبت علمياً اختلاف بصمات أفراد البشرية فى هذا العالم كله — أى اختلاف بنانهم .

وإذا كان الأمر كذلك وقد أخبر تعالى ( أنه قادر على جمع عظام الإنسان وإعادة بنان كل فرد بهيئته وشكله وصورته فكيف يستبعد الجاحد على من هذه قدرته إعادته إلى الحياة مرة أخرى .

وبالتالى فالآية نص صريح فى جمع الأجزاء المتفرقة حتى أصغر جزء منها ودليل على أن بدن الإنسان يتفرق ولا ينعدم .

يتبين لنا أن الأولى بالترجيح هو القول بتفرق بدن الإنسان لا اعدامه ذلك التفرق الذى تذهب معه الصورة الأصلية لأجزاء بدن الإنسان وتتغير تغيراً كليا بحيث تصبح متصورة بصورة التراب وهذا ليس معناه عدماً فان التراب موجود وهو أصل مادة الإنسان فمنه وجد وإليه يعاد ومنه يخرج مرة أخرى قال تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى »[٢] .

---

(١) القيامة آية ٣

(٢) طـه ٥٥

إلا ما نصت السنة الصحيحة على بقائه بعينه وعدم تحوله عن صورته .

أولا : عجب الذنب : الذى منه يركب خلق الإنسان فقد ثبت فى الصحيحين بقاؤه بعينه وأن الأرض لا تأكله أبدا . ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما بين النفختين أربعون . قالوا : أربعون يوما ؟ قال : أبيت قالوا : أربعون شهرا ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل .

ليس من الإنسان شىء إلا يبلى إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة [١] .

وفى رواية مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أن فى الإنسان عظما لا تأكله الأرض أبدا فيه يركب يوم القيامة . قالوا أى عظم هو ؟ يارسول الله قال : عجب الذنب » [٢] .

ثانيا : أجساد الأنبياء : فقد حرم الله على الأرض أن تأكله . فقد روى النسائى وأبو داود من حديث أوس بن أوس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه السلام وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا على من الصلاة فان صلاتكم معروضة على قالوا يارسول الله كيف تعرض صلاتنا

---

(١) محمد بن اسماعيل البخارى كتاب التفسير باب يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا رقم الحديث ٤٩٣٥ من فتح البارى ج ٨ ص ٦٨٩ .

(٢) مسلم كتاب الفتن باب ما بين النفختين

عليك وقد أرمت ؟ أى يقولون قد بليت قال : إن الله عز وجل . قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام [١] .

ويقول ابن القيم فى مفتاح دار السعادة ما ملخصه :

ماخلقه الله سبحانه وتعالى فقد أوجده لحكمة فى إيجاده فاذا اقتضت حكمته اعدامه جملة واحدة أو تغييره وتحويله من صورة إلى صورة بدله وغيره وحوله ولم يعدمه جملة قال : ومن فهم مسألة المعاد وماجاءت به الرسل فيه فان القرآن والسنة إنما دلا على تغيير العالم وتحويله وتبديله لاجعله عدما محضاواعدامه بالكليةفدل على تبديل الأرض غير الأرض والسموات وعلى تشقق السماء وانفطارها وتكوير الشمس وانتشار الكوكب وسجر البحار وإنزال المطر على أجزاء بنى آدم المختلطة بالتراب فينبتون كما ينبت النبات وترد تلك الأرواح بعينها إلى تلك الأجساد التى أحيلت ثم أنشأت نشأة أخرى .

فهذا هو الذى أخبر به القرآن والسنة ولاسبيل لأحد من الملاحدة والفلاسفة وغيرهم إلى الاعتراض على هذا المعاد الذى جاءت به الرسل بحرف واحد .

وإنما اعتراضاتهم على المعاد الذى عليه طائفة من المتكلمين أن الرسل جاءوا به وهو أن الله يعدم أجزاء العالم العلوى والسفلى كلها فيجعلها عدما محضا ثم يعيد ذلك العدم وجوداً وياليت شعرى أين فى القرآن والسنة أن الله يعدم ذرات العالم وأجزاءه جملة ثم يقلب ذلك العدم وجوداً .

---

(١) النسائى سنن النسائى المجتبى كتاب الصلاة باب فضل يوم الجمعة ج ٣ ص ٧٥ ط أولى سنة ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤ م

وهذا هو المعاد الذى أنكره الفلاسفة ورمته بأنواع الاعتراضات وضرب الالزامات واحتاج المتكلمون إلى تعسف الجواب وتقريره بأنواع المكابرات .

وأما المعاد الذى أخبرت به الرسل فبرىء من ذلك كله مصون عنه لامطمع لعقل فى الاعتراض عليه لايقدح فيه شبهة واحدة وقد أخبر سبحانه أنه يحى العظام بعدما صارت رميا وأنه قد علم ماتنقص الأرض من لحوم بنى آدم وعظامهم فيرد ذلك إليهم عند النشأة الثانية وأنه ينشىء تلك الأجساد بعينها بعدما بليت نشأة أخـــرى ويرد إليها تلك الأرواح ... إلخ [1] .

وإذا كنا رجحنا القول بأن الإعادة عن تفريق لاعن عدم محض وأن الله عز وجل يفرق أجزاء الأجسام ثم يعيدها فما هو الجواب على ما استدل به القائلون بانعدام الأبدان من قوله كل شىء هالك إلا وجهه ) [2] وقوله كل من عليها فان [3] .

يرى القائلون بتفريق الأبدان أن الاستدلال بهاتين الآيتين على انعدام الأبدان كلية ضعيف ذلك أن التفريق هلاك كالاعدام لأن هلاك الشىء هو خروجه عن صفاته التى كان عليها وزوال التأليف والتركيب الذى به تصلح الأجزاء لأفعالها وتتم به منافعها ومثل الهلاك الفناء عرفا فان البدن إذا تغير بحيث أصبح ترابا فقد صار فى حكم المعدوم من حيث تغير صورته وكل مايمتاز به من مقومات .

وقد قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : (كل من عليها فان) إنه

(١) ابن القيم مفتاح دار السعادة جـ ٢ ص ٣٥
(٢) الرحمن ٣٦ (٣) القصص

أخبار من الله تعالى لأن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون وكذلك أهل السموات إلا من شاء الله ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم فان الرب تعالى هو الحى الذى لا يموت قال : وهذه الآية كقوله تعالى : كل شىء هالك إلا وجهه (١) .

فعلى هذا التفسير يتضح أن المقصود من الآيتين هو موت الأحياء جميعا وتغير صورهم بل وصور الأشياء جميعا كما تقدم توضيحه فى كلام ابن القيم (٢) .

---

(١) ابن كثير التفسير جـ٤ صـ ٣٧٢ — ٣٧٣

(٢) منهج القرآن فى الدعوة إلى الله د/ على محمد ناصر صـ ٣٦٥ — ط سنة ١٩٨٤ م

# الفصل الثاني

## ٣ ـ الحشر

هو في اللغة : الجمع يقال حشر الناس ( جمعهم ) ومنه ( يوم الحشر ) المحشر بكسر الشين : موضع الحشر و (الحاشر ) اسم من أسماء النبي ﷺ قال عليه السلام أنا محمد وأحمد والماحي يمحو الله به الكفر والحاشر أحشر الناس على قدمي والعاقب )[1].

وفي الشرع : جمع الله الخلائق بعد بعثهم أحياء في ساحة واحدة تدعى : عرصات القيامة الموقف أرض المحشر ساحة فصل القضاء)وذلك للحساب والمجازاة .

والحشر هو الحال الثاني من أحوال اليوم الآخر والأول هو النشر أي أحياء الله تعالى الموتى وإخراجهم من قبورهم أحياء بعد جمع أجزائهم الأصلية .

لمن الحشر ؟

يكون الحشر للخلائق كلهم من يجازى منهم وهم الإنس والجن والملائكة ومن لا يجازى كالبهائم والوحوش والطير على ماذهب إليه المحققون وقيل أنه لا يحشر إلا من يجازى ويشمل الذي ولد كاملا حتى ولو لم يتم إلا ستة أشهر وأما السقط وهو الذي لم تتم له ستة أشهر فإن ألقى

---

(١) مختار الصحاح مادة ( حشر ) ص ١٣٧

بعد نفخ الروح فيه أعيد بروحه ويصير عند دخول الجنة كأهلها فى الجمال والطول وأن ألقى قبل نفخ الروح فيه كان كسائر الأجسام التى لاروح فيها كالحجر فيحشر ثم يصير تراباً )[١] .

ويحشر الناس عراة تحشر معهم جميع أجزائهم المتصلة والمنفصلة عنهم فى حال حياتهم الدنيا فقد روى البخارى ومسلم والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال النبى ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا »[٢] .

قلت يارسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟

قال : ياعائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض »[٣] .

وجه الدلالة فى الحديث أن جلدة الختان التى انفصلت عنه فى الدنيا ستحشر معه وهذا يدل على أنه سيحشر معه كل جزء منفصل عنه وإذا كان الجزء المنفصل سيحشر معه فالجزء المتصل أولى .

## أرض الحشر :

إن نظام الكون سيختل فالأرض تهتز والكواكب تنتشر وهكذا تصبح هذه الأرض غير صالحة للحشر ولذلك فإن الحشر يجرى على أرض غير هذه الأرض كما قال تعالى ( يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ) .

---

(١) المختار من شرح البيجورى ص ٢٠٢

(٢) الأغرل الأغلق الذى لم يختن .

(٣) رواه النسائى وابن ماجة أيضاً والمنذرى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٩٣

ومما جاء فى تفسيره :

أن الأرض تكون غير الأرض والسموات غير السموات والتبديل يكون فى الذات كقولك : بدلت الدراهم بالدنانير وعليه قوله : ( بدلناهم جلوداً غيرها ) وفى الصفة كقولك بدلت الحلقة خاتماً إذا أذبتها وغيرت شكلها وعليه قوله :( يبدل الله سيآتهم حسنات ) والآية تحتملهما فعن على — رضى الله عنه — تبدل أرضا من فضة وسموات من ذهب — وعن مسعود وأنس — رضى الله عنهما — يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطىء عليها أحد خطيئة .

وعن ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما — أنه ﷺ قال تبدل الأرض غير الأرض فتبسط وتمد مد الأديم العكاظى لاترى فيها عوجا ولا أمتا[٢] .

أما أهوال الحشر :

فإنها تفوق حد التصور ، ويكفى أن نعلم أن الشمس تدنو فى ذلك اليوم من الخلق حتى تكون منهم قدر ميل فيكون الناس من العنت والشدة على قدر أعمالهم فعن المقداد بن الأسود قال . سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم قدر ميل فيكون على قدر أعمالهم فى العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه )[٣] .

---

(١) إبراهيم ٤٨

(٢) تفسير البيضاوى ص٣٤٢ - الأعوجاج والأمت النتوء - اليسير -

(٣) الحقو معقد الأزار .

ومنهم من يلجمه العرق لجاما وأشار رسول الله بيده إلى فيه ويطول ذلك الموقف ويطول ويهرج الناس ويموجون ( وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ) الحج .

ويصف الغزالى طرفا من هذا الموقف فيقول :

( ويلبث الناس على هذه الحال ألف عام حتى إذا نقر فى الناقور وجلت قلوبهم وخشعت أبصارهم واشتاقت رؤوسهم خوفا وهلعوا من أن يصيبهم مزيد من العذاب فاذا بعرش الله تحمله ثمانية أملاك قدم الملك منهم مسيرة عشرين ألف سنة وتحيط به وتواكبه أفواج الملائكة تنطلق منهم أصوات التسبيح حتى يستقر للعرش فتطرق الرؤوس وتشفق البرايا وتطير القلوب هلعا وفزعا .. وفيما هم كذلك إذا يتغاشاهم نور يغلب نور الشمس ويستمر كذلك زمنا طويلا لا يكلمهم الله .. وحينئذ يذهب الناس إلى آدم ويقولون له يا أبا البشر الأمر علينا شديد وأنت الذى خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته ونفخ فيك من روحه اشفع لنا فيعتذر لأنه عاجز عن ذلك بسبب خطيئته .. وهكذا ينتقلون من نبى إلى نبى فى مسافات زمنية لا يعلم مداها حتى ينتهوا إلى سيدنا محمد ﷺ ويسألوه الشفاعة )[1] .

وأن الناس فى هذا الموقف على ماهم فيه من الضيق والكرب فلا يبقى منهم إلا من سقى الله ولا يطعم إلا من أطعم الله يصدق ذلك قوله تعالى : ( فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا )[2] .

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزى أن الرسول ﷺ قال : خوفنى جبريل يوم القيامة حتى أبكانى فقلت ياجبريل ألم يغفر لى ربى ذنبى ما تقدم وما تأخر ؟ فقال يا محمد لتشهدن من هول ذلك اليوم ما ينسيك المغفرة ) .

---

(١) الإمام الغزالى إحياء علوم الدين (٢) الإنسان ١١

ولكن هذا الهول ليس على جميع الناس فهناك الصالحين وأخيار العباد نجاهم الله من هول ذلك الموقف وضمهم إلى ظل عرشه كما قال ﷺ ( سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وافترقا ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال أنى أخاف الله رب العالمين ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه )[١] .

وفريق من المؤمنين المخلصين لا يشعرون بطول ذلك الموقف رغم طوله خمسين ألف سنة كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ أمته ( قيل يارسول الله يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول ذلك اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده أنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا )[٢] .

والحشر على الوجه خاص بالكافر لقوله تعالى : ( ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا . ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديداً )[٣] .

ولما روى فى الصحيحين من حديث أنس — رضى الله عنه — أن رجلا قال يانبى الله كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ قال أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟

---

(١) رواه البخارى ومسلم
(٢) أخرجه الإمام فى المسند
(٣) الإسراء ٩٧—٩٨

أدلة إمكان الحشر ووقوعه :

تعاضدت الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع السلف على ثبوت الحشر ووقوعه ووجوب اعتقاده فمنكر الحشر كافر إجماعاً وقد كفر الإمام الغزالى فلاسفة الإسلام لما قالوا بالحشر للأرواح فقط ومن ثم فإنكار الحشر للأجسام كفر صراح .

والحشر فوق ذلك ممكن عقلا لأنه لا يترتب على فرض وقوعه محال عقلى بل العقل السليم يجوز هذا الأمر دون أن تعترضه استحالة ذاتية .

أما دليله من القرآن قوله تعالى : ( فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا )[1] والآيات كثيرة .

---

(١) مريم ٦٨

# الفصل الثالث

## ٣ ـ الشفاعة

عندما يشتد هول الموقف يتجه الناس إلى الأنبياء يسألونهم الشفاعة عند الله تعالى لإنهاء هذا الموقف الرهيب فيعتذر كل نبي ويحيلهم إلى من بعده حتى يصل الجميع إلى خاتم المرسلين محمد ﷺ فيقول : أنا لها أنا لها ويسأل الله سبحانه أن يفصل الحساب بين الخلائق فتقبل شفاعته .

تلك هي الشفاعة العظمى التي اختص بها محمد ﷺ .

تعريفها :

الشفاعة مشتقة من شفع يشفع شفعاً وشفاعة فهي في أصل اللغة مأخوذة من لفظ الشفع الذي هو خلاف الوتر وهو الزوج تقول : كان وترا فشفعته شفعاً[1] .

فكأن صاحب الحاجة بعد أن كان واحداً ضم إليه من استشفع به وطلب شفاعته فصار شفعاً ـ أي اثنين ـ بعد أن كان فرداً ومعنى الشفاعة عرفا ( هو أن يطلب إنسان من إنسان آخر التوسط له عند ذي ملك أو سلطان ليقضي له حاجته في اعطائه ما هو في حاجة إليه أو في التجاوز عنه في ذنب قارفه أو جريمة ارتكبها )[2] .

---

(١) مجد الدين الفيروزابادي القاموس المحيط جـ ٣ ص ٤٥ ـ ٤٦ ط ٤ سنة ١٩٣٨ .

(٢) أبو بكر الجزائري عقيدة المؤمن ص ١٢٨

أما معناها شرعا : وهو المقصود هنا فهو : توسط الرسل والأخيار عند الله تعالى للناس لمحو ذنب أو لرفع درجة أو لصرف هم نازل بهم[1] .

هذا والشفاعة تنسب إلى الله تعالى كما فى قوله تعالى : « قل لله الشفاعة جميعاً »[2] .

فيكون معناها العفو أو قبول الشفاعة لمن أقر له بالوحدانية ولرسوله ﷺ بالنبوة والرسالة حتى ولو لم يعمل خيراً يدل عليه قوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »[3] .

وكما فى حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثم ارجع إلى ربى فاحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطى وأشفع تشفع فأقول يارب ائذن لى فيمن قال : لا إله إلا الله قال : ذلك ليس لك أو قال : ذلك ليس إليك ولكن وعزتى وجلالى وكبريائى وعظمتى لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله »[4] .

كما تنسب الشفاعة أيضا إلى رسول الله ﷺ كما فى قوله ﷺ : « اعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى وعد ﷺ منهن « الشفاعة »[5] .

فيكون معناها طلب الخير أو المغفرة للمذنبين من البشر أو يكون معناها الدعاء إلى الله لتخفيف الكرب والشدة أو لتعجيل الحساب يوم الموقف العظيم لذا يقال له ﷺ صاحب الشفاعة العظمى وهذه أول شفاعة مقبولة وبها يفتح باب الشفاعة لغيره من الأنبياء والصالحين .

---

(١) صالح شرف مذكرات فى التوحيد ص ١٤٢

(٢) الزمر ٤٤ (٣) النساء ٤٨

(٤) مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب الشفاعة ص٤٩٥ ط الشعب

(٥) فتح البارى بشرح صحيح البخارى كتاب الصلاة باب قول النبى ﷺ جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ج ٢ ص ٧٩

وأيضاً تنسب الشفاعة له ﷺ ولغيره من الأنبياء والصالحين كما في قوله تعالى: « يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا[1] »، ويكون معناها طلب المغفرة للمذنبين أو لرفع درجات بعض المؤمنين.

أركان الشفاعة:

لابد في الشفاعة من أركان أربعة بيانها كالتالي:

١ — الشافع وهو الوسيط أو طالب الخير من الغير للغير ويمشي مشفعا أن قبلت شفاعته ولذلك يقـــول الرسول ﷺ أنا أول شافع وأول مشفع[2].

٢ — المشفوع له: وهو صاحب الحاجة أو المشفوع له عند الله لرفع درجته أو لمحو ذنبه.

٣ — المشفوع فيه: وهو الأمر الذي يطلب من أجله الشفاعة سواء أكان هذا الأمر جناية أو قضاء حاجة أو رفع درجة لصاحب هذا الأمر.

٤ — المشفوع إليه وهو الذي يتقدم إليه الشافع راجيا قبول شفاعته فيما تقدم به إليه يقول القاضي عبد الجبار « ولابد من شافع ومشفوع له ومشفوع فيه ومشفوع إليه ولابد أن يكون الشفيع مكرما عند المشفوع إليه وإلا لم يمكن إيصاله تلك المنفعة إلى الغير ودفعه ذلك الضرر بشفاعته[3] ».

(١) طه ١٠٩

(٢) مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب الشفاعة جـ ١ ص ٤٧٦

(٣) القاضي عبد الجبار شرح الأصول الخمسة ص ٦٨٨ تحقيق د/. عبد الكريم عثمان نشر مكتبة وهبة سنة ١٩٦٥ .

أقسام الشفاعة يوم القيامة :

تنقسم الشفاعة يوم القيامة من حيث هى إلى قسمين : منفية ومقبولة .

فالشفاعة المنفية : هى التى نفاها القرآن الكريم ولها صور منها

١ — شفاعة الآلهة التى عبدت من دون الله أو معه وهذه شفاعة لاوجود لها البتة لقوله تعالى : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعاً »[1]

ولأن من عبد من دون الله تعالى مشرك كافر ولاشفاعة لكافر لقول الله تعالى : فما تنفعهم شفاعة الشافعين[2] .

وقوله : ( واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولاهم ينصرون )[3]

يقول صاحب عقيدة المؤمن بعد ذكره لهذه الآية ( وهذه قطعاً نفس الكافرين والمشركين )[4]

٢ — الشفاعة بدون إذن الله تعالى للشافع أو عدم رضاه عن المشفوع له وذلك لقول الله تعالى : ( من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه . . )[5]

ولقوله تعالى : ( وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى )[6]

---

(١) الزمر ٤٣ — ٤٤
(٢) المدثر ٤٨
(٣) البقرة ١٢٣
(٤) عقيدة المؤمن ص ١٣٢
(٥) البقرة ٢٥٥
(٦) النجم ٢٦

٣ ـ الشفاعة بالمعنى المعروف لنا : وهى أن يعمل الشافع على تغيير عزم المشفوع عنده على فعل كان أراد غيره أو ابتداء أمر جديد كان المشفوع عنده لا يريده والشفاعة بهذا المعنى محالة على الله قطعاً لأنها تقتضى تغيير إرادته وعلمه أو تقتضى أن يكون الأمر آنفاً لم يسبق علمه به وحاشا لله ذلك[١] .

أما الشفاعة المثبتة أو المقبولة فإنها تتخذ صوراً عدة :

١ ـ الشفاعة العظمى : وتكون يوم الهول الأكبر فى فصل القضاء قبل الحساب لإراحة الخلق جميعاً من طول الموقف وأهواله ولعل هذه الشفاعة هى المقام المحمود الذى ذكر له ﷺ فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ( ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا )[٢] .

أو هى أول المقام المحمود وآخره استقرار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار .

وهذه الشفاعة خاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين وصلوات ربى وسلامه عليهم أجمعين ولقد ورد بيان كيفية هذه الشفاعة فى الصحيحين وغيرهما من كتب الصحاح فقد ورد أنه حين يشتد الهول ويتمنى الناس الانصراف ولو إلى النار يلهمون أن الرسل هم الشفعاء فيتجهون إليهم ويسألونهم الشفاعة .

---

(١) صالح شرف مذكراته فى التوحيد ص ١٤٢
(٢) الإسراء ٧٩

روى البخارى ومسلم واللفظ له عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتى رسول الله ﷺ يوما بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس — أخذ بطرف أسنانه — منها نهسة فقال : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وهل تدرون بم ذاك ؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس يبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون فيقول بعض الناس لبعض ألا ترون ماأنتم فيه ألا ترون ماقد بلغكم ألا تنظروا إلى من يشفع لكم إلى ربكم ، فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم فيأتون آدم ، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى مانحن فيه ؟ ألا ترى ماقد بلغنا ؟

فيقول لهم آدم : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته[1] .

نفسى نفسى أذهبوا إلى نوح فيأتون نوحاً فيقولون : يانوح أنت أول الرسل إلى الأرض وسماك الله عبداً شكورا[2] اشفع لنا إلى ربك

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : وعصى آدم ربه فغوى ( طه ١٢١ ) وهذه المخالفة وقعت منه سهواً قبل النبوة يدل على ذلك قول الله تعالى فى حق سيدنا آدم عليه السلام فنسى ولم نجد له عزماً ( طه ١١٥ ) فالعصيان هنا صورى لأن العصيان ملابسة الكبيرة قصداً والقصد هنا منتف لقوله تعالى ( فنسى )

(٢) إشارة إلى قوله تعالى « ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا » [ الإسراء : ( ٣ ) ] .

ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم نوح : إن ربى قد غضب اليوم غضبا شديداً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه كانت لى دعوة دعوت بها على قومى(١) .

نفسى نفسى أذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقولون ياإبراهيم أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض أشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟

فيقول لهم إبراهيم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وذكر كذباته(٢) .

نفسى نفسى أذهبوا إلى موسى فيأتون موسى فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبتكليمه على الناس ، أشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ! ألا ترى ما قد بلغنا ! فيقول لهم موسى : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعد مثله وإنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها(٣) .

---

(١) إشارة إلى أنه كانت له دعوة محققة الإجابة وقد استوفاها بدعائه على قومه فى الدنيا بقوله كما حكى عنه القرآن ( رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ) نوح ٢٦

(٢) إشارة إلى قوله : إنى سقيم — الصافات ٨٩ وقوله بل فعله كبيرهم هذا — الأنبياء ٦٣ وقوله فى شأن زوجه سارة هى أختى فهى كذبات فى الصورة لا فى الحقيقة لكونه قال : قولا يعتقده السامع كذبا لكنه إذا حقق لم يكن كذبا لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين وقوله فى حق زوجه سارة أختى أى أختى فى الإيمان

(٣) إشارة إلى قول الله وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ) طه ٤٠

نفسى نفسى أذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمت الناس فى المهد وكلمة من الله ألقاها إلى مريم وروح منه فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ! ألا ترى ما قد بلغنا .

فيقول لهم عيسى : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبل مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا .

نفسى نفسى أذهبوا إلى محمد ﷺ فيأتون فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر[1] أشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ! ألا ترى ما قد بلغنا ! فانطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى ثم يفتح الله تعالى على ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلى .

فيقال : يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب والذى نفسى بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى[2] .

هـــذه هى الشفاعة العظمى التى خص بها نبينا ﷺ وتسمى أيضاً بالشفاعة العامة ليعجل بحسابهم ويراحوا من هول ما هم فيه وفى هـذا إظهار لمقام نبينا ﷺ عند الله سبحانه وتعالى .

٢ — شفاعته — ﷺ فى أناس من أمته يدخلون الجنة بغير حساب يدل على ذلك قول الله لرسوله ﷺ فى حديث الشفاعة السابق يا محمد

---

(١) إشارة إلى قول الله فى أول سورة الفتح

(٢) مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب الشفاعة جـ ١ ص ٤٦٩ ط الشعب

أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن » ويدل عليه أيضاً ما روى عن أبي أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: وعدني ربي عز وجل أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا بغير حساب ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثيات ربي عز وجل[1].

وهذه الشفاعة أيضاً خاصة بسيدنا محمد ﷺ.

٣ ـ الشفاعة في زيادة الدرجات لأهل الجنة فوق ما كان تقتضيه ثواب أعمالهم وهذه الشفاعة كما تكون لسيدنا محمد ﷺ تكون لغيره من النبيين والملائكة والمؤمنين.

٤ ـ الشفاعة في قوم استوجبوا النار بذنوبهم فيغفر الله لهم ويدخلهم الجنة استجابة لشفاعة نبينا محمد ﷺ ولشفاعة الملائكة والشهداء والصالحين.

٥ ـ الشفاعة في إخراج قوم من المذنبين دخلوا النار وإدخالهم الجنة بشفاعة نبينا محمد ﷺ ولشفاعة الملائكة والشهداء[2].

يقول السبكي: لقد جاءت الأحاديث الصحيحة باخراجهم من النار لشفاعة نبينا محمد ﷺ وسائر الأنبياء والملائكة وإخوانهم من المؤمنين ثم يخرج الله تعالى كل من قال: لا إله إلا الله كما جاء في الأحاديث ولا يبقى فيها إلا الكافرون[3].

---

(١) سنن الترمذي كتاب صفة القيامة جـ ٤ ص ٦٢٦

(٢) أنظر أنواع الشفاع في شرح العقيدة الطحاوية في العقيدة السلفية ص١٦٥ ـ المطبعة السلفية بمكة المكرمة

(٣) شفاء الأسقام للإمام تاج الدين السبكي ص ٧١٣

ومما يدل على أن لكل من الأنبياء — غير نبينا محمد ﷺ — والملائكة والشهداء والعلماء شفاعة يوم القيامة قول الله تعالى فى حق الملائكة: «وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى»(1).

وقوله تعالى: «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون»(2).

ففى هاتين الآيتين ما يقطع بثبوت الشفاعة للملائكة مقيدة باذن الله تعالى وارتضائه.

ومما يدل أيضاً على أن لكل نبى من الأنبياء — غير نبينا محمد ﷺ — والشهداء والعلماء شفاعة يوم القيامه قول الرسول ﷺ فى حق الأنبياء والعلماء والشهداء (يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء)(3).

وقوله ﷺ: «فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيراً قط — الحديث(4).

وقول الرسول ﷺ فى حق الشهيد «يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته»(5).

---

(1) النجم ٢٦ (2) الأنبياء ٢٨

(3) سنن ابن ماجة كتاب الزهد باب ذكر الشفاعة جـ٢ ص١٤٤٢ ط عيسى البابى الحلبى

(4) مسلم بشرح النووى كتاب الايمان باب عتقاء الله جـ١ ص ٤٤٠ ط الشعب

(5) سنن أبى داود كتاب الجهاد فى الشهيد يشفع جـ ٣ ص ١٥

وقول الرسول ﷺ : إن من أمتى من يشفع فى الواحد والاثنين والقبيلة وشفاعتى لأهل الكبائر من أمتى[١] .

وقوله ﷺ فيما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه «إذا كان يوم القيامة جمع الله أهل الجنة صفوفا وأهل النار صفوفا فينظر الرجل من صفوف أهل النار إلى الرجل من صفوف أهل الجنة فيقول : يافلان تذكر يوم اصطنعت معروفا إليك فيقول : اللهم إن هذا اصطنع إلى فى الدنيا معروفا قال فيقال له : خذ بيده وأدخله الجنة يرحمك الله عز وجل قال أنس رضى الله عنه أنى سمعت رسول الله ﷺ يقوله[٢] .

كما صح أن القرآن الكريم يشفع لأهله كذلك لما ثبت فى صحيح مسلم من حديث أبى أمامة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه[٣] .

٦ — الشفاعة فى تخفيف العذاب عمن يستحقه كشفاعته ﷺ لعمه أبى طالب فى أن يخفف عنه العذاب يقول القرطبى : «وشفاعة سادسة لعمه أبى طالب فى التخفيف عنه كما رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر عنده أبو طالب فقال : «لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من نار يبلغ كعبه يغلى منه دماغه» .

فان قيل فقد قال الله تعالى : «فما تنفعهم شفاعة الشافعين» قيل له :

---

(١) سنن الترمذى كتاب صفة القيامة جـ٤ ص ٦٢٥ ط مصطفى الحلبى

(٢) مسلم بشرح النووى كتاب الايمان باب إخراج عصاة المؤمنين من النار جـ٣ ص ٣٢ — المطبعة المصرية

(٣) مسلم بشرح النووى كتاب صلاة المسافر وقصرها جـ٢ ص ٤٥٧ ط الشعب

لا تنفع فى الخروج من النار كعصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة[1] .

الشفاعة بين المثبتين والنافيين

لا خلاف بين أهل السنة وبين القائلين بتخليد مرتكب الكبيرة فى النار من معتزلة وخوارج فى ثبوت الشفاعة لرفع درجة أو لصرف الناس من الموقف ، وإنما الخلاف فى الشفاعة التى تكون من الرسل والأخيار فى حق أهل الكبائر فذهب أهل السنة ومن شايعهم الى تأثيرها فى إسقاط العذاب عن المستحقين للعقاب إما بأن يشفع لهم فى عرصة القيامة حتى لا يدخلوا النار وإن دخلوا النار يشفع لهم حتى يخرجوا منها ويدخلوا الجنة وذهب المعتزلة ومن شايعهم إلى إنكار الشفاعة لأهل الكبائر الذين ماتوا عليها ولم يتوبوا لأن الشفاعة هى طلب العفو والمغفرة وطلب العفو والمغفرة لا يكون للمذنبين أهل الكبائر فلا تصلح الشفاعة من أجلهم ولا يجوز العفو عنهم بل هم مخلدون فى النار .

وتوفية للبحث نعرض لرأى الفلاسفة والمعتزلة والخوارج والشيعة ثم نعرض لرأى أهل السنة فى الشفاعة .

الشفاعة عند الفلاسفة

يختلف مفهوم الشفاعة عند الفلاسفة عن بقية المسلمين فهى عندهم ليس معناها دعاء الله ورسوله كما هو رأى المسلمين بل الشفاعة عندهم تعلق القلب بالوسائط حتى يفيض عليها بواسطة تلك الوسائط ما ينتفع به كما يفيض شعاع الشمس على الحائط بواسطة فيضه على المرآة .

ويرى ابن تيمية أن الشفاعة التى يثبتها الفلاسفة هى من جنس الشفاعة التى يثبتها المشركون[2] .

---

(١) التذكرة للقرطبي ج ١ ص ٢٨٥ — ٢٨٦

(٢) ابن تيمية كتاب الصفدية ج ١ ص ٢٠٩

ووجه الشبه بين الفلاسفة والمشركين فى تصور ابن تيمية هو كما أن المشركين يتخذون الأوثان وسائط تقربهم إلى الله زلفى كذلك قال الفلاسفة بصدد الأفلاك .

ويشير الغزالى إلى موقف الفلاسفة بصورة أوضح فيقول :[1]

إن الشفاعة عند الفلاسفة عبارة عن نور يشرق من الحضرة الإلهية على جوهر النبوة وينتشر منها إلى كل جوهر استحكمت مناسبته مع جوهر النبوة لشدة المحبة وكثرة المواظبة على السنة وكثرة الذكر بالصلاة عليه ﷺ .

ومثاله نور الشمس إذا وقع على الماء فإنه ينعكس منه إلى موضع مخصوص من الحائط لا إلى جميع المواضع .

وإنما اختص ذلك الموضع لمناسبة بينه وبين الماء فى الموضع وتلك المناسبة مسلوبة عن سائر أجزاء الحائط .

وذلك الموضع هو الذى إذا خرج منه خط إلى موضع النور من الماء حصلت من حصلت منه زاوية إلى الأرض مساوية للزاوية الحاصلة من الخط الخارج من الماء إلى قرص الشمس بحيث لا يكون أوسع منه ولا أضيق .

ويذكر الغزالى فى توضيحه لموقف الفلاسفة من الشفاعة أن ذلك لا يمكن إلا فى موضع مخصوص من الجدار فكما أن المناسبات الوضعية تقتضى الاختصاص بانعكاس النور فالمناسبات المعنوية العقلية أيضاً تقتضى ذلك فى الجواهر المعنوية ومن استولى عليه التوحيد فقد تأكدت مناسبته مع الحضرة الإلهية فأشرق عليه النور من غير واسطة .

---

(١) الغزالى المضنون به على غير أهله ج ١٩ — ٢٠ من مجموعة كتب الغزالى الجام العوام عن علم الكلام — المنقذ من الضلال .

ومن استولت عليه السنن والاقتداء بالرسول ومحبة أتباعه ولم ترسخ قدمه فى ملاحظة الوحدانية لم تستحكم مناسبته إلا مع الواسطة فافتقر إلى واسطة فى اقتباس النور كما يفتقر الحائط الذى ليس مكشوفا للشمس إلى واسطة الماء المكشوفة للشمس .

ويستطرد الغزالى بأنه إلى مثل هذا ترجع حقيقة الشفاعة فى الدنيا .

فالوزير الممكن فى قلب الملك المخصوص بالعناية قد يغطى الملك عن هفوات أصحاب الوزير ويعفو عنهم لا لمناسبة بين الملك وأصحاب الوزير ولكن لأنهم يناسبون الوزير المناسب للملك ففاضت العناية عليهم بواسطة لا بأنفسهم ولو ارتفعت الواسطة لم تشملهم العناية أصلا لأن الملك لا يعرف أصحاب الوزير واختصاصهم به إلا بتعريف الوزير وإظهاره الرغبة فى العفو عنهم .

فيسمى لفظة فى التعريف وإظهار الرغبة شفاعة على سبيل المجاز وإنما الشفيع مكانته عند الملك بينما اللفظ لإظهار الغرض والله تعالى مستغن عن التعريف ولو عرف الملك حقيقة اختصاصه بالوزير لاستغنى عن اللفظ وحصل العفو بشفاعة لا نطق فيها ولا كلام . والله تعالى عالم به فلو أذن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى التلفظ بما هو معلوم عند الله تعالى لكانت ألفاظهم ألفاظ الشفعاء .

وإذا أراد الله تعالى أن يمثل حقيقة الشفاعة بمثال يدخل فى الحس والخيال لم يكن ذلك التمثيل إلا بألفاظ مألوفة بالشفاعة ويدل على انعكاس النور بطريق المناسبة .

هذا هو معنى الشفاعة عند الفلاسفة وهذا المعنى مختلف تماما عن معناها عند بقية المسلمين .

وإذا كنا رأينا أن ابن تيمية قد سوى بين رأى المشركين والفلاسفة

فى مسألة الشفاعة فاننا نجد أن هذين الرأيين يختلفان كل الاختلاف عن موقف المسلمين .

ولا يمكن بأية حال تقريب الموقفين بالقول بأن العقل الفعال عند الفارابى وغيره هو جبريل وأن الله أشار إلى شفاعة الملائكة لأن ما يحدث من الأفلاك لدى الفلاسفة فيض ضرورى .

ولأنه كما يقول ابن تيمية أنه لا يحدث من الله شىء للوسائط بل هى متولدة عنه لازمة لذاته أزلا وأبداً بينما الموقف القرآنى أن شفاعة الملائكة ليست دوما ولا فيضاً وأنها متوقفة على الإذن الإلهى : «وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى »(1) .

الشفاعة عند المعتزلة

يتفق موقف المعتزلة من مسألة الشفاعة مع مبادئهم الخمسة وخاصة العدل والوعيد وأنه استحقاق والمنزلة بين المنزلتين حيث خلود أهل الكبائر فى النار .

يقول الأشعرى فى المقالات : (إنه لما كانت مهمة الرسول هى تبليغ الرسالة الإلهية للناس ليس إلا قالت المعتزلة لا يجوز للرسول أن يتشفع للفاسق أو الكافر بل قال بعضهم إنه يتشفع للمؤمنين أن يزدادوا فى منازلهم من باب التفضيل )(2) .

ومن وجهة نظر المعتزلة أنه لا خلاف بين الأئمة فى أن شفاعة النبى ﷺ ثابتة للأمة وإنما الخلاف فى أنها تثبت لمن ؟

---

(1) ابن تيمية كتاب الصفدية ج 1 ص ٢١٤ تحقيق د/ رشاد سالم ط الرياض سنة ١٩٧٦ .

(2) الأشعرى مقالات الإسلاميين ص١٤٨ ج٢ تحقيق محمد محيى الدين النهضة ط أولى سنة ١٩٥٤ م

فالمعتزلة يقولون بأن الشفاعة للتائبين من المؤمنين بينما الشفاعة عند المرجئة للفاسق من أهل الصلاة )[١] .

وهكذا يذهب المعتزلة إلى إنكار الشفاعة لغير التائبين من المؤمنين وهم يستندون فى إنكارهم هذا للشفاعة على أدلة بعضها عقلى والبعض الآخر سمعى نستعرضها فيما يلى :

## أولا : أدلة المعتزلة النقلية فى نفى الشفاعة والرد عليها :

١ — قول الله تعالى : ( واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون )[٢] .

ووجه الاستدلال فى هذه الآية : ( أن النفس عامة تشمل العاصى والكافر والضمير راجع إليها فيكون المعنى : ولا يقبل فى أى نفس عاصية كانت أو كافرة شفاعة ، فقد نفت الآية الشفاعة عن العاصى )[٣] .

يقول صاحب الكشاف : « فان قلت هل فيه دليل على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة قلت نعم ، لأنه نفى أن تقضى نفس عن نفس حقا أخلت به من فعل أو ترك ثم أنه نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع فعلم أنها لا تقبل للعصاة »[٤] .

وأجيب عن ذلك : « بأن الضمير فى قوله تعالى : ( ولا يقبل منها ) راجع إلى النفس الثانية وهى ليست عامة بل هى النفس اليهودية بدليل أن

---

(١) القاضى عبدالجبار شرح الأصول الخمسة ص٦٨٨ د/عبدالكريم عثمان مكتبة وهبة سنة ١٩٦٥ م .

(٢) البقرة ٤٨

(٣) مذكرات فى التوحيد ص ١٤٩

(٤) تفسير الكشاف للزمخشرى ج ١ ص ١٠٢

سوق الآية وسبب نزولها خاص باليهود الذين زعموا أن أنبياءهم تشفع لهم فرد الله عليهم زعمهم بقوله : ( ولا يقبل منها شفاعة ) .

أو يقال : إن الآية ليست عامة فى جميع الأوقات والأزمان بل فى بعضها بعض منها كيوم الموقف مثلاً فلا ينافى أن الشفاعة تكون بعده [١] .

أو يقال : أن هذا العموم قد يستثنى منه الشفاعة بأذنه تعالى لقوله تعالى : ( يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضى له قولا ) [٢] .

٢ — قول الله تعالى ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع [٣] .

ووجه الاستدلال فى هذه الآية : أن صاحب الكبيرة ظالم وقد نفى الله عنه الشفاعة فلا يجوز أن يشفع له الرسول ﷺ .

يقول الزمخشرى : ( أن الشفعاء هم أولياء الله وأولياء الله لا يحبون ولا يرضون إلا من أحبه ورضيه الله وأن الله لا يحب الظالمين فلا يحبونهم واذا لم يحبوهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم [٤] .

وأجيب عن ذلك : بمنع العموم للأشخاص والأزمان والأحوال بل يجوز أن يكون ذلك فى يوم الموقف [٥] .

ولو سلم هذا العموم للفظ الظالمين فهو خاص بالكافر المشرك

---

(١) مذكرات فى التوحيد ص ١٥٠
(٢) طه ١٠٩ (٣) غافر ١٨
(٤) الزمخشرى الكشاف ج ١ ص ٤٠
(٥) مذكرات فى التوحيد ص ١٥١

أو المؤمن صاحب الكبيرة فلا يسمى ظالما إلا مجازاً فلا يدخل تحت هذا العموم ويجوز أن يشفع له الرسول ﷺ يقول الباقلانى ( معنى الآية أنه لا شفاعة للظالمين بالكفر والشرك الذين لا طاعة معهم ، قال تعالى : ( إن الشرك لظلم عظيم — لقمان ١٣ — ولم يرد أهل التوحيد كما لم يرد عندكم أهل الصغائر الواقعة مع مجانبة الكبائر فلا تعلق لهم بذلك [١] لا سيما وأن هناك نصوصا دالة على ثبوت شفاعة النبى ﷺ للعصاة من المؤمنين وإذا كان ذلك كذلك فانه يجب تأويل هذه الآية وأمثالها بالكفار جمعا بين الأدلة [٢] .

٣ — قول الله تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » [٣] .

ووجه الاستدلال فى هذه الآية : أن صاحب الكبيرة غير مرتضى فلا يجوز الشفاعة له يقول الفخر الرازى : « زعمت المعتزلة أن الله أخبر عن ملائكته أنهم لا يشفعون لأحد إلا أن يرتضيه الله عز وجل والفاسق ليس بمرتضى عند الله واذا لم تشفع الملائكة له فكذا الأنبياء عليهم السلام لأنه لا قائل بالفرق ) [٤] .

ويجاب عن ذلك: بما سبق وهو أن صاحب الكبيرة بما معه من الإيمان والتوحيد مرتضى عند الله تعالى فتصح الشفاعة له أما الكافر الذى لا إيمان معه ولا توحيد فلا شفاعة له .

هـــذه نماذج من استدلالات المعتزلة النقلية على إنكار الشفاعة

---

(١) التمهيد للباقلانى .　　(٢) العقائد النسفية ص ١٢٣

(٣) الأنبياء ٢٨

(٤) تفسير الفخر الرازى ج ٣ ص ٥٧

لمرتكبي الكبيرة كما أنهم يستندون على أخبار من السنة النبوية يرونها تدل على مدعاهم منها :

قول الرسول ﷺ حينما دخل المقبرة : السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون وددت أنى قد رأيت إخواننا قالوا : يا رسول الله : ألسنا إخوانك ؟ قال : بل أنتم أصحابى وإخواننا الذين لم يأتوا بعد . قالوا : يا رسول الله : كيف تعرف من يأتى بعدك عن أمتك : قال (أرأيت إن كان لرجل خيل غر محجلة فى خيل دهم فهل لا يعرف خيله ، قالوا : بلى يا رسول الله قال : فانهم يأتون يوم القيامة غرا محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض إلا ليزادن رجال عن حوضى كما يزاد البعير الضال ، أناديهم ألا هلموا ألا هلموا فيقال : إنهم قد بدلوا بعدك فأقول سحقا سحقا )[1] .

ووجه الاستدلال فى هذا الحديث — كما يرى المعتزلة — أن الرسول ﷺ لو كان شفيعا لهم لم يكن ليقول سحقا سحقا لأن الشفيع لا يقول ذلك وكيف يجوز أن يكون شفيعاً لهم فى الخلاص من العقاب الدائم وهو يمنعهم شربة ماء[2] .

ومن السنة قول الرسول ﷺ من ترك سنتى لم ينل شفاعتى[3] ووجه الاستدلال فى هذا الحديث — كما يرى المعتزلة — أن الرسول ﷺ

---

(١) مسلم بشرح النووى كتاب الطهارة باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل فى الوضوء جـ ١ ص ٥٣٦ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٣ ص ٥٨ .

(٣) سنن أبى داود كتاب السنة باب فى الشفاعة جـ ٢ ص ٥٨٦ طبعة مصطفى الحلبى .

نفى شفاعته لتارك السنة فمن باب أولى لم ينل صاحب الكبيرة هذه الشفاعة(١) .

ومن السنة كذلك قول الرسول ﷺ ( لا يدخل الجنة نمام ولا مدمن خمر ولا عاق لوالديه )(٢) .

وقوله ﷺ ( من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها بطنه يوم القيامة فى نار جهنم خالداً مخلدا )(٣) .

ووجه الاستدلال فى هذين الحديثين : أن رسول الله ﷺ لو كان شفيعاً لهم لما نفى دخول الجنة عن النمام وعن مدمن الخمر وعن العاق لوالديه كما فى الحديث الأول ولما ذكر أن القاتل لنفسه فى النار خالداً مخلداً كما فى الحديث الثانى . إلى غير ذلك من الأحاديث التى يأخذ منها المستدل الدليل على بيان رأيه .

غير إنه يجاب عن الحديث الأول: بأنه لا يدل على نفى شفاعة الرسول ﷺ مطلقاً عن صاحب الكبيرة لأنه يجوز أن يشفع ﷺ لبعض الأشخاص دون بعض وفى بعض المواقف دون بعض .

يقول الفخر الرازى : والذى نحققه أن أحداً من الشافعين لا يشفع إلا بإذن الله فلعل الرسول ﷺ لم يكن مأذوناً له فى بعض المواضع وفى بعض الأوقات فلا يشفع فى ذلك المكان ولا فى ذلك الزمان ثم يصير

---

(١) صالح شرف مذكرات فى التوحيد ص ١٤٨ .

(٢) سنن النسائى كتاب الزكاة باب المنان بما أعطى جـ ٦ ص ٦٠ ط مصطفى الحلبى .

(٣) مسلم شرح النووى كتاب الإيمان باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان جـ ١ ص ٣٠٧ ط الشعب .

مأذوناً له فى موضع آخر وفى وقت آخر فى الشفاعة فيشفع هناك والله أعلم[1] .

ويجاب عن الحديث الثانى : بأننا ( لا نسلم أنه يلزم من نفى الشفاعة فى حق تارك السنة نفسها فى حق أهل الكبائر بل يجوز أن تنفى عن الأول وتثبت لأهل الكبائر لأن جزاء الأدنى لا يكون جزاء الأعلى إذ الأعلى جزاؤه عظيم وهو التعذيب بالنار فيصح أن تكون له الشفاعة التى نفيت عن تارك السنة .

أو يكون المعنى : أن المنفى عن تارك السنة شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيصح أن تكون له شفاعة غيره كما يحتمل أن يكون المعنى أن تارك السنة لم يستحق أن أشفع له فيجوز وقوع الشفاعة له مع هذا الاستحقاق وأيضا فإن المعنى يحتمل أنى لم أشفع له فى بعض المواقف دون بعض[2] .

ويجاب عن الحديثين الثالث والرابع : بأن فعل هذه الأشياء على وجه الاستحلال لها فإن الرسول ﷺ لا يشفع له يقول الباقلانى إن قوله ﷺ من قتل نفسه أو من أدمن الخمر أو عق والديه محمول على فعل ذلك أجمع على وجه الاستحلال[3] .

وإذا كان مثبتوا الشفاعة يستدلون بأحاديث وردت عن الرسول ﷺ من أمثال قوله ﷺ : شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى فإن المعتزلة يؤولون هذه الأحاديث ويضيفون إليها ( إذا تابوا ) فكأن التوبة هنا عند المعتزلة هى الوجه الذى تستحق من أجله الشفاعة .

---

(١) التمهيد للباقلانى ص ٣٦٩ .

(٢) مذكرات فى التوحيد — صالح شرف ص ١٤٨ .

(٣) التمهيد للباقلانى ص ٣٦٩ .

## أدلة المعتزلة العقلية على نفى الشفاعة والرد عليها :

لقد استند المعتزلة ومن شايعهم على أدلة عقلية على نفى الشفاعة عن صاحب الكبيرة منها :

١ — أن ثبات الشفاعة لمرتكب الكبيرة فيه تجرئة ومساعدة على ارتكاب المعصية كما أن فيه تبليغ غير المستحق للثواب إلى درجة المستحق وذلك فى حكمته جل وعلا غير جائز[١] .

ومن الممكن الرد على هذا الدليل بأن إثبات الشفاعة لأصحاب الكبائر ليس فيه مساعدة ولا إغراء لهم على المعصية بل فيه دفع لهم إلى طلب الرجاء والغفران وعدم اليأس من رحمة الله تبارك وتعالى ، والله تبارك وتعالى يقول : ( إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء . . )[٢]

فإذا كان يجوز غفران غير الكفر من الذنوب بلا شفاعة فبالشفاعة من باب أولى .

أما الادعاء بأن فى الشفاعة تبليغ غير المستحق للثواب إلى درجة المستحق فالجواب عنه كما يذكر الفخر الرازى من وجهين :

الأول : أن العقاب حق الله تعالى وللمستحق أن يسقط حق نفسه بخلاف الثواب فانه حق العبد فلا يسقطه الحق جل وعلا .

الثانى : إننا لانسوى بين المطيع والعاصى لأن المطيع لايكون خائفا

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ صـ ١٠

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ صـ ١٠

من العقاب والمذنب يكون فى غاية الخوف وربما يدخل النار ويتألم مدة ثم يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب بشفاعة الرسول ﷺ[١] .

٢ — يقول المعتزلة : أن الأمة قد اتفقت على قولهم : اللهم اجعلنا من أهـل الشفاعة فلو كانت الشفاعة لأصحاب الكبائر لكان يجب أن يكون هذا الدعاء دعاء لأن يجعلهم الله تعالى من الفساق وذلك خلف[٢].

ويجاب عن ذلك: بأن الأمة اتفقت على ذلك لاتفاقهم على أن الإنسان معرض للتقصير لذا فهو يخاف العقاب ويطلب الرحمة من الله ويطلبه لشفاعة الرسول ﷺ .

يقول القرطبي : « إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول ﷺ ويرغب إلى الله فى أن تناله لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما افترض عليه بل كل واحد معترف على نفسه بالتقصير فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة وقد قال ﷺ « لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعالى قيل ولا أنت يارسول الله : فقـال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته .

ونخلص من هذا أن المعتزلة فهموا أن معنى الشفاعة يتضمن أغواء أو اغراء بفعل القبيح اتكالا على عفو الله أو شفاعة النبى ﷺ أنه ينطوى على تسوية العاصى بالمطيع . وعلى هذا كان إنكار المعتزلة للشفاعة بناء على تصورهم لمفهوم أصل العدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين .

---

(١) المرجع نفسه ج ٧ ص ١٠

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٦٩٢

واضطروا فى انكارهم هذا للشفاعة إلى تقديم أدلة سبق ذكرها بعضها عقلى وبعضها الآخر سمعى كما أنهم زادوا على ذلك تأويل الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية التى جاء بها خصومهم ليثبتوا منها الشفاعة وهكذا فان المعتزلة قد اتفقوا على القول بأن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض والتفضل ومعنى آخر وراء الثواب وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود فى النار ولكن عقابه يكون أخف من عقاب الكفار وسموا هذا النمط وعداً ووعيدا[1] .

إلا أننا نقول لهم : أن الشفاعة فى حق المذنبين لا يتبين منها أنها تستنزل الله عز وجل عن حكمه وعما قرره فى حق عباده لأنها لا تكون إلا باذنه ولا تكون إلا لمن يعهد اليه بالشفاعة فهى فضل من الله تعالى على المشفوع لهم وفتح لباب العفو والغفران .

يقول بعض العلماء : ( إن الله سبحانه وتعالى عليم حكيم فقد يعلم عن بعض المذنبين مالا يعلمه غيره فيجوز أن يكون قد أراد استخلاص هذا البعض من آيات الوعيد فمن باب الحكمة أن يجعل مظهر تنفيذ إرادته الأزلية فى اعفائه من الرسل والأخيــار حتى يكون فى ذلك تكريم للشفيع وتنويه بشأنه عند الناس ليكون محببا اليهم فيتبعوا طريقته وليدعوا الناس إلى الإكثار من الاقتداء به فى أفعاله حتى يكونوا أيضا مظهراً لتنفيذ إرادة الله الأزلية فيستحقوا هذه المرتبة العظيمة مرتبة الشفاعة[2] .

---

(١) الملل والنحل أبو الفتح الشهرستانى ج ١ ص ٥٩

(٢) صالح شرف مذكرات فى التوحيد ص ١٤٣

موقف الشيعة من الشفاعة :

إن بين فرق الشيعة اتفاقاً حول إنكار الشفاعة إلا أن دوافع بعض الفرق حول إنكار الشفاعة يختلف عن دوافع الفرق الشيعية الأخرى .

فالزيدية ترى أن الشفاعة ليست لأهل الكبائر من المسلمين والدافع الذى أدى بالزيدية إلى هذا القول إنما هو فى المقام الأول دافع سياسى والحقيقة أن السياسة قد امتزجت بعقائد تلك الفرق الشيعية خاصة .

يقول البغدادى ( إن الفرقة الزيدية قد اجتمعت على القول بتخليد أهل الكبائر من أمة محمد ﷺ فى النار )[1] .

وإذا كان الدافع للمعتزلة لإنكار الشفاعة عقلياً يجعل موقفهم من الشفاعة متسقاً مع بعض أصولهم كما سبق فإننا نلاحظ أن موقف الزيدية ودافعهم لم يكن معتزلياً فحسب وإنما كان الدافع السياسى هو الذى حدا بالزيدية إلى اتخاذ هذا الموقف من الشفاعة .

أما الشيعة الاثنا عشرية فلقد أنكرت كذلك أن تكون الشفاعة لأهل الكبائر وفضلا عن الدافع العقلى المعتزلى والدافع السياسى الزيدى فى إنكار الشفاعة نجد أن الشيعة الاثنى عشرية أنكرت الشفاعة لهذه الدوافع العقلية والسياسية مضافاً إليها دافع عاطفى إذ كيف يشفع لظالمى على بن أبى طالب كرم الله وجهه وكيف يشفع لقاتلى وظالمى آل البيت من بعد على .

كان هذا دافعاً هاماً أدى بالأثنى عشرية إلى هذه الأفكار للشفاعة ولقد كان حب آل البيت طاغياً على نظرتهم للعقائد فيقول الشاعر :

---

(١) عبد القاهر البغدادى الفرق بين الفرق ص ٣٣

سطران قد خطا بلا كاتب العدل والتوحيد فى جانب
وحب آل البيت فى جانب

خلاصة موقف الشيعة من الشفاعة كما هو عند الزيدية والأثنى عشرية أنهم يرفضون أن تكون الشفاعة لدوافع بعضها سياسى وبعضها عاطفى وبعضها عقلى معتزلى خاصة وإننا — كما يقول الدكتور النشار لانجد أدنى فرق بين أى معتزلى وبين ابن المطهر الحلى — عالم الشيعة المتأخر — على سبيل المثال وذلك حين يكتب، عن عقائد الأثنى عشرية الكلامية[١] .

موقف الخوارج من الشفاعة

لقد أنكرت الخوارج الشفاعة لأهل الكبائر من المسلمين وكان دافعهم إلى ذلك دافعاً سياسياً فصاحب الكبيرة — على مايذهب — الخوارج كافر فكيف يمكن لصاحب الكبيرة أن يستحق الشفاعة إذن .

ولقد ذهبت فرقة الأزارقة من الخوارج إلى القول بأن الأطفال كلهم مخلدون فى النار )[٢] وبيان الغرابة فى هذا القول من الخوارج أن الأطفال عند أهل السنة — كما سنرى — سوف يكونون سابقين إلى أبواب الجنة ويظل الطفل واقفاً على باب الجنة لايدخلها إلا لابعد أن يشفع فى دخول أبويه إياها .

ولكن الخوارج يذهبون إلى القول بأن هؤلاء الأطفال الذين سيقومون بالشفاعة لوالديهم هم أنفسهم مخلدون فى النار فليست هناك شفاعة إذن .

---

(١) د . على النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج ٢ ص ٢٩٣ ط ٤ سنة ١٩٦٩ م .

(٢) البغدادى مختصر الفرق بين الفرق .

والخوارج فى جملتهم يذهبون إلى القول بتكفير أهل الذنوب وهم فى ذلك لم يفرقوا بين ذنب وذنب بل اعتبروا الخطأ فى الرأى ذنباً ولذلك كفروا علياً كرم الله وجهه لأنه رضى بالتحكيم[١]

ويذهب الأشعرى فى المقالات إلى أن قول الخوارج وقول المعتزلة فى الوعيد قول واحد لأنهم يقولون إن أهل الكبائر الذين يموتون على كبائرهم فى النار خالدون مخلدون غير أن الخوارج يقولون : إن مرتكبى الكبائر ممن ينتحل الإسلام يعذبون عذاب الكافرين والمعتزلة يقولون: إن عذابهم ليس كعذاب الكافرين[٢] .

موقف أهل السنة من الشفاعة :

لقد استدل أهل السنة فى جواز العفو والغفران عن مرتكب الكبيرة تشفيعاً للشفعاء بأدلة نقلية وعقلية .

وربما كانت المرجئة أكثر الفرق فتحاً لباب الشفاعة على مصراعيه فلقد قالوا إن الإيمان — إقرار وتصديق — لا يضر مع الإيمان معصية فالإيمان منفصل عن العمل[٣] .

وتذهب المرجئة بصدد الشفاعة — كما يقول الأشعرى — إلى قولين :

فتقول فرقة منهم : ما كان من مظالم العباد فإنما العفو من الله عنهم فى يوم القيامة إذ يجمع الله بينه وبين خصمه أن يعوض المظلوم بعوض فيهب لظالمه الجرم فيغفر له .

---

(١) محمد أبو زهرة الإمام الصادق ص ١٣٣ دار الفكر العربى .

(٢) الأشعرى مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٨٩ تحقيق محمد محيى الدين ط سنة ١٩٥٠ م .

(٣) محمد أبو زهرة : الإمام الصادق ص ١٥٤

وتقول الفرقة الثانية من المرجئة : أن العفو عن جميع المذنبين فى الدنيا جائز فى العقول ما كان بينهم وبين الله وما كان بينهم وبين العباد[1] .

يذهب أهل السنة إلى أن القرآن والسنة يؤكدان وجود الشفاعة لأهل الكبائر وعلى استحقاق الرسول لهذه المنزلة العظيمة من الله تعالى منها :

١ — قول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات »[2] .

ووجه الاستدلال فى هذه الآية : أن الله أمر نبيه ﷺ أن يستغفر للمذنب منهم فإذا أتى بهذا الاستغفار فالظاهر أنه يجب أن يشرفه الله تعالى بالإجابة إليه وإلا لكان قد أمره بالدعاء ليرد دعاءه فيصير ذلك محض التحقير والإيذاء وهو غير لائق بالله تعالى ولا بمحمد ﷺ . فدل على أن الله تعالى لما أمر رسوله بالاستغفار تحصلا لمرضاته صلوات الله وسلامه عليه لقول الله تعالى فى حقه ﷺ : « ولسوف يعطيك ربك فترضى »[3] .

وتكون شفاعته ﷺ للعصاة أهل الكبائر قبل توبتهم[4] .

٥ — قول الله فى حق الملائكة : ( يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون »[5] .

ووجه الاستدلال فى هذه الآية : ( أن صاحب الكبيرة مرتضى عند

---

(١) الأشعرى مقالات جـ ١ ص ٢١٤

(٢) سورة محمد آية ١٣ (٣) سورة الضحى

(٤) أصول الدين للرازى ص ١٢٦ والتفسير للرازى جـ ٣ ص ٦١

(٥) الأنبياء ٢٨

الله وكل من كان مرتضى عند الله وكل من كان مرتضى عند الله تعالى وجب أن يكون من أهل الشفاعة، إنما قلنا: إن صاحب الكبيرة مرتضى عند الله لأنه عند الله بهذا الوصف يصدق عليه أنه مرتضى عند الله تعالى لأن المرتضى عند الله جزء من مفهوم قولنا: مرتضى عند الله بحسب إيمانه ومتى صدق المركب صدق المفرد فثبت أن صاحب الكبيرة مرتضى عند الله ووجب أن يكون من أهل الشفاعة لقول الله تعالى: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فنفى الشفاعة إلا لمن كان مرتضى والاستثناء عن النفى إثبات فوجب أن يكون المرتضى أهلا لشفاعتهم وإذا ثبت أن صاحب الكبيرة داخل فى شفاعة الملائكة وجب دخوله فى شفاعة الأنبياء وشفاعة محمد — ﷺ ضرورة[1] .

وجاء فى السنة ما يدل على حصول الشفاعة لمذنبى هذه الأمة منها : قول الرسول ﷺ « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » .

قال راوى الحديث : ( من لم يكن من أهل الكبائر فما له وللشفاعة )[2] .

وقوله ﷺ : « خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتى الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى أترونها للمتقين؟ لا ولكنها للمذنبين المتلوثين الخطائين »[3] .

وروى عن الرسول ﷺ أنه قال: « لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٣ ص ٦٠ — ٦١

(٢) سنن الترمذى كتاب صفة القيامة ج ٤ ص ٢٢٥

(٣) سنن ابن ماجة كتاب الزهد باب ذكر الشفاعة ج ٢ ص ١٤٤١ ط عيسى الحلبى .

كل نبى دعوته وإنى اختبأت دعوتى لأمتى يوم القيامةفهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا »[١] .

وصاحب الكبيرة الذى لا يشرك بالله شيئا من أمته ﷺ فوجب أن تناله الشفاعة ، يقول القرطبى : شفاعة الرسول ﷺ والملائكة والنبيين والمؤمنين لمن كان له عمـــل زائد على مجرد التصديق ولم يكن معه من الإيمان خير من الدين يتفضل الله عليهم فيخرجهم من النار فضلا وكرما وعداً وحقاً وكلمته صدقا : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »[٢] .

فسبحان الرؤوف بعبده الوفى بعهده[٣] .

ويقول الباقلانى : الأخبار فى الشفاعة أكثر من أن يؤتى عليها وهى كلها متواترة متوافقة على خروج الموحدين بشفاعة الرسول ﷺ وإن اختلفت ألفاظها فنى بعضها أنهم يخرجون بعدما صاروا فحما) وفى آخر أنهم يخرجون منها ضبائر ضبائر فيلقون فى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل وأنهم يدخلون الجنة مكتوبة على جباههم الجهنميون وفى خبر عتقاء الله من النار وأن آخر من يخرج من النار رجل يقول فى النار يا حنان يا منان »[٤] .

ويتحدث الأشعرى فى الإبانة عن أصول الديانة ، عن الشفاعة

---

(١) مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب دعوة النبى لأمته جـ ١ ص ٤٧٨ ط الشعب .
(٢) سورة النساء آية ٤٨ .
(٣) التذكرة للقرطبى جـ ٢ ص ٥٠ .
(٤) التمهيد للباقلانى ص ٣٦٧ .

فيقول فى مجال الرد على منكرى الشفاعة : إن هؤلاء المنكرين يقال لهم أن المسلمين قد أجمعوا على أن الرسول ﷺ شفاعة : فلمن إذن هذه الشفاعة ؟

هى للمذنبين المرتكبين الكبائر أم للمؤمنين المخلصين ؟

فان قالوا أنها للمذنبين المرتكبين الكبائر وافقوا .

وإن قالوا للمؤمنين المبشرين بالجنة الموعودين بها قيل لهم :

فاذا كانوا بالجنة موعودين وبها مبشرين ، والله عز وجل لايخلف وعده فما معنى الشفاعة لقوم لايجوز — عند هؤلاء المنكرين — أن لايدخلهم الله جناته .

ومامعنى قول هؤلاء الخصوم — كما يقول الأشعرى — قد استحقوها على الله واستوجبوها عليه ؟ (١)

وإذا كان الله عز وجل لايظلم مثقال ذرة كان تأخيرهم عن الجنة ظلما وإنما يشفع الشفعاء إلى الله عز وجل فى أن لايظلم — على مذاهب هؤلاء الخصوم — تعالى الله عن افترائكم فيه علوا كبيراً .

فإن قالوا : يشفع النبى ﷺ إلى الله عز وجل فى أن يزيدهم من فضله لافى أن يدخلهم جناته قيل لهم أوليس قد وعدهم الله فقال تعالى : ( يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ) (٢) .

والله لا يخلف وعده فإنما يشفع إلى الله عز وجل عندكم فى أن لا يخلف وعده هذا — جهل من قولكم ، وإنما الشفاعة المعقولة فيمن

---

(١) الأشعرى الإبانة عن أصول الدين ص ٦٩ ط أولى سنة ١٣٤٨ هـ .
(٢) النساء ١٧٣ .

استحق عقاباً أن يوضع عنه عقابه أوفى من لم يعده شيئاً أن يتفضل به عليه فأما إذا كان الوعد بالتفضل سابقاً فلا وجه لهذا .

فإن سألوا عن قوله تعالى : ( ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ) [١] .

فالجواب عن ذلك إلا لمن ارتضى فهم يشفعون له . وقد روى أن شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر وروى عن النبي ﷺ ( أن المذنبين يخرجون من النار ) [٢]

ويذهب البغدادى إلى أن الشفاعة - ليست فقط للأنبياء عليهم السلام وإنما هى أيضا للمؤمنين بعضهم فى بعض على قدر منازلهم ويذكر البغدادى أن المفسرين قد ذهبوا إلى أن المقصود بالمقام المحمود فى الآية إنما هو الشفاعة [٣] .

يقول تعالى : ( أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا ) [٤] .

والشفاعة — كما يقول أبو منصور الماتريدى — تكون عند زلات يستوجب بها المقت والعقوبة فيعفى عن مرتكبها بشفاعة الأخيار وأهل الرضا [٥] .

وليس هناك من طريق لبلوغ مرتبة الشفاعة إلا التعبد والتهجد

---

(١) الأنبياء ٢٨ (٢) الأشعرى الإبانة ٦٩

(٣) البغدادى أصول الدين ص ٤٤ مكتبة بغداد ط استانبول ١٩٢٨ م

(٤) الإسراء ٧٩

(٥) أبو منصور الماتريدى كتاب التوحيد ص٣٦٥ تحقيق د. فتح الله خليف بيروت ط دار الشرق ١٩٧٠ م

ويتضح هذا من دعوة الله تعالى لرسوله ﷺ بكثرة الصلاة والتعبد حتى يحصل على هذه المنزلة السامية وذلك فى قوله تعالى : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا »[1]

ويرد الإمام أبو منصور الماتريدى على بعض منكرى الشفاعة الذين قالوا : لو كانت الكبيرة مما يجوز الشفاعة لكان من يحلف بفعل شىء يستوجب به الشفاعة يؤمر بارتكاب الكبيرة فيقول الماتريدى إن ذلك القول وهم لأنه ليس الذى له يشفع هو الذى به يستوجب الشفاعة بل يستوجب بالحسنات التى يجب الولاية فيما ترك فحق من حلف بذلك ليس أن يقال له اعص ولكن يقال له ( أطع ) ليستوجب به الشفاعة فيما عصيت وكذلك من يحلف لأفعان الفعل الذى استوجب به المغفرة لا يقال له ارتكب الصغائر ، بل يؤمر باتقاء الكبائر والتوبة عنها ليغفر له فمثله أمر الشفاعة[2]

ويذهب أبو محمد بن حزم الأندلسى فى كتابه ( الفصل فى الملل والأهواء والنحل ) إلى أن الشفاعة ثابتة بنص القرآن فقوله تعالى ( لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ منه الرحمن عهدا )[3] .

فأوجب عز وجل الشفاعة لمن اتخذ عنده عهدا

وكما يقول ابن حزم أنه لا جدال حول إثبات الشفاعة حتى الآيات القرآنية التى يستند إليها منكرو الشفاعة إنما تدل على ثبوت تلك الشفاعة فصح

---

(١) الإسراء ٧٩

(٢) أبو منصور الماتريدى كتاب التوحيد ص ٣٦٥ تحقيق د. فتح الله خليف ط بيروت ١٩٧٠

(٣) مريم ٨٧

يقيناً أن — الشفاعة التى أبطلها الله عز وجل هى غير الشفاعة التى أثبتها سبحانه .

فالشفاعة التى أبطلها عز وجل هى الشفاعة للكفار الذين هم مخلدون فى النار يقول تعالى : ( لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها )[1] ولقد صح يقيناً أن الشفاعة التى أوجب الله لمن أذن له واتخذ عنده هم عهداً ورضى قوله فإنما هى لمذنبى أهل الإسلام[2] .

ويذهب ابن حزم إلى أن الشفاعة نوعان : أحدهما الموقف وهو المقام المحمود الذى جاء النص فى القرآن به فى قوله تعالى : ( عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا )[3] .

أما الشفاعة الثانية ففى إخراج أهل الكبائر من النار طبقة . والشفاعة ماهى إلا رغبة إلى الله تعالى وضراعة ودعاء من الشافع وهى كذلك رحمة وفوز من الله تعالى[4]

ويقرر ابن تيمية أن الظلم الذى هو شرك لا شفاعة فيه (فالشفاعة التى نفاها القرآن مطلقا كان فيها شرك وتلك منتفية مطلقا . ولهذا أثبت الشفاعة باذنه فى مواضع وتلك الشفاعة قد بين الرسول ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص فهى أذن من التوحيد ومستحقها هم أهل التوحيد )[5]

---

(١) فاطر ٣٦ .

(٢) أبو محمد بن حزم الفصل فى الملل والأهواء ص ٩٣ ج ٤ ط أولى سنة ١٣٤٧ هـ محمد صبيح .

(٣) الإسراء ٧٩ . (٤) المرجع السابق لابن حزم ص ٥٤ .

(٥) ابن تيمية كتاب الإيمان ص ٣٠ تصحيح محمد بدر الدين ط أولى سنة ١٣٢٥ هـ .

ونخلص من كل ذلك بدليل عقلى على ثبوت الشفاعة لمرتكبى الكبيرة فيما يلى :

أن استشفاع أحد بآخر فى دنيا الناس هذه من الأمور الممكنة عقلا إذ يجوز أن يشفع فى مذنب شافع عند عزيز فيقبل شفاعته لأن العفو من صفة الكرام فاذا كنا نقبل هذا عقلا فى دنيانا ونستريح إليه فلماذا لا نقول به فى الحياة الأخرى من رسول كريم ومن رب رؤوف رحيم .

يقول إمام الحرمين : ( أن تشفيع الشفعاء من مجوزات العقول لأننا إذا رجعنا إلى شواهد الشاهد لا يقبح عند العقلاء أن يشفع الملك بعض المخلصين المصطفين لديه فى مذنب استحق عقابا ولا ينكر ذلك إلا متعنت فكذلك الأمر فى الغائب .. فاذا ثبت جواز التشفيع عقلا وعضدته شواهد السمع فلا يبقى بعد ذلك للإنكار مضطرب ) [1] .

---

(١) الإرشاد لإمام الحرمين ص ٣٩٤ — ٣٩٥ .

# الفصل الرابع

## ٤ ـ الحساب

بعد أن يقبل الله شفاعة الرسول ﷺ للخلائق الواقعة فى الحشر يتفضل الله تعالى بحساب الخلائق على أعمالها .

تعريف الحساب :

هو فى اللغة العدد والعد يقال حسبه أى عده ومن معانيه كذلك : الكفاية يقال حسبك درهم أى كفاك ومنه قوله تعالى : «عطاء حسابا» ، أى كافيا . والمراد الأول هنا لأنه بالحساب يعدد الله تعالى أعمال العباد ويعدها ويحصيها عليهم وفى الشرع توقيف الله العباد على أعمالهم قبل الانصراف من المحشر . ومعنى توقيف الله العباد : أى يكلمهم فى شأن أعمالهم وكيفية مالها من ثواب وماعليها من العقاب فالتوقيف هو إيقاف الخلائق وإعلامهم بما عملوا وما يجزونه عليها من ثواب أو عقاب .

ويكون بما ذكر أى بأن يكلمهم فى شأن الأعمال فيسمعهم كلامه القديم أو صوتاً يدل عليه يخلقه الله سبحانه فى أذن كل واحد من المكلفين أو فى محل يقرب من إذنه بحيث لاتبلغ قوة الصوت منع الغير من سماع ماكلف به وهذا هو الذى تشهد له الأحاديث الصحيحة [1] .

وقيل يكون بأن يخلق الله فى قلوبهم علوما ضرورية بمقادير الأعمال من الثواب والعقاب وهذا ماذهب إليه الفخر الرازى والقاضى عبد الجبار [2].

---

(١) الأمير ص ١٤٠

(٢) انظر الأصول الخمسة ص ٧٣٦ عبد الجبار .

وقيل يكون بأن يوقفهم جل شأنه بين يديه ويؤتيهم كتب أعمالهم وفيها السيآت والحسنات فيقول : هذه سيآتكم وقد تجاوزت عنها وهذه حسناتكم وقد ضاعفتها لكم وهو المنقول عن ابن عباس [١] .

وأما الأعمال : التى يوقفهم الله عليها فتشمل الفعل والقول والاعتقاد بعد أخذ كتب الأعمال سواء كانت الأعمال خيراً أم شراً بتفاصيلها ( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ) [٢] .

أدلتـــه :

الحساب ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

فمن الكتاب قول الله تعالى (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا) [٣] وقوله : (إن الينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم [٤] .

ومن السنة قول النبى ﷺ : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » وقوله ﷺ فيما رواه الترمذى عن أبى برزة الأسلمى : « لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه وعن عمله فيم فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه » .

وأخرج البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال من نوقش الحساب عذب فقلت أليس يقول الله : ( وأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا ) .

فقال : إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك .

---

(١) فى العقيدة والأخلاق د . أحمد الجمل ود . شوقى إبراهيم ص ٨٨
(٢) الزلزلة ٧ — ٨ (٣) الإنشقاق
(٤) الغاشية ٢٦

وأما الإجماع : فقد ورد فى المواقف بعد ذكر قوله تعالى : (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) مع الإجماع على تسمية يوم القيامة يوم الحساب فهذا الإجماع يؤيد الآية الدالة على ثبوت الحساب (١) .

وقد ورد أن الحساب مما أجمع عليه المسلمون قبل ظهور المخالف وأنه حق بلا تأويل عند أكثر الأمة شأنه فى ذلك شأن الصراط والميزان وقراءة الكتب وغيرها (٢) .

والحساب فوق أنه ثابت شرعا فهو ممكن عقلا والامكان فية ذاتى والممكن الذاتى لايلزم من فرض وقوعه محال ثم صار واجبا باخبار الصادق عنه ﷺ — وإجماع المسلمين فوجب اعتقاده .

ما الحكمة فى هذا الحساب والمولى مطلع على السرائر قبل الظواهر وهو عادل يجازى كل امرىء حسب عمله ولايظلم الناس فتيلا ؟

الحكمة هى: إظهار الأمور للعباد بصورة عملية محسوسة حتى يتحقق المسيئون ويتأكدوا من عدل الله .

ويعلم المحسنون ويستيقنوا من فضل الله وكذلك فيه إظهار للتفاوت فى مراتب الكمال ودرجات الإحسان بالنسبة للصالحين من عباد الله كما أن فيه فضحاً وخزياً للمجرمين والفسقة والظالمين على رؤوس الاشهاد ثم إن الناس فى الدنيا إذا علموا أن هنالك حسابا بين يدى الله الذى يعلم السر وأخفى فان ذلك يكون حافزاً لهم على اكتساب الخيرات وعمل الصالحات وزاجراً لهم عن ارتكاب المظالم والشرور .

---

(١) المواقف جـ ٨ ص ٣٢٠

(٢) المرجع نفسه جـ ٨ ص ٣٢٠

## أصناف الناس فى الحساب

والناس فى الحساب ليسوا على درجة واحدة لأنه لا يعقل أبداً أن يتساوى فى الحساب من ألزم نفسه التقيد بأحكام الله تعالى مع من دخل فى جند الشيطان فهو يعمل بوحيه وارشاده ولذلك فإن رب العـــالمين سبحانه جعل الناس فى الحساب على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : صنف يدخلون الجنة بغير حساب .

فقد روى البخارى عن ابن عباس قال : قال النبى ﷺ : « عرضت على الأمم[1] ، فأخذ يمر ومعه الأمة[2] ، والنبى يمر معه النفر والنبى يمر معه العشرة والنبى يمر معه الخمسة والنبى يمر وحده فنظرت فإذا سواد كثير فقلت يا جبريل هؤلاء أمتى قال : لا ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير قال هؤلاء أمتك وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم لاحساب عليهم ولاعذاب قلت : ولم ؟ قال كانوا لايكتوون ولايسترقون[3] . ولايتطيرون وعلى ربهم يتوكلون[4] .

الصنف الثانى : صنف يحاسب حساباً يسيراً بلامناقشة ولاتشديد وإنما تعرض عليهم أعمالهم عرضا ثم يتجاوز الله تعـــالى عن سيآتهم وهؤلاء

---

(١) كان ذلك ليلة الإسراء .

(٢) أى العدد الكثير .

(٣) ليس المراد الرقيا المشروعة وهى الرقيا بالفاتحة أو بالمعوذتين وبالصيغة الواردة فى الحديث الصحيح وإنما المراد هنا رقيا العرافين والدجالين وبغير ماشرع .

(٤) صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٣٥ ط عيسى الحلبى .

الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم كما قال تعالى : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً »[1] .

الصنف الثالث : يحاسبون حسابا عسيراً مناقشة وتدقيقاً وفيهم يقول رسول الله ﷺ : « من نوقش الحساب عذب » ، رواه البخارى وهؤلاء الذين يؤتون كتبهم بيسارهم من وراء ظهورهم وهم الذين ينكرون فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم بما كانوا يكسبون .

## أول ما يحاسب عليه العبد

إن أول مايحاسب عليه العبد من حقوق الله تعالى العملية الصلاة وأول مايحاسب عليه من حقوق العباد الدماء .

روى النسائى أن رسول الله ﷺ قال : « أول مايحاسب عليه العبد الصلاة وأول ما يقضى بين الناس الدماء » .

وروى الترمذى عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أن أول مايحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت خاب وخسر فإن انتقص من فريضته شىء قال الرب عز وجل انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على ذلك .

كيفية الحساب :

اختلف العلماء فى كيفية توقيف الله الناس على أعمالهم :

فنرى الفخر الرازى يقول : إن الله — تعالى — يخلق فى قلوب العباد علوما ضرورية بمقادير من الثواب والعقاب .

---

(١) الانشقاق ٧ — ٨

ويرى ابن عباس : أن الله يوقف العباد بين يديه ويؤتيهم صحائف أعمالهم فيها حسناتهم وسيآتهم فيقول : هذه سيآتكم وقد تجاوزت عنها وهذه حسناتكم وقد ضاعفتها لكم .

وقد أخذ العلماء على هذا الرأى أن فيه قصوراً لأن الحساب لا يقتصر على هذا المقدار الذى ذكره ابن عباس فإنه قد ورد أن الكافر ينكر فتشهد عليه جوارحه « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون »[1] .

ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون[2] .

حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون[3] .

وقال « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون »[4] .

وذلك الختم على الفم وإنطاق الجوارح يكون بعد أن يسأله الله تعالى لم كفرت وفعلت كذا وكذا فينكر ويكذب الملائكة الشاهدين عليه حينئذ يختم على فيه وتنطق جوارحه .

والذى تشهد له الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة فى كيفية الحساب والسؤال : أن الله تعالى — يكلم الناس ويخاطبهم فى شأن أعمالهم وكيفية مالها من الثواب وما عليها من العقاب فيسمعهم سبحانه كلامه من غير أن يكون مكيفاً بكيفيات كلام البشر من حروف وأصوات ذات ترتيب

---

(١) يس ٦٥

(٢) يوزعون : تجمع زبانية جهنم الكفار أولهم مع آخرهم .

(٣) فصلت (٤) النور ٢٤

بشرى بل يجعلهم سبحانه قادرين على فهم خطابه من غير كيفية بالكلام القديم الذى ليس بحرف ولا صوت وذلك ( بأن يزيل عنهم الحجاب حتى يسمعوه أو بصوت يخلقه الله تعالى يدل عليه )[1] .

تقرأ فى ذلك قول الله ( وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون : يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً )[2] .

وفى الحديث عن جابر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة — أو قال العباد — عراة حفاة غرلا بهما قلت وما بهما؟ قال : ليس معهم شىء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديان لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقضيه منه حتى اللطمة قال : قلنا كيف وإنما نأتى الله عز وجل حفاة عراة غرلا بهما قال: بالحسنات والسيآت »[3] .

## تفاوت الحساب

ولا شك أن مراتب الناس فى الحساب تكون متفاوتة حسب تفاوت أعمالهم فى مستويات الخير أو درجات الشر فمنه اليسير والعسير ومنه ما يكون أساسه العدل ومنه ما يكون أساسه الفضل واليسير يعنى العرض.

---

(١) شرح الخريدة ص ٥٢

(٢) الكهف ٤٨ — ٤٩

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٨٨

وأيسر الحساب محاسبة الله تعالى فقط حتى لا يعلم بذلك إنس ولا جن ولا ملك . يقول الله تعالى : « هذه سيآتك قد غفرتها لك وهذه حسناتك قد ضاعفتها لك »[1] .

ويقع الحساب من الله تعالى للخلائق كلهم سريعاً فى وقت واحد لا يشغله محاسبة أحد عن أحد بل كل واحد يرى أنه وحده المحاسب فالله سريع الحساب وهو على كل شىء قدير .

وقد سئل الإمام على — كرم الله وجهه — كيف يحاسب الله الناس كلهم فى وقت واحد فقـــال : كما يرزقهم فى آن واحد يسألهم فى آن واحد .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « من حوسب يوم القيامة عذب فقلت أليس قد قال الله عز وجل فسوف يحاسب حساباً يسيراً [2] .

فقال . ليس ذاك الحساب إنما ذاك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عذب[3] .

---

(١) شرح الخريدة ص ٥٢

(٢) الانشقاق .

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم ج ١٧ ص ٢٠٨ ط مصطفى الحلبى .

موقف الحساب :

هو موقف عصيب ومشهد رهيب وهو طويل ذو أطوار ومراحل ويشتمل على عدة أحداث تهدف كلها إلى إعلان العدالة الإلهية المطلقة وإبراز الفضل الربانى الكامل لمستحقيه من العباد فسوف يعرض أمام الإنسان شريط حى ناطق بأعماله خيراً كانت أو شراً يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[1] .

---

(١) الزلزلة ٦ — ٧

# الفصل الخامس

## ٥ — الكتاب

ثم تنتشر صحف الأعمال وتلق إلى أصحابها ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله »[1] .

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة قالت قلت يارسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : ( ياعائشة أما عند ثلاث فلا أما عند الميزان حتى يخف أو يثقل وأما عند تطاير الكتب فأما أن يعطى بيمينه أو يعطى بشماله فلا . . ) الحديث[2].

والذين يتسلمون صحفهم على صنفين[3] .

الصنف الأول: الذين يتسلمون كتبهم بيمينهم وهم المؤمنون المخلصون الذين أفنوا العمر في طاعة الله سبحانه ما إن يتسلمونها حتى يطيروا منها فرحاً يعرضونها على الناس سعداء بما آلوا إليه من نعيم الله ( فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ) .

الصنف الثانى : الذين يتسلمون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم وهم

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) انظر تفسير القرطبي .

(٣) العقيدة الإسلامية فى مواجهة المذاهب الهدامة ص ٣٤٢ د. محمد أبو الغيط دار البحوث العلمية — الكويت — .

الكافرون الذين لا يؤمنون بالله تعالى ملائكة يسلمون كتبهم حتى يسقط بأيديهم ويتمنوا الموت الأبدى كما قال تعالى : وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابية ولم أدر ماحسابية ياليتها كانت القاضية ماأغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانية خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم .

وقال : ( وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيرا )[1] .

ووجه الجمع بين الآيتين أنه يأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره وكذلك قال ابن كثير فى تفسير الآية الثانية أى يأخذه بشماله من وراء ظهره .

---

(١) الانشقاق ١٢/١٣

# الفصل السادس

## ٦ - الميزان

الميزان حق شهدت به النصوص الشرعية فكان عقيدة ثابتة يؤمن بها من يؤمن بالكتاب والسنة ويؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وإذا كان أمر الميزان والوزن فى الدنيا وبين الناس فى تعاملاتهم ينظر إليه على أنه آلة ووسيلة فى تحرى العدالة وتحققها ورفع التظالم بين المتعاملين فلا يتأتى الجور والغبن فى الحقوق والمقادير والكميات .

إذا كان أمر الميزان فى دنيانا هو هذا الأمر وهو أمر هام فإن أمره فى الآخرة أجل وأهم .

فالميزان الأخروى من صنعة الإله العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة

والميزان ممكن عقلا ثابت بالقرآن والسنة والإجماع .

أما كونه ممكناً عقلا فلأنه أحد أمور الآخرة من الصراط والحساب وغيرها وهذه الأمور [ العمدة فى إثباتها إمكانها فى نفسها إذ لا يلزم من فرض وقوعها محال لذاته مع إخبار الصادق عنها وأجمع عليه المسلمون قبل ظهور المخالف ونطق به الكتاب ][1]

فأما ثبوته بالقرآن فقد جاء التصريح بالميزان والوزن فى كثير من

---

(١) المواقف، عضد الدين الإيجى ج٨ ص٣٢٠

الآيات ، والميزان آلة توزن بها الأشياء وجمعه موازين .

ومن الآيات الكريمة التى جاء بها ذكر الميزان أو الموازين نذكر مايـــلى :

قوله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين »[١] .

وقوله : « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون »[٢]

وقوله « والسماء رفعها ووضع الميزان »[٣] .

أما من السنة : فقد روى الإمام أحمد وفيما رواه الترمذى وابن ماجة : عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله سيخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ثم يقول الله له : أتنكر من هذا شيئاً ؟ ظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب . فيقول الملك : ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل فيقول : لا يارب .

وروى الترمذى والبيهقى عن أنس رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لى يوم القيامة فقال : أنا فاعل إن شاء الله قلت فإن لم ألقك على الصراط قال : فاطلبنى عند الميزان قلت فإن لم ألقك عند الميزان قال فاطلبنى عند الحوض فإنى لا أخطىء هذه الثلاث مواطن[٤]

---

(١) الأنبياء : ٤٧ (٢) المؤمنون ١٠٢ — ١٠٣

(٣) الرحمن : ٧

(٤) وبلفظ البيهقى يؤتى بابن آدم يوم القيامة فيوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك فإن ثقل ... الحديث ] .

وروى أبو داود بإسناد جيد عن الحسن : أن رسول الله ﷺ كان رأسه فى حجر عائشة رضى الله عنه فنعس فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله ﷺ فانتبه فقال ما يبكيك يا عائشة ! قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال والذى نفسى بيده فى ثلاثة مواطن فإن أحداً لا يذكر إلا نفسه إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل ! وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله وعند الصراط .

وقد ذكر صاحب شرح الخريدة أن أحاديث الميزان بلغت مبلغ التواتر[1] .

صفة الوزن والميزان :

إن المتكلمين قد اختلفوا فى الميزان فقال الأشاعرة : إن الميزان له لسان وكفتان توزن فى إحدى كفتيه الحسنات وفى الأخرى السيآت فمن رجحت حسناته دخل الجنة ومن رجحت سيآته دخل النار ومن تساوت حسناته وسيآته تفضل الله عليه فأدخله الجنة[2] .

وإلى مثل هذا ذهب صاحب المقاصد وشارح الطحاوية[3] .

---

(١) شرح الخريدة ص ٥٤ — ٥٥

(٢) الأشعرى مقالات الإسلاميين ج٢ ص ١٦٤ مكتبة النهضة المصرية تحقيق محمد محيى الدين

(٣) انظر المقاصد ص ١١٨ وشرح الطحاوية

وفى كتاب ( نهاية البداية والنهاية لابن كثير يقول أبو عبد الله القرطبى إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال لأن الوزن للجزاء ،

فينبغى أن يكون بعد المحاسبة فإن المحاسبة لتفس الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها فيكون الجزاء بحسبها وقوله تعالى [ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ] أى الموازين العادلة ليوم القيامة يحتمل أن يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمال ويحتمل أن يكون المراد الموزونات فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة[١] .

وقيل لكل مكلف ميزان واحد مع وجود الميزان الكبير إظهاراً لجلال أمر الوزن وعظمة مقامه .

وقيل لكل عامل مكلف موازين عدة يوزن بكل منها صنف من عمله لكن الراجح المشهور هو أنه ميزان واحد لكل العباد ولسائر الأعمال[٢] .

أما الوزن فقيل إنه على صورته فى الدنيا بمعنى أن خفة الموزون وثقله على الصورة المعهودة فى موازين الدنيا من صعود كفة وهبوط أخرى فالأعمال الصالحة تثقل فى الميزان وتهبط كفتها والأعمال السيئة تخف فتصعد كفتها بدليل قوله تعالى :

فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية[٣] .

---

(١) أبو الفداء الحافظ بن كثير نهاية البداية فى السير والملاحم جـ ٢ ص ٢٤ تحقيق محمد فهيم نشر مكتبة النصر ط أولى سنة ١٩٦٨م

(٢) فى العقيدة والأخلاق د/ أحمد ود/شوقى ص٩٩

(٣) القارعة ٦ : ٩ (٤) شرح الخريدة ص٥٥

ويذهب البعض إلى أن هناك صنج مثاقيل الذر يعلم بها كمية التفاوت تحقيقاً لتمام العدل . ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ... ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[1] .

وقيل : إن خفة الموزون وثقله عكس صورته فى الدنيا بمعنى : أن الثقيل يصعد والخفيف يهبط لقوله والعمل الصالح يرفعه[2] .

وسواء كان هذا أو ذاك فإنه اجتهاد لا يتصل بالعقيدة ولا يؤثر فيها .

ماالذى يوزن :

الميزان يقتضى موزون وقد حار كلام العلماء فى الموزون يوم القيامة أهو الأعمال أو هو الإنسان

فذهب جمهور المفسرين وابن عباس إلى أن الذى يوزن هو الكتب التى اشتملت على أعمال العباد حيث أن الحسنات مميزة بكتاب والسيآت مميزة بكتاب آخر ودليل على ذلك حديث البطاقة الذى يرويه عبد الله ابن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال : إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة الحديث وفيه : فتخرج له بطاقة كالأنملة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال إنك لا تظلم فتوضع السجلات فى كفه والبطاقات فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء[2] .

---

(١) فاطر ١٠

(٢) رواه الترمذى انظر شرح البيجورى على الجوهرة ص ٢١٥ وفى شرح الطحاوية ص ٣٣٦

وفى الحديث أيضاً : يؤتى برجل يوم القيامة إلى الميزان فيخرج له تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر فيها ذنوبه وخطاياه فتوضع فى كفه ثم يخرج له قرطاس مثل الأنملة فيه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فتوضع فى كفة أخرى فترجح بخطاياه[1] .

وهناك أحاديث تضمنت الإشارة إلى أن الموزون هو الإنسان نفسه وذلك فيما رواه البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرأوا إن شئتم « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا »[2] .

وقد روى فى هذا الباب عن الإمام أحمد عن ابن مسعود أنه كان رقيق الساقين فجعلت الريح تلقيه فضحك القوم منه فقال رسول الله ﷺ مم تضحكون ؟ قالوا يا نبى الله من رقة ساقيه وقال . والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أحد[3] .

وذهب بعض المفسرين إلى أن الموزون هو أعيان الأعمال وذواتها فتصور الأعمال الصالحة بصورة حسنه نورانية ثم تطرح فى كفة النور وهى اليمنى المعدة للحسنات فتثقل بفضل الله .

---

(١) رواه الترمذى انظر شرح البيجورى على الجوهرة ص ٢١٥ وفى شرح الطحاوية ص ٣٣٦

(٢) نهاية البدايه والنهاية لابن كثير ص ٢٩

(٣) نهاية البداية والنهاية ح ٢ ص ٢٨

(٤) المرجع نفسه وانظر بحر الكلام ، أبو المعين النسفى ص ٧٣ وشرح الطحاوية ص ٣٦٧

وتصور الأعمال السيئة بصورة قبيحة ظلمانية ثم تطرح فى كفة الظلمة وهى الشمال المعدة للسيآت فتخف وهـــذا فى المؤمن أما الكافر فتخف حسناته وتثقل سيآته بعدل الله[1].

وهذه الأمور لا تعرف بالاجتهاد بل بالنقل والرواية عن الصادق المصدوق ولكننا مع ذلك يمكننا أن نوفق بينها بأن نعتبر الوزن قد يكون للأعمال وقد يكون للإنسان حسب مشيئة الله تعالى وليس فى هذا شىء من الغرابه؟!!

الذين لا يخضعون للوزن ولا للحساب.

الوزن يكون للخلائق جميعاً من كل الأمم يستوى فيه المؤمن والكافر فالكفار توزن أعمالهم بدلالة قوله تعالى: «ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون»[1].

وقوله: «فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا»[2]، أى نافعا.

وقوله: «وأما من خفت موازينه فأمه هاوية»[4].

ومع ذلك فإن ثمة أناساً لا يخضعون للوزن ولا للحساب مطلقاً ويدخلون الجنة دون أن تنشر لهم صحيفة أو يرفع لهم ميزان ويعطون براءات تدخلهم الجنة دونما رقابة أو مناقشة ومن هؤلاء أهل البلاء

---

(١) المختار من شرح البيجورى على الجوهرة ص ٢١٥ وحاشية الأمير ص ١٤٣

(٢) الأعراف ٩ (٣) الكهف ١٠٥

(٤) القارعة ٨

الذين يصب لهم الأجر صباً حتى أن أهل العافية فى الدنيا حينما يرون ذلك ليتمنون فى الموقف لو أن أجسامهم قرضت فى الدنيا بالمقاريض لما يرون من حسن ثواب الله تعالى لهم[1] .

وقد نقل البعض أن هؤلاء يدخلون الجنة قبل أن يضع الله الموازين للحساب وروى البخارى عن ابن عباس أنه يكون يوم القيامة فى أمة محمد ﷺ سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقد أخرج الإمام أحمد وغيره عن أبى بكر قال : قال رسول الله ﷺ : اعطيت سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر وقلوبهم على قلب رجل واحد واستزدت ربى فزادنى مع كل واحد سبعين ألفاً ، وروى أيضا أن الله تعالى : يجمع الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ليسمعهم الداعى وينفذهم البصر فيقوم مناد فينادى أين الذين كانوا يحمدون الله على السراء والضراء ؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب وثم يعود فينادى أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ .

فيقومون فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يعود فينادى ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يقوم سائر الناس فيحاسبون » .

---

(١) التذكرة للقرطبى ص ٣١١

# المنكرون للميزان

قال أهل البدع بإبطال الميزان وقالوا : موازين وليس بمعنى كفات والسن ولكنها المجازاة يجازيهم الله بأعمالهم وزناً بوزن وأنكروا الميزان وقالوا يستحيل وزن الأعراض لأن الأعراض لا ثقل لها ولا خفة يشير صاحب المواقف الإيجى إلى شىء من هذا فيقول إن الميزان قد أنكره المعتزلة عن آخرهم إلا أن منهم من أحاله عقلا .

ومنهم من جوزه ولم يحكم بثبوته كالعلاف وابن المعتمد قالوا : يجب حمل ما ورد فى القرآن من الوزن والميزان على رعاية العدل والانصاف بحيث لا يقع فيه تفاوت أصلا لا على آلة الوزن الحقيقى (١) .

ويتضح من هذا النص أن المعتزلة ينكرون الميزان الذى هو آلة للوزن فضلا عن أن يكون على الصورة الحسية المعروفة لنا وهى أن يكون ذا كفتين ولسان وساقين .

كما ينكرون أيضاً الوزن سواء كان للأعمال أو الكتب أو غير ذلك مما أشرنا لأن الوزن الذى هو ثقل فى كفة وخفة فى كفة يستوى فى ذلك كله من أنكره عقلا بالكلية أو من جوزه وتوقف عن الحكم بثبوته فالنتيجة واحدة والمعتزلة توجب تأويل النصوص القرآنية الواردة فى شأن الوزن والميزان برعاية العدل والانصاف .

ويشير الآمدى أيضاً إلى المعتزلة بإطلاق إنكار الميزان (٢) .

---

(١) المواقف للإيجى حـ ٨ ص ٣٢١ .

(٢) انظر غاية المرام فى علم الكلام سيف الدين الآمدى تحقيق د/ حسن عبد اللطيف ص ٣٠٢ .

بينما نجد أبو المعين النسفي يصور مذهبهم بصورة أوضح فيقول :

قالت المعتزلة : لا ميزان . . والميزان يحتاج إليه القاضي والبقال وكل موضع ذكر الله الميزان أراد به العدل لأن الميزان إنما يحتاج إليه لمعرفة قدر الحسنات والسيئات والله تعالى عالم بذلك كله فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته يؤمر به إلى الجنة ومن كانت سيئاته أكثر يبعث به إلى النار [١] .

وصاحب المقاصد يشير إلى أن المنكرين للميزان بعض من المعتزلة يقول وأنكره بعض المعتزلة [٢] .

ومراده أن هذا البعض ينكره من حيث هو ميزان له كفتان ولسان وساقان ويحدد المراد به العدل الثابت في كل شيء لا الميزان الذي توزن به الأعمال والتي هي أعراض زالت وتلاشت .

ونحن نرجح قول السعد فنقرر أن المعتزلة لم ينكروا الميزان والدليل على ذلك أن صاحب الأصول الخمسة يقر بالميزان وبصفته المعهودة لدينا وينكر تأويله بالعدل فيقول :

ولم يرد الله تعالى بالميزان إلا المعقول منه المتعارف فيما بيننا دون العدل وغيره على ما يقوله بعض الناس لأن الميزان وإن ورد بمعنى العدل في قوله : « وأنزلنا معهم الكتاب والميزان » فذلك على طريق التوسع والمجاز وكلام الله تعالى مهما أمكن حمله على الحقيقة لا يجوز أن يعدل به عنه إلى المجاز ، يبين ذلك ويوضحه : أنه لو كان الميزان إنما هو العدل لكان

---

(١) بحر الكلام، أبو المعين النسفي ص ٧٢ .
(٢) السمعيات من شرح المقاصد ص ١١٨ .

لا يثبت للثقل والخفة فيه معنى فدل على أن المراد به الميزان المعروف الذى يشمل على ما تشتمل عليه الموازين فيما بيننا [١] .

فواضح أن القاضى مقر بالميزان وهو معتزلى والقول بأن المعتزلة عامة ينكرون الميزان أمر مستبعد ؟!

وذهبت الكرامية إلى أن الميزان ذو طبيعة حسية وقالت الكرامية فى وزن الأعمال إنما توزن أجسام يخلقها الله عز وجل بعددالأعمال[٢] .

والغزالى يذهب فى كتابه (القسطاس المستقيم) إلى أن أشدالموازين روحانية ميزان يوم القيامة إذ به توزن أعمال العباد وعقائدهم ومعارفهم والمعرفة والإيمان لا تعلق لها بالأجسام ولذلك كان ميزانها روحانياً صرفا [٣] .

على أن هناك رأياً آخر للغزالى يثبت فيه الصفة الحسية للميزان بل يجعل من أصول الاعتقاد أن يؤمن المسلم بالميزان ذى الكفتين واللسان توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل تحقيقاً لتمام العدل وتوضع صحائف الحسنات فى صورة حسنة فى كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله وتطرح صحائف السيئات فى صورة قبيحة فى كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله [٤] .

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٧٣٥ .

(٢) البغدادى أصول الدين ص ٢٤٦ ط أولى سنة ١٩٢٨ .

(٣) الغزالى القسطاس المستقيم ص ٢٨ ط مصطفى القبانى ط ٢ طبعة التقدم .

(٤) ابن حزم الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ٤ ص ٥٤ .

وعلى العموم فإن المنكرين لهم شبه نعرضها ونرد عليها :

١ — قالوا : إن الأعمال أعراض قد انعدمت وتلاشت فلا يمكن إعادتها وإن أمكن إعادتها فلا يمكن وزنها لأنهـا لا توصف لا بخفة ولا بثقل فالخفة والثقل من خواص الجواهر فقط[1] .

والرد على ذلك : أن صحف الأعمال هى التى توزن لما ورد أنه قد سئل ﷺ عن هذا فقال توزن صحائف الأعمال فإن الكرام الكاتبين يكتبون الأعمال فى صحائف هى أجسام فإذا وضعت فى الميزان خلق الله تعالى فى كفتها ميلا بقدر رتبة الطاعات وهو على مايشاء قدير[2] .

ويجاب كذلك: بأن الحسنات تصير أجساماً نورانية والسيآت أجساماً مظلمة ويجرى الوزن لها ولا مانع عقلا فى هذا .

٢ — قالو : إن الوزن يكون للعلم بمقدار الأعمال وهى معلومة لله تعالى بلا وزن ولا ميزان فالوزن لافائدة فيه وفعل مالافائدة فيه يقبح فى حق الله تعالى والقبيح محال فى حقه فيستحيل الميزان .

والجواب : أن ذلك مبنى على أن أفعاله معللة بالأغراض ولا يصح وقد ثبت بطلانه لأنه تعالى لا يسأل عما يفعل .

ثم إنه مبنى على قاعدة الحسن والقبح العقليين وقد ثبت بالدليل بطلانهما وإنما هما شرعيان وقد صرح الشرع بالوزن والميزان فيكونان من قبيل الحسن الذى حسنه الشرع فيحسن فى حقه تعالى ومن جهة أخرى نقول : إن الوزن فيه الفائدة على فرض التسليم بالغرض فى أفعاله تعالى

---

(١) فى العقيدة والأخلاق د . أحمد عبده و د . شوقى إبراهيم ص ١٠٦

(٢) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١١١ محمد الغزالى أبو حامد .

فما المانع فى أن تكون الفائدة فيه أن يشاهد العبد مقدار أعماله ويعلم أنه مجزى بها بالعدل أو يتجاوز عنه باللطف ومن يعزم على معاقبه وكيله بجنايته فى أمواله أو يعزم على الإبراء فمن أين يبعد أن يعرفه مقدار جنايته بأوضح الطرق ليعلم أنه فى عقوبته عادل وفى التجاوز عنه متفضل[1].

ابن حزم والميزان :

عرفنا بصدد الميزان أن بعض الفرق أنكرته أو قالت إنه ذو طبيعة معنوية والبعض الآخر وهم الجمهور أثبته وأثبت له الطبقة الحسية كالأشاعرة وغيرهم من أهل السنة إلا أن أبا محمد بن حزم الأندلسى يقف موقفاً يعارض فيه الأشاعرة القائلين بأنه على هيئة موازين الدنيا كما يعارض فيه المعتزلة بما أنكروه ويذهب فى ذلك مذهباً خاصاً يقرر فيه أن أمور الآخرة لا تعلم إلا بما جاء فى القرآن أو بما جاء عن رسول الله — ﷺ — ولم يأت عنه عليه السلام شىء يصح فى صفة الميزان ولكن كل ما جاء عن الميزان فهو آيات قرآنية مثل قوله تعالى « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة »[2] .

وهو فى مخالفته للأشاعرة والمعتزلة يقول ( وأما الميزان فقد أنكره قوم فخالفوا كلام الله جراءة وإقداماً ، وتنطع آخرون فقالوا هو ميزان بكفتين من ذهب ) وهذا إقدام آخر لا يحل[3] .

ثم يخص الأشاعرة بالنقد فيقول ( وأما من قال بما لا يدرى أن ذلك

---

(١) المرجع السابق ص ١١١ .

(٢) ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل جـ ٤ ص ٥٤ .

(٣) المرجع السابق جـ ٣ ص ٦٥ .

الميزان ذو كفتين قائماً قاله قياساً على موازين الدنيا وقد أخطأ فى قياسه إذ فى موازين الدنيا ما لا كفة له )[١] .

ويقول موجهاً نقده للمعتزلة ( إن أمور الآخرة لا تعلم إلا بالقرآن والسنة ولم يأت عنه عليه السلام شىء يصح فى صفة الميزان ولو صح عنه عليه السلام فى ذلك شىء فلايحل لأحد أن يقول على الله عز وجل مالم يخبرنا به لكن نقول كما قال الله عز وجل )[٢] .

ويواصل قوله ( ونقطع على أن تلك الموازين أشياء يبين الله عز وجل بها لعباده مقادير أعمالهم من خير أو شر من مقدار الذرة التى لا تحس وزنها فى موازيننا أصلا فما زاد ولا ندرى كيف تلك الموازين إلا أنا ندرى أنها بخلاف موازين الدنيا وإن ميزان من تصدق بدينار أو بلؤلؤة أثقل ممن تصدق بكذا .. وليس هذا وزناً .. ولو نصح المعتزلة أنفسهم لعلموا أن هذا عين العدل )[٣] .

واضح أن ابن حزم يرفض الحديث عن صفة الميزان إلا بأنه يختلف عن موازين الدنيا لأن النصوص لم تصح فى هذه الصفة مع القطع بوجود الموازين وعلى كل حال فإن الوزن يوم القيامة للأعمال حق لاريب فيه .

وإن كان بعض العلماء يرى أنه مقصود به القضاء بالقسطاس المستقيم وضمان العدل الذى لا شبهة فيه وإن ذكر الميزان فى القرآن لم يكن إلا للتقريب والتمثيل بينما يصر الجمهور على أن الميزان الوارد ذكره

---

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٦٥
(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٦٥
(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ٦٥

فى القرآن محمول على الحقيقة وأنه بالفعل مركب من كفتين ولسان وهو ما دلت عليه الآثار وقد بلغت أحاديثه كما روى ذلك أجلة العلماء مبلغ التواتر بل إن بعضهم قد نقل الإجماع عليه (١) .

ويروى هؤلاء أن كل كفة من كفتى الميزان تعدل طباق السماوات والأرض ، وقد نقل الصحابى الجليل سلمان الفارسى أنه لو وضعت فيهن السموات والأرض لوسعتهن وورد أن كفة الحسنات من نور وكفة السيآت من ظلام وأن الجنة موضوعة عن يمين العرش والنار عن يساره والميزان ينصب بين يدى الله تعالى (٢) .

وقد قال بعض العلماء إن الأعمال وإن كانت أعراضاً يستحيل وزنها كما يقول المعتزلة غير أن الله يقلبها يوم القيامة أجساماً صالحة للوزن أو أن الله تعالى يزن صحائفها وهى قابلة للوزن .

وقد روى أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فلما رآه غشى عليه فلما أفاق قال : إلهى من ذا الذى يقدر على ملء كفة حسناته ؟ فقال إذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة (٣) .

وروى أن الميزان ينصب للجن والإنس على السواء وأن جبريل آخذ بعموده ينظر إلى لسانه (٤) .

يقول الله [ أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم

---

(١) لوامع الأنوار ص ١٨٥

(٢) التذكرة ص ٣١٣ للقرطبى .

(٣) أبو مظفر الأسفرايينى التبصير فى الدين ص ١٠٧ تعليق محمد زاهد الكوثرى ج ١ السيد عزت العطار أولى سنة ١٩٤٠ م .

(٤) لوامع الأنوار ص ١٨٣ ج ٢

من الجن والإنس أنهم كانوا خاسرين ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ](١).

وأنه قد ورد فى الكتاب أن الجن يسألون قال الله [ يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ](٢).

وقد روى الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: [ إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟! فيقول لا يارب فيقول: ألك عذر فيقول لا يارب فيقول إن لك عندنا حسنة فانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها أشهد إن لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله فيقول أحضر وزنك فيقول ما هذه البطاقة ؟! مع هذه السجلات !! فيقال: إنك لا تظلم قال فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شىء ] وصدق الله العظيم وهو القائل [ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ](٣).

---

(١) الأحقاف ١٨ — ١٩ (٢) الأنعام ١٣٠
(٣) الأعراف ٨ — ٩

# الفصل السابع

## ٧ـ الصراط

قال علماء اللغة : الصراط الطريق وقد قرىء بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع كأن الطريق بمرور الناس عليه فئات بعد فئات أفراد بعد أفراد وكثيرا ما لا يعدون مشتق من صرطه يصرطه إذا ابتلعه سمى به الطريق لأنه يبتلع المارة .

وفى الشرع : جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولوف والآخرون كقنطرة إلى الجنة قال تعالى : فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ] .

وقد اختلف العلماء فى فهم معنى الورود فى الآية فقيل الورود هو الدخول وقد روى عن جابر بن عبد الله أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاما كما كانت على إبراهيم ] وهو قول ابن عباس وفى مسند الدارمى عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : يرد الناس النار ثم يصدرون منها بأعمالهم فأولهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحضر الفرس [ أى كعدوه ] ثم كالراكب المجد فى رحله ثم كشد الرجل فى مشيته ].

وروى عن ابن عباس أنه قال فى هذه المسألة لنافع بن الأزرق الخارجى :

أنا وأنت فلابد أن نردها أما أنا فينجيني الله منها وأما أنت فما أظنه ينجيك لتكذيبك.

وقال البعض : الورود هو المرور على الصراط بدليل ما رواه مسلم فى صحيحه عن النبي ﷺ : [ ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون اللهم سلم سلم ] .

قيل يارسول الله وما الجسر ؟ .

قال :[ دحض مزلة [ بمعنى واحد وهو الموضع الذى تزل فيه الأقدام ] فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكاجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس فى نار جهنم ] .

وروى الترمذى من عدة طرق عن ابن مسعود قال : يرد الناس جميعاً الصراط وورودهم قيامهم حول النار ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم فمنهم من يمر كمر البرق ومنهم من يمر كأجاويد الخيل ومنهم من يمر كأجاويد الإبل ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى إن آخرهم مراً رجل نوره على موضع ابهامى قدميه ثم ينكفىء به الصراط والصراط دحض (أى مزلقة) مزلة ( أى لا يثبت عليه قدم ) عليه حسك كحسك القتاد حافتاه عليهما ملائكة معهم كلاليب ملى نار يخطفون بها الناس ] :

ويروى البعض أن معنى الورود هو ورود أشراف واطلاع وقرب وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم فيرونها وينظرون إليها فى حالة الحساب ثم ينجى الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ويصار بهم إلى الجنة .

وقال بعضهم إن ورود المؤمنين النار هو الحمى التى تصيبهم فى دار الدنيا فقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ عاد مريضاً من وعك به فقال له النبي ﷺ : [ أبشر فإن الله تبارك وتعالى يقول : وهى نارى اسلطها على عبدى المؤمن لتكون حظه من النار ] .

وذهب آخرون إلى أن المراد من الورود النظر إلى النار فى القبر فينجى منها الفائز ويصلاها من قدر عليه دخولها ثم يخرج منها بالشفاعة منكم أو بغيرها من رحمة الله وعن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها » هو خطاب للكفار وحدهم وهو لا يصيب المؤمنين .

وقد روى عنه أنه كان يقرأ [ وإن منهم ] .

ولكن الأكثرين من العلماء يذهبون إلى أن الخطاب موجه إلى العالم كله مؤمنهم وكافرهم لأن ظاهر اللفظ محمول على ذلك »[1] .

أدلة ثبوته شرعاً

الصراط ثابت قطعاً بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة فمن الكتاب قوله تعالى : « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » وقوله : « أهدنا الصراط المستقيم ] »[2] .

وقوله : « ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون »[3] .

ومن السنة: تشهد لثبوته الأحاديث الكثيرة وعن أبى هريرة فيما رواه

---

(١) انظر تفسير القرطبى ج ١١ ص ١٣٦ — ١٣٩

(٢) الفاتحة ٦ (٣) يس ٦٦

الشيخان عن النبي ﷺ قال : يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجيز بأمته من الرسل ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم .. الحديث ].

وقد نقل السفاريني أن كلمة العلماء متفقة على إثبات الصراط فى الجملة وأن أهل الحق يثبتونه على ظاهره وقد أنكر ما يقال فيه بأنه [ أدق من الشعرة وأحد من السيف العلامة القرافي وسبقه فى ذلك العز بن عبدالسلام وقال إنه عريض(١) .

وقد أشار الإمام الأشعري عن الاختلاف فى أمر الصراط : [ واختلفوا فى الصراط فقال قائلون هو الطريق إلى الجنة وإلى النار ووصفه بأنه أدق من الشعرة وأحد من السيف ينجى الله عليه من يشاء .

وقال قائلون : هو الطريق وليس كما وصفوه بأنه أحد من السيف وأدق من الشعرة ، ولو كان كذلك لاستحال المشى عليه(٢) .

وأصحاب القول الأول هم السلف وأكثر الخلف منهم الذين اثبتوا الصراط دون تأويل ووصفوه بأنه أدق من الشعرة وأحد من السيف كما ورد فى الحديث ثم قالوا إن الخلائق جميعهم يلزمون المرور عليه.

أما أصحاب الرأى الثانى فهم المعتزلة الذين وافقوا على أنه الطريق ثم خالفوا فى : —

١ — كونه أدق من الشعرة وأحد من السيف .

٢ — كون الخلائق ملزمين بالمرور عليه .

---

(١) لوامع الأنوار جـ١ ص ١٩٣ السفاريني .

(٢) مقالات الإسلاميين جـ٢ ص ١٦٤

ويشير السعد إلى الخلاف الأول عند المعتزلة فيقول: وأنكره القاضي عبد الجبار وكثير من المعتزلة زعماً منهم أنه لا يمكن العبور عليه ولو أمكن ففيه تعذيب ولا عذاب على المؤمنين والصلحاء يوم القيامة.

قالوا: بل المراد طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى: سيهديهم ويصلح بالهم. وطريق النار المشار إليه بقوله (فاهدوهم إلى صراط الجحيم)[1] وصاحب المواقف أشار إلى ذلك بقوله (وأنكره أكثر المعتزلة وتردد قول الجبائي فيه نفياً وإثباتاً فنفاه تارة وأثبته أخرى

وذهب أبو الهذيل وبشر بن المعتمر إلى جوازه دون الحكم بوقوعه قالوا: من أثبته بالمعنى المذكور وصفه بأنه أدق من الشعرة وأحد من غرار السيف كما ورد به الحديث الصحيح وأنه على تقدير كونه كذلك لا يمكن عقلا العبور عليه وإن أمكن العبور لم يمكن إلا مع مشقة عظيمة ففيه تعذيب المؤمنين ولا عذاب عليهم يوم القيامة وحينئذ وجب أن يحمل قوله تعالى:

(فاهدوهم إلى صراط الجحيم) على الطريق إليها[2].

واضح أن المعتزلة يمنعون الصراط عقلا ويأولون النصوص الواردة فيه ويحملونها على معنى الطريق إلى الجنة أو النار.

أما عن المخالفة في الأمر الثاني نجد أن القاضي عبد الجبار يشير إليها بصراحة فيرفض كون الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف شأنه في ذلك شأن البعض من المعتزلة ويعرف الصراط بأنه طريق بين الجنة والنار يتسع على أهل الجنة ويضيق على أهل النار إذا راموا المرور عليه.

---

(١) السمعيات من شرح المقاصد ص ١١٧
(٢) المواقف للإيجي حـ ٨ ص ٣٢١

فقوله : ( إذا راموا المرور عليه ) رفض واضح لتكليف الخلائق وإلزامهم باجتيازه والمرور عليه وحجته على ذلك : هى أن الدار الآخرة ليست دار تكليف حتى يصح إيلام المؤمن بتكليفه المرور على ما هذا سبيله فى الدقة والحدة ويقول :

إن وصف الصراط بذلك إنما هو قول الحشوية وما وصفوه به ليس من الطريق شيء إذ كيف يكون طريقا وهذه صفته[1].

نخلص من هذا إلى أن معظم المعتزلة يستخدمون العقل فيمنعون كون الصراط بهذا الوصف ويمنعون إمكان المرور عليه لأنه لا يصح أن يكون طريقا وعلى فرض صحته لكان فيه مشقة وتكليف والدار الآخرة ليست مشقة ولا تكليف للخلق .

ويشير سعد التفتازانى إلى تنفيد هذه الشبهة فيقول (إن إمكان العبور ظاهر كالمشى على الماء والطيران فى الهواء غايته مخالفة العادة ثم الله تعالى ( وهو القادر المختار ) يسهل الطريق على من أراد كما جاء فى الحديث ( إن منهم من يمر كالبرق الخاطف)[2] الحديث، فإمكان اجتياز الصراط وهو بهذا الوصف — غير مستحيل عقلا . بل ظاهر فى العقل كالشأن فى المشى على الماء والطيران فى الهواء .

ثم إنه لا تعذيب للمؤمنين لما يكلفون بالمرور عليه لما ورد فى صفة عبورهم وإنه يسهل عليهم فلا إيلام .

وأما لزوم اجتيازه فدلول عليه من القرآن بقوله تعالى : «وإن منكم إلا واردها» وورود الكل النار لن يصدق إلا باجتياز الصراط

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٧٣٧ — ٧٣٨

(٢) السمعيات من شرح المقاصد ص ١١٧

ومدلول عليه من السنه كذلك ومن ثم يقول الإمام الغزالى ( وهذا ممكن. فإن القادر على أن يطير الطير فى الهواء قادر على أن يسير الإنسان على الصراط)[1] .

ونلاحظ من دراسة الأقوال المختلفة فى تفسير الصراط أن كل المسلمين يعترفون بالصراط والمعتزلة منهم يصرفون النصوص الواردة فيه عن ظاهرها ويؤولونها بالطريق أو الأدلة الواضحة وأهل السنة يبقون النصوص على ظاهرها لأن الحقيقة ممكنة .

فمن أنكر الصراط كلية فهو كافر لإنكاره القرآن والسنة .

شعار المسلم على الصراط :

وقد ورد أن للمسلم شعاراً يطلقه وهو سارى على الصراط وهو قوله: رب سلم !! كما ورد أن الرسول ﷺ يقول عند جواز أتباعه المؤمنين للصراط رب سلم سلم !![1] .

أول الناس جوازاً على الصراط :

وقد روى العديد من أصحاب الأسانيد أن أول الأنبياء جوازا على الصراط هو محمد ﷺ ومعه أمته ثم يليه عيسى ثم موسى ثم إبراهيم حتى يكون آخرهم نوح عليه السلام .

وورد أن المؤمن يعطى وهو على الصراط كتابا مسطور فيه : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لفلان أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية ) .

---

(١) الإحياء جـ ٤ ص ١١٤ أبو حامد الغزالى .
(٢) لوامع الأنوار جـ ٢ ص ١٩٣

## السور القائم دون الصراط بين المؤمنين والمنافقين :

ونقل البعض أن الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف ينتهون إلى ظلمة قائمة دون الصراط وفى هذا الموقف يفترق المنافقون عن المؤمنين ويتخلفون عنهم فيسبقهم المؤمنون ويحال بينهم بسور يمنع المنافقين عن الوصول إليهم وهو ما يشير إليه الله تعالى فى سورة الحديد [ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور)[1]

## الصراط صراطان :

وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : إذا خلص المؤمنين من الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن بدخول الجنة فلأحدهم أهدى إلى منزله فى الجنة من منزله الذى كان فى الدنيا .

وذكر القرطبى أن ثمة صراطين يوم القيامة الصراط الذى هو مجاز أهل المحشر كلهم إلا من دخل الجنة بغير حساب وصراط يكون للمؤمنين بعد جوازهم الصراط يحبسون عنده ويقتص لبعض من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ثم يدخلون الجنة )[2] .

---

(١) سورة الحديد ١٣ — ١٤ .

(٢) القرطبى التذكرة ص ٣٣٩ .

من أوصاف الصراط :

وقد روى البيهقي في سنده عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ الصراط كحد الشعرة وكحد السيف وإن الملائكة تحجز المؤمنين والمؤمنات وإن جبريل يحجزني وإني لأقول : يارب سلم سلم إلى فالزالون والزالات يومئذ كثير ] .

وورد أن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترا منه على عباده فأما عند الصراط فإن الله يعطى كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات فقالوا للذين آمنوا . انظرونا نقتبس من نوركم .. )[1] .

وقال المؤمنون لما رأوا هذا البلاء :(ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير )[2] .

فعل المال على الصراط :

وقد قيل إنه يجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله : ( امض فقد أديت حق الله فى ثم يجاء بصاحب الدنيا الذى لم يطع الله فيها ماله بين كتفيه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله : ألا أديت حق الله فى ؟ فلا يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور ][3] .

---

(١) الحديد ١٣
(٢) التحريم ٨ — النهاية البداية والنهاية جـ ٢ ص ٨٧
(٣) النهاية ، البداية والنهاية جـ ٢ ص ٩٨

## مكان الصراط :

الصراط مكانه فوق جهنم يصل ما بين ظهرانيها فمن ثم يكون واقعاً بين الموقف والجنة لأنه على جهنم وجهنم بين الموقف والجنة فهو طريق أهل الجنة إليها، يقول ابن حزم : [وهو طريق أهل الجنة إليها من المحشر فى الأرض إلى السماء وهو معنى قول الله تعالى: «وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا »][1] .

## وقت المرور عليه :

يكون بعد وزن الأعمال والفراغ منها وبيان السعيد من الشقى فى الجملة يضطر الناس إلى المرور على الصراط[2] . ثم هو قبل دخول أهل النار النار ودخول أهل الجنة الجنة .

فباجتيازه يسقط فى النار من حقت عليه كلمة العذاب وينجو من رحم الله فيجوزه إلى الجنة .

---

(١) الفصل جـ ٤ ص ٦٦ ابن حزم .
(٢) عقيدة المؤمن ، أبو بكر الجزائرى ص ٢٩٢ .

# الفصل الثامن

## ٨ — الحوض

ذكر الأشعرى فى المقالات : أن أهل السنة قالوا إن للنبى — ﷺ — حوضا يسق منه المؤمنين ولا يسق منه الكافرين ويذكر الأشعرى أيضا أن المعتزلة أنكروا الحوض[١] .

والحوض فى اللغة واحد الأحواض والحياض وحضت أحواض أى اتخذت حوضا واستحوض الماء اجتمع .

واختلف فى حوضه — ﷺ — هل هو قبل الصراط أم بعده قال القرطبى[٢] فى هذا .

إن ظروف البعث واجواءه التى يكون عليها الناس بعد الخروج من القبور يقتضى أن يكون الحوض قبلهما فإن الناس يخرجون من قبورهم وهم ينفضون عن رؤوسهم وأجسادهم ترابها وقد أخذ العطش منهم كل مأخذ يفتقرون إلى قطرة ماء فتظهر حاجتهم الشديدة إلى وجود الحوض وإلى أن يردوه ليستقوا منه . فالحوض يكون فى الموقف قبل الصراط على رأى القرطبى وقال آخرون أنه بعد الصراط .

وطريقة البخارى فى إيراده لأحاديث الحوض بعد أحاديث

---

(١) الأشعرى مقالات الإسلاميين حـ٢ صـ١٤٧ وانظر الإبانة عن أصول الديانة صـ٧٠ للأشعرى .

(٢) التذكرة للقرطبى صـ٣٠٢

الشفاعة بعد نصب الصراط يشعر بذلك وفى حديث أنس رضى الله عنه فيما أخرجه الترمذى مايدل عليه، يقول أنس : سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لى فقال أنا فاعل فقلت أين أطلبك قال اطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط قلت فإن لم ألقك قال أنا عند الميزان قلت فإن لم ألقك قال أنا عند الحوض، ويؤيد ظاهر قوله ﷺ فى حديث الحوض — من شرب منه لم يظمأ أبدا[1] .

ويذكر القرطبى صاحب التذكرة أن الصحيح أن له ﷺ حوضين : أحدهما فى الموقف قبل الصراط والآخر داخل الجنة وكلاهما يسمى كوثرا متعقب بأن الكوثر نهر داخل الجنة وماؤه يصب فى الحوض ويطلق على الحوض كوثر لكونه يمد منه[2] .

وعن عبد الله بن زيد يقول ﷺ : اصبروا حتى تلقونى على الحوض، وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : أنا فرطكم على الحوض أى سابقكم إليه لأصلحه وأهيئه لكم فهنيئا لوارديه ].

## ثبوت الحوض :

والحوض ثبت بنص الكتاب على رأى وبالسنة المطهرة وقد نقل الإمام مسلم بروايته عن أنس قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما فقلنا ما أضحكك يارسول الله ؟ قال نزلت على آنفا سورة فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم : إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الابتر ] ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال فإنه نهر وعدنية

---

(١) القسطلانى إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى حـ ٩ ص ٣٧١

(٢) نفس المرجع ص ٣٧١

ربى عز وجل عليه خير كثير وهو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم [ أى ينتزع ] فأقول إنه من أمتى فيقال إنك لا تدرى ما أحدث بعدك ].

وفى هذا الحديث ما يجيز اعتبار الكوثر الوارد ذكره فى القرآن هو الحوض الذى نتكلم عنه كما يجوز أن يكون هو أيضا نهر الكوثر الذى يكون فى الجنة كما هو وارد فى نص الترمذى عن ابن عمر حيث قال قال رسول الله ﷺ : الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج(١) .

وعلى هذا الاعتبار يكون الحوض ثابتا بنص القرآن .

وهو أيضا ثابت بالسنة لما أخرجه الشيخان وغيرهما من أن رسول الله ﷺ قال: حوضى مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه لا يظمأ أبدا ] وفى رواية [وزواياه سواء وماؤه أبيض من الورق وفى رواية أحمد : [ وأنه لم يسود وجهه أبدا ](٢) .

وقد سئل الرسول ﷺ عن الكوثر فقال : ذاك نهر أعطانيه الله أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزر ، وفى البخارى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : بينا أنا أسير فى الجنة إذ أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت ما هذا يا جبريل ؟

---

(١) القرطبي جـ٢ صـ٢١٧ التذكرة

(٢) لوامع الأنوار جـ٢ صـ٢٠٢

قال هـذا الـكوثر الذى اعطاك ربك قال فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أزفر ) .

وقد سئل القاضى عياض عن الحوض هل هو قبل الصراط أم بعده فرجح أنه بعده وأن الناس يشربون منه بعد أن يكون الحساب قد أخذ منهم كل مأخذ ونجو من مخاوفه وروعاته وإلى هـــذا ذهب ابن حجر والسيوطى وكثيرون غيرهما[1] .

غير أن بعض العلماء يذهبون إلى أنه يمكن أن يقع الشرب من الحوض قبل الصراط لقوم ويتأخر بعده لآخرين بحسب ما يكونون عليه من الذنوب والأوزار حتى يهذبوا وهذا الرأى يفرض إمكانية وجود الحوض قبل الصراط وبعده بمعنى إنه يكون منصوبا فى الموقف والناس يردونه بعد البعث، ثم يردونه بعد الخروج من الصراط ، والله أعلم .

الاعتقاد به :

ولقد نقل السفارينى أنه ينبغى الاعتقاد بثبوت وجوده يوم القيامة وأن البعض من العلماء يؤكدون أن منكره زائغ عن الحق منحرف عن الصواب مستحق للعذاب[2] .

الممنوعون منه :

على أن هذا الحوض رغم حاجة الناس إليه فى المحشر أو بعد الصراط ليس مستباحاً للجميع إذ قد ورد أن المفترين على الله والظلمة والمتعمسين

---

(١) الإسلام ورؤيته فيما بعد الحياة ص ٣٢٨ الشيخ حسن خالد .
(٢) لوامع الأنوار السفارينى ج ٢ ص ٢٠٢

في ارتكاب المعاصي ممنوعون من وروده فهم يترادون عنه ويحرمون من الشرب منه.

وقد أخرج مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ «ليردن على الحوض أقوام فيختلجون»، «أي يؤخذون بسرعة» دوني فأقول رب أصحابي !! فيقال إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك).

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن طريق أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنا فرطكم «أي أسبقكم» على الحوض من ورد شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم[1].

الحوض عام لكل الأنبياء:

ولكنه قد ورد أيضاً أن الحوض في الحشر ليس خاصاً بنبينا محمد ﷺ بل أنه يكون لكل نبي حوض ترد عليه أمته وتستسق منه.

وقد أخرج الترمذي من حديث سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ، إن لكل نبي حوضاً ترده أمته وأنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وأني أرجو أن أكون أكثرهم واردة.

هذا وإن بعض العلماء قد فسروا الكوثر الوارد في السورة المعروفة بأنه الخير الكثير من القرآن والنبوة والدين والهدى.

فقد روى ابن جرير عن أبي مبشر قال: سألت سعيد بن جبير عن

(١) السفاريني لوامع الأنوار ص ٢١٨.

الكوثر فقال : هو الخير الكثير الذى آتاه الله إياه فقلت لسعيد إنا كنا نسمع أنه نهر فى الجنة فقال هو من الخير الذى اعطاه الله إياه[1] .

٩ — ١٠ — الجنة والنار

وإن شاء الله سوف نفرد لها بحثاً مستقلا إن كان فى العمر بقيـــة اللهم قربنا إلى الجنة وابعدنا عن النار ومن كل عمل يقربنا إليها اللهم آمين .

د . شوقى إبراهيم على

(١) القاسمى ج ١٧ ص ٢٧٣ التفسير

## أهم المراجع بالاضافة إلى ماورد فى الهامش

١ — القرآن الكريم

٢ — أصول الدين — للبغدادى ط دار الكتب العلمية لبنان .

٣ — الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد — محمد بن الحسن الطوسى ت ٤٦٠ هـ .

٤ — الاقتصاد فى الاعتقاد — أبو حامد الغزالى .

٥ — الارشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد — الجوينى ط السعادة مصر .

٦ — الإبانة عن أصول الديانة — للأشعرى ط ١٣٤٨ هـ .

٧ — كتاب الإيمان — ابن تيمية .

٨ — الإسلام يتحدى — وحيد الدين خان .

٩ — الإسلام وحاجة الإنسانية إليه — محمد يوسف موسى ط ١٩٦١ م .

١٠ — الله والإنسان — عبد الكريم الخطيب دار الفكر العربى .

١١ — تفسير الفخر الرازى .

١٢ — تهافت الفلاسفة — الغزالى .

١٣ — تفسير الكشاف — للزمخشرى .

١٤ — كتاب التوحيد — أبو منصور الماتريدى تحقيق فتح الله خليف .

١٥ — السنوسية الكبرى — تحقيق د / عبد الفتاح بركة .

١٦ — سنن النسائى ط أولى سنة ١٣٨٣ هـ .

١٧ — سنن ابن ماجة — ط عيسى البابى الحلبى .

١٨ — شرح المقاصد — سعد الدين التفتازانى .

١٩ — شرح الأصول الخمسة — للقاضى عبد الجبار .

٢٠ — شرح جوهرة التوحيد — للشيخ عبد السلام بن إبراهيم اللقانى ط السعادة مصر .

٢١ — شرح المسايرة — للكمال بن محمد السهمام .

٢٢ — صحيح مسلم .

٢٣ — صحيح البخارى .

٢٤ — العقيدة الإسلامية فى مواجهة المذاهب الهدامة — د / محمد أبو الغيط الفرت دار العلم .

٢٥ — العقيدة الطحاوية — العقائد النسفية .

٢٦ — غاية المرام فى علم الكلام للآمدى — تحقيق د / حسن الشافعى .

٢٧ — فى العقيدة الإسلامية — د / على معبد ، د / صفوف مبارك .

٢٨ — الفرق بين الفرق — عبد القاهر البغدادى .

٢٩ — الفصل فى الملل والأهواء والنحل — ابن حزم .

٣٠ — الملل والنحل — للشهرستانى ج ٢ مقالات الإسلاميين للأشعرى .

٣١ — لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار للسفارينى ط الرباط سنة ١٩٨٥ م .

٣٢ — النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام — د/ محى الدين الصافى .

٣٣ — مجموع الفتاوى — لابن تيمية .

٤٣ — مسند الإمام أحمد .

٣٥ — الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها عبد الله سراح ط التراث حلب سنة ١٩٧٧ م .

# فهرس الكتاب

| الموضـــوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضــــوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |



والله ولى التوفيق فى يوم الإثنين الموافق أول أيام عيد الأضحى
١٤١٠ هـ/ الثانى من يوليو ١٩٩٠ م

د. شوقى إبراهيم على عبد الله

رقم الإيداع بدار الكتب
٥٩٩٠ / ١٩٩٠ م
I. S. B. N : 977 - 0541 - 5

## تصويب الخطاء

| الخطأ | الصواب | ص | س |
|---|---|---|---|
| شبه المتكبرين | شبه المنكرين | ١٩ | ١٣ |
| النيو | النبيو | ٢٠ | ٩ |
| قالوا ساحراً | قالوا ساحر | ٢٤ | ١٠ |
| داود وسليمان | وداود وسليمان | ٢٤ | ١٨ |
| وكنا بحكمهما شاهدين | وكنا لحكمهما شاهدين | ٢٤ | ١٨ |
| على اعتاد الفلاسفة | على اعتقاد الفلاسفة | ٣٤ | ٥ |
| ليس الطواف | أليس الطواف | ٤٠ | ٥ |
| نقص | نقض | ٤٠ | ١٢ |
| الا ما قاله | إلى ما قاله | ٤٠ | ١٦ |
| عزيزا | عزيرا | ٤١ | ١٧ |
| فائد | قائد | ٤٤ | ٨ |
| طالوت قالوا | طالوت ملكا | ٤٤ | ١١ |
| والتصرفين | والمتصرفين | ٤٥ | ٤ |
| فصدقت | وصدقت | ٥٧ | ٤ |
| يستكنقون | يستنكفون | ٥٩ | ٨ |
| مامحمد الارسول | وما محمد إلا رسول | ٦٥ | ١٥ |
| فكتب أهل | فأهل العقائد | ٧٠ | ٦ |
| كم وفاء عده | كم وفاء عدد | ٧٠ | ٣ |
| بنهم | بينهم | ٧٣ | ٣ |
| انما عرضنا | إنا عرضنا | ٧٧ | ١٤ |
| الاتتقون | آلا تتقون | ٧٩ | ٣ |
| ليرداد يقينا | ليزداد يقينا | ٩٣ | ١٧ |

| الخطأ | الصواب | ص | س |
|---|---|---|---|
| فسألوهم | فاسألوهم | ٩٥ | ٨ |
| لجنبناك | فنجيناك | ٩٧ | ٨ |
| الممعربين | المقربين | ٩٩ | ٢٠ |
| بصرب | بضرب | ١٠١ | ٨ |
| لولا كتاب سبق | لولا كتاب من الله سبق | ١٠٢ | ٣ |
| وخزفيال | وحزقيال | ١١٤ | ٦ |
| وعلى خزفيال | وعلى يدحزقيال | ١١٤ | ١٥ |
| لخذوا أربعة | لخذ أربعة | ١١٤ | ١٧ |
| السكادب | السكاذب | ١١٦ | ١٤ |
| نقص العادات | نقض العادات | ١١٨ | ١٥ |
| ظهار الخارق | اظهار الخارق | ١٢٠ | ٧ |
| فانقرع | فاتقرع | ١٢٧ | ١٥ |
| الظابط | الضابط | ١٣٠ | ٤ |
| عقيدة | عقدة | ١٣٢ | ١٩ |
| يحلق الله | يخلق الله | ١٣٤ | ١٠ |
| العامية لها | العافية لها | ١٣٨ | ١٢ |
| قال جرقوه | قالوا حرقوه | ١٤٧ | ١ |
| فانفخ فيها فتسكون | فانفخ فيه فيسكون | ١٤٧ | ١٥ |
| وتدخرون | وماتدخرون | ١٤٧ | ١٦ |
| ولو أنزلنا هذا | لوأنزلنا هذا | ١٦١ | ٣ |
| فذلك البذاء | فذلك البداء | ١٦٨ | ١١ |
| فى علمه الأولى | فى علمه الأزلى | ١٦٨ | ٢٣ |
| شحومها | شحومهما | ١٦٩ | ٨ |
| العرس | العرش | ١٧٤ | ٧ |

| الخطأ | الصواب | ص | س |
|---|---|---|---|
| ما اكثره | ما اكفره | ١٧٧ | ١٩ |
| اثره | أنشره | ١٧٧ | ٢٠ |
| محكمة الهيئة | محكمة إلهيه | ١٨٢ | ٤ |
| انفاق | اتفاق | ١٨٨ | ١١ |
| الى الضيقى | إلى الضيق | ١٩١ | ١٢ |
| لأن الشاهدة | لأن المشاهدة | ١٩٤ | ٩ |
| فى تدفقه | فى تدفقه | | ١٥ |
| ثم أرثنا | ثم أورثنا الكتاب | ٢١١ | ٢ |
| آدم ظهورهم | آدم من ظهورهم | ٢١٢ | ٣ |
| ن الله لما خلق ألنار | ان الله لما خلق النار | ٢١٣ | ١٨ |
| واذا | واذ | ٢١٦ | ٣ |
| ظهورهم | من ظهورهم | ٢١٦ | ٤ |
| آتى | أتى | ٢٢٤ | ٥ |
| لم يك | لم يكن | ٢٢٤ | ٥ |
| وأحينا | وأحييتنا | ٢٢٦ | ٦ |
| هذه الزاعم | هذه المزاعم | ٢٣٠ | ٧ |
| فلاتزر | فلا تزروا | ٢٥٢ | ١٣ |
| أيضا يبتون | أيضا يلتون | ٢٥٧ | ٣ |
| الكافرون | الكافرين | ٢٦٣ | ١٤ |
| ساجدا يحذر | ساجدا وقائما | ٢٦٤ | ٤ |
| فى قه | فى قبره | ٢٧٠ | ١٥ |
| رضحت | وضخت | ٢٧٢ | ٧ |
| اعرفوا | اغرقوا | ٢٨٣ | ١٢ |
| صار رغادا | صار رمادا | ٢٨٩ | ١ |

| الخطأ | الصواب | ص | س |
|---|---|---|---|
| أنبين | أنين | ٢٨٩ | ٨ |
| | الفصل الرابع : الساعة وعلاماتها | ٢٩١ | |
| ولا أمنا | ولاأمتا | ٢٩٧ | ٥ |
| الى أحمر | الى الحمرة | ٣٢٨ | ١٢ |
| ننشرها | ننشزها | ٢٦٥ | ٨ |
| من فوق الاحتمال | من فرق الااحتمال | ٣٧٣ | ١١ |
| دين | درن | ٣٧٨ | ٦ |
| المذاهب | لمذهب | ٣٨٥ | ١٥ |
| أقد | قد | ٣٨٨ | ٨ |
| لن يبعث من بعده | لن يبعث الله من بعده | ٣٩٠ | ٧ |
| وما نتقض | وما تنقض | ٣٩٥ | ١٨ |
| عزيز | عزير | ٣٩٥ | ٢٠ |
| اذا | اذ | ٣٩٦ | ٢ |
| وعد | وعدم | ٣٩٩ | ١ |
| عر | عن | ٤٠١ | ١٦ |
| لأفعلها | لافعالها | ٤٠١ | ١٧ |
| الحسر | الحشر | ٤٠٣ | ١٤ |
| عندهم | عندهم | ٤٤٢ | ٦ |
| الأولوف | الألون | ٤٧١ | ٧ |
| جثيا | جثياً | ٤٧١ | ٩ |
| فى نا | فى نار | ٤٧٢ | ١٠ |
| الحبائى | الجبائى | ٤٧٥ | ٧ |
| والمنعمسين | والمنغسين | ٤٨٤ | ١٨ |
| كشفاعنه | كشفاعته | ٤١٩ | ١٢ |
| مع هنا | مع هذا | ٤٢٩ | ١٠ |